

صنعة الإنشاء

في

صناعة الإنشاء



تأليف

أبي العباس أحمد بن علي الفلّيشندي

١٨٤١ هـ - ١٤١٨ م

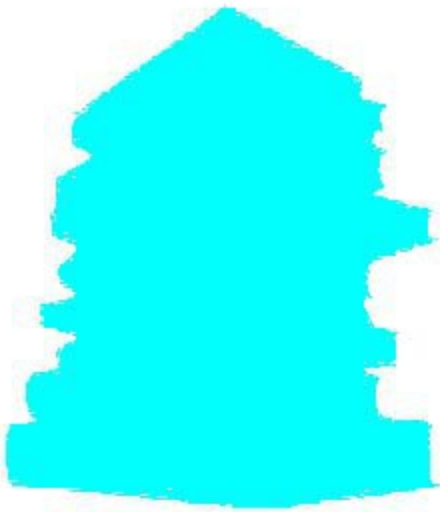
الجزء الثاني

نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية
ومذيلة

بتصويبات واستدراكات وفهارس تفصيلية
مع دراسة واقية

Collection of Prof. Muhammad Iqbal Mujaddidi
Preserved in Punjab University Library.

پروفیسر محمد اقبال مجددی کا مجموعہ
پنجاب یونیورسٹی لائبریری میں محفوظ شدہ



132311

مطبع اربع كوستا سوما س و شركاه
5 شارع وقف البحر بطريق الظاهر ج.ع.م
تليفون 900118 من 63411

فهرس

الجزء الثاني من كتاب صبح الأعشى

صفحة	
١	النوع الثامن عشر - المعرفة بالأحكام السلطانية
	الطرف الثاني - في معرفة ما يحتاج الكاتب الى وصفه في أصناف
٤	الكتابة الخ، ويشتمل على أنواع
	النوع الأول - مما يحتاج الى وصفه النوع الإنساني، وهو على
٤	ضربين
	النوع الثاني - مما يحتاج الى وصفه، هي دواب الركوب،
١٣	وهي أربعة أصناف
	النوع الثالث - ما يحتاج الى وصفه من جليل الوحش الخ،
٣٣	وهو أصناف
	النوع الرابع - فيما يحتاج الى وصفه من الطيور، وهو على أربعة
٥٢	أصناف
	النوع الخامس - ما يحتاج الى وصفه من نفائس الأحجار، وفيه اثنا عشر
٩٧	صنفاً
١١٨	النوع السادس - نفيس الطيب، وفيه أربعة أصناف
١٣١	النوع السابع - ما يحتاج الى وصفه من الآلات، وهي أصناف
	النوع الثامن - ما يحتاج الى وصفه، الأفلاك والكواكب، وغيرها
١٥٤	مقصودات
	النوع التاسع - مما يحتاج الكاتب الى وصفه الطيريات مما بين السماء
١٧٥	والأرض، وهي على أصناف

صحة	النوع العاشر - مما يحتاج الكاتب الى وصفه، الأجسام الأرضية،
١٨٦	وهي على أصناف
	الطرف الثالث - في صنعة الكلام ومعرفة كيفية إنشائه ونظمه وتأليفه،
١٩٢	وفيه مقصدان
٣٣٩	الفصل الثالث - في معرفة الأزمنة والأوقات الخ، وفيه أربعة أطراف
٣٣٩	الطرف الأول - في الأيام، وفيه ست جمل
٣٦٨	الطرف الثاني - في الشهور، وهي على قسمين طبيعي واصطلاحى
٣٩٦	الطرف الثالث - في السنين، وفيه ثلاث جمل
٤١٦	الطرف الرابع - في أعياد الأمم ومواسمها، وفيه خمس جمل
	لباب الثاني - فيما يحتاج إليه الكاتب من الأمور العملية، وهو الخط
٤٤٠	وتوابعه ولواحقه، وفيه فصلاان
	الفصل الأول - في ذكر آلات الخط ومبادئه وصوره وأشكاله الخ،
٤٤٠	وفيه ثلاثة أطراف
٤٤٠	الطرف الأول - في الدواة وآلاتها، وفيه مقصدان
	الطرف الثاني - في الآلات التي تشتمل عليها الدواة، وهي سبع عشرة
٤٤٤	آلة الخ
	الطرف الثالث - فيما يكتب فيه، وهو أحد أركان الكتابة الأربعة الخ،
٤٨٣	وفيه ثلاث جمل

تم فهرس الجزء الثاني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

النوع الثامن عشر

المعرفة بالأحكام السلطانية

ليعرف كيف يخلص قلمه على حكم الشريعة المطهرة، وما يشترط في كل ولاية من الشروط، فينبه عليها ويقف عندها؛ وما يلزم رب كل وظيفة من أرباب الوظائف وما يندب له، فيورده في وصاياه . وقد أورد أفاضل القضاة أبو الحسن ^(١) على بن حبيب الماوردي رحمه الله في الأحكام السلطانية ما فيه مَنَع من ذلك، ونحن نورد في هذا الكتاب نُبذة من كل باب، مما به يستغني الناظر فيه عن مراجعته غيره . والذي تكلم عليه الماوردي من الوظائف الأصول: الإمامة، والوزارة، وتقليد الإمارة على البلاد، وتقليد الإمارة على الجهاد، والولاية على ضروب المصالح، وولاية القضاء، وولاية المظالم، وولاية النِّقابة على ذوى الأنساب، والولاية على إقامة الصلوات، والولاية على الحج، والولاية على الصدقات، وقسم النهى والسياسة، ووضع الجزية والخراج، ومعرفة ما تختلف أحكامه من البلاد، وإسباغ المني، واستخراج المياه، والجمي، والأوقاف، وأحكام الإقطاع، وأحكام الدين والسياسة، والجرائم، وأحكام الحسبة .

(١) أى الكاتب .

(٢) هو على بن محمد بن حبيب أنظر كشف الظنون .

وأنا أقصر من ذلك هنا على ما تفضى إليه حاجة الكاتب من الأحكام ،
دُونَ ما عداه من الفروع الزائدة على ذلك ؛ فإذا عرف حكم كل ولاية من هذه
الولايات ، وما يوجب توليتها ، وما يعتبر في متوليها من الشروط ، وما يلزمه
من الأمور إذا تولاهها ، وما ينافي أمورها ، ويجانب أحوالها ؛ عرف ما يأتي من ذلك
وما يذّر ، فيكون ما ينشبه من البيعات ، والعهود ، والتقاليد ، والتفاويض ، والتواقيع ؛
وما يجري مجرى ذلك جارياً منه على السداد ، ماشياً على القواعد الشرعية التي من حاد
عنها ضلّ ، ومن سلك خلاف طريقها زلّ . وكذلك المناشير المتعلقة بالإقطاعات ،
وعقد الجزية والمهادنات والمفاسخات ، وما يجري مجرى ذلك من الأمور السلطانية .
فإذا عرف حكم كل قضية ، وما يجب على الكاتب فيها ، وفأها حقها ، وأتى بذكر
ما يتعلق بها من الشروط ، وجرى في وصايا الولايات بما يناسب كل ولاية منها ؛
بجرى الأمر في ذلك على السداد ، ومشت كتابته فيها على أتم المراد ؛ إن كتب
بيعة أو عهداً لخليفة ، تعرّض فيه إلى وجوب القيام بأمر الخلافة ، ونصب إمام
للناس يقوم بأمرهم ، وتعرّض إلى اجتماع شروط الخلافة في الموثى ؛ وأنه أحق
بها من غيره . ثم إن كانت بيعة نشأت عن موت خليفة تعرّض لذكر الخليفة
الميت ، وما كان عليه أمره من القيام بأعباء الخلافة ، وأنه درج بالوفاء ، وأن الموثى
أستحقها من بعده دون غيره . وإن كانت ناشئة عن خلع خليفة تعرّض للسبب
الموجب لخلعه ؛ من الخروج عن سنن الطريق ، والعدول عن منهج الحق ونحو ذلك مما
يجب الخلع لتصحيح ولاية الثاني . وإن كان عهداً تعرّض فيه إلى عهد الخليفة السابق
إليه بالخلافة ، وأنه أصاب في ذلك الغرض ، وجرى فيه على سواء الصراط ، ونحو
ذلك مما يجري هذا المجرى من سائر الولايات على ما سيأتى ذكره في مواضعه إن
شاء الله تعالى .

وهذه فقرة من بيعة أنشأتها توضح ما أشرت إليه من ذلك

فمن ذلك ما قلته فيها مشيرا إلى وجوب القيام بالإمامة :

أما بعد، فإن عقد الإمامة لمن يقوم بها من الأمة واجب بالإجماع، مستند لأقوى دليل تنقطع دون نقضه الأطماع؛ وتنبؤ عن سماع ما يخالفه الأسماع .

ومن ذلك ما قلته فيها مشيرا إلى اجتماع شروط الخلافة في المولى وهو : وكان فلان أمير المؤمنين، هو الذي جمع شروطها فوفّاها، وأحاط منها بصفات الكمال وأستوفّاها، ورأمت به أدنى مراتبها فبلغت أغياها، وتصور معاليها فرفق إلى أعلامها، وآتحد بها فكان صورتها ومعناها .

ومن ذلك ما قلته فيها مشيرا إلى عقد البيعة: بجمع أهل الحل والعقد، المعتبرين للأعتبار والدارفين بالنقد، من القضاة والعلماء، وأهل الخير والصدّعاء، وأرباب الرأي والنصحاء؛ وأسئشارهم في ذلك فسوّبوه، ولم يروا الطدول عنه إلى غيره بوجه من الوجوه .

ومن ذلك ما قلته فيها مشيرا إلى القبول: وقابل عقدها بالتبول بحضور من القضاة والشهود فلزمت، ومضى حكمها على الصحة فانبرمت، إلى غير ذلك مما يتفرط ومنها من سائر الولايات وغيرها .

قلت: وكما يجب عليه معرفة الأحكام الساطانية، يتعين عليه معرفة ما عندنا ذلك من الأمور الصناعية التي يتفهم أصحابها في سلك الولايات كالمهندسة ونحوها، ويأتي التنبيه فيما يجب على كل واحد من أرباب الولايات عند ذكر ولاية كل منهم في موضعها إن شاء الله تعالى .

الطرف الثاني

في معرفة ما يحتاج الكاتب إلى وصفه في أصناف الكتابة مما تدعوه ضرورة الكتابة إليه على اختلاف أنواعها ، ويشتمل على أنواع

النوع الأول

مما يحتاج إلى وصفه النوع الإنساني ، وهو على ضربين

الضرب الأول

أوصافه الجسمية ، وهي على ثلاثة أقسام

القسم الأول

ما يشترك فيه الرجال والنساء ، وهي عدة أمور

منها : حُسن اللون ؛ والألوانُ في البشر ترجع إلى ثلاثة أصول ؛ وهي البياض ، والسُّمرة ، والسُّواد ؛ ويعبر عن السواد بِشدة الأدمة ، وربما عبر عن البياض بِرِقَّة السُّمرة ؛ ويستحسن من هذه الألوان البياض ؛ وأحسن البياض ما كان مُشرباً بِجمرة ؛ وقد جاء في حديثِ ضمام بن ثعلبة أنه حين سأل عن النبي صلى الله عليه وسلم عند وفوده عليه بقوله : ” أَيُّكُمْ أَبْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ؟ قِيلَ : هُوَ ذَاكَ الْأَمْعَرُ الْمُتَكِيُّ “ : وَالْأَمْعَرُ هُوَ الْمُشْرَبُ بِجَمْرَةٍ ، أَخْذًا مِنَ الْمَغْرَةِ ؛ وَهِيَ الصَّبْغُ الْمَعْرُوفُ .

وقد جاء في وصفه صلى الله عليه وسلم أنه : ” أَزْهَرُ اللَّوْنِ “ ؛ وَالْأَزْهَرُ هُوَ الْأَبْيَضُ بِصُفْرَةٍ خَفِيئَةٍ . وَالسُّمْرَةُ مُسْتَحْسَنَةٌ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ ، وَهُوَ الْغَالِبُ فِي لَوْنِ الْعَرَبِ ، وَقَدْ قِيلَ فِي قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ” بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ “ : إِنْ الْمُرَادُ بِالْأَحْمَرِ : الْعَجَمُ لِغَلْبَةِ الْبَيَاضِ فِيهِمْ ؛ وَالْمُرَادُ بِالْأَسْوَدِ : الْعَرَبُ لِغَلْبَةِ السُّمْرَةِ فِيهِمْ ؛ أَمَّا السُّوَادُ فَإِنَّهُ غَيْرُ مَمْدُوحٍ بَلْ قَدْ ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى السُّوَادَ ، وَمَدَحَ

البياض بقوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ الآية ؛ على أن كثيرا من الناس قد جنحوا إلى استحسان السودان والميل إليهم ، وتأنقوا في الاحتفال بأمرهم ؛ وقد نص أصحابنا الشافعية على أنه لو قال لزوجته : إن لم تكوني أحسن من القمر فانت طالق ، لم تطلق وإن كانت زنجية سوداء ؛ فقد قال تعالى: ﴿وَصَوِّرْكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ . وبالجملة فالحسن في كل لون مستحسن ؛ والله القائل :

إِنَّ الْمَلِيحَ مَلِيحٌ * يَجِبُ فِي كُلِّ لَوْنٍ

ومنها: حُسن القَدِّ ؛ وأحسن القدود الرُّبْعَةُ ؛ وهو المعتدل القامة ، الذي لا طَوَّلَ فيه ولا قَصْرًا ، وليس كما يقع في بعض الأذهان من أن المراد منه دُونَ الاعتدال . وقد جاء في وصف النبي صلى الله عليه وسلم ، «أَنَّهُ كَانَ رُبْعَةً» . ويستحسن في القَدِّ القَوَامُ والرِّشَاقَةُ ، ويشبهه بالريح وبالغُصْنِ ، وأكثر ما يشبهه به في ذلك أغصان البان لقوامها .

ومنها : سواد الشعر ؛ وأكثر ما يكون ذلك في السَّمْرِ ، فإن اجتمع مع البياض سواد الشعر كان ذلك في غاية من الحسن ، ويشبهه سواد الشعر بالليل ؛ وربما وقعت المبالغة فيه فشبهه بفحمة الليل ، وبدجى الليل ، وبفحمة الدجى ؛ وقد يشبهه بالآينوس ونحوه مما يغلب فيه حلك السواد .

وقد اختلف الناس في جُعودة الشعر وسُبوطته أيهما أحسن ؟ فذهب قوم إلى استحسان الجُعودة ؛ وهي انقباض الشعر بعض انقباض ؛ وهو مما يستحسنه العرب ، وإليه ذهب النقهاء حتى لو شرط البائع في عبد كونه جعد الشعر وظهر يبيط الشعر رد بذلك بخلاف العكس ؛ وذهب آخرون إلى استحسان السُّبُوطَةِ ، وهي استرسال الشعر وأنبساطه من غير انكماش ؛ وأكثر ما يوجد ذلك في الترك ومن

في معانهم . ثم الذاهبون إلى أستحسان الجعودة يستحسنون التواء شعر الصدغ ؛
ويشبهونه بالواوتارة وبالعترب أخرى

ومنها : وضوح الجبين ، وسعة الجبهة ، وانحسار الشعر عنها ؛ فيستقبح النعم ؛
وهو عموم الجبهة أو بعضها بشعر الرأس .

ومنها : وسامة الوجه وحسن الحياء . ويشبه الوجه في الحسن بالشمس ، والقمر ،
وبالسيف ؛ إلا أن التشبيه بالشمس والقمر أتم من التشبيه بالسيف لما فيه من صورة
الاستطالة ؛ وقد جاء في بعض الآثار أنه قيل لبعض الصحابة رضى الله عنهم : هل
كان وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم كالسيف ؟ فقال بل كالشمس والقمر .
ويستحسن في الوجه حمرة الوجنتين ؛ ويشبه لونهما بالورد ، والشقيق ،
وبالعقيق ، وبالعدم ؛ وما يجرى مجرى ذلك مما تغلب فيه الحمرة المشرفة .

ومنها : بلج الحاجبين وزجهما ، فالبلج : انقطاع شعر الحاجبين ؛ بالأ يكون بينهما
شعر يصل ما بينهما ، وهو خلاف القرن ؛ وربما استحسن الخفى من القرن ، وهو
الذى دق فيه شعر ما بين الحاجبين حتى لا يظهر فيه إلا خضرة خفية . والزجج : دقة
الحاجب مع طولها بحيث ينتهي إلى مؤخر العين ؛ وقد جاء في وصف النبي صلى الله
عليه وسلم : أنه كان أزج الحاجبين .

ويستحسن في الحاجبين سواد شعرهما ، وأن يكونا مقوسين ؛ ويشبه تقويمهما
بالنون تارة ، وبالقوس أخرى .

ومنها : حسن العينين ؛ ويستحسن في العين الحور ؛ وهو خلوص بياض العين ؛
والنجل ؛ وهو سعتها ، ويقال فيه حينئذ : أنجل وربما قيل : أعين ، ومنه قيل للحور : عين .
والدجاج ؛ وهو شدة سواد الحدقة . والكحل ؛ وهو أن تسود مواضع الكحل من
العين خلقة .

وتشبه العين بالصاد تارة ، وبالجم أنحرى ، وتشبه بالترجس وربما نسبت بتر
الباقي ، واعترض بأن فيه حولا . وربما شبت العين بالسيف ، وبالشم ،
وبالسنان ، وقد يستحسن في العينين الفتور وضعف الأجان .

ومنها : حُسن الأنف ، ويستحسن فيه القناب ، وهو ارتفاع وسط الأنف قليلا
عن طرفيه مع دقة فيه ، وهو الغالب في العرب ، وقد جاء في وصفه صلى الله عليه
وسلم : أنه كان أفنى الأنف ، ويستحسن فيه الشم أيضا ، وهو استواء قهية
الأنف وعلو أرنبته . ويشبه الأنف بالسيف في بريقه .

ومنها : حسن الفم ، ويستحسن فيه الضيق ، ويشبه بالميم ، وبالصاد ، وبالهم
ومنها : حُسن الشفتين ، ويستحسن فيهما الحمرة ، وتشبه حمرةهما بما تشبه بالوجه
من الورد والعقيق والمرجان ونحوها ، ويستحسن فيهما اللب ، وهو سمرة تعلو حمرةهما .

ومنها : حسن الأسنان ، ويستحسن فيها الشذب ، وهو بياض وبريق يارحما .
وتشبه الأسنان في البياض وحسن النظم باللؤلؤ ، وبالبرد ، وبالطلع ، وهو نبت أبيض ،
وبالآفاح ، وبالحب ، وهو الذي يعلو الكأس عند شجته ^(١) بالماء ، وقد تشبه بالبطور
ويستحسن فيها الأشرب ، وهو تحديد الأسنان كما يقع في كثير من الصبيان ، ويستحسن
في السنخ - وهو لحم الأسنان - حمرة لونه ، ويشبه بالعقيق والورد وسائر ما يشبه به الحة

ومنها : حسن الحيد ، وهو العنق ، ويستحسن فيه طوله وبياضه من الأبيض
ويشبه بإبريق فضة .

ومنها : دقة الخصر ، وهو معقد الإزار حتى إنهم يشبهونه بدور دملج ، ودور
خلخال وما أشبه ذلك .

(١) أي مزجه ، يقال : شج الخمر بالماء إذا مزجها به . أنظر اللسان .

قلت : وهذه الصفات وإن كانت مستحسنة في الرجال والنساء جميعاً فإنها في النساء أكدها ، فإن الأمر في الحسن منوط بهن ، فهما كانت المرأة أحسن كان أعظم لسانها ، وأعز لمكانها . وقد قيل لرجل من بني عُدرة : ما بال الرجل منكم يموت في شوى امرأة ! إنما ذلك لضعف فيكم يا بني عُدرة ، فقال : أما والله لو رأيتم النواظر الدخج ، فوقها الحواجب الأزج ، تحتها الملباسم الفلج ، لا تتخذتموها آلات والعزى ! وقد أكثر الشعراء من التغزل بهذه المحاسن بما ملأ الدفاتر مما لا حاجة بنا إلى ذكره هنا .

القسم الثاني

ما يختص به الرجال

وأخص ما يختص به الرجال من المحاسن : اللحية ، وقد قيل في قوله تعالى : (زَيْدٌ فِي التَّلَاقِ مَا يَتَّاءَمُ) : إن المراد اللحية ، على خلاف في ذلك ، ويستحسن في اللحية استدارتها وتوسطها في المقدار ، وسواد شعرها . فإذا حسنت اللحية من الرجل كملت محاسنه . وتزيد الأحداث على الرجال في الحسن بتقدمات ذلك ، فيستحسن منهم خضرة الشارب ، وخضرة العارض والذار ، ويشبه كل منهما بالأس ، وبالريحان ، وبدبيب النمل ونحو ذلك . ويشبه العذار بالألف ، وباللام ، وبالباء . ويشبه الشارب الأخضر فوق حمرة الشفتين بقوس قزح ، وبالأس مع الورد ونحو ذلك ، على أن أهل الفراسة قد استحسنا في الرجل أموراً تخالف ما تقدم .

منها : سعة الفم وغلظ الشفتين وما أشبه ذلك قائلين : إن ذلك مما يدل على

السخاء وهو أمر مطلوب في الرجل كما تقدم .

القسم الثالث

ما يختص به النساء

وما ينفرد به النساء من الأوصاف الجسمية: السمن، فهو أمر مطلوب في المرأة ما لم يُفِرط ويخرج عن الحد المطلوب، ففي الصحيحين من حديث أم زرع: "بنت أبي زرع وما بنت أبي زرع؟ بلء كسائها، وغيظ جاريتها" إشارة إلى امتلائها بالشحم. ووصف أعرابي امرأة فقال: "بيضاء رعبوبه، بالشحم تكروب، بالمسك مشبوبة".

وهذا بخلاف الرجال فإن المطلوب فيهم: الخفة وقلة اللحم لأجل قوة النهضة، وسرعة الحركة في الحرب وغيره، والسمن يمنع ذلك، مع ما يقال إن فيه تليدا للدهن؛ قال بعضهم: ما رأيت حبرا سمينا إلا محمد بن الحسن يعني صاحب أبي حنيفة رضي الله عنه. وربما استحسنت قلة اللحم في المرأة أيضا، وترى من سيند باخيف.

ومن ذلك غسل الرذف، فهو مما يتمتع به في النساء بخلاف الرجل فإن ذلك فيه غير محمود.

ومن غريب ما يحكى في ذلك أن رجلا أخذ خطرا من قوم على أن يَنْضِب معاوية بن أبي سفيان مع غلبة حاكمه، فعمد إلى معاوية وهو ساجد في الصلاة، فوضع يده على عجزته وقال: ما أشبه هذه العجيزة بعجيزة هند! — يعني أم معاوية فلما سلم من صلاته، التفت إلى ذلك الرجل وقال: يا هذا إن أبا سفيان كان محتاجا من هند إلى ذلك، وإن كان أحد جعل لك شيئا على ذلك نخذة.

وما يستحسن في المرأة طول الشعر في الرأس، ودقة العظم، وصغر القدام، ونعومة الجسد، وقلة شعر البدن، في أمور أخرى يطول ذكرها.

الضرب الثاني

الصفات الخارجة عن الجسد، وهي على ثلاثة أقسام أيضا

القسم الأول

ما يشترك فيه الرجال والنساء

وهو يرجع الى أصليين : العقل والعفة، ويدخل تحت كل من هذين الأصلين
 عدة من أوصاف المدح . فأما العقل فيدخل تحته العلم، وصفاته : المعرفة، والحياء،
 والبيان، والسياسة، والكفاية، والصدع بالحق، والحلم عن سفاهة الجهالة وغير ذلك
 مما يجري هذا المجرى . ولا يخفى أن هذه الأوصاف مطلوبة في الرجال والنساء
 جميعا وإن كان أكثرها بالرجال ألبق .

وأما العفة فيدخل تحتها : الفناعة، وقلة الشر، وطهارة الإزار، وغير ذلك مما
 لا يستغني عنه رجل ولا امرأة، وإذا ركب العقل مع العفة حدثت عنهما صفات
 أخرى مما يتمدح به : كالتراحة، والرغبة عن المسألة، والاقصار على أدنى معيشة، ونحو
 ذلك مما يخرط في هذا السلك .

القسم الثاني

ما يختص به الرجال دون النساء

وهو يرجع الى أصليين أيضا، وهما العدل والشجاعة، ويدخل تحت كل من
 الأصلين عدة أوصاف من أوصاف المدح، فيدخل تحت العدل الساحة، والتبرع
 بالتائل، وإجابه السائل، وقوى الضيف، وما شابه ذلك . ويدخل تحت الشجاعة
 عدة أوصاف كالحمية والدفاع، والأخذ بالنار، والنكاية في العدو، والمهابة، وفل
 الأفران، والسير في المهام الموحشة، وما أشبه ذلك، وإذا ركب العقل مع الشجاعة

حدث عنهما صفات أخرى مما يمتح به كالصبر على الملمات ونوازل المطالب ،
والوفاء بالوعد ونحو ذلك .

القسم الثالث

ما يختص به النساء

ويرجع الى أصلين مذمومين في الرجل ؛ وهما الجُبْن والبُخْل ؛ وذلك أن المرأة
إذا جُبنت كَفَّت عن المَساوى خوفا على نفسها أو عرضها ، وإذا بَخلت سَخِطت
مال زوجها عن الضياع والإتلاف ؛ وحينئذ فتكون أوصاف الرجال الممدوحة أربعة
أوصاف : آثان يشتركون فيهما مع النساء ؛ وهما العقل والعفة ؛ وآثان ينفردون
بهما عن النساء ؛ وهما العدل والشجاعة .

وتكون أوصاف النساء الممدوحة أربعة أيضا : آثان يشتركن فيهما مع الرجال ؛
وهما العقل والعفة ؛ وآثان ينفردن بهما عن الرجال ؛ وهما الجُبْن والبُخْل ؛ فيمدح
كل من الصنفين بما هو مشتمل عليه بحسب ما يقتضيه المقام وما يوجبه الحال .
قال قدامة بن جعفر الكاتب في نقد الشعر : ومدائح الرجال تنقسم بحسب
الممدوحين من أصناف الناس في الأرتفاع والأتضاع ، وضروب الصناعات والتبذير
والتحضر ، فيحتاج إلى الوقوع على المعنى اللائق بمدح كل ؛ فمدح الملوك يكون بمدح
يلائم قدرهم من رفعة القدر وعلو الرتبة والأفراد عن المثل والقرين ؛ كقول النابغة
في النعمان بن المنذر :

ألم تر أن الله أعطاك سورة * ترى كل ملك دونها يتدبذب
بانك شمس والملوك كواكب * إذا طلعت لم يبد منها كوكب

وما يجرى مجرى ذلك ومدح الوزير والكاتب بما يليق بالعقل والذرية، وحسن التنفيذ والسياسة، فإن أضيف إلى ذلك الوصف بالسرعة في إصابة الحزم، والاستغناء محصور الذهب عن الإبطاء لطلب الإصابة كان أحسن وأكمل للمدح كما قيل :

يُدَيْهَتْهُ بِمِثْلُ تَفْكِيرِهِ • مَنِي رُمْتُهُ فَهُوَ مُسْتَجْمَعٌ

وكما قيل

بُرِي مَا كُنَّ الْأَوْصَالِ بَاسِطٌ وَجْهِهِ • يُرِيكَ الْهُوَيْنِي وَالْأُمُورُ تَطِيرُ

وتمدح القائد يعني الأمير الذي يقود الجيش بما يجانس البأس والنجدة، ويدخل في باب البطش والنسالة، فإن أضيف إلى ذلك المدح بالجود والسماحة والجدق والبذل والبطية كان أحسن وأتم، من حيث إن السخاء أخو الشجاعة، وهما في أكثر الأمور موجودان في دوى بُعد المهمة، والإقدام والصولة، كما قال بعضهم جامعا بين البأس والجود :

فَقِي دَفْرُهُ شَطْرَانِ مِمَّا يَنْبُوهُ • فَقِي بِأَيْسِهِ شَطْرُو فِي جُودِهِ شَطْرُ

فَلَا مِنْ نَفَاةِ الْخَيْرِ فِي عَيْنِهِ قَدَى • وَلَا مِنْ زَيْبِ الْحَرْبِ فِي أُذُنِهِ وَقَرَى

قال : وتمدح السوقة والمتعيشون بأصناف الحِرَفِ وضروب المكاسب، والصعاليك مما بضاهى النضائل النفسانية من العقل والعفة والعدل والشجاعة، خاليا عن مثل مدح الملوك ومن تقدم ذكره من الوزراء والكُتَّابِ والقواد .

وتمدح ذوو الشجاعة منهم بالإقدام والفتك والتسمير والنبقظ والصبر مع التحديق والسماحة وقلة الآكثرات بالخطوب الملمة ونحو ذلك

قلت ويؤخذ مما ذكره قدامه أن القضاة والعلماء بوصفون بما يليق بمجدهم من ذلك، ويرصف العالم بثقابة الذهن، وحادثة الفهم، وسعة الباع في الفضل، وما يجرى

مجرى ذلك، ويوصف القضاة بذلك وبالعدل والعفة ومبيانة الحور ونحو ذلك،
وستقف في قسم الولايات في نسخ البيعات والعهود والتقاليد والتواضع والتفويض
والمراسيم ونحوها من ذلك بما يتضح لك به سواء السبيل.

وآلم أن الكاتب كما يحتاج إلى معرفة الصفات المحمودة من النوع الإنساني
كذلك يحتاج إلى معرفة الصفات المذمومة منه، فربما أحتاج إلى العناية بدم نبي،
من ذلك فيكون عنده من العلم بالصفات المذمومة ما يفيق معه، كما حكى أن بعض
العمال بعث إلى الرشيد بعبد أسود فقلب كتابه ووقع عليه: أما بعد فإنك لو وجدت
عددا أقل من الواحد، أو لونا شرا من السواد لبعثت به إلينا والسلام.

ولا يخفى أن كل ما خالف صفة من الصفات المستحسنة المتقدمة فهو مستفيع
مع ما هو معلوم من الصفات المذمومة الجسمية، كالحدب والحول ونحوهما، ومن
الصفات المعنوية، كسوء الخلق وبداءة اللسان ونحو ذلك. وفي هذا مقنع في الإرشاد
إلى المراد والتنبيه على القصد.

النوع الثاني

مما يحتاج إلى وصفه هي دواب الركوب، وهي أربعة أصناف

الصف الأول

الحيل

ويحتاج إلى المعرفة بوصفها في مواضع، من أهمها وصفها عند بعث شيء، منها
في الإنعام والهدايا، والجواب عن ذلك، ووصفها في ترتيب الجيوش والمواكب،
وذكرها في مجالات الحرب، وما يجرى مجرى ذلك، ويشتمل الغرض منه على معرفة

(١) أي على ما يتضح . (٢) لعله منه .

أصنافها، وألوانها، ونسباتها، وما يُستحسن ويستقبح من صفاتها، ومعرفة الدوائر التي تكون فيها، والبصر بأمور أسنانها وأعمارها .

أما أصنافها فتلاثة

الأول : العِراب ، وهي أفضلها وأعلىها قيمةً، وأغلاها ثمنًا، تطلب للسبق والتماق، والملوك تتغالي في أثمانها وتُعدها لمهم الحرب، وتُوجد ببلاد العرب ومحلاتهم في أقطار الأرض، كالجزاز، ومجد، واليمن، والعراق، والشام، ومصر، وبرقة، وبلاد المغرب وغيرها .

الثاني : العجميات، وهي البراذين ويقال لها : الهاليج، وتُعرف الآن بالأكاديش وتُجلب من بلاد الترك، ومن بلاد الروم، وغالب ما تُوجد مشقونة المناحر، وتطلب للصبر على السير وسرعة المشي .

الثالث : المولد بين العراب والبراذين، فإن كان الأب عجمياً والأم عربية قيل له : هجين، وإن كان بالعكس قيل له : مُقرف، وهي تكون في الحري والمشي متوسطة بين النوعين .

وأما ألوانها فقد ذكر ابن أبي أصيبع : أن أصول الألوان فيها ترجع إلى أربعة ألوان، وما سواها مفرع عنها .

الأول : البياض، وقيل أن يتخلص من لون يخالطه، فإن صفا بياضه قيل فيه : أشهب قُرطاسي، فإن كان أذناه وقوائمه وعُرفه وذيله سودا قيل : مُطرف، فإن خالط البياض شعرًا أسود والأغلب فيه البياض قيل : أشهب كافوري، وإن كان السواد فيه أغلب قيل : أشهب حديدي، وأشهب أشمط، وأشهب مخلص^(١)، فإن كان

(١) في الأصل بالصاد وهو تصحيف، كما يفهم من مراجعة القاموس واللسان في مادة خ ل س .

فيه نكتٌ سود قيل : أشهب مفلس ؛ فإن آتت قليلا قيل : أشهب مدثر ؛
 فإن كان في شهبته طرائق قيل : أشهب مجزع ؛ فإن كان فيه بقع من أى لون كان
 دون البياض قيل : مبقع ؛ فإن صغرت تلك البقع قيل : أبقع ؛ فإن تفرقت
 واختلفت مقاديرها قيل : أشيم ؛ فإن تعادل ذلك اللون مع البياض مع صغر النقط
 من اللونين قيل : أنمش ؛ فإن تناهت في الصغر قيل : أبرش ؛ فإن كان البياض
 نكتا صغيرة في ذلك اللون قيل : مفوف ؛ فإن كان شيء من ذلك كله في عضو واحد
 قيد به مثل قولك : مفوف القطة ، وأنمش الصدر وما أشبه ذلك .

الثاني : السواد ؛ فإذا كان الفرس شديد السواد قيل فيه : أدهم ؛ فإن اشتد
 سواده قيل : أدهم غيبي ؛ فإن علا السواد خضرة قيل : أحوى والجمع حوى ؛ فإن
 خالط سواده شقرة قيل : أدبس ؛ فإن انضم إليه أدنى حمرة أو شقرة قيل : أحم
 فإن ضرب سواده إلى يسير بياض قيل : أورق ، وشود الأكتف ؛ فإن شوه من
 السواد يقال : أربد .

الثالث : الحمرة ؛ إذا كان الفرس خالص الحمرة ، وعرفه وذيله أسودان قيل فرس
 أورد والجمع وراد والأثني ورده ؛ فإن خالط حمرة سواد فهو كيت ، الذكر الأثني
 فيه سواد ؛ فإن صفت حمرة شيئا قليلا قيل : كيت مدمي ؛ فإن كان مائلا قال
 الحمرة وعرفه وذيله أشقران قيل : أشقر فإن كان أحمر وذيله وعرفه كذلك قيل :
 أمفر ؛ فإن خالط شقرة الأشقر أو الكيت شقرة بيضاء قيل : صابى ؛ فإن
 الصناب وهو الخردل بالزبيب ؛ فإن كانت حمرة كصد الحديد قيل : أصدأ ؛ فإن
 زاد فيه السواد شيئا يسيرا قيل : أجأى والأسم : الجؤوة .

الرابع : الصفرة ؛ فإن كانت صفرة حالمة تشبه لون الذهب وعرفه وذيله
 أصهبان مائلان إلى البياض قيل : أصفر خالص ؛ فإن كانا أبيضين قيل : أصفر

فَاصِحٌ : فَإِنْ كَانَ أَسْوَدِينَ قَيْلٌ : أَصْفَرُ مَطْرَفٌ ، وَهُوَ الَّذِي يُسَمَّوْنَ فِي زَمَانِنَا الْحَبَشِيِّ ؛
 فَإِنْ كَانَ أَصْفَرَ مَمْتَرَجًا بِيَاضٍ قَيْلٌ : أَشْهَبٌ سَوْسِنِيٌّ ؛ فَإِنْ كَانَ فِي أَكَارِهِ خُطُوطٌ
 سُودٌ قَيْلٌ : مَوْشِيٌّ .

وَأَمَّا شِيَاتُهَا وَهِيَ الْبِيَاضُ الْمَخَالِفُ لِلْوَنَاءِ ، فَمِنْهَا : الْغُرَّةُ ، وَهِيَ الْبِيَاضُ الَّذِي يَكُونُ
 فِي وَجْهِ الْفَرَسِ إِذَا كَانَ قَدْرُهُ فَوْقَ الدَّرْهِمِ ، فَإِنْ كَانَ دُونَ الدَّرْهِمِ قَيْلٌ : فِي الْفَرَسِ أَقْرَحُ
 وَالْعَامَةُ تَقُولُ فِيهِ : أَثْرُ شَعْرَاتٍ ؛ فَإِنْ جَاوَزَ الْبِيَاضُ قَدْرَ الدَّرْهِمِ قَيْلٌ فِيهِ : أَعْرَمٌ ، ثُمَّ أَوَّلُ
 رَتْبَةِ الْغُرَّةِ يُقَالُ لَهُ : النَّجْمُ فَإِنْ سَالَتِ الْغُرَّةُ وَرَقَّتْ وَلَمْ تَجَاوِزْ جِهَتَهُ قَيْلٌ فِيهِ : أَعْرَ
 عَصْفُورِيٌّ ؛ فَإِنْ تَمَادَتْ حَتَّى جَلَّتْ خَيْشُومُهُ وَلَمْ تَبَاغِ بِخَفَلَتِهِ قَيْلٌ : أَعْرُ شِمْرَاخِيٌّ ؛
 فَإِنْ مَلَأَتْ جِهَتَهُ وَلَمْ تَبْلُغِ الْعَيْنَيْنِ قَيْلٌ : أَشْدَخٌ ؛ فَإِنْ أَصَابَتْ جَمِيعَ وَجْهِهِ إِلَّا أَنَّهُ
 يَنْظُرُ فِي سَوَادٍ قَيْلٌ : مُبْرَقِعٌ ؛ فَإِنْ فَشَتْ حَتَّى جَاوَزَتْ عَيْنَيْهِ وَأَبْيَضَّتْ مِنْهَا أَشْفَارُهُ
 قَيْلٌ : مُغْرَبٌ ؛ فَإِنْ أَصَابَتْ مِنْهُ خَدًّا دُونَ خَدِّ قَيْلٌ : لَطِيمٌ أَيْمَنُ أَوْ أَيْسَرٌ ؛ فَإِنْ كَانَ
 بِسَفْتِهِ الْعُلْيَا بِيَاضٍ قَيْلٌ : أَرْتَمٌ ؛ وَإِنْ كَانَ بِالسُّفْلِ بِيَاضٍ قَيْلٌ : أَلْمَطُ ، فَإِنْ نَالَهَا
 جَمِيعًا قَيْلٌ : أَرْتَمٌ أَلْمَطُ .

وَمِنْهَا : التَّحْجِيلُ فِي الرَّجْلَيْنِ وَمَا فِي مَعْنَى ذَلِكَ ؛ إِنْ كَانَ الْبِيَاضُ فِي مُؤَخَّرِ الرَّسْغِ
 لَمْ يَسْتَدِرْ عَلَيْهِ قَيْلٌ فِي الْفَرَسِ : مُنَعَلٌ ؛ وَإِنْ كَانَ فِي الْأَرْبَعِ قَيْلٌ : مُنَعَلُ الْأَرْبَعِ ؛
 أَوْ فِي بَعْضِهَا أَضْيَفٌ إِلَيْهِ فَقَيْلٌ : مُنَعَلُ الْيَدَيْنِ أَوْ الرَّجْلَيْنِ أَوْ الْبَدَنِ أَوْ الرَّجْلِ الْيَمْنِيِّ
 أَوْ الْيَسْرِيِّ ؛ فَإِنْ اسْتَدَارَ عَلَى الرَّسْغِ ؛ وَهُوَ الْمُنْتَصِلُ الَّذِي يَكْتَنِفُهُ الْوَطِيفُ وَالْحَافِرُ
 وَكَانَ فِي إِحْدَى الرَّجْلَيْنِ قَيْلٌ : أَرْجَلٌ ؛ وَإِنْ كَانَ فِي الرَّجْلَيْنِ جَمِيعًا قَيْلٌ : مُنْخَدَمٌ
 وَأَخْدَمٌ ؛ فَإِنْ جَاوَزَ رُسْغَ الرَّجْلِ وَأَتَّصَلَ بِالْوَطِيفِ ؛ وَهُوَ مَا بَيْنَ الْكَعْبِ وَبَيْنَ أَسْفَلِهِ

(١) وقع في الأصل أعرم بأعجام العين وهو نصيف

(٢) في الأصل أعط بالنون والطاء وهو نصيف .

ولم يجاوز ثلثيه قيل : مُحَجَّلٌ ، أخذاً من الحَجَلِ ، وهو الخُلخالُ ، فإن كان في رجل واحدة
 قيل : مُحَجَّلُ الرجل اليمنى أو الرجل اليسرى ، فإن كان في الرجلين جميعاً قيل : مُحَجَّلُ
 الرجلين ، فإن كان معه في إحدى اليدين بياض يجاوز الرُّسْعَ إلى دون ثلثي الوظيف
 قيل : مُحَجَّلُ الثلاث مطلق اليد اليمنى أو اليسرى ، فإن كان البياض في اليد الأخرى
 كذلك قيل : مُحَجَّلُ الأربع ، فإن كان البياض في اليدين فقط قيل : أَعْصَمٌ ، سواء جاوز
 الرسغ أم لا ، ولا يُطلق التحجيل على اليدين أو إحداهما إلا بانضمام إلى تحجيل
 الرجلين أو إحداهما ، فإن كان في اليد الواحدة قيل : أَعْصَمُ اليد اليمنى أو اليسرى ، وإن
 كان فيهما قيل : أَعْصَمُ اليدين ، وإن كان التحجيل في يد ورجل من جانب واحد قيل :
 مُمَسَّكٌ ، وإن كان ذلك من الجانب الأيمن قيل : مُمَسَّكُ الأيمن مطلق الأيسر ، وإن
 كان بالعكس قيل : مُمَسَّكُ الأيسر مطلق الأيمن ، وإن كان التحجيل في يد ورجل
 من خلاف فهو الشَّكَالُ ، وقيل : الشكال بياض العظامتين من جانب ، وقيل : بياض
 ثلاث قوائم ، فإن تعدى البياض حتى جاوز عُرْقُوبَيِ الرجلين أو ركبتي اليدين قيل :
 فيه مُجَبَّبٌ ، فإن علا البياض حتى ^(١) حَمَى رجليه ومرفقي يديه قيل : أَبْلَقٌ ، فإن زاد على
 ذلك حتى بلغ الأنفَ والأعضاء قيل : أَبْلَقٌ مُسْرُولٌ ، فإن اختص البياض بيديه
 وطال حتى بلغ مرفقيه قيل : أَقْفَزٌ ومَقْفَزٌ ، فإن كان البياض في الوظيف غير متصل
 بالرسغ زلاً بالعُرْقُوبِ ولا بالركبة قيل : مُوقَفٌ .

ومنها : الشَّيَاتُ التي تتخلل سائر جسدها ، فإن كان الفرس مبيض الأذنين
 أو في أذنيه نقش بياض دون سائر لونه قيل فيه : أَذْرَأٌ ، وإن كان مبيض الرأس قيل :
 أَصْقَعٌ ، فإن أبيض قفاه قيل : أَقْفَفٌ ، فإن شابت ناصيته قيل : أَسْعَفٌ ، فإن أبيضت

(١) كذا في الأصل بالقاف ، ولعله مصحف عن النون لان الحقو الخاصرة وبقية الكلام يأباه ،

أما الجنو فهو الإعوجاج ، والنرض جاوز البياض العرقوبين ولم يبلغ الأنف الخ .

جميعها قيل: أصبغُ الناصية؛ فإن غشى البياض جميع رأسه قيل: أغشى، وربما قيل فيه: أرخم؛ فإن أبيض رأسه وعنقه جميعا قيل: أدرع؛ فإن أبيض ظهره قيل: أرحل؛ فإن كان ذلك البياض من أثر الدبر قيل: مصرد؛ فإن أبيض بطنه قيل: أنبط؛ فإن أبيض جنباه قيل: أخصف؛ فإن كان البياض بأحد جنبيه قيل: أخصف الحنب الأيمن أو الأيسر؛ فإن أبيض كفله قيل: آزر؛ فإن أبيض عرض ذنبه من أعلاه: قيل أشعل؛ فإن أبيض بعض هلمه دون بعض قيل: محصل؛ فإن أبيض جميع هلمه قيل: أصبغ هلم الذنب؛ فإن عدى عرقوبه البياض جملة قيل: بهيم ومصمت من أى لون كان.

وأما ما يُستحسن من أوصافها فقد قال العلماء بأمر الخيل: يستحب في الفرس: دقة الأذنين وطولها وانتصابهما، ودقة أطرافهما، وقرب ما بينهما، وكل ذلك من علامات العتق: وفي الناصية؛ اعتدال ثمرها في الطول، بحيث لا تكون خفيفة الشعر ولا مفرطة في كثرتة؛ ويقال في هذه: الناصية الجثة. ويستحب مع ذلك: لين الشكير— وهو ما طاف يجنب الناصية من الزغب— ويستحب: عظم الرأس وطوله وسعة الجبهة، وأسالة الخد، وملاسته، ودقته، وقلة لحم الوجه، وعري الناهضين— وهما عظامان في الخد— وسعة العين، وصفاء الحدقة؛ وذلك كله من علامات العتق. ويستحب في العين: السمو والحدّة ورقة الجفون وبعد نظره.

قال ابن قتيبة: وهم يصفونها بالقبيل والشوس والخوص، وليس ذلك فيها عيبا ولا هو خلقة، وإنما تفعله لعزة أنفسها. ويستحب في المنخر: السعة، لأنه إذا ضاق شق عليه النفس، قال: وربما شق منخره لذلك وبعد ما بين المنخرين. ويستحب في النهم: الهرت— وهو طول شق شدقيه من الجانبين— لأنه أوسع لخروج نفسه، ورقة الجفون وهما الشفتان لأنه دليل العتق، وطول اللسان ليكثر

ريقه فلا ينهر، ورقته لأنه أسرع لقضمه العلف، وصفاء الصهيل لأنه دليل صحة رثته وسهولة نفسه. ويستحب في العنق: الطول، فقد كان سلمان بن ربيعة يفرق بين العناق والهجن، فدعا بطست من ماء فوضعت بالأرض ثم قدمت الخيل إليها واحدا واحدا فما ثنى سُنْبُكِهِ منها ثم شرب هَجْنَهُ؛ وما شرب ولم يثن سُنْبُكِهِ جعله عتيقا، لأن في أعناق الهجن قَصْرًا فلا تنال الماء حتى تثني سُنْبُكَيْهَا؛ وقد روى أنه هَجَّنَ فرس عمرو بن معدى كرب فاستعدى عليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال سلمان: أدع بإناء فيه ماء ثم أتى بفرس عتيق لا شك في عنقه فأشرع في الإناء فصاف بين سُنْبُكَيْهِ ومدَّ عنقه فشرِبَ؛ ثم قال: أتتوني بهجين لا شك فيه فأشرع فبرك فشرِبَ؛ ثم أتى بفرس عمرو بن معدى كرب فأشرع فصاف بين سُنْبُكَيْهِ ومدَّ عنقه ثم ثنى أحد سُنْبُكَيْهِ قليلا فشرِبَ؛ فقال عمر: أنت سلمان الخيل. ويستحب فيها مع ذلك الكبر لأنه أقرب لانتقياده وعطفه، وغلظ مُرَكَّبِ عُنُقِهِ ودِقَّةَ مَدْبَجِهِ. ويستحب فيه: ارتفاع الكَتِفَيْنِ والحَارِكِ والكَاهِلِ؛ وقصر الظهر وعَرْضِ الصَّهْوَةِ — وهي مقعد الفارس من الظهر — وارتفاع القَطَاةِ — وهي مقعد الرِّدْفِ من الظهر أيضا — وقلة لحم المتنين وهما ما تحت دفتي السرج من الظهر. ويستحب في الكفل: الأستواء والأستدارة والملاسة والتدوير. ويستحب: طول السَّيْبِ؛ وهو الشعر المسترسل في ذيله، وقصر العَسِيْبِ؛ وهو عظم الذنب وجلده؛ ولذلك قال بعض الأعراب: اختره طويل الذنب قصير الذنب يعني طويل الشعر قصير العسيب.

قال ابن قتيبة: ويستحب: أن يرفع ذنبه عند العدو، ويقال: إن ذلك من شدة الصَّابِ. ويستحب عَرْضُ الصدر؛ وهو ما عَرَضَ حيثُ ملقَى أعلى لَبِيهِ، ويسمى: اللَّبَانُ والكَلْكَلُ؛ وكذلك ارتفاعه عن الأرض مع دِقَّةِ الزَّوْرِ، وهو

ما استدق من صدره بين يديه بحيث يقرب ما بين المرفقين لأنه أشد له وأقوى لحرية .
ويستحب فيه : عرض الكتف وغلظه وقصر النسا ، وهو عرق في الساق مستبطن
المخذ ، وشنجه ؛ وقصر وظيف اليد ، وهو قصب يديه ، وقصر الرئغ ، ودقة إبرة
العرقوب وتحديده ، لأنه أشد لقصب الساق ؛ وطول وظيف الرجل ليخذف الأرض
بها فيكون أشد لعدوه ، وغلظ عظم القوائم ، وغلظ الحبال ؛ وهي عصب الذراعين ،
ولطف الركبة ، وقرب ما بين الركبتين ، وشدة كعبه ، لأن ضعف الكعب داعية
الجرد ، وأنحاء الرجلين وتوترهما ، وبعد ما بين الرجلين ؛ وهو الفحج ، لأنه أشد
لتمكن رجله من الأرض . ويستحب : صفاء الحافر ، وصلابته ، وسعته ، وكونه
أزرق أو أخضر غير مشوب ببياض ؛ لأن البياض دليل الضعف فيه ؛ وأن يكون
مع ذلك فيه تقعب ، ولطف نسوره ؛ وهي شيء في باطن حافره كالنوى ، لأنه
إذا ضاق موضعها كان أصلب لحافره ؛ وأن تكون أطراف سنابكه وهي مقادم
حوافره رقيقة .

ويستحب فيه مع ذلك كله : اتساع إهابه وهو جلده ، ورقة أديمه ، وصفاء
لونه ، ولين شعره ، وكثرة عرفه ، وكثرة نومه ، وسعة خطوه ، وخفة عنانه ، ولين
ظهره ، وحسن استقلاله في أول سيره ، وخفة وقع قوائمه على الأرض إذا مشى ،
وشدة وقعها إذا عدأ ، مع حدة نفسه وسرعة عدوه ، واتساع طرقتة ؛ وقد يغتفر
القطاف في المشى في دواب الجرى .

ثم إنه قد يحتمل فوات آلة الحسن والفراهة في المشى ولا يغتفر النقص في آلة
الجودة وشدة العدو والصبر ، لأن بهما يدرك ما يطلب ، وينجو مما يهرب .

(١) في اللسان الجرد : ورم في مؤخر عرقوب الفرس بعظم حتى يمنعه المشي والسعي .

وأما ما يُستقبح ويُذم من أوصافها ، فقد ذكروا للفرس عدّة عيوب ، بعضها خلقية وبعضها حادثة .

فمن العيوب الخلقية : البدد ؛ وهو بُعد ما بين اليدين ، والصّمم ؛ وهو ألا يسمع وعلامته أن يراه يصرُّ أذنيه أبدا إلى خلف ، وإذا جُرّ خلفه خشبةً ونحوها لا يشعر ولم ينفر عنها ؛ والخذاء ؛ وهو أن يكون أذناه مسترخيتين منكوستين نحو العينين أو الخدين كأذان الكلاب السلوقية ؛ والطّول ؛ وهو أن تطول إحدى أذنيه وتقصّر الأخرى ، وكونه أسكًّا ؛ وهو أن يكون صغير الأذن .

ومنها : السّفا ؛ وهو قلة شعر الناصية ؛ والغمم^(١) ؛ وهو أن يكثر شعر الناصية ويطول حتى يغطّي العين ؛ وهو عيب خفيف ؛ والسّفا ؛ وهو خفة الناصية .

ومنها : القرح ؛ وهو أن يكون البياض الذي في الوجه دون قدر الدرهم كما تقدم إلا أن يكون معه بياض آخر من تحجيل ونحوه فلا يكره حينئذ ؛ فإن كان في وسط البياض في الوجه سواد كان عيبا يُتشاءم به .

ومنها : العشا ؛ وهو ألا يُبصر ليلا فيصير بمثابة نصف فرس ، لأنه لا ينتفع به في الليل دون النهار ؛ وكونه قائم العين ؛ وهو الذي يكون على ناظره سواد يضرب للخضرة والكُدرة يقل معها بصره ؛ والحول ؛ وهو أن يكون بإحدى عينيه بياض خارج سواد الحدقة من فوق ، ويكون خلاف العين الأخرى وهو مع ذلك مما يتبرك به بعض الناس ، ويقول : إذا كان ذلك في العينين كان أعظم لبركته ؛ والحيف ؛ وهو أن تكون إحدى عينيه زرقاء ، وهو مما يُتشاءم به لا سيما إذا كانت الزرقة في العين اليسرى ، فإن أزرقّت العينان جميعا كان أقلّ لشؤمه ؛ وغُور العينين ؛ وهو

(١) أي أن السفا بهذا المعنى هيب خفيف .

(٢) في الخط إسقاط لا ، وفي المطبوع إثباتها وهو الظاهر .

دخولها في وجهه ؛ والغرب ؛ وهو بياض أشفار العينين ، يكون عنه ضعف بصره في القمر والحز الشديد ؛ والكُنة ؛ وهو أن يبصر قدامه ، ولا يبصر عن يمينه ولا شماله .

ومنها : القناب ؛ وهو آحديداب في الأنف ، ويكون في المهجن ؛ والحنس ؛ وهو أن يرى فوق منخريه منحسفا لأنه يضيق نفسه إذا ركض .

ومنها : الفطس ؛ وهو أن تكون أسنانه العليا داخلة عن أسنانه السفلى ؛ والطبطة ؛ وهو أن تسترخي بحفلة السفلى فإذا سار حركها وطبطبها كالبعير الأهدل ، وأن يكون في حنكه شامة سوداء وسائر فمه أبيض .

ومنها : قصر اللسان ؛ لأنه إذا قصر لسانه قل ريقه فيسرع إليه العطش ؛ والخرس ؛ وعلامته أن تراه يصهل ولا يجمجم ؛ وهو عيب لطيف .

ومنها : القصر ، وهو غلظ في العنق ؛ واللفف ، وهو استدارة فيه مع قصر ؛ والدين ؛ وهو طمانينة في أصل العنق ؛ والهنع ؛ وهو طمانينة في وسط العنق ؛ والقود ؛ وهو ينس في العنق بحيث لا يقدر الفرس أن يدير عنقه يمينا ولا شمالا ولا يرفع رأسه إذا مشى ؛ وهو عيب شديد ؛ والجسأ ؛ وهو ينس المعطف .

ومنها : الكتف ؛ وهو انفراج يكون في أعالي كتفي الفرس مما يلي الكاهل ؛ والقعس ؛ وهو أن يطمئن الصلب من الظهر وترتفع القطة ؛ والبزخ ؛ وهو أن يطمئن الصلب والقطة جميعا ؛ وهو عيب رديء يضرب بالعمل ؛ وكوت الكفل فيه تحديد ويكون العجز صغيرا ؛ والفرق ؛ وهو نقصان إحدى حرقفتي الوركين ، فإن نقصتا جميعا فهو ممسوح الكفل ولا عيب فيه .

ومنها : الدين ؛ وهو تطامن الصدر ودنوه من الأرض ؛ وهو من أسوأ العيوب ؛ والزور ؛ وهو دخول إحدى فهدتي الصدر وخروج الأخرى .

ومنها : الهَصْم ؛ وهو استقامة الضلوع ودخول أعاليها ؛ والإخطاف ؛ وهو لحوق ما خلف المحزم من بطنه ؛ والثَّجَل ؛ وهو خروج الخاصرة ورقة الصفاق .
ومنها : العَصَل ؛ وهو التواء عَسِيب الذَّنْبِ حتى يبرز بعض باطنه الذي لا شعرَ عليه ؛ والكَشْف ؛ وهو أكثر من ذلك ؛ والصَّبْغ ؛ وهو بياض الذَّنْبِ ؛ والشَّعَل ؛ وهو أن يبيضَ عَرَضُ الذَّنْبِ وهو وسطه .

ومنها : الفَحْج ؛ وهو إفراط بُعد ما بين الكعبين ؛ والحَلَل ؛ وهو رخاوة الكعبين ؛ ويلتحقُ به تقويسُ اليدين ؛ وهو عيبٌ فاحش ؛ والطَّرْق ؛ وهو أن ترى ركبتيه مفسوختين كالمقوستين إلى داخل ؛ وهو عيب فاحش ؛ والقَسَط ؛ وهو أن ترى رجلاه متصببتين غير مُحَنَّبَتَيْن ؛ والبَدَد ؛ وهو بُعد ما بين اليدين ؛ والفَحْج ؛ وهو إفراط بُعد ما بين العرقوين ؛ والْقَد ؛ وهو أنتصاب الرُّسْغِ وإقباله على الحافر ولا يكون إلا في الرُّجُل ؛ والصَّدْف ؛ وهو تدانى الفخذين وتباعدا الحافرين في التواء من الرُّسْغِ بحيث ترى رُسْغِي يديه مفتوحين ؛ والتَّوْجِيه ؛ وهو نحوه منه إلا أنه أقل من ذلك ؛ والقَدَع ؛ وهو التواء الرُّسْغِ من عُرْضِهِ الوَحْشِيِّ من الجانبين من رأس الشَّظِي ، ووطؤُهُ على وَحْشِيٍّ حافريه جميعا وهو الجانب الخارج ؛ والارتهاش ؛ وهو أن يصكَّ عُرْضُ حافره عُرْضَ مُجَايْتِهِ من اليد الأخرى وذلك لضعف يده ؛ والحَنَف ؛ وهو أن يكون حافرا يديه مكبوين إلى داخل ؛ والنَّقْد ؛ وهو أن يرى الحافر كالمتمشرب ؛ والشَّرْح ؛ وهو أن يكون ذو الحافره بيضة واحدة ؛ والأَرْح ؛ وهو أن يمس الأرض بباطن حافره .
ومنها ؛ البدد في اليدين ؛ وهو أن يكون إذا مشى يدير حافره إلى خارج عند النقل ولبس فيه ضرر في العمل ؛ والتلُّف ؛ وهو أن يخبط بيديه مستوى لا يرفعهما إلى بطنه ؛ وهو خلاف البدد .

(١) لعله أو من الجانبين . (٢) في اللسان ، في استنانه .

ومنها : التلويح ، وهو أن يكون الفرس إذا صرِبته حرك ذنبه ؛ وهو عيب فاحش في الجُجورة لأنه ربما بالت الجر ورشت به صاحبها .

الضرب الثاني

العيوب الحادثة ؛ وهي عدة عيوب

منها : الحدب ، ويكون في الظهر بمثابة حدبة الإنسان ؛ وهو عيب فاحش ؛ والغدة وتكون في الظهر أيضا بإزاء السرة .

ومنها : العنق ؛ وهو انتفاخ وورم بقدر الرمانة أو أقل مما يلي الخاصرة ؛ وهو عيب فاحش لا علاج فيه .

ومنها : الحمرب ؛ وهو عيب يحدث عن نُجمة الشعر ، وربما كان من شرب الماء على التعب فيحدث عنه ثقل الصدر .

ومنها : الانتشار ؛ وهو انتفاخ العصب بواسطة التعب ، ويكون من فوق الرُشغ إلى آخر الركبة ؛ وهو عيب فاحش .

ومنها : تحرك الشظاة ، وهو عظم لا صق بالذراع ؛ وهو على الفرس أشق من الانتشار .

ومنها : الروح ؛ وهو داء يكون منه غلظ في القوائم كمثل داء الفيل في البشر .

ومنها : المشش ؛ وهو داء يكون في بدء أمره ماءً أصفرًا ، ثم يصير دمًا ، ثم يصير

عظمًا ؛ ويكون على الوظيف وفي مفصل الركبة ؛ وهو على العصب والركبة شر منه على الوظيف .

ومنها : القمع ، ويكون في الرجلين في طرف العرقوبين ؛ وهو غلظ يعتريهما ؛

والمَّلح ، ويكون في الرجلين تحت القمع من خلف ؛ وهو انتفاخ مستطيل لا يضر

بالعمل ؛ والجَرْدُ ؛ وهو كالعظم الناقئ يكون في الرجلين تحت العرقوين على المفصل من داخل ومن خارج ؛ وهو عيب فاحش تُؤَلُّ منه الدابة إلى العطب ؛ والنَّفَخُ ؛ وهو انتفاخ يكون في مواضع الجَرْدِ ؛ وهو من دواعي الجَرْدِ ؛ والعُقَالُ ؛ وهو أن تقلص رجله ، وذلك يكون في عصب الرجل الواحدة دون الأخرى ، وربما كان في الرجلين جميعا ؛ وهو عيب فاحش يضر بالعمل ؛ وهو في البرد أشد منه في الحر .
ومنها : الشَّقَاقُ ؛ وهو داء يصيبه في أرساغه ، وربما ارتفع إلى وظيفه ؛ والسَّرَطَانُ ؛ وهو داء يأخذ في الرُّسْغِ فيبيس عروقه حتى ينقلب حافره .

ومنها : العَرْنُ ؛ وهو جُسُوءٌ في رُسْغِ رجله ؛ والدَّخَسُ ؛ وهو ورم يكون في حافره ؛ والقَفْدُ ؛ وهو تشنج عصب رُسْغِه حتى ينقلب حافره إلى داخل فيمشى على ظاهر الحافر .

ومنها : النَّمْلَةُ ؛ وهي شق في الحافر من ظاهره ؛ والرَّهْسَةُ ؛ وهي ما يكون في الحافر من صدمة ونحوها — والعامة تقولها بالصاد — والقَشْرُ ؛ وهو أن تتقشر حوافره ؛ وهو عيب فاحش ؛ والنَّاسُورُ — وهو الذي تسميه العامة الوقرة — وهو داء يحدث في نُسُورِ الدابة فإذا قُطِعَ سال الدم منه .

ومنها : الأُدْرَةُ ؛ وهي عِظْمُ الخُصِيَّتَيْنِ ، وربما عظمت خُصِيَّتَاهُ في الصيف وأحمرت في الشتاء ؛ والمُدْلِيُّ ؛ وهو الذي يدلُّ ذَكَرَهُ ثم لا يردّه ؛ وهو عيبٌ قبيحٌ بحيث يقبح ركوب الفرس الذي به هذا العيب .

ومنها : البَرَصُ ؛ وهو بياض يعتري الفرس في مَرَقَاتِهِ ؛ كالحفلة وجفون العينين وبين الفيخين والخُصِيَّتَيْنِ .

ومنها: الخلد؛ وهو داءٌ شديدٌ ينقبُ موضعه من بدن الدابة يسيل منه ماءٌ أصفرٌ، فإذا كوى بالنار برأ وأنتفح موضعٌ آخرٌ، فلا يزال كذلك حتى تعطب الدابة؛ وهو عيب فاحش، في عيوب أخرى بطول ذكرها .

وفي كتب البيطرة، ذكر الكثير من ذلك مع علاج ما له علاجٌ منه وبيان ما لا علاج له .

وأما الدوائر التي تكون في الخيل فقد عدّها العرب ثمانى عشرة دائرةً، بعضها مستحب وبعضها مكروه .

الأولى : دائرة المحيّا — وهو الوجه — وهي اللاحقة بأسفل الناصية . الثانية : دائرة اللطاة؛ وهي دائرة تكون في وسط الجهة . الثالثة : دائرة النطّيح؛ وهي دائرة ثانية في الجهة بأن يكون في الجهة دائرتان . الرابعة : دائرة اللّهزيمة؛ وهي دائرة تكون في لهزيمة الفرس . الخامسة : دائرة المقوود^(١)؛ وهي التي تكون في موضع القلادة . السادسة : دائرة السّمامة؛ وهي دائرة تكون في وسط العنق . السابعة والثامنة : دائرتا البنيقتين؛ وهما دائرتان في نحر الفرس فيما قاله الأصمعي .

وقال أبو عبيد : البنيقة الشعر المختلف في منتهى الخاصرة والشاكلة . التاسعة : دائرة الناحر؛ وهي دائرة في باطن الخلق الى أسفل من ذلك . العاشرة : دائرة القالع؛ وهي دائرة تكون تحت اللبد . الحادية عشرة : دائرة المقعة؛ وهي دائرة تكون في عرض الزور . الثانية عشرة : دائرة النافذة؛ وهي دائرة ثانية تكون في الزور بأن تكون فيه دائرتان في الشقين في كل شقّ منهما دائرة؛ وتسمى النافذة : دائرة الحزام أيضا . الثالثة عشرة والرابعة عشرة : دائرتا الخرب؛ وهما اللتان يكونان تحت

(١) في المخصص : السموم .

الصَّقرين وهما رأسا المجبتين اللتين هما العظمان الناتئان المشرفان على الخاصرتين كأنهما
صَقْران . الخامسة عشرة والسادسة عشرة : دائرتا الصَّقْرين ؛ وهما دائرتان بين
المجبتين والقُصْرَيْن . السابعة عشرة والثامنة عشرة : دائرتا الناخس ؛ وهما دائرتان
تكونان تحت الجاعرتين .

قال ابن قتيبة : وهم يكرهون منها أربع دوائر ؛ وهي دائرة الهقعة ، مع ذكره أن
أبى الخليل : المهقوع . ودائرة القالع . ودائرة الناخس ، ودائرة النطيح . قال :
وما سوى ذلك من الدوائر فليس بمكروه .

وذكر صاحب زهر الآداب في اللغة : أنهم يستحبون من الدوائر دائرة المقود^(١) ؛
ودائرة السَّامة ؛ ودائرة الهقعة ؛ احتجاجا بأن أبى الخليل المهقوع ؛ ويكرهون دائرة
النطيح ، ودائرة اللهزمة ، ودائرة القالع .

ورأيت في بعض كتب البيطرة : أن المستحب منها ثلاث دوائر : دائرة المقود ،
ودائرة السَّامة ، ودائرة الهقعة ؛ وما عدا ذلك فهو مكروه .

وكره حكاء الهند : دوائر أخرى ذكروها ؛ وهي أن يكون في مقدم يده دائرة ،
أو في أصل ذنبه من الجانبين دائرتان أو على ناصيته دائرة ، أو على مُحْجِرِهِ دائرة ،
أو في جَحْفَلَتِهِ السُّفْلَى دائرة ، أو على سُرَّتِهِ دائرة ، أو على مَنَسَجِهِ دائرتان .

وأما أسنان الخيل : فأقول ما تَضَعُ الحِجْرَةَ جَنِينَهَا قَيْل : مُهْرٌ ؛ والأُنثَى مُهْرَةٌ ؛
فإذا فُصِّلَ عن أمه قَيْل : فُلُوٌّ ؛ فإذا اسْتَكْمَلَ حَوْلًا قَيْل : حَوْلَى والأُنثَى حَوْلِيَّةٌ ؛
فإذا دَخَلَ في الثانية قَيْل : جَذَعٌ والأُنثَى جَذَعَةٌ ؛ فإذا دَخَلَ في الثالثة قَيْل : شَيْءٌ

(١) في المخصص : العموم .

والأثني ثنية ؛ فإذا دخل في الرابعة قيل : رباع والأثني رباعية ؛ فإذا دخل في الخامسة قيل : قارح للذكر والأثني .

وفي الغالب يلقي أسنانه في السنة الثالثة ، وربما تأخر إلقاءها إلى السنة الرابعة ؛ وذلك إذا كان أبواه شابين ، وقد يلقي أسنانه في حول واحد ؛ وذلك إذا كان أبواه هيرمين . ثم لكل مهر اثنتا عشرة سنًا : ست من فوق وست من أسفل ، ويليهما من كل جانب ناب ، ويليهما الأضراس ؛ وتثبت ثناياه ، بعد وضعه بخمسة أيام ؛ وتثبت رباعياته بعد ذلك إلى مدة شهرين ؛ وتثبت قوارحه بعد ذلك إلى ثمانية أشهر ؛ ويختص التبديل منها بالأسنان الاثني عشرة دون الأنياب والأضراس . وربما ألقى المهر بعض أسنانه ، ثم لا تثبت ؛ وإذا قرح المهر أصفرت أسنانه ، وأسودت رؤوسها وطالت فيبقى كذلك خمس سنين ؛ فإذا جاوزت ذلك أبيضت وحفي رؤوسها ؛ ثم تنتقل فتصير كلون العسل خمس سنين ، ثم تبيض فتصير كلون الغبار ويزداد طولها ؛ وربما دلس النخاسون فنشروا أسنانها وسووها .

ومما وجد في الكتب القديمة : أن الفرس تتحرك ثناياه في سبع وعشرين سنة ؛ وتتحرك الرباعيات في ثمان وعشرين سنة ، وتتحرك القوارح في تسع وعشرين سنة ؛ ثم تسقط الثنايا في ثلاثين سنة ، والرباعيات في إحدى وثلاثين سنة ، والقوارح في اثنتين وثلاثين سنة وهو عمر الدابة .

وأما التفرس في الخيل : فاعلم أن المهر وإن ظهرت فيه علامات النجابة أو العكس لا عبرة بذلك ، فإنه قد يتغير فيقبح منه ما كان حسنًا ، ويحسن منه ما كان قبيحًا ؛ وإنما يتفرس فيه إذا ركب لحم العلف ، وذهب عنه لحم الرضاع .

وأفضل الفراسة في المهر : أخذه في الجري ، فإنه صنعته التي خلق عليها وإليها يشول ؛ فإذا أحسن الأخذ في الجري فهو جواد ؛ ولكنه ربما تغير أخذه للجري

إذا رُكِبَ لضعف فيه حينئذ، وقصور عن بلوغ مدى قوته؛ وقد لا يجرى جذعا
ويجرى ثنياً، وقد لا يجرى ثنياً ويجرى رباعياً، وقد لا يجرى رباعياً ويجرى قارحاً
حين تجتمع له قوته . ويعرف ضعف الضعيف منها بتلويح تحت فارسه وعجزه عنه .
وفترته إذا نزل عنه .

ومما يدل على جودة الفرس وحسن جريه : أنه يراه إذا أخذ في الجرى سماً
بهاديه، وأثبت رأسه ، ولم يستعن بهما في حُضْرِهِ وأجتمعت قوائمه، وسبَّح بيديه
وضرح برجليه ، ولها في حُضْرِهِ، وامتد ، وبسط ضبُعيه حتى لا يجد مزيداً ،
وتكون يداه في قرن، ورجلاه في قرن؛ فإذا كان الفرس كذلك فهو الجواد السابق .
وقد قيل : إن خير الخيل الذي إذا مشى تكفأ، وإذا عدا بسط يديه، وإذا أدبر
جفاً، وإذا أقبل أقمى .

الصف الثاني

”البيغال“

وفيها نوعية في الخيل والحُمير؛ من حيث إنها تتولد بين حصان وأتان، أو بين
حمار وحجارة . وفيها النفيس المختار لركوب الرؤساء من العلماء ، والوزراء ،
والحكام وسائر رؤساء المتعممين . وإنه صلى الله عليه وسلم في يوم أحد كان راكباً
بغلةً ؛ ولولا شرفها ونفاستها وقيامها مقام الخيل لما ركبها النبي صلى الله عليه وسلم
في موطن الحرب . وألوانها وأسنانها على ما تقدم في الخيل .

(١) قد تكرر في هذا المقام تأنيث الجرباها، وفي القاموس مانصه : والجرباها من الخيل وبالهاء .

لحن ؛ قال شارحه : وهو عامى مسترذل ، ثم نقل عن الشهاب تصحيحه فتنبه .

ويستحسن فيها غالب ما يستحسن في الخيل ؛ وقد قيل : إن خيار ما يقتنى من البغال ما أشدّت قوائمه وعظمت قصرته ، وعنقه وهامته ، وصفت عيناه ، ورحب جوفه ، وعرض كفله ، وسلم من جميع العيوب والجلل .

ومما يستحسن في البغال دون الخيل : السفا ؛ وهو خفة شعر الناصية ؛ وأن يكون يديها ورجليها خطوط مختلفة ، جلّ ما تكون للسّنور . ويقال : إن خير ما يختار للسرّج والركوب البغال المصرية ، لأن أمهاتها عتاق وهجن ؛ وخيار ما يحتاج إليه للسرايا والمواكب والرّكض مع الخيل : بغال الجزيرة وإفريقية .

ومما ينبغي التنبيه عليه : أن في البغلات منها شدة محبة للدواب إذا ربطت معها ، وفساد للدواب إذا اعتادتها حتى يصير أحدهما لا يفارق الآخر إلا بمشقة .

ويحسن في البغال : الخصى ، وفي البغلات : التّحويص . ولا يُعاب ركوب شيء منها حينئذ إذا كان نفيسا .

الصنف الثالث

”الإبل“

ويشتمل الغرض منها على معرفة أنواعها ، وألوانها ، وأسنانها ؛ وما يُستقبح ويُستحسن من صفاتها .

أما أنواعها فإنها ترجع إلى نوعين .

الأول : البخاتي ؛ وهي جمال جفاة القدود ، طويلة الوبر ، تجلب من بلاد الترك .

الثاني : العراب ؛ وهي الإبل العربية وأصنافها لا يأخذها الحصر . وأما ألوانها

فترجع إلى ثلاثة أصول :

الأول : البياض ، فالجمل إذا كان خالص البياض قيل : آدم والأُنثى أدماء ^{من} الضد من بنى آدم ؛ فإن خالط البياض يسير شقرة قيل : أعيس والأُنثى عيساء .

الثاني : الحمرة ، فإن أحمر وغلبت عليه الشقرة قيل : أصهب والأُنثى صهباء ؛ فإن خلصت حمرة قيل : أحمر والأُنثى حمراء ؛ فإن خالط حمرة قو قيل : كمت ؛ فإن صفت حمرة قيل : أحمر مدمي ؛ فإن خالط الحمرة خضرة قيل : أحوى ؛ فإن خالطها صفرة قيل : أحمر رادني بكسر الدال ؛ فإن خالطها سواد قيل : أرمك والأُنثى رمكاء ؛ فإن كانت حمرة كصد الحديد قيل : أجأى .

الثالث : السواد ، فإن كان السواد فيه ضعيفا قيل : أكلف ؛ فإن خالط السواد صفرة قيل : أحوى ؛ فإن علق بسواده بياض قيل : أورق ؛ فإن زادت ورقته حتى أظلم بياضه قيل : أدهم ؛ فإن أشد سيواده قيل : جون ؛ فإن كان بين الغبرة والحمرة قيل : خوار والأُنثى خوارة .

وأما أسنانها فإنه يقال لولد الناقة عند الوضع قبل أن يعرف أذكر أم أنثى : سليل ؛ فإن بان أنه ذكر قيل : سقب ؛ وإن بان أنه أنثى قيل : حائل ، ثم هو حوار حتى ينطم ؛ فإذا فطم وفصل عن أمه قيل : فصيل ؛ وذلك في آخر السنة الأولى من وضعه ؛ فإذا دخل في الثانية قيل : ابن مخاض ؛ لأن أمه فيها تكون من المخاض — وهي الحوامل — والأُنثى بنت مخاض ؛ فإذا دخل في الثالثة قيل : ابن لبون ؛ لأن أمه فيها تكون ذات لبن والأُنثى بنت لبون ؛ وإذا دخل في الرابعة قيل : حيق ، لأنه يستحق أن يحمل عليه والأُنثى حقة ؛ فإذا دخل في الخامسة قيل : جدع والأُنثى جدعة ؛ فإذا دخل في السادسة قيل : ثني ، لأنه يلقى فيها شيبته والأُنثى ثنية ؛ فإذا دخل في السابعة قيل : رباع — بفتح الراء — لأن فيها يلقى رباعيته والأُنثى رباعية

بالتخفيف ؛ فإذا دخل في الثامنة قيل : سَدِيسٌ وَسَدَسٌ ، الذَكَرُ وَالْأُنْثَى فِيهِ سَوَاءٌ ،
 وَرَبْمَا قِيلَ : فِي الْأُنْثَى سَدِيسَةٌ ؛ فَإِذَا دَخَلَ التَّاسِعَةَ قِيلَ : بَازِلٌ ، لِأَنَّهُ فِيهَا يَبْزُلُ
 نَابُهُ ، وَالذَكَرُ وَالْأُنْثَى فِيهِ سَوَاءٌ ؛ وَقَدْ يُقَالُ فِيهِ : فَاطِرٌ ؛ فَإِذَا دَخَلَ فِي الْعَاشِرَةَ قِيلَ :
 مُخْلِيفٌ ؛ وَوَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ لِلْإِبْلِ ضَبْطٌ بَلْ يُقَالُ مُخْلِيفٌ عَامٌّ وَمُخْلِيفٌ عَامِينَ فَأَكْثَرُ ؛ فَإِذَا
 عَلَا السِّنُّ بَعْدَ ذَلِكَ قِيلَ فِيهِ : عَوْدٌ وَالْأُنْثَى عَوْدَةٌ ؛ فَإِنْ عَلَا عَنِ ذَلِكَ قِيلَ : حَقْرٌ ؛
 فَإِنْ تَكَسَّرَتْ أُنْيَابُهُ لَطُولَ هَرَمِهِ قِيلَ : ثَلْبٌ وَالْأُنْثَى ثَلْبَةٌ ؛ وَيُقَالُ فِي النَّاقَةِ إِذَا كَانَ
 فِيهَا بَعْضُ الشَّبَابِ : عَزُومٌ ، وَرَبْمَا قِيلَ : شَارِفٌ .

وَأَمَّا مَا يَسْتَحْسِنُ مِنْ صِفَاتِهَا فَقَدْ رَأَيْتُ فِي بَعْضِ الْمَصْنُفَاتِ أَنَّ كُلَّ مَا يَسْتَحِبُّ
 فِي الْفَرَسِ يَسْتَحِبُّ فِي الْبَعِيرِ خَلَا عَرَضَ غَارِبِهِ ، وَفَتْلَ مِرْقَقِهِ ، وَنَكْسَ جَاعِرَتِهِ
 وَهِيَ أَعْلَى الْوَرِكِ ، وَأَنْدِلَاقَ بَطْنِهِ ، وَتَفَرُّشَ رِجْلَيْهِ ؛ فَإِنْ ذَلِكَ يَسْتَحِبُّ فِي الْإِبْلِ
 دُونَ الْخَيْلِ .

وقد صرح الشعراء في أشعارهم بعدة أوصاف مستحسنة في الناقة .

منها : دقة الأذن ، وتحديد أطرافها ، وكبر الرأس ، وأستطالة الوجه ، وعظم
 الوجنتين ، وقنؤ الأنف ، وطول العنق وغلظه ، ودقة المدبج ، وطول الظهر ، وعظم
 السنام — وهي : الكوماء — وطول ذنبها ، وكثرة شعره ، غليظة الأطراف ، قليلة لحم
 القوائم ، ليست رهلة ، ولا مسترخية ؛ وأن تكون مع ذلك كثيرة اللحم ، ملساء الجلد ،
 تامة الخلق ، قوية ، صلبة ، خفيفة سريعة السير .

وأما كرمها فإنه يقال لكل كريم خالص من الإبل : هِجَانٌ مِنْ نِتَاجِ مَهْرَةٍ ؛ وَهِيَ
 قَبِيلَةٌ مِنْ قُضَاعَةَ بَالِغِينَ ؛ وَالْعَيْدِيَّةُ مَنْسُوبَةٌ إِلَى بَنِي الْعَيْدِ مِنْ قَبِيلَةِ مَهْرَةَ الْمَذْكُورَةِ ؛
 وَالْأَرْحَبِيَّةُ مَنْسُوبَةٌ إِلَى بَنِي أَرْحَبَ ؛ وَالغُرَيْرِيَّةُ مَنْسُوبَةٌ إِلَى غُرَيْرٍ ؛ وَهُوَ فِخْلٌ كَرِيمٌ

مشهور في العرب، والشَّدْقِيَّة منسوبة إلى شَدَقَم : فحل كريم أيضا، والجَدْبِيَّة منسوبة إلى جَدِيل : فحل كريم، والدَّاعِرِيَّة منسوبة إلى داعر : فحل كريم كذلك. قال في كفاية المتحفظ : والشَّدْنِيَّة منسوبة إلى فحل أو بلد .

الصفن الرابع

”المحير“

ومنها : النَّفِيسُ الغالى الثمن، وخيرها حُرُّ الديار المصرية، وأحسنها ما أتى به من صعيدها، وهي تنهى في الأثمان إلى ما يقارب أثمان أوساط الخيل، وربما يميز العالى القدر منها على المنحط القدر من الخيل . والأحسن فيها ما كان غليظ القوائم، تام الخلق، حديد النفس .

ولا عيب في ركوب الحمار ولا وهيصَّة^(١)، فقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم ركب الحمار، ولا عبرة بترفع^(٢) من ترفع عن ركوبه بعد أن ركب النبي صلى الله عليه وسلم .

النوع الثالث

ما يحتاج إلى وصفه من جليل الوحش وكريم صيوده، وهو أصناف

الصفن الأول

”جليل الوحش“

وهو ما يتخذهُ الملوكُ للزَّيْمَةِ وما في معناها . ويحتاج الكاتب إليه لوصفه في الهدايا

والمواكب، وما يجرى مجراها .

(١) لعل مراده رلا نقص، ولم تقف في مادة (رد ص) ولا (و ص) على هذا المعنى .

(٢) في الأصل : « برفع » .

والمعول عليه من ذلك خمسة أضرب :

الأول "الأسد" - ويجمع على أسد وأسد وأسود وآساد - ويقال له أيضا: الليث والضيفم ، والضرغام ، والميزبر ، والهيصم ، والهرماس ، والفرايفصة ، وحيدرة ، والتسورة ؛ وله أسماء كثيرة سوى هذه لا تكاد تدخل تحت الحصر ، حتى قال ابن خالوية : للأسد خمسمائة اسم . ويقال لولده . الشبل ، ولأنثاه : اللبوة .

قال ابن السندي في كتابه "المصايد والمطارد" : وإذا تأملت أصناف الحيوان وبحث صورها وما أعطيت من الأسايحة ومقادير الخلق ، وجدت الأسد أعظم خلقه ، وأكثر أيدية ، وأشد إقداما من جميعها ، ليست له غريزة في الحرب البتة .

ومن خصائصه وعجيب خلقه أن عظم عنقه عظم واحد ليست له نحرز عظام كما في غيره من الحيوان ، بدليل أنه لا يلوى عنقه ولا يلتفت ، ومع ذلك فهو يتلع الشيء العظيم . ولبونة لا تلد إلا جرّوا واحدا ، وإنها تضعه كالتحمة ليس فيه حس ولا حركة ، فتحرسه ثلاثة أيام ، ثم يأتي أبوه فينفخ فيه المرة بعد المرة حتى يتحرك ، ثم تأتي أمه فترضعه ؛ ولا يفتح عينيه إلا بعد سبعة أيام ؛ ويكتسب لنفسه بالتعليم من أبويه بعد ستة أشهر . وهو قليل الشرب للماء وإن كان لا يفارق الغياض ؛ وله صبر على الجوع ؛ ولكنه إذا جاع ساءت أخلاقه ؛ وليس يلقى رجيعة إلا مرة واحدة في اليوم ، ويرفع رجله عند البول كما يفعل الكلب ، ويبول إلى خلف كما تبول الجمال . وهو أشد السباع ضراوة على أكل بني آدم ؛ وإذا أفرس فريسة وأكل منها لا يعود إليها ؛ ولا يطا أثره شيء من السباع .

قال ابن السندي في "المصايد والمطارد" : ولا يأكل من فريسة غيره من السباع . وقد قيل : إنه يهرب من الهر ، ومن الجرو ، ومن الديك الأبيض ؛ وإنه إذا رأى

النار عرضت له فكرة أو رثته بهتة ؛ وأنه يهرب من عواء الجرو إذا عركت أذنه .
ويقال : إن جلده إذا جعل فيما يخاف عليه السوس من الثياب وغيرها أمن من ذلك ؛
وإنه إذا عمل منه وتر قوس وأضيف إلى أوتار من فرأء ومعى أو غيرهما أبطل أصواتها
وعلا صوته عليها . ومن طبعه أنه لا يشرب ماء ولغ فيه كلب وإن مات عطشا .

الثانى " الثور " - جمع تمر (بفتح النون وكسر الميم) ويجمع أيضا على أنمار
وتمسار ؛ والأثني تمرة . وهو حيوان مرقع اللون بسواد وبياض ، أقرب شئ من
خاقة الفهد ؛ وهو أخبث من الأسد ؛ لا يملك نفسه عند الغضب حتى انه ربما قتل
نفسه من شدة غضبه .

قال ابن السدى : وهو ودود لجميع الحيوان ، عدو للنسر ؛ وينام ثلاثة أيام .
والحيوان يظيف به ويميل إليه استحسانا لجلده .

وهو بينسان أحدهما : عظيم الجثة صغير الذنب ، والثانى : صغير الجثة
عظيم الذنب .

قال فى " المصايد والمطارذ " : ويصاد بالحمير لأنه يجيبها . قال : ومن أراد
قتله تمسح بشحم ضبع ودخل عليه فقتله .

الثالث " الكركدن " - بفتح الكافين وسكون الراء المهملة وفتح الدال المهملة
(١)
ونون مشددة فى الآخر .

قال الزمخشري فى " ربيع الأبرار " : وهو وحش يكون ببلاد الهند يُسمى
الجمار الهندى ، له قرن واحد فى جبهته يبلغ غلظه شبرين ، وهو محدد الرأس
إلا أنه ليس بالطويل ؛ وأنه إذا قطع ظهرت فيه صور عجيبة . وإنه ربما نطح

(١) سببه فى القاموس بتشديد الدال (أى وتخفيف النون) ، وقال : والعامية تشدد النون .

الفيل فبعجه بقرنه . وإن أنثاه تحمل سبع سنين ؛ وإنه إذا كان بأرض لم يدع شيئا من الحيوان حتى يكون بينه وبينه مائة فرسخ من جميع جهاته هيبته له وهربا منه .

الرابع " الفيل " - وهو حيوان يُؤتى به من بلاد الهند والحبشة .

قال الجاحظ : وهو من الحيوانات المائية وإن كان لا يسكن الماء . وهو من ذوات الخراطيم ، وخرطومه أنفه ، كما أن لكل شيء من الحيوان أنفا ، وهو يده ، وبه يتناول الطعام والشراب ، ومنه يُغنى ويمتز فيه الصوت كما يجره الزامر في القصبة بالنفخ . قال : وأصحابنا يزعمون أن بينه وبين السنور عداوة ، وأن الفيل يهرب منه هربا شديدا .

وذكر صاحب " الحيل في الحروب " ^(١) أنه يتصر عن صوت الخنزير وأنه بذلك يتفر في الحروب . وقد ذكر الجوزي : أن للفيل إقداما على السبع .

قال الجاحظ : وهو يعادى البعوض لأنه يتقرب جلده بقرصه ، ومن ثم يرى الفيل دائما يحرك آذانه ليطرد عنه الناموس . وهو مخصوص بخفة وقع قوائمه على الأرض إذا مشى ، حتى لو أن إنسانا كان جالسا وجاء الفيل من خلفه لما شعر به .

وذكر عبد القاهر البغدادي ^(٢) : أن الفيلة تحمل سبع سنين ، وقيل : سنتين ، وقيل : ثلاث قبل أن تضع ؛ وأن لسان الفيل مقلوب : طرفه داخل حلقه وأصله من خارج ، على العكس من سائر الحيوان ؛ وأن ثديها على كبدها ، وترضع أولادها من تحت صدرها .

(٢) لعله يقصو بالواو بدل الراء أى يبعد .

(٢) في حياة الحيوان : عبد اللطيف ، وسيأتي بعد صحائف على الصواب مرارا .

(٣) كذا في الأصل ، وعبارة حياة الحيوان : « ولا يذرو عليها إذا وضعت إلا بعد ثلاث سنين » .

وقد ذكر الغزالي: أن فرجها تحت بطنها، فإذا كان وقت الضراب ارتفع وبرز للفحل حتى يتمكن من إتيانها .

الخامس "الزرافة" (بفتح الزاي وضمها) وهي حيوان يؤتى به من بلاد الحبشة واليمن ، طويلُ اليدين ، قصيرُ الرجلين ، ذنبه وحوافره كذنب البقر وحوافيرها ، ورقبته ورأسه كرقبة الجمل ورأسه ، ولونه موشى بالبياض والصفرة .

قال الجاحظ : وقد زعموا أن الزرافة لتولد بين الناقة من نوق الحبشة وبين بقر الوحش وبين الذئب - وهو ذكر الضبَاع - وذلك أن الذئب يعرض للناقة فيسفدها قتلح بولد يحىء خلقه بين الناقة والضبع ، فإن كان الولد أنثى عرّض لها الثور الوحشى فيضربها فيأتى الولد زرافةً ، وإن كان ذكرا تعرّض للهاء فألقحها فيأتى الولد زرافة أيضا .

قال : ومنهم من يزعم أن الزرافة الأنثى لا تلّح من الزرافة الذكر ، ثم قال : وهذا مشهور باليمن والحبشة . ثم إن كانت أسنانها سودا دلت على هرمها ، وإن كانت بيضا دلت على حداثة سنّها .

ومن أمراضها : الكلب - وهو كالجنون يعترىها كما يعترى الكلب فيقتلها - وكل من عضته وهي على هذه الحالة قتله إلا ابن آدم فإنه ربما عوج فسلم . ومن أمراضها أيضا : الذبجة والنقرس .

الصنف الثانى

"مَعَلَّمَاتُ الصَّيْدِ"

وقد يعبر عنها بالضوّارى ، وهي كل ما يقبل التعليم من الوحوش كائنا ما كان ، حتى حكى عن السودانى القنّاص : أنه بلع من حدقه أنه ضرى ديبا حتى اصطاد به

الظباء وما دونها، وألفه حتى رجع إليه من ثلاثين فرسخاً، وضرى أسداً حتى أصطاد به حمر الوحش . ويقال : إن ابن عرس يجعل حبل في عنقه ويدخل على الثعلب فلا يخرج إلا به . وهي على ضربين :

الأول "الفهودة" - جمع فهد بكسر الهاء - وقد زعم أرسطوطاليس : أنه يتولد من أسد ونمرة أو من نمر ولبوة . وهو من السباع التي تصاد ثم تؤنس حتى تصيد . وهو من الحيوان المحدد الأسنان ، وأسنانه يدخل بعضها في بعض كالكلب وغيره . قال في "التعريف" : وأول من صاد به كسرى أنوشروان أحد ملوك الطبقة الأخيرة من الفرس . قال في "المصايد والمطارد" : ويصطادونه بضروب من الصيد : منها : الصوت الحسن ، فإنه يصغى إليه إصغاء شديداً .

ومنها : كده وإتعا به حتى يحمي ويبعا وينهر ويحفي ؛ فإذا أخذ غطيت عيناه وأدخل في وعاء ، وجعل في بيت مادام وحشياً ، ووضع عنده سراج ولازمه سائسه ليلاً ونهاراً ولم يدعه يرى الدنيا ، ويجعل له مرتباً كظهر الدابة يعود به ركبته ويضعه على يده فلا يزال كذلك حتى يتأنس ؛ فإذا ركب مؤخر الدابة فقد صار داجنا وصاد . وفي طباعه أمور :

منها : كثرة النوم حتى يضرب بنومه المثل فيقال : «أنوم من فهد» ، وكثرة الحياء حتى إنه لا يعلم أنه عاقل أنثى بين يدي الإنس ، وقد عني بمراعاته في ذلك فلم يوقف عليه ، وإن كان الأسد يفعل ذلك كثيراً .

ونقل ابن السندی عن بعض الفهّادة : أن سائسه إذا أمر به عليه اطمأن إليه ومال ، فإذا وضع يده على فرجه نقر وعضّ يده .

(١) الذي في معجم اللغة المنهد وراي فلس وجمعه فهود .

ومنها : الغَضْب حتى إنه إذا أرسل على صيد فلم يحصاه احتد؛ وان لم يأخذ سائسه في تسليته قتل نفسه أو كاد .

قال صاحب "المصايد والمطارد" : والمس من الفهود إذا صيد كان أسرع في الصيد من الجرو الذي يُربى ويؤدب . والأنثى أصيد من الذكر كعامة إناث الجوارح . قال : وليس شيء من الوحش في قدر حرم الفهد إلا والنهد أفضل منه . قال في "المصايد والمطارد" : وضد الفهد الظباء والوعول على اختلاف أجناسها .

الثاني "الكلاب" - جمع كلب ويجمع على أكلب أيضا وعلى كليب ، كعبد وعبيد . والأنثى كلبة ، وتجمع على كلبات بالفتح . وهو حيوان شديد الرياضة ، كثير الوفاء مشترك الطباع بين السبع والبهيمة ، لأنه لو تم له طباع السبعية لما ألف الناس ، ولو تم له طباع البهيمية لما أكل اللحم . ويقال : إنه يحتمل وأثناء تحيض ، وتحمل أثناء ستين يوما ، وربما حملت أقل من ذلك . ويسفد بعد سنة ، وربما تقدم على ذلك ، ولها عند السفاد اشتباك عظيم . وإذا سفد الأنثى كلبان مختلفان أتت من كل واحد بلونه . وفيه من اقتفاء الآثار وشم الرائحة ما ليس لغيره من الحيوان . والميئة أحب إليه من اللحم الغريض .

ومن طبعه : انه يحرس صاحبه شاهدا أو غائبا ، ذا كرا أو غافلا ، ونائما أو يقظان . وهو أيقظ حيوان في الليل ؛ وإذا نام كسر أجفان عينيه ولا يطبقها لحفة نومه . ومن عجيب شأنه أنه يكرم الرئيس من الناس فلا ينبحه وإنما يبع أو يباش الناس .

ومن طبعه أن الضبع إذا مشت على ظله في القمر رمى بنفسه بين يديها فتأكله ، وإذا ظفر بكلب غريب كاد يفترسه .

وقد أجاز الشارع آتخاذها للصيد ونحوه ، وأباح صيدها مع نجاسة عينها .
قال في "التعريف" : وأول من آتخذها للصيد داراً أحد ملوك الفرس . قال
في "المصايد والمطارد" : وإذا كسر الكلب الأرناب فهو نهاية وإن كان يطيق
فوق ذلك . والكلب يمسك لصاحبه ، ولذلك لا يأكل من الصيد بخلاف سائر
الجوارح . قال : وإنثاها أسرع تعلماً من الذكور ، وأطول أعماراً حتى إنها تعيش
عشرين سنة .

ومن خاصية الكلب : أنه إذا عاينَ الظباء قريبةً كانت أو بعيدة عرف منها العليلَ
من غيره ، والعز من التيس ؛ فيتبع التيس منها دون العنز وإن كان التيس أشدَّ عدواً
وأبعد وثبةً ، لأنه يعلم أن التيس إذا عدا شوطاً أو شوطين غلب عليه البول ولا يستطيع
إرساله في عدوه فيقلُّ عند ذلك عدوه ويقصر مدى خطاه فيدركه الكلب ؛ بخلاف
العنز فإنها إذا اعتراها البول أرسلته لسعة مسيله ؛ والكلب يعرف ذلك كله طبعاً ،
وكذلك يعرف بحجرة الأرناب والثعالب ، وإن ركبها الثلج والجليد بشمه فيقف عليه
ويشير ما فيها من الوحش ؛ وإذا صعد منه أرنبٌ إلى أعلى جبل شاهق كان له من
التلطف في الارتقاء والصعود ما لا يلحقه غيره ، بل لا يخفى عليه من الصيد الميت
من المتأوت .

ومن خصائص الأنثى : أنها تحمل ستين يوماً ويبقى جروها بعد الولادة اثني عشر
يوماً أعمى ؛ وأكثر ما تضع ثمانية أجراء ، وربما وضعت واحداً فقط . ورأس الكلب
كله عظمٌ واحد . والكلب يطرح مقادير أسنانه ويخلفها ، ولكنه لا يظهر لكثير من
الناس لأنه لا يلقى منها شيئاً حتى ينبت في مكانه غيره . والفرق بين الذكر والأنثى
أن الذكر إذا أدرك يرفع رجله عند البول والأنثى تبول مُقعبة وربما رفعت رجلها ؛
والذكر يهيج للسفاد في السنة قبل الأنثى ؛ وأسنان الذكر أكثر ومضغه أشد .

قال الجاحظ : وخير الكلاب ما كان لونه يذهب إلى لون الأسد بين الصفرة والحمرة، ثم البيض اذا كانت عيونها سوداء . وذكر صاحب "المصايد والمطارد" : أن الأبيض أفره، والأسود أصبر على الحر والبرد .

ومن علامة النجابة والفراهة فيه : أن يكون تحت حنكه طاقة شعر مفردة غليظة، وأن يكون شعر حذيه جافيا . ومن علامة الفراهة : طول ما بين يديه ورجليه، وقصر ظهره، وصغر رأسه، وطول عنقه، وغضف أذنيه، وبعد ما بينهما، وزرقة عينيه، وضخامة مقلتيه، وتواء حدقته، وطول خطمه وذقنه، وسعة شدقه، وتواء جبهته وعرضها .

ويستحب فيه : أن يكون قصير اليدين، طويل الرجلين، طويل الصدر غليظه، قريبه من الأرض، ناتي الزور، غليظ العضدين، مستقيم اليدين، منصم الأظافر، عريض ما بين مفاصل الأعطاف، عريض ما بين عظمي أصل الفخذين مع طولها وشدة لحمها، دقيق الوسط، مستقيم الرجلين، قصير الساقين، غير مخني الركبتين، قصير الذنب إن كان ذكرا مع دقة وصلابة . وإن الكلبة إذا ولدت واحدا كان أفره من أبويه، وإن ولدت اثنين كان الذكر منهما أفره من الأنثى، وإن ولدت ثلاثة فيها أنثى في شبه الأم كانت أفره من الثلاثة، وإن كان في الثلاثة ذكر واحد كان أفرهما، وإذا ألقيت الجراء وهي صغار في مكان ندى فأبها مشى على أربع فهو أفره .

ومن أعظم أدوائها : الكلب - فتح اللام - وهو داء كالجنون يعترى الكلب يؤثر فيمن عضه أنه يخرج من ذكراه جراء صغار .

ومن عجيب ما يحكى في ذلك : أن رجلا عضه كلب فلقاه بكه فأصابته أسنانه وأبماه، فشمركه ساعة ثم نشره فتساقط منه جراء صغار .

ثم كلاب الصيد على ضربين : سَلُوقِيَّة (بفتح السين) وزُغَارِيَّة (بضم الزاي) .
 فأما "السُّلُوقِيَّة" فمنسوبة إلى سَلُوق : بلدة من اليمن ، كما قاله صاحب "المصايد
 والمطارِد" والمؤيد صاحب حماه في تقويم البلدان ، والمقر الشهابي ابن فضل الله
 في "التعريف" .

قال في "التعريف" : وهي مولدة بين الثعالب والكلاب ، ولذلك لا تقبل التعليم
 إلا في البطن الثالث منها ، قال : ولها سلاح جيد . قال في "المصايد والمطارِد" :
 ولها أنساب كأنسب الخيل ، قال : وقل أن يعرض لها مرض الكلب .
 وأما "الزُّغَارِيَّة" فهي ألطف قدا من السُّلُوقِيَّة ، ولم أدر إلى ماذا تُنسب .

الصنف الثالث

ما يعتنى بصيده من الوحش ، والمشهور منه عشرون ضربا

الأول "الجمارة العتابية" وهي حيوان في صورة البرذون موثى الجلد بالبياض
 والسواد يروق الناظر حسنها . وقد كان أهدي للظاهر برقوق - سقى الله عهده -
 جمارة من هذا النوع ، فأقامت مدة ، ثم أعطاها فقيرا من فقراء العجم فكان يركبها كما
 تركب الخيل والخير ويمشي بها في القاهرة ، ثم عوضه الناصر بن الظاهر سلطان العصر
 عنها عوضا ، وأعتادها منه ، وأرسلها في هدية لابن عثمان صاحب بلاد الروم غربى
 الخليج القسطنطيني .

الثاني "البقر الوحشية" - وتعرف بالمها ، وهي دون البقر الأهلية في المقدار ،
 ولها قرنان في رأسها ، في كل قرن منهما شعب ، وهي من جليل الصيد ، ويقال للفتى
 منها : المها ، وبها يضرب المثل في حُسن العيون وسوادها .

ومن طبعه : الشَّبَقُ وشِدَّةُ الشهوة ، ولذلك إذا حملت أنثاه هربت منه خوفاً من تعبته بها وهي حامل ؛ وربما ركب الذكر الذكر لشدة شبقه .

قال صاحب "المصايد والمطارد" : وكل إناث الحيوان أرق صوتاً من الذكور إلا البقر الوحشية فإن الأنثى أنخم صوتاً وأظهر من الذكر . ومواضعها من البرية : الوهجات ، وما أستوى من الأرض ودنا من الماء والعُشب ، وليست مما يسكن الجبل ؛ ولذلك عيب في ذلك محمد بن عبد الملك الزيات كاتب المعتصم ووزيره حيث وصف ثورا من ثيرانها برعيه في الجبل .

وهي مما يُصَاد بالطرد على الخيل . ويقال : إن أول من طردها على الخيل ربعة ابن زرار بن معد بن عدنان ، فإنه أول من ركب الخيل على قول ؛ ولما ركبها رأى بقرة وحشية فطردها فلجأت إلى مكان يمكنه أخذها منه ، فرق لها وتركها . ويقال : إن من الكلاب ما يتسلط عليها ويتعلق بها ؛ وأقدر معين له عليها من جوارح الطير العقاب . قال ابن السندي : ودمها أسرع إلى الجمود من دم سائر الحيوان .

الثالث "الحمر الوحشية" - ويقال للأنثى من حمر الوحش : أتان ، وللذكر : حمار وعير ، كما يقال في الحمر الإنسية ؛ وربما قيل : الفراء ؛ وهو من أشد الصيد عدواً ، ولذلك يُضرب به المثل فيقال : « كَلَّ الصَّيْدِ فِي جَنْبِ الْفَرَا » أو في جوف الفراء . وبه تشبه العرب خيلها وإبلها في السرعة . ويقال : إن الحمار الوحشي لا يتزو إلا إذا كان له من العمر ثلاثون شهراً ؛ وإن الأنثى لا تلقح منه حتى يتم له ثلاث سنين ، وقيل ستان وستة أشهر . ويوصف بشدة الغيرة على أُنثاه حتى يقال : إن فيها ما إذا وُلِدَ له ولد ذَكَرٌ كَدَّمَ قِصِيْبَهُ وَخُصِيْبَهُ حَتَّى يَقْطَعَهُمَا .

قال في "المصايد والمطارد" : وليس يتعلق به شيء من الضواري ولا الجوارح إلا العقاب ؛ ولا شيء أبلغ في صيده من الرمي بالنشاب .

الرابع "الغزلان" ويقال : لها الظباء (بكسر الظاء) واحدها ظبي . ثم الظباء على ثلاثة أضرب :

أحدها : البيض ، ويقال لها : الآرام جمع رثم ، ومساكنها الرمل ، ويقال : هي ضأن الظباء .

وثانيها : الأدم ، وهي ظباء سمر الظهور ، بيض البطن ، طويلة الأعناق والقوائم ، وهي أسرعها عدواً ، ومساكنها الجبال والشعاب .

وثالثها : العفرب ، وهو صنف يعلوه مع البياض حمرة ، قصار الأعناق ، ومسكنها صلاب الأرض .

ويصيد جميعها الفهد والكلب والعقاب ، وتُصَاد أيضاً بالحباله والشرك ، وربما صيدت بإيقاد النار بإزائها ، لأن الظبي إذا رأى النار في الليل تأملها وأدمن النظر إليها وعشى بصره وذهل ، وقد يُضاف إلى النار تحريك جرس ونحوه فيزداد ذُهوره فيؤخذ ، وتُصَاد بأمور أخرى غير ذلك .

الخامس "الأيابيل" جمع أيبل (بضم الهمزة وتشديد الياء المشناة تحت ولام في الآخر) . وهو حيوان قريب الشبه من الظباء ، له قرنان في رأسه كالظبي .

قال في "المصايد والمطارد" : وهو معتصم بالجبل قلماً يحل السهل ، وقرونه مضمّنة لا تجويف فيها ، ويختلفها في كل عام غيرها ، ويتدّى في ذلك بعد مضي سنتين من ولادته ، وله أربع أسنان في كل ناحية من ناحيتي فيه ، وذكره عصب لا لحم فيه ولا غضروف ولا عظم ، ودم كل حيوان يجمد إلا دمه ، وليس للأُنثى منها قرون البتة ، وأصوات ذكورها أحمد من أصوات إناثها ، وهو يرنح لسماح الغناء . وإذا

مر بشجرة الزيتون ذلّ لها ، ويأكل الحيات ولا يضره سمها . وسياتي في الكلام على الأحجار أن البادزهر الحيواني من صنف منه .

ومن خواصه : أنه إذا نخر بقرنه مع كبريت أحمر هربت الحيات .

السادس "الأرنب" - جمع أرنب ، والأرنب مؤنثة^(١) ، وهي حيوان صغيرة الجثة قصيرة اليدين قريب من لون الثعلب ، وليس شيء مما يوصف بقصر اليدين أسرع منها .

ومن خصائصها : كثرة الشعر حتى إنه لينبت في بطون شدقيها وتحت رجليها . وقضيب ذكر الأرنب من عظم ، وربما ركب الأنثى الذكر في السفاد . ولا ينام الأرنب إلا مفتوح العين . ومن طبيعتها أنها تظأ الأرض بباطن كفها لتعفى أثرها ، إلا أن الكلب الماسر يدرك أثر قوائمها .

ومن شأنها : ألا تأوى إلى ساحل البحر ، وإذا طردت لجأت إلى الجبال واشتد عدوها فيها ، والأنثى لا تسمن ، وهي عند العرب مما يجيض ، وتُسفد وهي حبلية ، وتلد الأول والثاني على ما في بطنها .

السابع "الذئب" - جمع ذئب ، وهو حيوان في صورة الكلب في لونه نلق بكودة ، والذئبة أجراً من الذئب وأشدّ عدواً ، وأسنانه عظم مخلوق في فكبه ليست مغروسة فيهما كسائر الحيوان .

قال ابن السندی : وأخبرني أبو بكر الدقيشي أن هذه الحلقة في أسنان الضبع أيضا . والذئب صاحب خلوة وأنفراد ، ومتى رأى الإنسان قبل أن يراه أخفى صوته ، وإن رآه جزع منه احتراً عليه وساوره . وإذا تسافد هو وأنشاه

(١) في المصباح : ويقع على الذكر والأنثى ، وقد يزنت بالهاء .

التحما التحاما شديدا حتى يقال : إنه اذا هجم عليهما داخل في هذه الحالة قتلها
 كيف شاء ، ولذلك يبعدان في هذه الحال إلى مكان لا يُريَان فيه . وإذا تهارش
 ذئبان فأدمى أحدهما الآخر عدا الذي أدمى على المدمى فقتله خوفاً من أخذ النار ؛
 وإذا عجز الذئب عن الدفع عوى فاجتمع إليه الذئاب نُصرةً له ؛ وإذا لقي الفارس
 والأرض مثلوجة تحمّس الثلج بيديه ورمى به في وجه الفارس ليدهشه ثم يعقر دابته
 فيتمسك منه ؛ ومتى وطئ الفرس أثر الذئب رعدٍ ونخرج الدخان من جسده كله ؛
 ولذلك قلَّ مَنْ يطرد من الفُرسان ولا يتفطن لوطء أثره . ويصاد بالكلاب وغيرها ؛
 وقد تقدّم أن السودانيّ ضرّي ذئبا حتى أصطاد له الأطباء .

النامن "الثعالب" - جمع ثعلب ؛ وهو حيوان معروف ، موصوف بكثرة الروغان
 في عدوه وبالحيل حتى إنه يتماوت عند رؤية الغراب فينزل عليه الغراب على ظنّ
 موته لياكل منه فيقبضه هو . ومن خُبثه وحيلته يختلط بكار الوحوش وجلتها .

قال في "المصايد والمطارد" : ومن فضائله تشبيههم مشية الخيل بمشيته التي
 يقال لها : الثعلبية .

ومن عجائبه : أن قضيبه في خلقة الأنبوبة ، أوسطه عظم في صورة الثقب والباقي
 عصب ولحم . وهو كريم الوبر ؛ والأسود من وبره في الغاية القصوى ، والأبيض منه
 لا يكاد يفرق بينه وبين الفنك .

ومن خصائصه : أنه يتمرغ في الزرع فلا ينبت موضعه ؛ وربما سفد الكلبة
 فولدت كلبا في خاتمة السلوقي الذي لا يقدر على مثله ؛ وقد تقدّم ذكر ذلك
 في الكلام على الكلاب السلوقية . ومواضعه الكروم والآجام . ويصيده الفهد
 والكلاب وجوارح الطير .

التاسع "الضَّبَاع" - جمع ضبيع - ويقال لها : أمُّ عامرٍ ، وهي مما يؤكل وإن كانت من ذوات الناب لورود النص بذلك . وتزعمُ العرب أنها تكون سنة ذكراً وسنة أنثى .

ومن خصائصها : أنها إذا رأت الكلب في ليلة مقمرة على سطح ووطئت ظله رقع فأكلته . وإذا أقتحم عليها مقتحم وجارها وقد سدَّ جميع منافذ جحرها حتى يمنع منه الضوء فلا يبقى فيه خرم إبرة ، ربطها بحبل وخرج بها ، وإن بقي ما يدخل منه الضوء ، ولو قد رَسَمَ إبرة وثبت عليه فأكلته ومن كان معه شيء من النخل لم تقرب به الضبيع .

العاشر "سِنَّور البر" - وهو التفا . وفي حله عند الشافعية وجهران ، أحدهما التحريم . وصيده يحتاج إلى علاج كبير ، وربما وثب على وجوه الناس ، يطير به بالخيال من أعسر الطراد ، وأولى ما يُصَاد به الرمي . ومنهم من يعتنه في السبع .

قال في "المصايد والمطارد" : وَقَلَّمَا أَنْتَفِعَ بِهِ فِي صَيْدٍ إِلَّا أَنَّهُ يَثْبُ عَلَى الْكُرْكِيِّ وَمَا فِي مَقْدَارِهِ مِنَ الطَّيُورِ فِيصَيْدُهُ . أما السِّنُّور الأثلي ، وهو الهر المعروف ، فغير ما كُول ولا يصيد إلا الفأر وما في معناه من خَشَاش الأرض ؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم في الهِرَّة : "ولكنها من الطَّوَّافِينَ عَلَيْكُمْ" بمعنى أنها تطوف على النَّائم في بيته فتقبض ما لعله يسرح عليه من الخَشَاش .

الحادي عشر "الدُّب" - وهو حيوان قريب في الصورة من السبع ، وهو يسكن الجبال والمغائر ، والأثني ترفع ولدها أياماً هرباً به من الذر والنمل لأنها تضعه كقطعة لحم ، فلا تزال تنقله وتراعيه حتى تستد أعضاءه ، وتجعله تحت شجرة الجوز وتصعدُها فتجمع الجوز في كفها ثم تضربُ ايمنى على اليسرى وترمي إليه ، فإذا شبع نزلت ؛

وربما قطعت من الشجرة العود الذي يعجز الناس عنه وتقبض عليه في موضع مقبض العصا وتشد به على الفارس وغيره فلا تُصيب به شيئاً إلا أهلكته .

ومن خصيسته : أنه يستتر في الشتاء فلا يظهر إلا في الصيف بخلاف سائر

الحيوان .

الثاني عشر "الختير" - وهو حرام بنص القرآن، نجس في مذهب الشافعي رضي الله عنه قياساً على الكلب، بل قالوا: إنه أسوأ حالاً منه لعدم حل آقتائه، إلا أنه مباح القتل فيكون في معنى الصيد. وهو حيوان في نحو مقدار الحمار وشعره كالإبر؛ وله نابان بارزان من فكه الأسفل .

ومن خاصته : أنه لا يُلقَى شيئاً من أسنانه، بخلاف سائر الحيوان فإنها تلتق أسنانهما خلا الأضراس . وهو كثير السَّفاد كثير النسل، حتى إنه ربما بلغت عدة خنائيه^(١)، وهي أولاده، اثني عشر^(١) خصوصاً .

قال في "المصايد والمطارد" : وهو من الحيوان البري الجاهل الذي لا يقبل التأديب والتعليم، ويتقبل السَّمَنَ سريعاً، ويقال إنه إذا جعل بين الخيل سَمِنت .

الثالث عشر "السَّمور" - بفتح السين وبالميم المشددة المضمومة على وزن السَّفود والكَّؤوب؛ وهو حيوان برّي يشبه السَّنور، وقد يكون أكبر منه .

قال عبد اللطيف البغدادي : وهو حيوان جرىء ليس في الحيوان أجراً منه على الإنسان، لا يُصاد إلا بِالْحَيْل . ووقع للنووي في "تهذيب الأسماء واللغات" : أن السَّمور طير؛ ولعله سبق قلم منه . وأغرب ابن هُشام البستي في "شرح الفصيح" فقال : إنه ضرب من الجن . والتحقيق أنه من جملة الوحوش كما تقدم . وحكمه

(١) في الأصل : بالسين وهو تصحيف، أنظر كتب اللغة .

حُلُّ أكله . ومنه يتخذ نفيس الفراء التي لا يلبسها إلا الملوك وأكابر الأعيان ممن يدانى الملوك لحُسْنها وِدْفائها ، وأحسنه ما كان منه شديد النعومة مائلا إلى السواد .
الرابع عشر "الفنك" - بفتح الفاء والنون - وهو دُوَيْبَةٌ لطيفة لها وبر حسن أبيض يخالطه بعض حمرة يُتَّخَذُ من جلوده الفراء .

قال ابن البيطار : وفروه أطيب من جميع الفراء ، ومزاجه أبرد من السمور وأحر من السنجاب ، ويصلح للأبدان المعتدلة ، قال : وكثيرا ما يُجَلَّبُ من بلاد الصقالبة

الخامس عشر "القاقم" - بتأنيث الثانية منهما مضمومة - وهو دُوَيْبَةٌ في قدر الفأر لها شعر أبيض ناعم ، ومنه يُتَّخَذُ الفراء . وهو أبرد مزاجا وأرطب من السنجاب ، ولذلك كان لونه البياض ، وهو أندر قيمة من السنجاب .

السادس عشر "الدلق" - بفتح الدال المهملة واللام وقاف في الآخر - فارسي معرب ، وهو دُوَيْبَةٌ تقرب من السمور .

قال عبداللطيف البغدادي : وهو يفترس في بعض الأحياء ويكرع في الدم . وذكر ابن فارس : أنه الثمس . وقد ذكر الرافعي أنه يسمى : ابن مقرض ، والمعروف أن الدلق حيوان يتخذ منه الفراء .

السابع عشر "السنجاب" - وهو حيوان أكبر من الفأر روبره في غاية النعومة وجلده في نهاية القوة . وحكمه الحُلُّ ، وقال بتحريره بعض الحنابلة . ويتخذ من جلده الفراء النفيسة التي يلبسها أعيان الناس ورؤسائهم

ومن شأنه : أنه إذا أبصر الإنسان صعد الشجر العالى ، وفيها يأوى ، ومنها يأكل . وهو كثير ببلاد الفرنج والصقالبة ، وأحسن ألوانه الأزرق ، ثم إنه يقال

إنه ربما تبقى زُرْقَتُهُ^(١) لأنه يُخْنَقُ ولا يُدَشِّقُ ، فإن صح ذلك فهو ميتة لا يطهرُ شعره بالدباغ على أظهر القولين من مذهب الشافعي رضي الله عنه خلافا للأستاذ أبي إسحاق الأسفرايني وابن أبي عَصْرُونِ فإنهما يريان طهارة الشعر بالدباغ وهو رواية الربيع الجيزي عن الشافعي بأختاره الشيخ تقي الدين السبكي رحمه الله .

الثامن عشر "سَنُورُ الزَّبَادِ" — وهو في صورة السَّنُورِ الأَهْلِيِّ إلا أنه أطول ذنبا منه وأكبر جُمَّةً ، ولونه إلى السواد أميل ، وربما كان أغمراً ، وهو يُجَلَّبُ من بلاد الهند والسند ، والزَّبَادُ فيه شبهة بالوسخ الأسود النرج ، ذِفِرُ الرَّائِحَةِ ، يخالطه طيب كطيب المسك ، ويوجد في باطن إبطه ، وباطن أنخاذه ، وباطن ذنبه ، وحول دُبُرِهِ ، فيؤخذ من هذه الأماكن بملقعة ونحوها .

التاسع عشر "السَّنُورُ الأَهْلِيُّ" — وهو الهتر — ويقال في أصل خلقه : إن أهل السفينة شكوا إلى نوح عليه السلام ضرر الفأر فمسح على وجه الأسد بيده فعطس فخرج السَّنُورُ من أنفه ، ولذلك هو يشبهه في التكوين وكيفية الأعضاء ، وفيه مشاركة للإنسان في خصال :

منها : أنه يَعِطُسُ ، ويتشاءب ، ويتناول الشيء بيده ، ويأكل اللحم ، ويمسح وجهه بلعابه كأنه يغسله ، وإذا آتسخ شيء من بدنه نظفه ، وإذا قضى حاجته خبأ ما يخرج منه ، ويسمُّهُ حتى تخفى رائحته . ويقال : إنه يفعل ذلك كيلا يشمه الفأر فيهرب ، وهو يهيج للسَّفَادِ في آخر الشتاء ، ويكثر الصباح حينئذ ، وتحمل الأنثى منه مرة في السنة ، وتقيم حاملا خمسين يوماً ، وإذا ألف منزلاً منع غيره من السنازير من الدخول إليه ، وإذا طرده أهل البيت تلمت لهم وترقق ، وإذا اختطف شيئاً هرب به خوف المعاقبة عليه .

(١) كذا بالأصل .

والهترة إذا جاءت أكلت أولادها، ويقال : إنها تفعل ذلك من شدة الخنق .
وقد ذكر القزويني : أن نوعا من السناير له أجنحة كأجنحة الخفافيش متصلة من
أذنها إلى ذنبا .

العشرون "النمس" — قال الجوهري : وهو دويبة عريضة كأنها قطعة قديد ،
تكون بأرض مصر تقتل الثعبان ، والنمس بمصر معروف ، وهو حيوان قصير اليدين
والرجلين أغبر اللون ، طويل الذنب ، يصيد الدجاج ، وإذا رأى ثعبانا قبض عليه
وقتله ، وربما صيد وأنس فتأنس .

فإذا علم الكاتب صفات الوحوش وخصائصها ، عرف كيف يُورد الجليل منها
من الأسد والفيل ونحوها موارد في الوصف ، وكيف يصف ضواري الصيد كالقنبر
وكيف يصف وحوش الصيد كالظباء ، وبقر الوحش ، وحمر الوحش وغيرها ؛
وكذلك ما يقع من التشبيهات بشيء من الحيوان كما قال بعض الشعراء :
وتجتنب الأسود وروود ماء * إذا كان الكلاب يلفن فيه
وكما أنشد الجاحظ :

جاءت مع الأفشين في هودج * تُرْجِي إلى البصرة أجنادها
كأنها في فعلها هيرة * تُرِيد أن تأكل أولادها

مشيرا بذلك إلى ما تقدم من أكل الهترة أولادها ، وغير ذلك مما يجري هذا
المجرى ؛ وسيأتي ذكر ما في معنى ذلك من الرسائل المتعلقة بأوصاف الحيوان في المصنعة
العاشرة الممتدة لذلك إن شاء الله تعالى .

النوع الرابع

فما يحتاج إلى وصفه من الطيور

ويحتاج الكاتب إلى ذلك في رسائل الصيد، وإهداء الجوارح، والجواب عن إهدائها، وكتابة قدم البندق، وما يجري مجرى ذلك، وهو على أربعة أصناف .

الصنف الأول

"الجوارح"

وهي يُصَاد بها الطير والوحش، ويحتاج الكاتب إلى وصفها في الرسائل السيدية وفي إهداء شيء من الجوارح أو الجواب عنها .

واعلم أن الصائد الكبير الجئنة المعتبر في الصيد في جميع أجناس الجوارح هي الإناث، أما ذكورها فإنها أطف في المقدار وأضعف في الصيد على ما يأتي بيانه فيما بعد إن شاء الله تعالى .

قال في "التعريف" : ويستحب في الجوارح كبرها ممتها، ونبو صدرها، واتساع حماليقها، وقوة إبصارها، وحادّة مناسرها، وصفاء ألوانها، ونعومة ريشها، وقوة قوادمها، وتكاثف خوافيها، وثقل مملحها، وخفة وثباتها، واشتدادها في الطلب، ونهمها في الأكل، وقد قسمها في "التعريف" إلى قسمين : صقور ونبزاة، وفرق بينهما بأن الصقر ما كان أسود العين، والباري ما كان أصفر العين على اختلاف المسميات، ثم قال : أما العنّاب فإنه لا يعد في الصقور ولا في النبزاة وهو معدود في الجوارح، وفي الطير الجليل . وبالجملة فالجوارح على ثلاثة أقسام :

القسم الأول

”العقاب“ ، وهو ضربان

الضرب الأول - المخصوص باسم العقاب وهي مؤنثة لا تدكر ، وتجمع على
عقبان وأعقب .

قال في ”المصايد والمطارد“ : وهي من أعظم الجوارح ، وليس بعد النسر
في الطير أعظم منها ، وأصل لونها السواد .

فمنها : سوداء دجوجية ، وخدارية ، وهي التي لا بياض فيها .

ومنها : البقاء ، وهي التي يخالط سوادها بياض .

ومنها : الشقراء ، وهي التي في رأسها نقط بياض . قال أبو عبيدة ويونس :

ويقال لذكر العقاب الغرن - بفتح الغين والراء المهملة - ويقال : إن ذكور
العقبان من طير آخر لطيف الحرم لا تساوى شيئا ، تلعب بها الصبيان . والعقاب
من أسرع الطير طيرانا ، فقد حكى أن عقابا حملت كف عبد الرحمن بن عتاب
ابن أسيد المسمى ببعسوب قريش المقتول يوم الجمل بالكوفة ، فألقته بمكة فأخذت
فوجد بها حلقة فعرف أنها كفه ، وأرخ ذلك الوقت فتبين أنها ألقته يوم الجمل
الذي قتل فيه .

وأقول من صادها أهل المغرب ، فلما نظرت الروم إلى شدة أمرها وإفراط

سلاحها قال حكماؤهم : هذا لا يفي خيره بشره .

وصفة الوثيق النجيب منها : وثاقه الخلاق ، وثبوت الأركان ، وحمرة اللون ،

وغشور العين بالحماليق ، وأن تكون صقعا ، شجرا ، لا سيما ما كان منها من أرض

سرت أو جبال المغرب . وهي تصيد الطباء والتعاليب والأرانب ، وقد تصيد حمرا

الوحش؛ وطريق صيدها إيّاها إذا نظرت حمار الوحش رمت بنفسها في الماء حتى يتلّ جناحها ثم تخرج فتقع على التراب فتحمل منه ومن الرمل ما يعلّق بهما، ثم تطير طيرانا ثقيلًا حتى تقع على هامته فتصقّق على عينيه بجناحيها فيمئلان ترابًا من ذلك التراب الذي علّق بجناحيها، فلا تستطيع المسير بعد ذلك فيدركها القانص فيأخذها وربما كسرت الآدمي.

ومما يحكى في ذلك: أن قيصر ملك الروم أهدى الى كسرى ملك الفرس عقابًا، وكتب إليه: إنها تعمل أكثر من عمل الصقور؛ فأمر بها كسرى فأرسلت على ظني فاقنصته، فأعجبه ما رأى منها فانصرف وجوعها ليصيد بها فوثبت على صي له فقتلته؛ فقال كسرى: إن قيصر قد جعل بيننا وبينه دماء نائرا بغير جيش، ثم إن كسرى أهدى إلى قيصر نمرًا وكتب إليه: أن قد بعثت إليك فهذا يقتل الضباء وأمثالها من الوحش، وكنتم ما صنعت العقاب، فأعجب قيصر حسن النمر ووافق صفته ما وصف من الفهد، وغفل عنه فافترس بعض فيثانه فقال: صادنا كسرى. ومن شأنها: أنها لا تطلب شيئًا من الوحش الذي تصيده؛ وهي لا تقرب إنسانا أبدا خوفًا من أن يطلب صيدها، ولا تزال مرقبة على مرقب عال؛ فإذا رأت بعض سباع الطير قد صاد شيئًا أنقضت عليه، فإذا أبصرها هرب وترك الصيد لها؛ فإن جاءت لم يمتنع عليها الذئب في صيدها، وربما أغتالت البزاة فقتلتها.

ومن خصائصها: أنها أشد إخفاء لفراخها من سائر الطير.

قال غطريف بن قدامة النساني صاحب صيد هشام بن عبد الملك: وأول من لعب بالعقاب أهل المغرب؛ فلما عرفوا أسرارها نفذوها إلى ملك الروم

فاستدعى جميع حكامه فقال لهم : أنظروا في قوة هذا الطير وعظم سلاحه ، كيف تجب تربيته ، وتعرفوا أسراره في صيده وتعليمه ، وكيف ينبغي أن يكون؟ فأجابوا جميعا : بأن هذا الطائر دون سائر أجناسه كالأسد في سائر الوحوش وكما أن الأسد ملك كذلك هذا ملك بين سائر سباع الطير . وعند العداوة والغضب كل الأجناس عند من سائر الحيوان على اختلاف أنواعه واحد لقوة غضبه وشدة بأسه فهو لا يستعظم الآدمي ولا غيره من الحيوان .

الضرب الثاني : ”الزُّجَّجُ“ — بضم الزاي وفتح الميم المشددة ثم جيم — والعامة تبدل الزاي جيا والجيم زايا ، وهو طائر معروف تصيد به الملوك الوحش ، وأهل البيزة يُعدونه من خفاف الطير الجوارح ، إلا أنهم يصفونه بالغدر وقلة الإلف لكثافة طبيعه وكونه لا يقبل التعليم إلا بعد بقاء .

ومن عادته أنه يصيد على وجه الأرض ، وأحسن صفاته أن يكون أحمر اللون .

وقال الليث : الزُّجَّجُ طائر دون العقاب حمرة غالبه ، والعجم تسميه ذُرِّيَّ دَرَّانَ ، ومعناه أنه إن عجز عن الصيد أعانه عليه أخوه .

القسم الثاني

من الجوارح ”البزاة“ وهي ما أصفرت عينه ، وهي على خمسة أضرب :

الأول ”البازي“ — المختص في زماننا باسم البازي ، وفي ضبطه ثلاث لغات أفصحها بازي بكسر الزاي وتخفيف الياء في الآخر ، والثاني بازي بغير ياء في آخره ، والثالث بازي بإثبات الياء وتشديد حكاها ابن سيده ، ويقال في الثانية : بازيان ، وفي الجمع : بوازي وبزاة ، ولفظه مشتق من البزوان ، وهو الوئب . وهو خفيف

الجَنَاح ، سريع الطَّيْرَان ؛ وهو من أشرف الطُّيُورِ الجَوَارِحِ وأحرصها على طَلَبِ صَيْدِهِ .

ففي أخبار نصر بن سيار أن بعض كبراء الدهاقين غدا عليه بطبرستان ومعه منديل فيه شيء ملفف ، فكشف عنه بين يديه فإذا فيه شلو بازٍ ودراجة ، فأطلقه عليها فأحسَّت به — وكنت قد أمرت بإحراق قصب . قد أفسد أرضا لي — فتناملت الدراجة حتى أقتحمت النار هاربة من البازي ، وأشدت طلبه لها وحرصه عليها فلم ترده النار عنها وأقتحمها في أثرها ، فأسرعت فيهما ، فأدركهما وقد احترقا ، فأحضرهما إلى الأمير ليراهما فيرى بهما ثمرة إفراط الحرص وإفراط الجبن ؛ وهو من أشد الحيوان كبرا وأضيقها خلقا .

قال القزويني : ولا يكون إلا أنثى ، وذكرها نوع آخر من حدأة أو شاهين أو غيرهما ، ولذلك تختلف أشكالها . والبازي قليل الصبر على العطش وماواه مساقط الشجر .

ومن فضيلته : أن الصيد فيه طبيعة لأنه يؤخذ من وكره فرخا من غير أن يكون يصيد مع أبويه ، فيصيد ابتداءً وقرينةً من غير تضرية ، بخلاف الصفر فإنه إذا أخذ قبل أن يتصيد مع أبويه لم ينجب ولم يصد ، وإذا كان قد لحق أبويه وصاد معهما ثم عود أكثر مما يوجد عنده في تلك الحال وجري على ما هو أكبر من الظباء اعتاد ذلك ومهر فيه .

قال صاحب "المصايد والمطارد" : وعدد ريش جناح البازي عشرون ريشة : أربع قوادم ، وأربع مناكب ، وأربع أباهر ، وأربع كلى ، وأربع خواف ، ويقال : سبع قوادم ، وسبع خواف ، وسائر لغب . والخواف أخف من القوادم .

والمستحب من صفاته : صغر المنسر، والرأس، وغلظ العنق، وسعة اللحين،
ودائرتي الأذنين والشدقين، وسعة الحدقة، وطول القوادم، وقصر الخوافي والذنب،
وشدة اللحم، وعرض ما بين المنكبين والزور، وسعة الحوصلاء، وسعة ما ينتقل إليه
طعمه، وعرض المخالب، ورزانة المحمل، وغلظ خطوط الصدر، وذكاء القلب،
والتشمير، وكثرة الأكل، وتتابع النهش، وسرعة الاستمراء، وشدة الانتفاض،
وضخامة السلاح، وبعد الذرق. وأن تراه كأنه مقيماً إذا استقبلته على يد حامله، تشبهاً
بالغراب الأبقع.

قال صاحب "المصايد والمطارد" : والمختار من ألوانها الأحمر الأكثر سواداً،
الغليظ خطوط الصدر، والأشهب الشديد الشبهة، الشبيه بالأبيض، والأصفر
المدبج الظهر. قال : وسواد لسانه أدل على نجابته.

والبازي : يصيد الكلب، والأرنب، والغزال، والكركي وما في معناه، والذراج،
والجمل، وسائر الحمام، والبط، وسائر طيور الماء.

ومن محاسن البازي : عدم الإباق، فإنه إن صاد بقي على فريسته وإن لم يصد
وقف مكانه فلا يحتاج إلى كد ولا تعب ولا طرد خيل.

وأول من صاده من الملوك قسطنطين ملك الروم، وذلك أنه مر يوماً بالحرف
جبل فرأى بازياً يطير ثم نزل على شجرة كثيرة الأغصان كبيرة الشوك، فأعجبه صورته،
وراقه حسن لباسه، فأمر بأن يصاد له جملة من البزاة فصيدت له وحملت إليه
فارتبطها في مجلسه، فعرض لبعضها في بعض الأيام أيم فوثب عليه فقتله، فقال
هذا ملك يغضبه ما يغضب الملوك فنصب له بين يديه كندرة، وكان هناك ثعلب

(١) كما في الأصل . (٢) الأيم : الحية أنظر القاموس .

داجن ، وهو الذي يربى في البيوت ، فوثب عليه فما أفلت إلا جريحا ، فقال : هذا ملك جبار لا يحتمل ضيحا ، ثم مرّ به طائر فكسره ونهش منه ، فقال : هذا ملك نوعه لما جاع أخذ طعامه بسطان وقدرة ، فحمله على يده وصاد به .

الثاني "الزرق" - بضم الزاي المعجمة وتشديد الراء المهملة المفتوحة وقاف في الآخر - وهو ذكر البازي .

قال في "المصايد والمطارد" : وهو يصيد ما يصيد البازي من دق الطير ولا ينتهي إلى صيد الكركي .
(١)

الثالث "الفقيمي" - وهو بازٍ قَضيْفٌ قليل الصيد ذاهل النفس .

الرابع "الباشق" - بكسر الشين وفتحها - فارسي معرب وهو طائر لطيف وصفاته المحمودة كصفات البازي المحمودة ، وأفضلها أثقلها وزنا .

قال في "المصايد والمطارد" : وهو يصيد العصافير وما قاربها . وقال في حياة الحيوان : إنه يصيد أنخر ما يصيده البازي ، وهو الدراج والحمام والورشان ، وإذا قوتى على صيده لا يتركه إلا أن يتلف أحدهما .

الخامس "البيدق" - وهو دون الباشق ، وصيده العصافير .

القسم الثالث

من الجوارح "الصقور" - وهي السود العيون من الجوارح ، وهي ضربان :

الضرب الأول : "الشواهين" (واحداهما شاهين) وهي سنفان ، الأول :

المشهر باسم الشاهين ، وقد ذكر العلماء بالجوارح : أن الشواهين هي أسرع الجوارح

(١) في حياة الحيوان : العنصر ، ولم نجد في التاموس .

كلها وأشجعها وأخفها وأحسنها قلبا، وإقبالا، وإدبارا، وأشدّها ضراوةً على الصيد؛ إلا أنهم عابوها بالإباق وما يعترها من شدة الحرص، حتى إنها ربما ضربت نفسها على الغلظ من الأرض فماتت، وهي أصلب عظاما من غيرها من سائر الجوارح؛ ويقال: إن صدرها عصب مجدول ملحم، ولذلك تجدها تضرب بصدرها ثم تعلق بكفها، وهم يحمّدون منها ما قرّضوا داجنا دون ما قرّضوا وحشيا.

ومن كلام بعضهم: الشاهين كاسمه - يعني كالميزان المسمى بالشاهين - فإنها لا تحمل أيسر حال من الشبع ولا أيسر حال من الجوع؛ بل حالها معتدل كاعتدال الميزان؛ ويقال: إن الحمام يخافها أكثر مما يخاف غيرها من الصقور.

ثم المختار من صفاتها فيما ذكره صاحب "المصايد والمطارد": الأحمر اللون إذا كان عظيم الهامة، واسع العينين حادّهما، سائل السنّعتين، تام المنير، طويل العنق، رطب الصدر، ممتلئ الزور، عريض الوسط، جليل الفخذين، قصير الساقين، قريب القعدة من التنا، طويل الجناحين، قصير الذنب، سبط الكف، غليظ دائرة الخصر، قليل الريش لينه، تام الخوافي، ممتلئ العكوة، رقيق الذنب، إذا صلب عليه جناحيه لم يفضل عنهما شيء من ذنبه.

قال صاحب "المصايد والمطارد": وأهل الاسكندرية يزعمون أن السواد منها هي المحمودة، وأن السواد هو أصل لونها وإنما انتقلت إلى لون البراري فكانت؛ قال: والحمر منها تكون في الأرياف والمواضع السهلة، والشهب في الجبال والبراري، ثم قال: ولا يصيد منها الكركي والخبرج إلا البحرية.

وأقول من صادها فيما يقال قسطنطين ملك الروم أبطا، وذلك أنه رأى شاهينا محلقا على طير الماء بصطاده فأعجبه ما عاين من فرأته وسرعة طيرانه وحسن صيده؛

فإنه رآه يَحَاقُ في طيرانه حتى يلحق بعنان الجوق ثم يعود في طرفة عين فيضرب طير الماء فيأخذه قنصاً، فقال : ينبغي أن يصاد هذا الطائر ويُعَلِّمَ، فإن كان قابلاً للتعليم ظهر منه أُعْجوبة في أسر الصيد، فأمر بصيده وتعليمه، فصيد زعلم وحماه على يده .

قال في "المصايد والمطارد" : وانه كان من رتبة ملوك الروم أنه إذا ركب سارت الشواهين حائمة على رأس الملك حتى ينزل فتقع حوله إلى أن ركب بها ملك منهم، وسار وهي على رأسه فطار طائر فأنقض بعض تلك الشواهين عليه فاقتنصه، وأُعْجِب الملك به فضراها على الصيد وصاد بها .

وقال ابن عُفَيْر : كانت ملوك العرب إذا ركبت في مواكبها طيروا الشواهين فوق رؤوسهم، وكان ذلك عندهم هو الرتبة العظيمة .

(١)
الثاني من الشواهين : الأنيوه، قال في "المصايد والمطارد" : وهو دون الشاهين في القوة، وله سرعة لا تزيد على صيد العصافير .

الضرب الثاني : من الصقور ما عدا الشواهين وهي أصناف .

الأول "السُّنْقَر" . قال في "التعريف" وهو أشرف الجوارح وإن كان لا ذِكْر له في القديم . قال : والسَّنَاقِرُ تُجَلَّب من البحر الشامي مغالاً في أثمانها، ثم قال : وكان الواحد منها يبلغ ألف دينار، ثم نزل عن تلك الرتبة، وأنحط عن تلك المهضبة .

الثاني — المخصوص في زماننا باسم "الصَّقْر" ، ويجمع على أصقُر وصُقُور وصُقُورَة ، قال في "التعريف" : والعرب تسمى هذا النوع الحُرْبَ، ويقال له : الأَكَدَر، والأَجْدَل .

(١) لم نغثر على هذا الاسم .

قال في "المصايد والمطارد": ويقال لها . يقال الطير، لأنها أصبر على الأذى ،
وأحمل لغليظ الغذاء ، وأحسن إلفاء ، وأشد إقداما على جلة الطير ، ومزاجه أبرد من
البازي والشاهين .

وبسبب ذلك يُضَرَّى على الغزال والأرنب ولا يُضَرَّى على الطير لأنه يفوته ، وهو
أهدى من البازي نفسا ، وأسرع استئناسا بالناس ، وأكثرها قنعا ، وأبرد مزاجا ،
لا يشرب ماءً وإن أقام دهرًا ، ونوعه يُوصف بالبحر وتتن الفم ، ومسكنه المغائر
والكهوف وصدوع الجبال دون رؤوس الأشجار وأعلى الجبال .

والعرب تجمد من الصقور ما قرئص وحشياً ، وتدم ما قرئص دايجناً ، وتقول :
إنه يتبلد ولا يكاد يفلح . وهي تصيد الكركي وما في معناه ، والبَطُّ وسائر طير الماء .

والصقور من أثبت الجوارح جنانا في الطيران ، وأحرصها في اتباع الصيد ، حتى
يحكى أن بعض ملوك مصر أرسل صقرا على كركي صبيحة يوم الجمعة بمصر ، فبينما
الناس يصلون الجمعة بدمشق إذ وقع هو والكركي بالجامع الأموي بدمشق ، فأخذ
فرجد فيه لَوْحُ السلطان فعرف به ، فكتب نائب الشام إلى السلطان يخبره وأرسله
إليه هو وصيده .

قال في "المصايد والمطارد": ومن ألوان الصقر كونه أحمر ، وأبيض ، وأحوي ،
وأبيض ، وأخرج ، وهو الذي فيه نقط بيض . قال : ويستحب في الصقر أن
يكون أحمر اللون ، عظيم الهامة ، واسع العينين ، تام المنسر ، طويل العنق ، رحب
الصدر ، ممتلئ الزور ، عريض الوسط ، جليل الفخدين ، قصير السافين ، قريب
القعدة من القفا ، طويل الجناحين ، قصير الذنب ، سبط الكف ، غليظ الأصابع
فيرواحها ، أسود اللسان . قال : وتجمع هذه الصفات الفراهة والوثاقة والسرعة .

قال أدهم بن محرز : وأقول من لعب بالصقور الحارث بن معاوية بن كندة الكندي ، نخرج يوما الى الصيد فرأى صيادين قد نصبوا شبكا كعدة ، فوقع فيها عصافير عدة ، فحين رآها صقر من الجوّ انتصّ عليها يطلبها ، فأمر الحارث بنصب الشباك للصقور فنصبت لها فاصطاد منها جملة . ويقال : إن صيد الصقر غير طبيعي له ، وإنما يستفيد ذلك بالتعليم ، بدليل أنّ فراخ الباز إذا أخذت من العشّ وعلمت اصطادات أجود صيد لأن صيدها طبيعي ، بخلاف الصقر فإنه إذا أخذ من الوكر ثم كبر فإنه لا يصطاد غير طعمه فلذلك ينهى عن تربية الصقر .

الثالث "الكُوَيْج" - قال في حياة الحيوان : نسبه من الصقور كنسبة الزرق إلى البازي إلا أنه أحر منه ، ولذلك كان أخفّ جناحا وأقلّ بخرًا . قال : ويصيد أشياء من طير الماء ويعجز عن النزول لصغره .

الرابع "الكُوَيْهِيَّة" - وهي موشاة بالبياض والسواد يخالط لونها صفرة .

وقال في "التعريف" : وتجلب من البحر .

الخامس "السقاوة" - وهي قريبة الشكل من الصقر .

السادس "اليؤيؤ" - بضم الياء المثناة تحت وهمزة بعدها وضم الثانية وهمزة

بعدها أيضا .

قال في "المصايد والمطارد" : وتسميه أهل مصر والشام "الجلّم" ، وبهذا سماه

في "التعريف" : وهو طائر صغير أسود اللون يضرب للزرقعة ، وهي مع صغرها

يجمع الاثنان منها على الكركي فيصيدانه ، وسموه الجلّم أخذا من الجلّم ، وهو المتصّ

تسببها به لأن له سرعة كسرعة المتصّ في قطعه ، ومزاجه بالنسبة إلى الباشق بارد

رطب لأنه أصبر نفسا منه ، وأثقل حركة . وهو يشرب الماء شربا ضروريا كما

يشربه الباشق ، ومزاجه بالنسبة إلى الصقر حار يابس ولذلك هو أشجع منه . ويقال :
إن أول من ضراه على الصيد وأصطاد به بهرام جور — أحد ملوك الفرس — وذلك
أنه رأى يؤيؤا يطارد قنبرة ، ويراوغها ، ويرتفع معها ثم لم يتركها حتى صادها ، فأمر
بتأديبه والصيد به .

الصنف الثاني

الطير الجليل

وهو المعبر عنه بطير الواجب ، وبه تعنى رماة البندق ونحوها ، وتفندش بإصابته
وصرعه ، ويحتاج إليه في الرسائل الصيدية ، وفي كتابة قدم البندق ونحوها . وهو
أربعة عشر طائرا ، وهي على ضربين :

الضرب الأول "طيور الشتاء" — وهي التي يكثر وجدانها فيه ، وهي عشرة
طيور :

الأول "الكراكي" — وهو طائر أعير ، طويل الساقين ، في قدر الإوزة ، ويجمع
على كراكي ، وفي طبعه خور يجمه على التحارس ، حتى إنه إذا اجتمع جماعة من
الكراكي لا بد لها من حارس يحرسها بالنوبة بينها . ومن شأن الذي يحرس منها أن
يهتف بصوت خفي كأنه ينذر بأنه حارس ، فإذا قضى نوبته ، قام واحد ممن كان
نائما يحرس مكانه حتى يقضى كل منها نوبته من الحراسة ، ولا تطير متفرقة بل
صفا واحدا ، يقدمها واحد منها كالرئيس لها وهي تتبعه ، يكون ذلك حينما يتم يخلنه
آخر منها مقدما حتى يصير الذي كان مقدما مؤخرًا ، وفي طبيعتها التناصر والتعاضد .
ومن خاصتها أن أنثاها لا تقعد للسفاد بل يسفدها وهي قائمة ، ويكون سفاده سريعا
كالعصفور .

وذكر جميع بن عمير التيمي أن الكراكي تبيض في السماء، ولا تقع فراخها،
وكذبه المحدثون في ذلك وإن كان قد روى عنه أهل السنن .

قال القزويني في عجائب المخلوقات: والكراكي لا يمشي على الأرض إلا بإحدى رجليه
ويعلق الأخرى، وإن وضعها وضعاً خفيفاً مخافة أن تُحسَف به الأرض .

قال في "المصايد والمطارد": وهو من أبعد الطير صوتاً يُسمع على أميال . قال :
وإذا تقدم مجيئها في الفصل استبدل بذلك على قوة الشتاء . ويقال : إن الكراكي
تأتي إلى مصر من بلاد الترك . وفي طلبه وصيده تتغالي ملوك مصر تغاليا لا يدرك
حده، وتتفق في ذلك الأموال الجمة التي لا نهاية لها، وكان لهم من علو الشأن بذلك
ما لا يكون لغيرهم . وأكله حلال بلا نزاع .

الثاني "الإوز" - بكسر الهمزة وفتح الواو - وإحدته إوزة وجمعه إوزون،
والمراد هنا الإوز المعروف بالتركي، وهو : طير في قدر الإوز البلدي أبيض اللون .
وله تجتر في مشيته كالجمل . وهو من جملة طير الماء مقطوع بجل أكله .

الثالث "الأنغ" : وهو دون الإوز في المقدار، لونه كلون الإوز الحبشي إلى
السواد، أبيض الحفن، أصفر العين، ويعرف في مصر بالعراقي، ويأتي إليها في مبادئ
طلوع زرعها في زمن إتيان الكراكي إليها، ومن شأنها أن يتقدمها واحد منها
كندائل لها، ثم قد تكون صفا واحداً ممتداً كالجبل، ودليلها في وسطها متقدم عليها
بعض التقدم، وقد يصف خلفه صفيين ممتدين يلقىانه في زاوية حادة حتى يصير
كأنه حرف جيم بلا عرافة، متساوية الطرفين، ومن خاصتها أنها إذا كبرت حدث
في سباح بطونها وصدورها نقط سود، والفرح منها لا يعتره ذلك .

الرابع "الخبز" - بضم الخاء المهملة وسكون الموحدة وضم الراء المهملة وجم
في الآخر - وهو الخباري .

قال في "المصايد والمطارد" : ويقع على الذكر والأنثى ويجمع على حُبَارِيَات ؛
وذكر غيره أنّ واحده وجمعه سواء ، وبعضهم يقول : إنّ الحُبْرَج هو ذكر الحبارى .
قال في "المصايد والمطارد" : وهو طائر في قَدْرِ الديك كثير الريش ، ويقال
لها : دَجَاجَة البرّ .

قال في حياة الحيوان : وهى طائر طويل العنق ، رمادى اللون ، فى منقاره
بعض طول ؛ يقال لذكر الحبارى : الحَرْبُ — بفتح الحاء المعجمة وسكون الراء^(١)
المهمله وباء موحدة فى الآخر — ويجمع على خِرَابٍ وأخرابٍ وخِرْبَان .

ومن خاصته : أنّ الجراح إذا أعتنقها أرسلت عليه ذرقاً حاصلًا معها — متى
أحبت أرسلته — فيه حدة تمعّط ريشه ، ولذلك يقال : سَلَّحُهَا سِلَاحُهَا .

قال فى حياة الحيوان : وهى من أشدّ الطير طيرانًا ، وأبعدها شوطًا ، فإنها
تُصَاد بالبصرة فيوجد فى حواصلها الحبة الخضراء التى شجرها البطم ، وسنابتها تُنخوم
بلاد الشام ، وإذا نُتِف ريشها وأبطأ نباته ماتت كمداء ؛ قال : وهى من أكثر الطير
جَهْدًا فى تحصيل الرزق ، ومع ذلك تموت جوعًا بهذا السبب .

قال فى "المصايد والمطارد" : وهى مما يُعَاف لأنها تأكل كلّ شىء حتى الخنافس ؛
وقال فى حياة الحيوان : حكها الحلّ لأنها من الطيبات ؛ وأستشهد له بحديث الترمذى
من رواية سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أكلت مع رسول
الله صلى الله عليه وسلم حُبَارَى" ويقال لولدها : اليحجور ، وربما قيل له : نَهَارٌ ،
كما يقال لولد الكروان : ليل .

الخامس "التم" — بفتح التاء وتشديد الميم — وهو طائر فى قدر الإوز أبيض
اللون ، طويل العنق ، أحمر المنقار ، وهو أعظم طيور الواجب وأرفعها قدرًا .

(١) لعله وفتح الراء . أنظر القاموس .

السادس "الصوغ" (١) - بضم الصاد المهملة وغيث معجمة في الآخر - وهو طائر مختلط اللون من السواد والبياض، أحمر الصدر، وأكثر ميله إلى الخضرة والأشجار.

السابع "العُنَّاز" - بضم العين المهملة وتشديد النون وزاي معجمة في الآخر - وهو طائر أسود اللون، أبيض الصدر، أحمر الرجلين والمنقار.

الثامن "العُقَاب" - وقد تقدم ذكره في الكلام على الجوارح حيث هو معدود منها ومن طير الواجب؛ ومما يتعلق بهذا المكان أنها منها: الأسود، والخوخية، والسُّفْع، والأبيض، والأشقر، ومنها ما يأوي الجبال، وما يأوي الصحارى، وما يأوي الغياض، وما يأوي حول المدن.

وقد تقدم ذكر الخلاف في أن ذكرهما من جنسها أو من جنس آخر في الكلام على الجوارح. وحكمها تحريم الأكل لأنها من ذوات الخلب من الطير، واختلف في قتلها هل هو مستحب أم لا؟ فحزم الرافعي والنووي من أصحابنا الشافعية في الحج باستحباب قتلها. وجزم النووي في شرح المهذب بأنها من القسم الذي لا يستحب قتله ولا يكره، وهو ما يجتمع فيه نفع ومضرة؛ وبه جزم القاضي أبو الطيب رحمه الله.

التاسع "النسر" - بفتح النون - ويجمع في القلة على أنسرب، وفي الكثرة على نسور وسمى نسرًا لأنه ينسر الشيء ويتلعه.

والنسر ذو منسر وليس بذي خلب وإنما له أظفار حداد الخالب، وهو يسفد كما يسفد الديك. وزعم قوم أن الأنثى منه تبيض من نظر الذكر إليها وهي لا تحضن بيضها، وإنما تبيض في الأماكن العالية الظاهرة للشمس فيتوهم حر الشمس للبيض مقام الحضانة.

(١) ذكره المجد وغيره في فصل الصاد المعجمة: من باب العين المهملة و ضبطه كسر د فليتبته.

والنسر حاد البصر يرى الحيفة من أربعمائة فرسخ، وكذلك حاسة شمه في الغاية؛ ويقال: إنه إذا شم الرائحة الطيبة مات لوقته؛ وهو أشد الطير طيراناً وأقواها جناحاً حتى يقال: إنه يطير ما بين المشرق والمغرب في يوم واحد؛ وإذا وقع على جيفة وعليها عقبان تأخرت ولم تأكل مادام يأكل منها، وكل الجوارح تخافه، وهو في غاية الشره والنهم في الأكل إذا وقع على جيفة وأمتلأ منها لم يستطع الطيران حتى يثب وثبات يرفع بها نفسه طبقةً في الهواء حتى يدخل تحت الريح؛ وربما صاده الضعيف من الناس في هذه الحالة. والأثني منه تخاف على بيضها وفراخها الحفّاش فتفرش في أوكارها ورق الدلب لتفتر منه الحفّاش؛ وهو من أشد الطير حزناً على فراق إلهه، حتى إذا فارق أحدهما الآخر مات حزناً.

وهو من أطول الطير أعماراً حتى يقال: إنه يُعمر ألف سنة وحكمه تحريم أكله لأنه يأكل الجبف.

العاشر "الأنيسة" - قال في حياة الحيوان: بذلك تسميه الرّماة وإنما اسمه الأنيس.

قال: وهو طائر حاد البصر، يشبه صوته صوت الحمل، وماواه قرب الأنهار والأماكن الكثيرة المياه الملتفة الأشجار؛ وله لونٌ حسن، وتدير في معاشه.

وقال أرسطو: إنه يتولد من الشقراق والغراب، وذلك بين في لونه. ويقال: إنه يحب الأنس، ويقبل الأدب والتربية، وفي صغيره وفرقرته أعاجيب، حتى إنه ربما أفصح بالأصوات كالقمرى؛ وغذاؤه الفاكهة واللحم وغير ذلك. ومن شأنه ألفة الغياض، وحكمه الحل لأنه طيب غير مستحبث. فإن صح تولده من الشقراق والغراب فينبغي تحريمه.

والأنيسة ذات ألوان مختلفة، بدنُّها يميل إلى الغُبرة، وعنقها يشتمل على خضرة وزُرقة؛ ويقال: إنها أشرف طيور الواجب وأعزُّها وجوداً.

الضرب الثاني: "طيور الصيف" وهي التي يكثر وجودها فيه، وهي أربعة أطيوار: الأول "الكنى"^(١) - بضم الكاف - وهو طير أغبر اللون إلى البياض، أحمر المنقار والحوصلَة، رجلاه تُضربان إلى السواد.

الثاني "الغرنوق" - بكسر الغين المعجمة وفتح النون - ويقال: فيه غرنوق - بضم الغين وفتح النون - ويجمع على غرنوق.

قال الجوهري: وهو طائر أبيض من طير الماء طويلُ العنق، وتبعه الزمخشري على ذلك، وقال أبو خيرة: وسمى غرنوقاً لبياضه.

وقال صاحب "المصايد والمطارد": الغرنوق كركي إلا أنه أخضرٌ طويل المنقار، وقيل: لونه كالون الكركي إلا أنه أسود الصدر والرأس، وله ذؤابتان في رأسه. وقال: ومن خصائصها أن ريشها في شببتها يكون رمادياً، فإذا كبرت أسودت وليس ذلك في سائر الطير، فإن الريش لا يحول بياضه إلى السواد بل يحول سواده إلى البياض كما في الغربان والعصافير والخطاطيف.

الثالث "المرزم" - وهو طير أبيض في أطراف ريشه حمرة، طويل الرجلين والعنق، وهو حلال الأكل.

الرابع "الشبيط"^(٢) - بضم الشين المعجمة وفتح الموحدة والطاء المهملة - ويسمى اللقائق أيضاً، ويعرف بالبلارح، وكنيته عند أهل العراق: أبو خديج، وهو طائر

(١) لم نعره في حياة الحيوان، ولم يذكر في معجم اللغة.

(٢) مصحف لم نهند إليه، وامله البارح.

أبيض، أسود طرفي الجناحين، ورجلاه ومنقاره حُمْر، وهو يأكل الحيات ولكنه يوصف بالفطنة والذكاء .

وفي حله عند الشافعية وجهان أصحهما في شرح المهذب والروضة : الحرمة، وإن كان من طير الماء .

وسأتي الكلام على ما يحمل من هذه الطيور الأربعة عشر بأعناقها وما يحمل منها بأسيافه فيما يتعلق بمصطلح الرماة في الكلام على كتابة قدم البندق في موضعه إن شاء الله تعالى . وطيور الواجب كلها حلال إلا النسر والعقاب .

الصف الثالث

ما عدا الطير الجليل مما يُصَاد بالحوارح وغيرها ، وهو على ضربين :

الضرب الأول ما يحمل أكله وهو أنواع كثيرة لا يأخذه الحصر ، ونحن نقتصر على ذكر المشهور من أنواعه .

فإنها "النعام" - وهو اسم جنس الواحدة نعامة ، وهو طائر معروف مركب من صورتى جمل و طائر ، ولذلك تسميه الترك : دواغش بمعنى طير جمل ، وتسميه الفرس : أشتر مرك ، ومعناه جمل و طائر . وتجمع النعام على نعومات ، وتسمى ذكراها : الظليم .

ومن المتكلمين على طبائع الحيوان من لم يجعلها طيرا وإن كانت تبيض لعدم طيرانها ، ومن الناس من يظن أنها متولدة من جمل و طير ولم يصح ذلك .

ومساكنها الرمل ، وتضع بيضها سطرا مستطيلا بحيث لو مد عليها خيط لم تخرج واحدة منها عن الأخرى ، ثم تعطى كل بيضة منها نصيبها من الحُضن ، لأنها

لا تستطيع ضم جميع البيض تحتها ، وإذا خرجت للطعم فوجدت بيض نعامة أخرى
حضنته ونسيت بيضها ، وربما حضنت هذه بيض هذه ، وربما حضنت هذه
بيض هذه ، ولذلك توصف في الطير بالحمق ، ويقال : إنها تقسم بيضها أثلاثا : فمنه
ما تحضنه ، ومنه ما تجعله غذاء لها ، ومنه ما تفتح وتعمله في الهواء حتى يتولد فيه
الدود فتغدى به أفرانها إذا خرجت .

وليس للنعامة حاسة سمع ولكنه قوى الشم ، يستغنى بشمه عن سماعه حتى
يقال : إنه يشم رائحة القانص من بعد .

والعرب تقول : إن النعامة ذهبت تطلب قرنين فقطعوا أذنيها . وهو لا يشرب
ماء ، وإن طال عليه الأمد ، ولذلك يسكن البراري التي لا ماء فيها . وأكثر ما يكون
عدودا إذا استقبلت الريح .

ومن خصائصها أنها تتلع العظم الصلب والحجر والحديد فتدنيه معدتها حتى تدفعه
كالماء ، وتتلع الجمر فيطفئه جوفها ، وإذا رأت في أذن صغير أولوة أو حلقة اختطفها .
وحكمه جل أكله إجماعا . ومن خاصته أن مرارته سم وحي .

ومنها "الإوز" - بكسر الهمزة وفتح الواو - وهو اسم جنس واحده إوزة ،
وجمعوه على إوزون ، وهو مما يحب السباحة في البحر ، وإذا خرج فرخه من البيضة
سبح في الحال ، وإذا حضنت الأثى قام الذكر يحرسها لا يفارقها ، ويخرج فرخها
في دون الشهر من البيضة . وهو من الطيبات ، وغذاؤه جيد إلا أنه بطيء
الهضم .

ومنها "البطة" ، وهو من طيور الماء ، واحده بطة للذكر والأثى وليس

بعربي ، وهو عند العرب من جملة الإوز .

ومنها "الْقِرْتِيُّ" - بكسر القاف - ويسمى : مُلَاعِبَ ظِلِّهِ . وهو طائر صغير الجرم من طيور الماء ، سريعُ الأختطاف ، لا يزال مرفرفاً على وجه الماء على جانب كطيران الحِدَاة ، يهوى بإحدى عينيه إلى قعر الماء طمعا ، ويرفع الأخرى حذرا ، فإن أبصر في الماء ما يستقلُّ بجملة من السمك أو غيره آنقضَّ عليه كالسهم المرسل فأخرجه من قعر الماء ، وإن أبصر في الجو جارحا مرَّ في الأرض . وبه يضرب المثل في الإقبالِ على الخير والإدبار عن الشرِّ ، فيقال : " كأنه قِرْتِيُّ ، إن رأى خيرا تدلَّى ، أو رأى شرا تولى " .

ومنها "الغَطَّاسُ" - ويقال له : الغواص ، وهو طائر أسودُّ نحو الإوزة ، يغوص في الماء فيستخرج السمك فيأكله . ووهم فيه في حياة الحيوان بجملة : الْقِرْتِيُّ .

ومنها "الدجاجُ" - بفتح الدال المهملة وكسرها وضمها - حكاة ابن معن الدمشقي وابن مالك وغيرهما ، وأفصحها الفتح وأضعفها الضم والواحدة دجاجة ، والذكر والأنثى فيه سواء .

قال ابن سيده : وسميت دجاجةً لإقبالها وإدبارها ، يقال : دَجَّ التوم إذا مشوا بتقارب خطو ، وقيل : إذا أقبلوا وأدبروا . والفرخ يخرج من البيضة بالحضن ، وتارة بالصنعة والتدفئة بالنار ، وإذا خرج الفرخ من البيضة خرج كاسيا ظريفا سريع الحركة ، يُدعى فيجيب ، ثم كلما مرت عليه الأيام حَمَّقَ وتقص حسنه . ومما يعرف به الذكر من الأنثى في حالة الصغر أن يعلق الفرخُ بمنقاره فإن اضطرب فهو ذكر ، وإلا فهو أنثى .

والدجاج يبيض في جميع السنة ، وربما باضت الدجاجة في اليوم مرتين ، ويتم خلق البيض في عشرة أيام ، وتخرج لينة القشر فإذا أصابها الهواء تصلبت . وتشتمل

البيضة على بياض وُصفرة ويسمى : المَحَّ ، ومن البياض يتخلق الولد ، والصفرة غذاء له في البيضة يتغذاه من سُرَّتِهِ ، وربما كان للبيضة بياضان ، ويتخلق من كل بياض فرخ ، فإذا كبرت الدجاجة لم يبق لبيضاها نُحٌّ وحينئذ فلا يخلق منه فرخ . ثم الدجاج من الطيور الدواجن في البيوت .

وقد ورد في سُنَنِ ابْنِ ماجه من رواية أبي هريرة رضى الله عنه : أمر الأغنياء باتخاذ الغنم وأمر الفقراء باتخاذ الدجاج . قال عبد اللطيف البغدادي : أمر كل قوم من الكسب بحسب مقدرتهم .

ومن عجيب أمر الدجاجة أنها تمر بها سائر السباع فلا تحامها ، فإذا مرت بها ابن آوى وهى على سطح رمت نفسها إليه ، وهى توصف بقلة النوم وسرعة الانتباه ويقال : إن ذلك لخوفها وخور طباعها .

ومن الدجاج نوع يقال له : الحبشى ، أرقط اللون ، متوحش ، وربما ألف البيوت . والحكم في الجميع الحل .

ومنها "الديك" - وهو ذكر الدجاج ، ويجمع على دِيكَةٍ ودِيُوكٍ ، وهو أبله الطيبة حتى إنه إذا سقط من حائط لم يكن له هداية ترشده إلى دار أهله ، ومع ذلك فقد خصه الله تعالى بمعرفة الأوقات حتى ربح الرافعى من مذهب الشافعى رضى الله عنه اعتماد الديك المحترَبِ وفاقا للمُتَوَلَّى والقاضى حسين .

ومن عجيب أمره أنه يُقَسِّطُ أوقات الليل تقسيطا لا يُخِلُّ فيه بشىء طال الليل أم قصر . لكن قد ورد في معجم الطبرانى وغيره : إن لله سبحانه وتعالى ديكا أبيض ، جناحه موشيان بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ ، له جناح بالمشرق وجناح بالمغرب ، رأسه تحت العرش ، وقوائمه فى الهواء ، يُؤذَنُ كل سحر فيسمع تلك

الصيحة أهل السموات وأهل الأرض إلا الثقلين: الجن والإنس، فعند ذلك يُجيبه ديوك الأرض؛ وحينئذ فيكون الديك في ذلك تابعا. وقد ورد عدة أحاديث في النهي عن سب الديك، ومدح الديك الأبيض، والحث على آتخاذه.

ومن حميد خصال الديك: أنه يسوى بين دجاجة، ولا يُؤثرُ واحدة على الأخرى. ويقال: إنه يبيض في السنة بيضة؛ ويفرق بين بيضته وبيضة الدجاجة أن بيضته أصغر من بيضة الدجاجة، وهي مدورة لا تحديد في رأسها.

ومنها "القطا" - بفتح القاف - وهو طائر معروف واحده قطاة ويجمع على قطوات وقطيات، وأكثر ما يبيض ثلاث بيضات، ويسمى قطا لحكاية صوته، لأنه يصيح "قطا قطا" ولذلك تصفها العرب بالصدق.

قال الجوهري: وهو معدود من الحمام، وبه قال ابن قتيبة، وعايه جرى الرافعي في الحج والأطعمة؛ قال الشيخ محب الدين الطبري: والمشهور خلافه.

ثم القطا نوعان: كُدْرِيٌّ وَجُونِيٌّ؛ وزاد الجوهري نوعا ثالثا وهو الغطاط، فالكدرى: غبر اللون، رُقش البطون والظهور، صفر الحلق، قصار الأذنان. والجُونِيٌّ: سود بطون الأجنحة والقوادم، وظهرها أغبر أرقط، تعلوه صُفْرَةٌ، وهي أكبر جرما من الكدرى، تعدل كل جونية كدريتين، والكدرية تُفصح باسمها في صياحها، والجُونِيَّةُ لا تفصح بل تُفْرِقُ بصوت في حلقها.

ومن خاصتها أنها لا تسير إلا جماعة. ومن طبعها أنها تبيض في القفر على مسافة بعيدة من الماء، وتطلب الماء من مسافة عشرين ليلة وفوقها ودونها، وتخرج من أفاحيصها في طلب الماء عند طلوع الفجر فتقطع إلى حين طلوع الشمس مسيرة سبع مراحل، فترد الماء فتشرب ثم تُقِيمُ على الماء ساعتين أو ثلاثا ثم تعود إلى

الماء ثانية . والجُونِيَّة تخرج إلى الماء قبل الكُدْرِيَّة ، وهي توصف بالهداية فتأني
أفاحبصها ليلا ونهارا فلا تفضل عنها ، وتوصف بحسن المشي وبقلة النوم .

ومنها ” الكَرَوَانُ ” - بفتح الكاف والراء - وهو طائر في قدر الدجاجة ،
طويل الرجلين ، حسن الصوت ، لا ينام الليل ، ويجمع على كِرَوَان - بكسر الكاف -
والأنثى : كَرَوَانَةٌ .

ومنها ” المَجَلُّ ” - بفتح الحاء المهملة والجيم - وهو طائر على قدر الحمام كالتطأ ،
أحمر المنتار والرجلين ، ويسمى : دَجَاجَ البر ، ويقع على الذكر والأنثى ، وقد يقال
له : القَبِجُ أيضا - بفتح القاف وسكون الموحدة وجيم في الآخر - يقال للذكر والأنثى
منه : قَبِجَةٌ ، ويسمى الذكر منه : اليَعْقُوبُ . والقَبِجُ^(١) - بفتح القاف والموحدة وجيم
في الآخر - ويقال في الأنثى منه : حَجَاجَةٌ ، وهو صِنْفَان : نَجْدِيُّ وَتِهَامِيٌّ ، فالنجدى - أحمر
الرجلين ، والتهمي فيه بياض وخضرة ، ومن شأنه أنه يأتي إلى مصر عند هيجان
زرعها ويصبح صباحا حسنا ، تقول العاقبة : إنه يقول في صباحه : ” طَابَ دَقِيقُ
السَّانِ ” . ومن شأن الأنثى منه إذا لم تَلْقَحْ ، أنها التمرغ في التراب وتصبه على أصول
ريشها فتَلْقَحُ ، ويقال : إنها تلقح بسمع صوت الذكر ، وبريح يهب من قبليه ،
وإذا باضت ميز الذكر الذكور منها فحضنها ، وتحضنُ الأنثى الإناث ، وكذلك
في التربية . وقرخها يخرج كاسيا يزغب الريش كما في الدجاج ؛

وفي ” المصايد والمطارد ” : أن القَبِجَ كثير السِّفَادِ ، وأنه إذا اشتغلت عنه الأنثى
ورأى بيضها كسره .

(١) هذا معطوف على القَبِجِ الأول إشارة إلى لغة أخرى ، وليس معطوفا على البَعْقُوبِ كما قد ينوم .

قال التوحیدی : ويعيش الجمل عشر سنين ويعمل عشرين ، يجاس الذكر في واحد والأثني في واحد ، وهو من أشد الطيور غيرةً على أنثاه حتى إن الذكرين ربما قتل أحدهما الآخر بسبب الأثني ، فمن غلب منهما دانت له .

ومن طبعه أنه يأتي عُشَّ غيره فيأخذ بيضه ويحضنه ، فإذا طارت الفراخ لحقت بأمهاتها التي باضتها ، وفيه من قوة الطيران ما يظنه من لم يحققه عند طيرانه أنه حجر رُمي بمقلاع لسرعته .

ومنها "القمري" — بضم القاف وسكون الميم — وهو طائر معروف حسن الصوت ، ويجمع على قماري غير مصروف . قال في "المحكم" : ويجمع على قمر أيضا ، والأثني منه قمرية ، ويقال للذكر منه : الورشان — بفتح الواو والراء المهملة والشين المدجمة — ويقال له أيضا : ساق حر . قال البطلوني : وسمي ساق حرًا بحكاية لصوته كأنه يقول ذلك ، ويكنى : أبا الأخضر ، وأبا عمران ، وأبا الناجية .

قال ابن السمعاني : والقمري منسوب إلى القمري ، وهي بلدة تشبهه أيضا لبياضها ، قال : وأظنها بمصر . وقال ابن سيده القمري طير صغير ، وندبه في "المحكم" من الحمام . ويقال : إن الهوام تهرب من صوت القمري .

قال القزويني : ومن خاصية القمري أنها إذا ماتت ذكورها لم تتزوج إنثا . والورشان الذي هو ذكر القمري يوصف بالحنوق على أولاده حتى إنه ربما قتل نفسه إذا رآها في يد القانص .

قال عطاء : وهو يقول في صياحه :

* لدوا للسموت وأبنو الخراب *

ومنه نوع أسود حجازي يقال له : النوى ، يشبه الصوت جدًا .

ومنها "الفاخنة" - بالفاء والحاء المعجمة والتاء المثناة - والجمع الفواخت - بفتح الفاء وكسر الحاء - وهي طائر من ذوات الأطواق، حجازية في قدر الحمام، محسنة الصوت، ويقال: إن الحيات تهرب من صوتها، حتى يحكى أن الحيات كثرت بأرض، فشكا أهلها ذلك إلى بعض الحكماء، فأمرهم بنقل الفواخت إليها فانقطعت الحيات عنها. وفي طبعها الأتس بالناس، وتعيش في الدور، إلا أن العرب تسميها بالكذب، فإن صوتها عندهم تقول فيه: هذا أوان الرطب، وهي تقول ذلك والنخل لم يطلع بعد، ولذلك تقول العرب في أمثالهم: «أكذب من فاخنة».

ومنها "الدبسي" - بضم الدال - وهو طائر صغير منسوب إلى دبس الرطب - بكسر الدال - وذلك أنهم يغيرون في النسب فيقولون في النسبة إلى الدبسي: دهبسي ونحو ذلك، وهو ضرب من الحمام. ثم هو أصناف: مصري، وحجازي، وعراقي، وكلها متقاربة، لكن أنخرها المصري، ولونه الدكنة، وقيل: هو ذكر الحمام. وفي طبع الدبسي ألا يرى ساقطا على وجه الأرض، بل في الشتاء له مشي، وفي الصيف له مصيف، لا يعرف له وكر.

(١)

ومنها "الشفين" - بفتح الشين المعجمة وسكون الفاء وتون مكسورة بعدها ياء مثناة تحت ثم نون - وهو الذي تسميه العامة بمصر: الحمام، وهو دون الحمام في المقدار، ولونه الحمرة مع كمودية، وفي صوته ترجيع وتخزين. ومن شأنها أنها تحسن أصواتها إذا اختلطت. ومن طبعه أنه إذا فقد أشاه لم يزل أعزب إلى أن يموت، وكذلك الأتشي إذا فقدت ذكرها، وفيه ألفة للبيوت، وعنده احتراس.

(١) الذي في حياة الحيوان: أنه بالكسر.

ومنها "الدراج" - بفتح الدال^(١) - وكنيته أبو الججاج وأبو خطار، وهو طائر ظاهر جناحيه أغبر وباطنهما أسود، على خِلقة القَطَا إلا أنه أَلْفٌ. وهو يطلق على الذكر والأنثى. والجاحظ يُعَدُّه من جنس الحمام لأنه يجمع بيضه تحت جناحه كما يفعل الحمام. والناس يُعبرون عن صوته بأنه يقول: "بِالشُّكْرِ تَدُومُ النِّعَمُ". ويقال: إنه طائر مبارك، وهو كثير النتاج، يبشر بقدوم الربيع، وهو يصلح بهبوب الشمال، وصفاء الهواء، ويسوء حاله بهبوب الجنوب حتى لا يقدر على الطيران.

ومنها "العصفور" - بضم العين - وحكى ابن رَشِيْقٍ في كتاب "الغرائب": فتحها، والأنثى: عُصفورة، وكنيته: أبو الصَّفْوِ، وأبو مُحْرِزٍ، وأبو مُزاحم، وأبو يعقوب.

قال حمزة: سمي عصفورا لأنه عصي وفتر، وهو أنواع كثيرة، وأشهرها المعروف بالدورى، ووكره العُمران تحت السقوف خوفا من الجوارح، فإذا خلت مدينة من أهلها ذهبت العصافير منها، وهو كثير السَّفَادِ حتى إنه ربما سَفَدَ في الساعة الواحدة مائة مرة، ولفرخه تدرج على الطيران حتى إنه يُدعى فيجيب. قال الجاحظ: بلغنى أنه يرجع من فرسخ.

ومنها "الشَّخْرُورُ"^(٢) - بفتح الشين المعجمة وسكون الحاء المهملة - وهو طائر أسود فويق العصفور له صوت شجي، ويكون بأرض الشام كثيرا.

ومنها "الهزار" - بفتح الهاء والزاي المعجمة - طائر نحو العصفور له صوت حسن ويسمى: العندليب أيضا، ويجمع على عَادِلٍ.

(١) في حياة الحيوان والقاموس: ضبطه بضم الدال، أما الذى بالفتح فهو التنفذ.

(٢) قال في حياة الحيوان: إنه كسحنون، وكذلك ضبطه في القاموس بالضم.

ومنها "البَلْبَلُ" - بضم الموحدين وسكون اللام الأولى والثانية (١) - وهو طائر أسود فوق العصفور، والحجرى منه فوق ذلك، ويقال له: النَغْرُ - بضم النون وفتح الغين المعجمة وراء مهملة في الآخر - والكُعَيْتُ - بضم الكاف وفتح العين المهملة ومثناة فوقية في الآخر - والجُمَيْلُ - بضم الجيم - وقد ثبت في الصحيحين من رواية أنس رضي الله عنه أنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقاً، وكان لي أخٌ لأُمِّي فَطِيمٌ يُقال له: عُمَيْرٌ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاءنا قال: "يا أبا عُمَيْرٍ ما فعل النَغِيرُ؟" لَنَغْرَ كان ياعب به .

ومنها "السَّائِي" - بضم السين المهملة وفتح النون ولا تشدد ميمه - وهو طائر معروف فوق العصفور ويجمع على سُمَائِيَّاتٍ ، وهو من الطيور التي لا يعرف من أين تأتي ، بل يأتي في البحر الملح يغوص بأحد جناحيه في الماء ويقوم الآخر كالقلاع للسفينة فتدفعه الريح حتى يأتي الساحل ، وكثيراً ما يوجد ببلاد السواحل ، وله صوت حسن . ومن شأنه أنه يسكت في الشتاء فإذا أقبل الربيع صاح .

ومنها "الحَسُونُ" - وتسميه أهل الجزيرة والشام وحلب وتوابعها: زقية، وهو طائر فِطْنٌ ، ويسميه الأندلسيون: أبو الحسن، والمصريون: أبو زقاية، وربما أداوا الزاي: منه سينا، وهو عصفور ذو ألوان: حمرة وصُفرة وبياض وسواد وزرقة وخضرة، وهو قابل للتعليم يُعَلِّمُ أَخَذَ الشَّيْءَ كالفليس ونحوه من يد الإنسان على البعد والإتيان به لصاحبه .

ومنها "أبو بَرَأَيْشٍ" - بكسر القاف وبالشين المعجمة - وهو طائر كالعصفور يتلون ألواناً، وبه يضرب المثل في التلون .

(١) لعل هذا اللفظ من زيادة الناصح .

ومنها "الزاع" - بزاي وغين معجمتين بينهما ألف - وهو ضرب من الغربان صغير أخضر اللون لطيف الشكل حسن المنظر، وقد يكون أحمر المنقار والرجلين، وهو الذي يقال له: غراب الزيتون، سمي بذلك لأنه يأكل الزيتون.

ومنها "الغداف" - بضم الغين المعجمة وبالذال المهملة والفاء في آخره - وهو غراب الغيط، ويجمع على غدافان بكسر الغين.

قال ابن فارس: هو الغراب الضخم. وقال العبدري: هو غراب صغير أسود، لونه كلون الرماد. وقد قال النووي في الروضة: بتحريمه وإن كان الرفعي قد جزم بحله، ورجحه صاحب المهمات.

ومنها غراب "الزرع" - وهو غراب أسود المنقار. وفيه وجه بالتحريم.

الضرب الثاني - ما يحرم أكله.

وهو أنواع كثيرة أيضا:

منها "الطاوس" - ويجمع على طاوايس - وهو طائر في نحو مقدار الإوزة حسن اللون، والذكر منه غاية في الحسن، له في رأسه ريش خضر قائم كالشربوش، وفي ذنبه ريش أخضر طويل في أحسن منظر، وليس للأنتى شيء من ذلك، وهو في الطير كالفرس في الدواب عزا وحسنا، وفي طبعه الزهو بنفسه والخيلاء، والإعجاب بريشه، والأنتى منه تبيض بعد ثلاث سنين من عمرها، وفي هذا الحد يكمل ريش الذكر ويتم لونه. وبيضه مرة واحدة في السنة، ويكون بيضه من آنتى عشرة بيضة إلى ما حولها، ولا يبيض متابعا. وسفاده في أيام الربيع. وفي الخريف يلقى ريشه كما يلقى الشجر ورقه حينئذ، فإذا بدا طلوع أوراق الأشجار طلع ريشه. وهو

(١) الذي في الفاموس وحياة الحيوان: غراب القبط.

كثير العَبَثِ بالأثني إذا حَضَنْتَ وربما كسر بيضها ؛ ولذلك يُحَضَّنُ بِيضُهُ تحت الدَّجَاحِ ؛ لكن لا تقوى الدجاجة على حَضْنِ أَكْثَرِ من بيضتين منها ، وتُعَاهِدُ الدجاجة بالطَّعْمَةَ والسَّقِيَّةَ وهي راقدة عليه ، كيلا تقومَ عنه فيفسد بالهواء ، إلا أن ما تحضُّنهُ الدجاجة يكون ناقص الجثة عما تحضُّنهُ أنثاه ؛ وليس له من الحسن والبهجة ما لذلك ؛ ومدة حضنه ثلاثون يوما ؛ وفرخه يخرج من البيضة كالفروج كاسيا بالريش يلقط الحب للحال .

ومنها "السَّمْنَدُ" — بفتح السين المهملة والميم رسكون النون وفتح الدال المهملة ولام في الآخر — وقال الجوهري : السَّنْدَلُ بغير ميم . وقال ابن خَلَّكَانَ : السَّمْنَدُ بغير لام ؛ وهو طائر يكون بأرض الصِّينِ والهند ؛ ومن خاصته أنه لا تؤثر النار فيه حتى يمال ؛ إنه يبيض ويُفْرِخُ فيها ويستند بمكته فيها . ويتخذ من ريشه مناديل ونحوها ، فإذا آتسخت ألقيت في النار ، فتأكل النار وسخها ولا لتأثر هي في نفسها . قال ابن خَلَّكَانَ في ترجمة يعقوب بن صابر المنجيني : رأيت منه قطعة ثخينة منسوجة على هيئة حزام الدابة في طوله وعرضه ، فألقيت في النار فما أثرت فيها ، فغمس أحد جوانبها في الزيت وجعل في النار فاشتعل وبقى زمانا طويلا ثم أطفئ ، وهو على حاله لم يتغير . قال : ورأيت بخط عبد اللطيف البغدادي : أنه أهدي للظاهر ابن السلطان صلاح الدين صاحب حلب قطعة منه عرض ذراع في طول ذراعين ، فغمست في الزيت وقربت من النار فاشتعلت حتى قفي الزيت ، ثم عادت بيضاء كما كانت . وبعضهم يقول : إنه وحش كالثعلب وإن ذلك يعمل من وبره .

ومنها "البَغَاءُ" — بباءين مفتوحتين ، الأولى منهما مخففة والثانية مشددة وغين معجمة بعدها ثم ألف — وهو المعبر عنه بالذرة — بدال مهملة مضمومة — وقال

أبن السمعاني في الأتساب: هي باسكان الباء الثانية، وهي طائر أخضر اللون في قدر الحمام يحاكي ما يسمعه من اللفظ؛ ثم هي على ضربين: هندية وهي أكبر جثةً ومنقارها أحمر، ونوبي وهي أدولها ومنقارها أسود؛ ويقال: إن منها نوعاً أبيض؛ ويذكر أنه أهدي لمعز الدولة ابن بويه ببغاء بيضاء اللون سوداء المنقار والرجلين، على رأسها ذؤابة فسقية. وهي طائر دميت الأخلاق، ثاقب الفهم، له قوة على حكاية الأصوات وقبول التلقين؛ تتخذ الملوكة والأكابري ليم بما يسمع. ومن شأنه أنه يتناول طعمه برجله كما يتناوله الإنسان بيده؛ والهندي منه أقرب إلى التعليم من النوبي.

ومنها "أبورزيق" - بزاي مضمومة ثم راء مهملة وفي آخره فاف - ويقال له: القيق - بكسر القاف - والزرّ ياب - بزاي معجمة مكسورة ثم راء مهملة ساكنة ثم ياء مثناة تحت، وبعد الألف باء موحدة - وهو طائر ألوف للناس يتقبل التعليم، سريع الإدراك لما يعلم؛ وقد يزيد على البيغاء إذا أنجب، بل إذا تعلم جاء بالحروف مبينة حتى يظن سامعه أنه إنسان، بخلاف البيغاء فإنها لا تنصح كل الإفصاح.

ومن غريب ما يحكى في أمره ما حكاه صاحب "منطق الطير": أن رجلاً خرج من بغداد ومعه أربعمائة درهم، لا يملك غيرها، فوجد في طريقه عدة من فراخه فاشتراها بما معه، ثم رجع إلى بغداد فعلقها في أقفاص في حانوته، فهبت عليه ريح باردة فماتت كلها إلا واحداً كان أضعفها وأصغرها، فنقل ذلك عليه وبات ليلته تلك يتهل إلى الله تعالى بالدعاء وينادى: يا غياث المستغيثين أغثنى؛ فلما أصبح إذا ذلك الفرخ الذي بقى يصيح بلسان فصيح: يا غياث المستغيثين أغثنى؛ فأجتمع الناس عليه يسمعون صوته؛ فأجتازت جارية للخليفة فاشتريته منه بألف درهم.

ومنها "الهدهد" - بضم الهاءين وإسكان الدال المهملة بينهما - وهو طائر معروف ذو خطوط موشية وألوان، ويجمع على شدائد. ويذكر عنه أنه يرى الماء من باطن الأرض كما يراه الإنسان في باطن الزجاج - قُوَّةُ ركبها الله تعالى فيه - ولذلك عُني به سليمان عليه السلام مع صنبره كما قاله البيهقي في "شعب الإيمان" ويقال : إنه كان دليلاً لسليمان عليه السلام على الماء ، وقصته مع سليمان مذكورة في التنزيل .

وقد ذكر الزمخشري أن سبب تخلفه عن سليمان أنه رأى هدهداً آخر، فحكى له عظيم ملك سليمان ، فحكى له ذلك الهدهد عظيم ملك بلقيس باليمن ، فذهب ليكشف الخبر فلم يرجع إلا بعد العصر ، فلما عاد إليه توعدّه ، فأرمنى رأسه وجناحيه تواضعا بين يديه ، وقال : يا نبي الله ، أذكر وقوفك بين يدي الله ! فارتعد سليمان وعفا عنه . ومنها "الخطاف" - بضم الخاء المعجمة - ويجمع على خطاطيف وهو طائر في قدر العصفور ، أسود ، وباطن جناحيه إلى الحمرة ، والناس يسمونه عصفور الجنة لأنه يُعرض عن أقواتهم ويقف البعوض والذباب . ومن شأنه السكنى في البيوت المعمورة بالناس في أناحيص بينها من الطين ، ويختار منها السقوف والأماكن التي لا يصل إليه فيها أحد .

وقد ذكر الثعلبي في تفسيره في سورة النمل : أن سبب قرب الخطاطيف من الناس أن الله تعالى لما أهبط آدم إلى الأرض ، استوحش ، فأنسه الله تعالى بالخطاف وأزماه البيوت ، فهو لا يفارق بني آدم أنساً لهم . والخفّاش يعاديه فلذلك إذا أفرخ جعل في عُشه قُضبان الكرفيس لينفر الخفّاش عنها .

ومن عادته أنه لا يُفرخ في عُش عتيق حتى يطينه بطين جديد ، ولا يلقى شيئاً من دُرقه في عُشه بل يلقيه إلى ما شاء . وإذا سمع حس الرعد يكاد يموت . ويوجد

في عُنَّه حَجَرُ الْبِرْقَانِ وهو حجر صغير فيه خطوط بين الحمرة والسواد إذا علق على من به اليرقان أو شرب من سُحَالته برى ؛ وإنما يأتي بهذا الحجر إذا أصاب فراخه اليرقان ؛ ولذلك يحتال بعض الناس ببلطخ فراخه بالزعفران ليظن أن اليرقان قد أصابها فيأتي إليها بهذا الحجر فيؤخذ منه .

ومن الخطاطيف نوع آخر الُطفُ قدرا من هذا ، يَسْكُنُ شَطوطَ الأنهار وجوانب المياه . وعتوا من أنواعه أيضا الذي يسميه أهل مصر : الخُصِيرِي ؛ وهو طائر أخضر دون الببغاء في المقدار لا يزال طائرا وهو يصيح ؛ يقنات الفراش والذباب .

ومنها "الُصُرْدُ" - بضم الصاد وفتح المهملة ودال مهملة في الآخر - ويجمع على صُرْدَان . قال ابن قتيبة : وسمى صُرْدَا ، حكاية لصوته ، ويسمى : الواق - بكسر القاف - وكنيته : أبو كثير ؛ وهو طائر فوق العصفور ، نصفه أبيض ونصفه أسود ، صخم الرأس ، صخم المنقار والبرائن ؛ لا يرى إلا في شَعْفَة أو شجرة بحيث لا يقدر عليه أحد ؛ وله صَفير مختلف .

ومن شأنه أنه يصيد العصافير وما في معناها ؛ فيصفر لكل طير يريد صيده بلغته ، يدعو إلى التقرب منه فيتب عليه فيأكله . والعرب تشاءم به وتنفر من صياحه . وهو مما وردت الشريعة بالنهي عن قتله .

ومنها "العَقَّعُ" - بعينين مهملتين مفتوحتين بينهما قاف ماكنة - وربما قيل فيه : العَقَّع على القلب .

قال الجاحظ : سمي بذلك لأنه يعق فراخه فيتركهم أياما بلا طعم . ويقال لصوته : العَقَّعَة ؛ وهو طائر على قدر الحمامة في شكل الغراب وجناحاه أكبر من جناحي الحمامة ؛ ذلونين : أبيض وأسود ، طويل الذنب .

ومن شأنه أنه لا يَأْوِي تحت سَقْف ولا يَسْتِظِل به ، بل يَهِيءُ وَكْرَهُ في المَوَاضِع المَشْرِفَةِ ، وفي طَبْعِهِ الزنا والحَيَانَةُ ، ويوصف بالسَّرْقَةِ والخُبْثِ . وإذا رأى حُلِيًّا أو عَقْدًا آخِطَفَهُ ، والعرب تضرب به المَثَل في جميع ذلك . وإذا باضت الأثَى منه أخفت بيضها بورق الدُّبِّ خوفاً عليه من الخُفَّاشِ ، فإنه متى قُرِبَ من البيض مَذَرَ وتغير من ساعته . ويقال : إنه ينجباً قُوَّتَهُ كما ينجبؤه الإنسان والنملة إلا أنه ينسى ما ينجبؤه . وبعضهم يعدّه في جملة الغُرَبَانِ . وفيه وجه عندنا بحلِّ أكله .

ومنها "الشَّرْقَاقُ" — بفتح الشين المعجمة وسكون القاف وألف بين الراء المهملة والقاف الثانية — ويجوز فيه كسر الشين أيضاً ، وربما قلبوه فقالوا : الشَّرْقَاقُ ، ويسمى : الأَخِيلَ أيضاً ، وهو طائرٌ صغيرٌ بقدر الحمام أخضرٌ مُشَبَّعٌ الخُضْرَةَ ، حسن المنظر في أجنحته سواد . والعرب تشاءم به .

وفي طبعه الشَّرُّ حَتَّى إنه يَسْرِقُ فِرَاحَ غيره . وعدّه الجاحظ نوعاً من الغُرَبَانِ ، ويكثر ببلاد الشام والروم وخراسان ، ولا يزال متباعداً من الإنس ، بألف الروابي ورءوس الجبال ، إلا أنه يَحْضُنُ بيضه في عوالي العُمران التي لا تتألف الأيدي . وعُشُّه شديد البُنيان ، وله مَشْتَى ومَصِيف .

قال الجاحظ : وهو كثير الاستغاثة ، إذا مر به طائرٌ ضربه ينجأه وصاح كأنه هو المضروب . وفيه وجه بحلِّ أكله .

ومنها "الغُرَابُ الأَبْقَعُ" قال الجوهري : وهو الذي فيه بياض وسواد ، ويسمى : غراب البين أيضاً ؛ قال صاحب "المجالسة" : سمي بذلك لأنه بان عن نوح عليه السلام حين أرسله لينظر الماء فذهب ولم يرجع ، قال ابن قتيبة : وجعل فاستقلاً لأجل ذلك . ويسمى : الأعور . إقما لانه يُغْمِضُ إحدى عينيه لقوة بصره ، وإما لصفاء عينيه وحدة بصره من باب الأضداد .

ومن طبعه الخيانة والسرقة؛ والعرب تتشام به وتكره صوته؛ وقد سبق القول على ذلك في أوابد العرب من هذه المقالة .

ومن طبع الغراب الأستار عند السفاد وأنه يسفدها مواجهة ملقاة على ظهرها؛ والأثني تبيض أربع بيضات ونحسا؛ وإذا خرجت الفِراخ من البيض نفر عنها الأبوان لبشاعة منظرها، حينئذ فتغذي من البعوض والذباب الكائن في عشاها حتى ينبت ريشها فيعود الأبوان إليها؛ وعلى الأثني الحَضْنُ وعلى الذكر أن يأتيها بالطعم . وفيه حذر شديد وتناصُر، حتى إنه إذا صاح الغراب مسننرا آجتمع إليه عدة من الغربان .

ومنها "الغراب الأسود الكبير" وهو الجبلي . وفيه وجه بجمه .

ومنها "الجِدَاءُ" - بكسر الحاء، والهمز - الطائر المعروف، ويجمع على حداءٍ وحِدَاءَانٍ . ومن ألوانها السُّودُ والرَّمْدُ . وهي لا تصيد بل تخطف؛ ومن طبعها أنها تصف في الطيران وليس ذلك لشيء من الكواسر غيرها . وزعم ابن وحشية وابن زهر: أن الجِدَاءَ والعُقَابَ يتبدلان، فتصير الجِدَاءُ عُقَابًا والعُقَابُ حِدَاءً، وربما قيل: الغراب بدل العقاب . ويقال: إنها تصير سنة ذكرا وسنة أنثى . ويقال: إنها أحسن الطير مجاورة لما جاورها من الطير حتى لو ماتت جوعا لا تعدو على فرخ جارتها .

وفي طبعها أنها إنما تخطف من تخطف منه من يده اليمنى دون اليسرى حتى يقال: إنها عمراء . وقد ثبت في الصحيحين حل قتلها في الحل والحرم .

ومنها "الرَّحْمَةُ" - بفتح الراء المهملة والحاء المعجمة - وكنيتها: أم جِعْرَان، وأم رِسَالَةَ وأم عَجِيبة، وأم قَيْس، وأم كثير. ويقال لها: الأَنُوقُ - بفتح الهمزة -

(١) الذي في حياة الحيوان "أم كبير" .

وهي طائر أبيض وسواد، فوق الحدأة في المقدار تاكل الحيف . وهي معدودة في بُغَاثِ الطير . وهي تسكن رءوس الجبال العالية وأبعدها من أهاكن أعدائه ؛ ولذلك تضرب العرب المثل ببيضه فيقولون : « أَعْرُ مِنْ بَيْضِ الْأُنُوقِ » والأثني لا تمكن من نفسها غير ذكراها وتبيض بيضة واحدة وربما باضت بيضتين .

ومنها "البومة" - بضم الباء الموحدة وفتح الميم - للذكر والأثني ؛ وهو طائر من طير الليل في قدر الإوزة ، لها وجه مستدير بالريش النبات حوله ، يشبه وجه آدمي ، في صفرة عينين وتوقدهما . ويقال للذكر منها : الصدى والضوع - بضم الضاد المعجمة - والفياد - بالفاء وتشديد المثناة تحت - ويقال للأثني : الهامة . وكنية الأثني : أم الخراب ، وأم الصبيان ؛ ولها في الليل قوة سلطان لا يحتملها شيء من الطير ؛ تدخل على كل طائر في وكره في الليل فتخرجه منه وتاكل فراخه وبيضه ، ولا تنام الليل ؛ والطير بجملته يعاديا من أجل ذلك ؛ فإذا رأوها في النهار قتلوها وتنفوا ريشها ؛ ومن ثم يجعلها الصيادون في شباكهم ليقع عليها الطير فيقتنصونها ؛ فهي لا تظهر بالنهار لذلك .

ونقل المسعودي في مروج الذهب عن الجاحظ أنها إنما تمتنع من ظهورها في النهار خوفاً من أن تصاب بالعين لحسنها وجمالها ، لأنها تصور في نفسها أنها أحسن الحيوان . ومن طبعها سكنى الخراب دون العامر .

ومن غريب ما يحكى ما ذكره الطرطوشي في "سراج الملوك" : أن عبد الملك بن مروان أرق ليلة فاستدعى أميراً يحدثه ، فكان مما حدثه أن قال : يا أمير المؤمنين كان بالبصرة بومة وبالموصل بومة ، فخطبت بومة الموصل إلى بومة البصرة بنتها لأبنا ؛

(١) عبارة حياة الحيوان فاذا رأها الطير قتلها وتنذر ريشها... الخ ، وهي أصوب .

فقلت بومة البصرة : لا أفعل حتى تجعلى فى صداقها مائة ضبعة نراب ؛ فقلت بومة الموصل : لا أقدر على ذلك الآن ولكن إن دام والينا سلمه الله علينا سنة واحدة فعلت ؛ فاستيقظ لها وجلس للظالم .

ومنها "البؤة" - بضم الباء وفتح الهمزة - قال الجوهري : وهو طائر يشبه البومة إلا أنه أصغر منها . وذكر ابن قتيبة فى أدب الكاتب نحوه ، ويقال له : البوهة أيضا ؛ وهى من طير الليل أيضا . ولا يخفى أنها التى يسميها الناس فى زماننا المصاصة ويزعمون أنها تنزل على الأطفال فتمص أنوفهم .

ومنها "الخفّاش" - بضم الخاء المعجمة وتشديد الفاء وبالشين المعجمة ، ويجمع على خفّاش - وهو طائر غريب الشكل والوصف لاريش عليه ؛ رأجنحته جلدة لاصقة بيديه ، وقيل لاصقة بجنبه . وسمى خفّاشا لأنه لا يبصر نهارا ، وبه سمي الرجل : أخش ؛ والعامة تسميه الوطواط ، وقيل : الخفّاش الصغير ، والوطواط الكبير . ويقال : إن الوطواط هو الخطّاف لا الخفّاش . وليس هو من الطير فى شيء ، فإن له أمنا وخصيتين ، ويمحض ويضحك كما يضحك الإنسان ؛ ويبول كما تبول ذوات الأربع ، ويرضع ولده من ثديه .

ولما كان لا يبصر نهارا أتمس وقتا يكون بين الظلمة والضوء وهو قريب غروب الشمس ، لأنه وقت هيجان البعوض ، فالبعوض يخرج فى ذلك الوقت يطلب قوته من دماء الحيوان ؛ والخفّاش يخرج لطلب الطعم فيقع طالب رزق على طالب رزق . ويقال : إنه هو الذى حلته المسيح عليه السلام من الطين ، ونفخ فيه فكان طيرا بإذن الله . قال بعض المفسرين : ومن أجل ذلك كان مينا لنيره من الطيور ،

(١) ليسهزه أحد من اللغويين بل ذكره فى باب الخاء ، وقد رسم فى الصحاح بالواو ، وكذا فى القاموس وقال بالمضم .

ولذلك سائر الطيور مَبْغِضَةٌ له وتسطو عليه ، فما كان منها يأكل اللحم أكله ، وما كان منها لا يأكل اللحم قتله ، وهو شديد الطيران ، سريع القلب ، يقتات البعوض والذباب وبعض الفواكه . وهو موصوف بطول العمر حتى يقال : إنه أطول عمرا من النَّسْرِ ، وتلد الأثى ما بين ثلاثة أفراخ وسبعة ، وكثيرا ما يَسْفِدُ وهو طائر في الهواء . وهو يحمل ولده معه اذا طار تحت جناحه ، وربما قبض عليه بفيه حنوا عليه ، وربما أرضعت الأثى ولدها وهي طائفة . وفي طباعه أنه متى أصابه ورق الدُّبِّ خَدِرَ ولم يطير . وقد ورد النهي عن قتله .

فإذا عرف الكاتب أحوال الطير وخواصها ، تصرف فيها بحسب ما يحتاج إليه في نظمه وثره ، كما في قول الشاعر :

وإذا السعادةُ لاحظتكَ عيونها * نَمَّ ، فإلخافِ كلهنَّ أمانُ
وأصطدَّ بها العنقاءُ فهي حبالُ * وأقتدَّ بها الجوزاءُ فهي عنانُ

إشارة إلى عظم العنقاء وعدم القدرة على مقاومتها ، ومع ذلك تنقاد بالسعد . وكما في قول أبي الفتح كُشَّاجِم ، مخاطبا لولده يطلب البر منه :

أَتَّخِذْ فِي خَلَّةٍ فِي الكَرَاكِي * أَتَّخِذْ فِيكَ خَلَّةَ الوَطَاطِ
أنا إن لم تَبْرِي في عناء * فبيري ترجو جواز السراط

يشير إلى ما تقدم من أن في طبع الكركي بر والديه إذا كبرا ، كما أن في طبع الوطواط بر أولاده بحيث يحملها معه إلى حيث توجه ، وكما في قول الشاعر
مثل النهار يزيدُ إبصارَ الررى * نورا ويعني أعين الخفاش

إشارة إلى أن الخفاش لا يبصر نهارا ، بخلاف سائر أرباب الأبصار ، وكما قيل في وصف شارد عن القتال :

وَهُمْ تَرَكَوهُ ^(١) أَسْلَحَ مِنْ حُبَارَى * رَأَى صَقْرًا ، وَأَشْرَدَ مِنْ نَعَامٍ
يريد ما تقدم مما يعرض للحبارى من إرسالها سلحها على الجارح عند اقتناصه
لها ، وأن النعام في غابة ما يكون في البرية من الشراد والنقار ، ونحو ذلك مما
يجرى هذا المجرى .

الصنف الرابع

الحمام

وقد اختلف في الحمام في أصل اللغة ، فنقل الأزهري عن السامعي رضي الله
عنه أن الحمام يطلق على كل ما عاب وهدر وإن تفرقت أسمائه ، فدخل فيه الحمام ،
واليمام ، والدبائسي ، والقماري ، والفواخت وغيرها . وذهب الأصمعي إلى أن الحمام
يطلق على كل ذات طوق كالقواخت والقماري وأشباهاها . ونقل أبو عبيد عن
الكسائي سماعا منه أن الحمام هو الذي لا يالف البيوت ، وأن اليمام هو الذي يالف
البيوت ؛ لكن الذي غلب عليه إطلاق الحمام هذا النوع المخصوص المعروف .

ثم هو على قسمين :

أحدهما ما ليس له أهتداء في الطيران من المسافة البعيدة .

والثاني ما له أهتداء ، ويعرف بالحمام الهدى وهو المراد هنا . وقد أعنى الناس

بشأنه في القديم والحديث ، وأهت بهم أمره الخلفاء ، كالمهدي ثالث خلفاء بني العباس ،
والواثق ، والناصر ، وتنافس فيه رؤساء الناس بالعراق ، لا سيما بالبصرة .

فقد ذكر صاحب "الروض المعطار" : أنهم تنافسوا في اقتنائه ، ولهبجوا بذكره ،

وبالفوا في أثمانه حتى بلغ ثمن الطائر الفاره منها مئبعمائة دينار ، ويقال : إنه بلغ ثمن

(١) ورد هذا البيت في حياة الحيوان هكذا : وهم تركوك ... * رأت ... الخ .

طائر منها جاء من خليج القسطنطينية ألف دينار؛ وكانت تباع بيضة الطائر المشهور بالفراهة بعشرين ديناراً . وإنه كان عندهم دفاتر بأنساب الحمام كأنساب العرب . وإنه كان لا يتمتع الرجل الجليل ولا الفقيه ولا العدل من اتخاذ الحمام والمنافسة فيه والإخبار عنها ، والوصف لأثرها والنعت لمشهورها ؛ حتى وجه أهل البصرة إلى بكار بن قتيبة البكراني ، قاضي مصر -- وكان في فضله وعقله ودينه وورعه ما لم يكن عليه قاض -- بحمامات لهم مع ثقات ، وكتبوا إليه يسألونه أن يتولى إرسالها بنفسه ، وكان الحمام عندهم متجراً من المتاجر لا يرون بذلك بأساً .

وذكر المفتر الشهابي بن فضل الله في "التعريف" : أن الحمام أول ما نشأ -- يعني في الديار المصرية والبلاد الشامية -- من الموصل وأن أول من أعنى به من الملوك ونقله من الموصل : الشهيد نور الدين بن زكي صاحب الشام رحمه الله في سنة خمس وستين وخمسة مائة . وحافظ عليه الخلفاء الفاطميون بمصر ، وبالغوا حتى أفردوا له ديواناً وجرائد بأنساب الحمام . وقد اعتنى بعض المصنفين بأصره ؛ حتى صنّف فيه أبو الحسن بن ملاعب القواس البغدادي كتاباً للناصر لدين الله العباسي ، ذكر فيه أسماء أعضاء الطائر، ورياشه، والوشوم التي توشم في كل عضو؛ وألوان الطيور، وما يستحسن من صفاتها، وكيفية إفراخها، وبعض المسافات التي أرسلت منها ، وذكر شيء من نوادرها وحكاياتها وما يجري مجرى ذلك .

وذكر في "التعريف" : أن القاضي يحيى الدين بن عبد الظاهر صنّف فيها كتاباً

سماه "تمائم الحمام" ويتعلق النقص منها بأمر .

الأمـر الأول

ذكر ألوانها

قال أبو الحسن القزاس : وقد أكثر الناس من ذكر ألوانها ، ويرجع القصد فيها إلى ذكر ألوان ستة :

اللون الأول "البياض" ومنه الأبيض الصافي ، والأشقر ، وهو ما كان يعلموه حمرة ، فإن كان الغالب في شُقرته البياض قيل : فِضِيٌّ ، فإن زاد قيل : أشقر .
اللون الثاني "الخضرة" إن كانت خضرتة مشبعة إلى السواد قيل : أخضر مسنيٌّ ، فإن كان دون ذلك قيل : نَبِيٌّ الخضرة ، فإن كان دون ذلك قيل : صافي الخضرة ، فإن تكدرت خضرتة بأن لم يكن صافي الخضرة قيل : أسمر .
اللون الثالث "الصفرة" وهي عبارة عن أن تكون خضرتة تميل إلى البياض ، فإن كان صافيا قيل : أصفر قرطاسيٌّ .

اللون الرابع "الحمرة" إذا كان شديد الحمرة قيل : عُنَابِيٌّ ، فإن كان دون ذلك قيل : نَحْرِيٌّ ، فإن كان دون ذلك قيل : خَلُوقِيٌّ ، فإن كانت حمرتة تضرب إلى الخضرة قيل : أَكْفَأٌ ، فإن كانت حمرتة تضرب إلى البياض قيل : أحمر صدفيٌّ .

اللون الخامس "السواد" إذا كان شديد السواد لا بياض فيه قيل : أسود مطبق ، فإن كان لون سواده ناقصا قيل : أسود أخلس ، فإن كان سواده يضرب إلى الخضرة قيل : أسود رماديٌّ ، فإن كان في سواده مائية قيل : أسود برّاق ، فإن كان مسافاه أيضا أسودين قيل : أسود حالك ، وأسود زنجيٌّ .

اللون السادس "النسري" وهو أن يكون في الطائر نقط يخالف بعضها بعضا ، ويختلف الحال فيه باختلاف كبر النقط وصفرها ، فتارة يقال : مدّز ، وتارة يقال :

ملمع ، وتارة يقال : أبرش ، وتارة يقال : موشح ، وتارة يقال : أبقع ، وتارة يقال : أبلق ، وتارة يقال : دباسي ، وتارة يقال : مدرع ، إلى غير ذلك مما لا يُستوفى كثرةً .
ثم إن كان الطائر أكل العينين وحول عينيه حمرة قيل : فقيع ؛ فإن كان أصفر العين قيل : أصفر زريني ؛ فإن كان أبيض العنق قيل : هلالى ، وهو أحسنها ، والأصفر العين بعده ؛ فإن كانت العين بيضاء وفيها حمرة قيل : رقاني العين .

الأمر الثاني

في عدد ريش الجناحين والذنب المعتد به وأسمائها

أما الجناحان فإن فيهما عشرين ريشة ، في كل جناح منهما عشر ريشات ؛ الأولى منها وهي التي في طرف الجناح تسمى : الصمة ؛ والثانية وهي التي بعدها تسمى : المضافة الرئيسية ؛ والثالثة وهي التي بعدها تسمى : الواسطية ؛ والرابعة وهي التي بعدها تسمى : المضافة ؛ والخامسة وهي التي بعدها تسمى : المنظفة ؛ والسادسة وهي التي بعدها تسمى : المنحدرة ؛ والسابعة وهي التي بعدها تسمى : الناقصة ؛ والثامنة وهي التي بعدها تسمى : المونسية ؛ والتاسعة وهي التي بعدها تسمى : الزاملة ؛ والعاشرية وهي التي بعدها تسمى : المعينة .

وبعضهم يسمي الأولى : الصغيرة ، والثانية : الرقيقة ، والثالثة : الموفية ، والرابعة : الباحلة ، والخامسة : الحيرة ، والسادسة : الصرافة ، والسابعة : ممسكة الرمي ، والثامنة والتاسعة : الحافظتين ، والعاشرية : الملكة .

وربما كان في كل جناح إحدى عشرة ريشة ، فيسمى الطائر حينئذ : أعلم .
ولهذه الريشات العشر عشر ريشات مع كل واحدة منها رادفة ؛ وهي الريش الصغار التي تغطي قصب الجناح من ظاهره ؛ ولكل ريشة من هذه الريشات العشر ريشة صغيرة تغطي قصبها ؛ لكل واحدة منها اسم يخصها .

ومن ريش الجناح أيضا: الخَوَافِي ؛ وهي الريش المسنن مع العشر ريشات الطوال المنقلب برؤوسه إلى مؤخر الجناح ؛ وهي تسع ريشات ، الأولى منها تسمى : الحدقة ، والثانية : الرِّمَّة ، والثالثة : الغرة ، والرابعة : الحز ، والخامسة : الجائزة ، والسادسة : المسلمة ، والسابعة : الملازمة ، والثامنة : الشعثة ، والتاسعة : اللامعة ؛ وبعضهم يسمي الأولى : بنت الملكة ، والثانية : الإبرة ، والثالثة : المقشعرة ، والرابعة : الصافية ، والخامسة : المصفية ، والسادسة : المصفرة ، والسابعة : الزرقاء ، والثامنة : السوداء ، والتاسعة : المزرققة ؛ وعد فيها عشرة تسمى : المخضرة ؛ ولكل ريشة من الريشات التسع ريشة صغيرة تغطي قصبتها لها أسم يخصها أيضا .

وبعد الخوافي : الغفار ، ولكل ريشة من الغفار ريشة صغيرة من باطنها تغطي قصبتها .
ومن ريش الجناحين : المَقُومَات ؛ وهي ثلاث ريشات في طرف الجناح ، تسمى : الزوائد ؛ ومن فوقها ثلاث ريشات صغار تغطي قصبتها ، تسمى : الغواشي ، وأصلها مع أصل ^(١) أيضا .

وأما الذنب ، فالمعتبر فيه اثنا عشرة ريشة من كل جانب : منه ست ريشات تسمى الأولى منها : الغزالة ، والثانية : العروس ، والثالثة : الباشفة ، والرابعة : الباقية ، والخامسة : المجاورة ، والسادسة : العمود ، ومن الجانب الآخر كذلك .

الأمـر الثالث

الفرق بين الذكر والأُنثى

وقد ذكروا بينهما فروقا ؛ منها أن الأُنثى إذا تمشيت قدمت الرجل اليسرى ، والدكر يقدم الرجل الأيمن ؛ ومنها أن يرى الدكر مقتديرا في الأرض مستشبطا ،

(١) لعله مع أصل الزوائد أيضا كما يفيد المقام نامل .

والأثني بالضد من ذلك ؛ ومنها أن ريش الذكر أعرض وأطول وأحسن استواءً من الأثني ؛ ومنها أن مذبح الذكر يكون عريضاً ومذبح الأثني دقيقاً ؛ ومنها أن يكون وجه الذكر عريض الخد والأثني بالضد من ذلك ؛ ومنها أن الأثني إذا طارت فتحت جناحها والذكر إذا طار أخرج عشريه .

الأمـر الرابع

في بيان صفة الطائر الفازيه

قال أبو الحسن القواس : علامته أن يكون رأسه مكعباً ، وعينه معتدلةً ، غير ناثئة ولا غائرة ، ولا فارة ، ولا قلقة مزعجة ؛ وأن يكون منقاره غليظاً قصيراً ؛ وأن يكون وسط المنخرين ، مَكْتَمَ الْقِرْطَمَتَيْنِ ، أَهْرَتَ الشَّدَقَيْنِ ، واسع الصدر ، نقي الريش ، طويل الفخذين ، قصير الساقين ، غليظ الأصابع ، شثن البراشن ، طويل القوائم من غير إفراط .

ويستحب فيه تَصَرُّ الذنب ودِقُّته ؛ واجتماع ريشه من غير تفرق ؛ وأن يكون ظهره معتدلاً وإلى الفصير أقرب ؛ وأن يكون جُوجُوهً ، وهو جانب الصدر طويلاً ممتداً ؛ وعنقه طويلاً منتصباً ؛ وريش قوامه وخوافيه مَبْنِيًّا متطابقاً بعضه مع بعض من غير تفرق ولا تَمَعُّط ؛ وأن يكون شديد اللحم مكتتراً ، غير رخو ولا رهيل .

ويستحب فيه أيضاً أن يكون قليل الرعدة عند الفرع ؛ سريع اللقطة للحب ؛ خفيف الحركة والنهوض ؛ والتزول من غير طيش ولا اختلاط ؛ وأن يكون ظهره مسطحاً لا أحدب ولا أوقص ؛ ويستحب فيه إذا وقف أن ينصب صدره ، ويرفع عنقه ، ويفتح ما بين نخديه شبه البازي .

(١١) ومن علامة فرأهته أنه إذا طال عليه الطيران وأراد النزول على سطحه الأيدي رجليه حتى يقع صدره على سطحه لأنه إذا دث ساقيه كان عيبا عظيما، يقولون : قد انحلت سراويله بمعنى أنه قد أدى جميع ما عنده من القوة والطاقة، ريكه فيه دفة المغرزة، وطول الذنب، وتفرق الريش .

الأمر الخامس

الفراسة في الطائر من حال صغره قبل الطيران

قالوا من علامة الطائر الفاره في صغره : أن يكون حديد النظر، شديد الجدر، خفيف اللحم، قليل الريش، سريع النهضة، كثير التلفت في الجو، ممتد العظم، مستويا، لطيف الذنب، خارج العنق، قصير الساقين، طويل الفخذين، محجلا، مذيل المنقار، مدور الفراطم، مضاعف المحاجر، يلزم موضعا واحدا من صغره، إلى ازدواجه، فإذا ازدوج على السطح يكون حريصا على طائرته، حسن الأخلاق معها لا يطردّها طرد الكلاب، ولا يغتال غيلة الذئب، قليل الذرق، كثير الدهن، مدلا بنفسه، كأنه يعلم أنه فاره . فإن كان فيه بعض هذه الخصال كانت فراسته على قدر ما فيه من ذلك .

قال أبو الحسن الكاتب : ومن علامة شهامة الفرخ أن تكون فيه الحركة وهو تحت أبيه وأمه، وكلما جمعت لهضمه تحتها، خرج من تحتها ويعتلق للخروج، وأن يكون ريش رأسه كأن فيه جلا، وريش جسده وجناحه مستطيلا عند نبعه من جسده، وأن بطول ريشه حتى يغطي ظهره ولا ينتشر إلا بعد ذلك، وأن يكون من جؤجؤ الصدر إلى مغرزه أقصر من بطنه إلى رأس برأته .

(١) لعل الجار ومجروره من زيادة الناصح .

وفي الحمام طائر يقال له : الأندم ، وصفته أن يكون أسود المتقار ليس فيه بياض .
ورأس منقاره وأصله سواء ، لا تحديد في رأسه ، عريض القراطيم ، غليظ الشدقين .
منتشر المنخرين ، جهوري الصوت ، غائر العين ، قال أبو الحسن القواس : ولا تكون
هذه الصفة إلا في الطائر الفاره الأصيل ، الكريم الأب والأم .

الأمير السادس

بيان الزمان والمكان اللائقين بالإفراخ

أما الزمان فأصلح أوقات التأليف : أيلول ، وتشرين الأول ، وتشرين الثاني ،
وأذار ، ونيسان ، وإيار ، فإذا وقع الإفراخ في شيء من هذه الأوقات كانت الفراخ
أقوياء ، نجباء ، أذكاء ، ونهوا عن الإفراخ في كانون الأول ، وكانون الثاني ، وشباط ،
 وآب ، وتموز ، وحزيران ، فإن الذي يُفرخ فيه لا يزال ناقص البدن ، قليل الفطنة ،
يلقى ريشه في السنة مرتين فيضعف .

وأما المكان فقد حكى عن إقليم هندي : أن أولى ما أفرخ الحمام بالسطوح .
وذلك أن الفرخ يخرج من القشر فيلقى خشونة الهواء وحرّ الموضع فيصير له عادة
ثم لا ينهض حتى يعرف وطنه وينقلب إليه أبوه وأمه بالزق والعلف فيعرف السطح
حق المعرفة ، وينتقل خلفهما فيعلمانه الصعود والهبوط ، وربما أخذه إلى الرعى .
بالصحراء فلا يكمل حتى يصير شهما عارفا بأمور الطيران ، بخلاف ما إذا أفرخ
بالسفل فإنه يتربى بجسده على برودة الفئء ولين الهواء ، فإذا كمل وترقى إلى السطح
لقيه خشونة الهواء وقفة الحرّ ، فيحدث له الحرّ الجامد بفؤاده الكجاء والدقّ

الأمير السابع

في مسافة الطيران

قد تقدم أن طائرا طار من الخليج القسطنطيني إلى البصرة ؛ وأن الحمام كان يرسل من مصر إلى البصرة أيضا .

وذكر ابن سعيد في كتابه "جنى المحل وجنى النحل" : أن العزيز ثاني خلفاء الفاطميين بمصر ذكر لوزيره يعقوب بن كلس أنه مارأى القراصية البعلبكية ، وأنه يحب أن يراها ، وكان بدمشق حمام من مصر وبمصر حمام من الشام ؛ فكتب الوزير بطاقة يأمر فيها من بدمشق أن يجمع ما بها من الحمام المصري ويعلق في كل طائر حبات من القراصية البعلبكية وترسل ففعل ذلك ؛ فلم يمض النهار إلا وعنده قدر كثير من القراصية ، فطلع بها إلى العزيز من يومه ؛ وذكر أيضا في كتابه "المغرب في أخبار المغرب" : أن الوزير اليازوري المغربي وزير المستنصر الفاطمي وجه الحمام من مدينة تونس من إفريقية من بلاد المغرب إلى مصر فحاء إلى مصر .

وقد ذكر أبو الحسن القواس في كتابه في الحمام : أن حماما طار من عبّادان إلى الكوفة ، وأن حماما طار من التناوذ إلى الأبية ونحو ذلك . وسيأتي الكلام على أبراج الحمام بالديار المصرية في المقالة العاشرة فيما بعد إن شاء الله تعالى .

النوع الخامس

ما يحتاج إلى وصفه من نثاس الأحجار

ويحتاج الكاتب إليه من وجهين : أحدهما من حيث مخالطة الملوك ، فلا بد أن يكون عارفا بصفات الجواهر وأثمانها والنفيس منها وخواصها ، لأنه ربما جرى

ذكر شيء من ذلك بحضرة ملكه ، فتكون مشاركته فيه زيادة في رفعة محله ، وعلو مقداره ، وهذا هو الذي عرّف عليه صاحب "مواد البيان" في احتياج الكاتب إلى ذلك .

والثاني : أن يحتاج إلى وصف شيء من ذلك مع هدية تصدر عن ملكه أو هدية تصل إليه ، مع ما يحتاج إليه من ذلك لمعرفة التشبيهات والاستعارات التي هي عمود البلاغة ، فمن لم يكن عارفاً بأوصاف الأحجار ، ونفائس الجواهر لا يُحسن التعبير عنها ، ألا ترى إلى تشبيهات ابن المعتز ووصفه للجواهر كيف تقع في نهاية الحُسْن ، وغاية الكمال لمعرفة بالمشاهدة فهو يقول عن علم ، ويتكلم عن معرفة «وليس الخبر كالمعاينة» وقد آتني الناس بالتصنيف في الأحجار في القديم والحديث .

فمن صنف فيه في القديم من حكماء الفلاسفة : أرسطوطاليس ، وبلينوس ، وياقوس الأنطاكي .

ومن صنف فيه من الإسلاميين : أحمد بن أبي خالد المعروف بابن الحزار ، ويعقوب بن إسحاق الكندي وغيرهما . وأحسن مصنف فيه مصنف أبي العباس أحمد بن يوسف النيفاشي .

والذي يتعلق الغرض منه بذلك اثنا عشر صنفاً .

الصنف الأول

اللؤلؤ

وهو يتكون في باطن الصدف ، وهو حيوان من حيوان البحر الملح له جلد عظمي كالحلزون ، وبنوع عليه الغواصون ، فيستخرجونه من قعر البحر ، ويضعون به فيستخرجونه منه . وله معاصم كثيرة ، إلا أن مظان النخيس منه بسرديب

من الهند ، وبكيش ، وعمَّان ، والبحرين من أرض فارس ، وأنخره لؤلؤ جزيرة
خارك ، بين كيش والبحرين .

أما ما يوجد منه ببحر القلزم وسائر بحار انجاز فرديء ، ولو كانت الدرّة منه في نهاية
الكبر ، لأنه لا يكون لها طائل ثمن . وجيّد اللؤلؤ في الجملة هو الشفاف الشديد
البياض ، الكبير الحجم ، الكثير الوزن ، المستدير الشكل ، الذي لا تصرّيس فيه ،
ولا تفرطح ، ولا أعوجاج . ومن عيوبه أن يكون في الحبة تفرطح ، أو أعوجاج ،
أو يلصق بها قشر أو دودة ، أو تكون مجوّفة غير مصمتة ، أو يكون ثقبها متسعا .

تم من مصطلح الجوهريين أنه إذا اجتمع في الدرّة أوصاف الجوّدة ، ما زاد
على وزن درهمين ، ولو حبة يسمّى درّابا فإن نقصت عن الدرهمين ولو حبة سمّيت
حبة لؤلؤ ، وإذا كانت زنتها أكثر من درهمين وفيها عيب من العيوب فإنها
تسمّى حبة أيضا ، ولا عبرة بوزنها مع عدم اجتماع أوصاف الجوّدة فيها . وتسمّى
الحبة المستديرة الشكل عند الجوهريين : النّارة ، وفي عرف العامة : المدّحرجة ،
ومن طبع الجواهر أنه يتكوّن قشورا رفاقا طبقةً على طبقة حتى لو لم يكن كذلك
فليس على أصل الحلقة بل مصنوع

ومن خواصه أنه إذا سحق وسقى مع سمن البقر نفع من السموم .

وقال أرسطوطاليس : من وقف على حل اللؤلؤ من بكاره وصغاره حتى يصير ماء
رجاجا ثم طلى به البرص أذهب . وقيمة الدرّة التي زنتها درهمان وحبّة مثلاً
أو وحبّتان مع اجتماع شرائط الجوّدة فيها سبعمائة دينار ، فإن كان اثنتان على هذه
الصفة كانت قيمتهما ألفي دينار ، كل واحدة ألف دينار لآتفاقهما في النظم ، والتي
زنتها مثقال وهي بصفة الجوّدة قيمتها ثلثمائة دينار ، فإن كان اثنتان زنتهما مثقال وهما

بهذه الصفة على شكل واحد لا تفريق بينهما في الشكل والصورة : كانت قيمتهما أكثر من سبعمائة دينار .

وقد ذكر ابن الطوير في تاريخ الدولة الفاطمية : أنه كان عند خلفائهم دُرّة تسمى اليتيمة زنتها سبعة دراهم تجعل على جبهة الخليفة بين عينيه عند ركوبه في المواكب العظام على ما سيأتى ذكره في الكلام على ترتيب دولتهم في المسالك والممالك إن شاء الله تعالى .

ويُضْرَهُ جميع الأدهان ، والمُوضَات بأسرها لإسما الليمون ، ووهج النار ، والعرق ، وذفر الرائحة ، والأحتكاك بالأشياء الخشنة ، ويحلوه ماء حمض الأترج إلا أنه إذا أُبْحِجَّ عليه به نَشْرَه ونَقَصَّ وزنه ، فإن كانت صفرتة من أصل تكونه في البحر فلا سبيل الى جلائها .

الصنف الثاني

الياقوت

قال بلينوس : وهو حجر ذهبي ، وهو حصي يتكون بجزيرة خلف سرنديب من بلاد الهند بنحو أربعين فرسخا ، دورها نحو ستين فرسخا في مثلها ، وفيها جبل عظيم يقال له : جبل الرَّاهُون تُحْدِرُ منه الرياح والسيولُ الياقوتَ فيُلْتَقَطُ ، والياقوتُ حصباؤه ؛ — وهو الجبل الذي أهبط الله تعالى عليه آدم عليه السلام — فإذا لم تُحْدِرِ السيولُ منه شيئا عمد أهل ذلك الموضع الى حيوان فذبجوه وسلخوا جلده وقطعوه قطعاً كبارا وتركوه في سفح ذلك الجبل فيختطنه نُسُورٌ تأوي الى ذلك الجبل فتصعد باللحم الى أعلاه فيلصق بها الياقوت ، ثم تأخذه النسور وتنزل به الى أسفل فيسقط منه ما علق به من الياقوت ، فإذا أخذ كان لونه مظلماً ثم يشف بملاقاة الشمس ويظهر لونه على أي لون كان .

ثم هو على أربعة أضرب :

الضرب الأول "الأحمر" - ومنه البهرمان ؛ ولونه كلون العصفُر الشديد الحمرة الناصع في القوة الذي لا يشوب حمرة شائبة ؛ ويسمى : الرُّمَّانِي لمشابهته حب الرُّمَّان الرائق الحب ؛ وهو أعلى أصناف الياقوت وأفضلها وأغلاها ثمنا .

ومنه : الخيريُّ ؛ وهو شبيه بلون الخيريِّ ؛ وهو المشورب ؛ ويتفاضل في قوة الصبغ وضعفه حتى يقرب من البياض .

ومنه الورديُّ ؛ وهو كلون الورد ويتفاضل في شدة الصبغ وضعفه حتى يقرب من البياض .

وأردأ ألوانه الورديُّ الذي يضرب الى البياض ، والسَّمَّاقِي الذي يضرب الى السَّواد .

الضرب الثاني "الأصفر" - وأعلاه الجُلَّنَّارِيُّ ؛ وهو أشده صفرة ، وأكثره شعاعاً ومائيةً ؛ ودونه الخَلُوقِيّ ، وهو أقلُّ صُفْرَةً منه ؛ ودونه الرقيق وهو قليل الصفرة كثير الماء ساطع الشعاع . وأردأ الأصفر ما نقص لونه ومال الى البياض .

الضرب الثالث "الأبيض" - ومنه المهانيُّ ؛ وهو أشدها وأكثرها ماءً وأقواها شعاعاً ؛ ومنه الذكر ؛ وهو أثقل من المهانيِّ وأقلُّ شعاعاً وأصلب حجراً ؛ وهو أدون أصناف الياقوت وأقلها ثمنا . وأجود الياقوت الأحمر البهرمانيِّ والرمانِيِّ والورديِّ النير المشرق اللون الشفاف الذي لا ينفذه البصر بسرعة . وعيوبه الشعرة ؛ وهي شبه تشقيق يرى فيه ، والسُّوس ؛ وهو خروق توجد فيه باطنة ويعلوها شيء من ترابسة المعدين .

ومن أردأ صفاته تبح الشكل .

ومن خواص الياقوت : أنه يقطع كل الحجارة كما يقطعها الماس ، وليس يقطعه هو على أى لون كان غير الماس .

ومن خواصه أيضا : أنه لا ينحك على خشب العُسر الذى تجلى به جميع الأحجار ، بل طريق جلالاته أن يكسر الجرع اليماني ويحرق حتى يصير كالثورة ثم يسحق بالماء حتى يصير كأنه الغراء ثم يحك على وجه صفيحة من نحاس حجر الياقوت ، فينجلي ويصير من أشد الجواهر صقالة .

ومن خواصه : أنه لبس لشيء من الأحجار المشقة شعاع مثله ، وأنه أثقل من سائر الأحجار المساوية له في المقدار ، وأنه يصبر على النار فلا يتكلس بها كما يتكلس غيره من الحجارة النفيسة ، وإذا خرج من النار برد بسرعة حتى إن الإنسان يضعه في فيه عقب إحراجه من النار فلا يتأثر به ، إلا أن لون غير الأحمر منه كالصفرة وغيرها يتحول إلى البياض ، أما الحمرة فإنها تقوى بالنار ، بل إذا كان في الفص نكتة حمراء ، فإنها تتسع بالنار وتبسط في الحجر بخلاف النكتة السوداء فيه ، فإنها تنقص بالنار ، فما ذهبت حمرة بالنار فليس بياقوت بل ياقوت أبيض مصبوغ أو حجر يشبه الياقوت .

ومن مافعه ما ذكره أراطاليس : أن التحتم به يمنع صاحبه أن يصيبه الطاعون إذا ظهر في بلد هو فيه ، وأنه يعظم لابسه في عيون الناس ، ويسهل عليه قضاء الحوائج ، وتيسر له أسباب المعاش ، ويقوى قلبه ويشجعه ، وأن الصاعقة لا تقع على من تحتم به . وإذا وضع تحت اللسان ، قطع العطش . وأمتحانه أن يحك به ما يشبهه من الأحجار ، فإنه يجرحها بأسرها ولا تؤثر هي فيه .

قال النيفاشي : وقيمة الأحمر الخالص على ما جرى عليه العرف بمصر والعراق أن الحجر إذا كان زنته نصف درهم كانت قيمته ستة مثاقيل من الذهب الخالص ،

والحجر الذي زنته درهم قيمته ستة عشر دينارا، والحجر الذي زنته مثقال قيمته بدینارين
القيراط، والحجر الذي زنته مثقال وثلاث قيمته ثلاثة دنانير القيراط إلى ثلاثة ونصف،
ويزيد ذلك بحسب زيادة لونه ومائته وكبر جرمه، حتى ربما بلغ ما زنته مثقال من
جيده مائة مثقال من الذهب إذا كان بهرمانا نهاية في الصبغ والمائية والشعاع، قد
نقص منه بالحك كثير من جرمه، وقيمة الأصفر منه زنة كل درهم بدینارين، وقيمة
الأزرق والماساني كل درهم بأربعة دنانير، وقيمة الأبيض على النصف من
الأصفر. ويختلف ذلك كله بالزيادة والنقص في الصبغ والمائية مع القرب من المعدن
والبعد عنه.

وقد ذكر ابن الطوير في ترتيب مملكة الفاطميين: أنه كان عندهم حجر باقوت
أحمر في صورة هلال زنته أحد عشر مثقالا يعرف بالحافر، يجعل على جيب الخليفة
بين عينيه مع الدرة المتقدمة الذكر عند ركوبه.

الصف الثالث

البَلَخْشُ

قال في مسالك الأبصار: ويسمى اللؤلؤ.

قال بلينوس: وأنعقاده في الأصل ليكون ياقوتا إلا أنه أبعد عن الياقوتية على
من اليبس والرطوبة وغيرهما، وكذلك سائر الأحجار الحمر. ومعدن البلخش الذي
يتكون فيه بنواحي بلخستان. والعجم تقول: بدخشان بذال معجمة وهي من بلاد
الترك تتاخم الصين.

(١) في ياقوت: أنها في أعلى طخارستان متاخمة لبلاد الترك.

قال التيفاشي : وأخبرني من رأى معدنه من التَّجَارِ أنه وجد منه في المعدن حجرا
وفي باطنه ما لم يكل طبخه وأنعقاده بعد . والحجر يجتمع عليه ؛ وهو على ثلاثة أضرب :
أحمر معقرب ، وأخضر زبرجدي ، وأصفر ؛ والأحمر أجوده .

قال التيفاشي : وليس لجميعه شيء من خواص الياقوت ومنافعه ؛ وإنما فضيلته
نسبه به في الصَّبغ والمائية والشعاع لا غير . قال : وقيمه في الجملة غالبا على
النصف من قيمة الياقوت الجيد .

قال في مسالك الأبصار : وهو لا يؤخذ من معدنه إلا يتعب كثيرا وإنفاق
رائد ، وقد لا يوجد بعد التعب والإنفاق ، ولهذا عرِّف وجوده ، وغلَّت قيمته ، وكثر
طلبه ، والتفتت الأعناق إلى التحلي به . قال : وأنفس قطعة وصلت إلى بلادنا
من البلخش قطعة وصلت مع تاجر في أيام العادل كتبغا وأحضرت إليه وهو بدمشق ،
وكانت قطعة جليظة مثلثة على هيئة المشط العودي . وهي في نهاية الحسن وغاية
الجودة ، زنتها خمسون درهما ، كاد المجلس يضيء منها ، فأحضرها صاحب نجم الدين
الحنفي الجوهري وسأله عن قيمتها ، فقال له نجم الدين الجوهري : إنما يعرف
قيمتها من رأى مثلها ، وأنا وأنت والساطان ومن حضر لم نرمثلها فكيف نعرف
قيمتها ؟ فأعجب بكلامه ، وصالح عليها صاحبها .

الصنف الرابع

عين الهر

قال التيفاشي : وهو في معنى الياقوت إلا أن الأعراض المقتصرة به أقصده
عن الياقوتية ، ولذلك إنما يوجد في معدن الياقوت المتقدم ذكره ؛ وتخرجه الرياح
والسبول كما تُخرج الياقوت على ما تقدم ، قال : ولم أجده في كتب الأحجار ، وكأنه

مُحَدَّثُ الظُّهُورِ بِأَيْدِي النَّاسِ ، وَالغَالِبُ عَلَى لَوْنِهِ الْبَيَاضُ بِإِشْرَاقِ عَظِيمٍ وَمَائِيَّةٍ رَقِيقَةٍ شَفَافَةٍ ، إِلَّا أَنَّهُ تُرَى فِي بَاطِنِهِ نُكْتَةٌ عَلَى قَدْرِ نَازِلِ الْمِرِّ الْحَامِلِ لِلنُّورِ الْمُتَحَرِّكِ فِي قَبْضِ نَفْسِهِ ، وَعَلَى لَوْنِهِ - عَلَى السَّوَادِ - وَإِذَا تَحَرَّكَ الْقَبْضُ إِلَى جِهَةٍ ، تَحَرَّكَتْ تِلْكَ النُّكْتَةُ مُخَالَفَ جِهَتِهِ ، فَإِنْ مَالَ إِلَى جِهَةِ الْيَمِينِ ، مَالَتِ النُّكْتَةُ إِلَى جِهَةِ الْيَسَارِ وَبِالْعَكْسِ ، وَكَذَلِكَ الْأَعْلَى وَالْأَسْفَلَ ، وَإِنْ كَسَرَ الْحَجْرَ أَوْ قَطَعَ عَلَى أَقْلٍ جِزْءًا ، ظَهَرَتْ تِلْكَ النُّكْتَةُ فِي كُلِّ جِزْءٍ مِنْ أَجْزَائِهِ ، وَلِذَلِكَ يُسَمَّى : عَيْنَ الْهَرِّ .

وَأَجُودُهُ مَا أَشْتَدَّ بَيَاضَ أَبِيصِهِ وَشَفِيفُهُ ، وَكَثُرَتْ مَائِيَّةُ النُّكْتَةِ الَّتِي فِيهِ مَعَ سُرْعَةِ حَرَكَتِهَا وَظُهُورِ بَوْرِهَا وَإِشْرَاقِهَا ، وَلَا يَخْفَى أَنَّ حُسْنَ الشَّكْلِ وَكَثْرَ الْحَرَمِ يَزِيدَانِ فِي قِيَمَتِهِ كَسَائِرِ الْأَحْجَارِ .

قال التيفاشي : والمشهور من منافعه عند الجمهور أنه يحتفظ حمله من عين السوء . ونقل عن بعض ثقاة الجواهرين : أنه يجمع سائر الخواص التي في الباقوت البهرمانى في منافعه ، ويزيد عليه بالانتقاص ما له حمله ولا تعتريه الآفات ، وأنه إذا كان في يد رجل وحصر مصاف حرب وهزم حربه فالتقى نفسه بين القتلى رآه كل من يمر به من أعدائه كأنه متبول متشحط في دمه ، وإن ثمنه بالهند مع قرب معدنه أغلى من ثمنه ببلاد المغرب بكثير ، لعلمهم بخواصه ، وقيمته تختلف بحسب الرغبة فيه ، وإذا وقع ببلاد المغرب بيع المثقال منه بخمسة دنانير ، ويزيد على ذلك بحسب الغرض .

وذكر التيفاشي عن بعض التجار أن حجرا منه بيع في المعبر من بلاد الهند بمائة وخمسين ديناراً ، وأنه بيع منه حجر ببلاد الفرس بسبع مائة دينار .

الصنف الخامس

الماس

قال بلينوس في كتاب الأحجار: وأبتدأ في معدنه لينعقد ذهباً، فأبعده العوارض عن ذلك؛ وهو يتكون في معدن الياقوت المقدم ذكره، وتخرجه الرياح والسيول من معدنه كما تخرج الياقوت؛ وهو ضربان: أحدهما أبيض شديد البياض يشبه البلور يسمى البلوري لذلك؛ والثاني يخالط بياضه صفرة فيصير كلون الزجاج الفرعوني، ويعبر عنه: بالزيتي .

قال الكندي: والذي عاينته من هذا الحجر ما بين الخردلة الى الجوزة ولم أر أعظم من ذلك .

ومن خواصه: أنه يقطع كل حجر يمز عليه؛ وإذا وضع على سندال حديد ودق بالمطرقة لم ينكسر، وغاز في وجه السندال والمطرقة وكسرها، ولا يلتصق بشيء من الأجساد إلا هشيم، ويمحو النقوش التي في الأحجار كلها؛ وإنما يكسر بأحد طريقتين: أحدهما أن يجعل داخل شيء من الشمع ويدخل في أنبوب قصب وينقر بمطرقة أو غيرها برفق بحيث لا يباشر جسمه الحديد، فينكسر حينئذ؛ أو يجعل في أسرب وهو الرصاص ويفعل به ذلك فيكسر أيضا .

ومن خواصه: أن الذباب يشتهي أكله فما سقطت منه قطعة صغيرة إلا سقط عليها الذباب وأبتلعها أو طار بها؛ ومتى أبتلع منه الإنسان قطعة، ولو أصغر ما يكون حرق أمعاه وقتلته على الفور .

قال أرسطوطاليس: وبينه وبين الذهب محبة يتشبه به حيث كان .

ومن خاصته: أن كل قطعة تؤخذ منه تكون ذات زوايا قائمة الرأس: بست زوايا وثمان زوايا وأكثر؛ وأقله: ثلاث زوايا، وإذا كسر لا ينكسر إلا مثلثاً،

وبه يثقب الدر والياقوت والزمرّد وغيرها من جميع ما لا يعمل فيه الحديد من الأحجار كما يثقب الحديد الخشب، بأن يركب في رأس منقار حديد منه قطعة بقدر ما يراد من سعة الثقب وضيقة ثم يثقب به، فيثقب بسرعة.

ومن منفعتة فيما ذكره أرسطو طاليس: أن من كان به الحصاة الحادثة في المثانة في مجرى البول إذا أخذ حبة من هذا الحجر وألصقها في مروء نحاس بمصطكي إصافا محكاً ثم أدخل المروء إلى الحصاة فإنها تثقبها.

قال أحمد بن أبي خالد: وبذلك عالت وصيفا الخادم من حصاة أصابته وأمتنع من الشق عليها بالحديد.

وقال ابن بوسطر: وإذا علّق على البطن من الخارج نفع من المغس الشديد، ومن فساد المعدة. وقيمتة الوسطى فيما ذكره التيفاشي أن زنة قيراط منه بدينارين. ونقل عن الكندي: أن أغلى ما شاهد منه ببغداد المثقال بثمانين ديناراً، وأرخص ما شاهد منه ببغداد أيضاً المثقال بخمسة عشر ديناراً، وأنه إذا بدرت منه قطعة كبيرة تصلح لفص قدر نصف مثقال يضاعف ثمنها على ما هو قدر الخردلة أو الفلقة ثلاثة أضعاف وأربعة وخمسة.

الصف السادس

الزمرّد

يقال - بالذال المعجمة والمهمله - قال بليوس: والزمرّد أبتدا لينعقد ياتوتا، وكان لونه أحمر إلا أنه لشدة تكاثف الحمرة بعضها على بعض عرّض له السواد، وأمتزجت الحمرة والسواد فصار لونه أخضر. ومعدنه الذي يتكون فيه في التخوم

بين بلاد مصر والسودان خلف أسوان من بلاد الديار المصرية ، يوجد في جبل هناك ممتد كالجسر فيه معادن .

قال في مسالك الأبصار : وبينه وبين قوص ثمانية أيام بالسير المعتدل ، ولا عمارة عنده ولا حوله ولا قريبا منه ، والماء عنده على مسيرة نصف يوم أو أكثر في موضع يعرف بغدير أعين . فمنه ما يوجد قطعاً صغاراً كالخصي منبثة في تراب المعدن وهي الفصوص ، وربما أصيب العرق منه متصلاً فيقطع وهو القصب ، وهو أجوده .

قال في مسالك الأبصار : وتلك العروق منبثة في حجر أبيض تستخرج منه بقطع الحجر . قال التيفاشي : ويوجد على بعضه تربة كالكحل الشديد السواد ، وهو أشده خضرة وأكثره ماء . وقد ذكر المؤيد صاحب حمّاه في تاريخه : أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله لما استولى على قصر الفاطميين بعد موت العاضد ، وجد فيه قصبه من زمرّد طولها أربعة أذرع أو نحوها . وهو على ثلاثة أضرب :

الأول "الذبابي" - وهو شديد الخضرة ، لا يشوب خضرتة شيء ، آخر من الألوان من صفرة ولا سواد ولا غيرهما ، حسن الصبغ ، جيد المائية ، شديد الشعاع ، ويسمى : ذبابيا ، لمشابهة لونه في الخضرة لون كبار الذباب الأخضر الربيعي ، وهو من أحسن الألوان خضرة وبصيصا .

قال في مسالك الأبصار : وهو أقل من القليل بل لا يكاد يوجد .

الثاني "الرئحاني" - وهو مفتوح اللون ، شبيه بلون ورق الرئحان

الثالث "السلق" - وخضرتة أشبه شيء بلون السلق .

الرابع "الصابوني" - ولونه كلون الصابون الأخضر .

قال في "مسالك الأبصار" : وإذا استخرج الزمرد من المعدن جعل في زيت الكتان ثم لُف في قطن وصر في خرفة كان ونحوها ولم يزل العمل في هذا المعدن إلى أثناء الدولة الناصرية محمد بن قلاوون فترك لكثرة كلفته .

وأفضل أنواعه وأشرفها : الذبابي ، ويزداد حسنه بـكبر الجرم ، وأسواء القصبية ، وعدم الأعوجاج فيها . ومن عيوب الذبابي : اختلاف الصبغ بحيث يكون . وضع منه مخالفا للموضع الآخر ، وعدم الأسنواء في الشكل ، والتشعير ، وهو شبه شقوق خفية إلا أنه لا يكاد يخلو منه ، والرخاوة ، وخفة الوزن ، وشده الملاسة والصقال والنعومة ، وزيادة الحضرة والمائية إذا ركب على البطانة ، وهو ينحل بالنار ويتكلس فيها ولا يثبت ثبات الياقوت .

ومن خاصية الذبابي التي أمتاز بها عن سائر الأحجار : أن الأفاعي إذا نظرت إليه ووقع بصرها عليه أنفقت عيونها ، قال التيفاشي : وقد حربت ذلك في قطعة زمرد ذبابي خالص فحصلت أفعى وجعلتها في طشت وأصقته بسمع في رأسهم وقربته من عينها فسمعت قعقة خفية كما في قتل صؤابة ، فنظرت إلى عينيها فاذا هما قد برزتا على وجهها وضعت حركتها وبهذه الخاصة يتحن الزمرد الخالص من غيره كما يمتحن الياقوت بالصبر على النار .

ومن منافعه : أن من أذمن نظره أذهب عن بصره الكلال ، ومن تحتم به داء عنه داء الصرع إذا كان قد لبسه قبل ذلك ، ومن أجل ذلك كانت الملوك تعلقه على أولادها ، وإذا كان في موضع لم تقربه ذوات السموم ، وإذا نُحل منه وزن ثمان شعيرات ومثينه شارب السم قبل أن يعمل السم فيه ، خلصته منه ، وإذا تحتم به من به نثت الدم أو إسهاله منع من ذلك ، وإذا عُلق على المعدة من خارج نفع من وجعها ، وشرب حكاكته ينفع من الجذام .

وقيمة الذبابي الخالص في الحجر الذي زنته درهم : أربعة دنانير القيراط ، ويتضاعف بحسب كبره ، وينقص بحسب صغره ؛ إلا أنه لا ينقص بالصغر نقص غيره من الأحجار لوجود خاصيته في الكبير والصغير والمعوج والمستقيم . أما بقية أصناف الزمرد فإنه لا قيمة لها يعتد بها لعدم المنافع الموجودة في الذبابي .

الصنف السابع

الزبرجد

وهو حجر أخضر يتكون في معدن الزمرد ؛ ولذلك يظنه كثير من الناس نوعا منه إلا أنه أقل وجودا من الزمرد .

قال التيفاشي : أما في هذا الزمان فإنه لا يوجد في المعدن أصلا ، وإنما الموجود منه بأيدي الناس فصوص تستخرج بالنش من الآثار القديمة بالإسكندرية ؛ وذكر أنه رأى منه فصا في يد رجل أخبره أنه أستخرجه من هنالك ، زنته درهم ، لا يكاد البصر يقطع عنه لرقه مائه وحسن صفائه .

وأجوده : الأخضر المعتدل الخضرة ، الحسن المائية ، الرقيق المستشف ، الذي ينفذه البصر بسرعة ؛ ودونه الأخضر المفتوح اللون ؛ وليس فيه شيء من خواص الزمرد إلا أن إدمان النظر إليه يجلو البصر . وقيمة خالصه نصف درهم بدينار .

الصنف الثامن

الفيروذج

وهو حجر نحاسي يتكون في معادن النحاس من الأبخرة الصاعدة منها ، إلا أنه لا يوجد في جميع معادن النحاس ؛ ومعدنه الذي يوجد فيه نيسابور ، ومنه يجلب الى سائر البلدان ؛ ومنه نوع آخر يوجد في نساور إلا أن النيسابوري خير منه .

(١)
وهو ضربان : بسحاق^(١) وخننجي^(٢) ، والخالص منه العتيق هو البسحاق ،
وأجوده : الأزرق الصافي اللون ، المشرق الصفاء ، الشديد الصقالة ، المستوى
الصبيغ ، وأكثر ما يكون فصوصا ، وذكر الكندي أنه رأى منه حجرا زنته أوقية
ونصف .

ومن خاصته : أنه يصفو بصفاء الجؤ ويكدر بكدرته ، وإذا مسه الدهن أذهب
حسنة وغير لونه ، والعرق يطفى لونه ، والمسك إذا باشره أفسده وأذهب حسنة ،
وإذا وضع الفص الجيد منه إلى جانب ما هو دونه في الجؤدة أذهب بهجته ، وإذا
وضع إلى جانب الدهنج غلب الدهنج على لونه فأذهب بهجته ، ولو كانت الفص
الفيروزج في غاية الحسن والجؤدة .

ومن منافعه : أنه يجلو البصر بالنظر إليه ، وإذا سحق وشرب نفع من لدغ
العقارب . وقيمته تختلف باختلاف الجؤدة اختلافا كثيرا فربما كان الفصان منه
زنتها واحدة وثمان أحدهما دينار وثمان الآخر درهم .

وبالجملة : فالخننجي الجيد على النصف من البسحاق الجيد .

قال التيفاشي : وأهل المغرب أكثر الناس له طلبا وأشدّهم في ثمنه مغالاة ،
وربما بلغوا بالفص منه عشرة دنانير مغربية ، ويحرصون على التختم به ، وربما زعموا
أنه يدخل في أعمال الكيمياء .

(١) في مفردات ابن البيطار : سنجابي ، ولعل ما في الأصل صحيف .

الصف التاسع

الدُّنْج

وقد ذكر أرسطوطاليس : أنه أيضا محرُّ نحاسي يتكوّن في معادن النحاس يرتفع من أجزائها وينعقد، لكنه لا يوجد في جميع معادن كَرْمَانَ وِسِجِسْتَانَ من بلاد فارس . قال : ومنه ما يؤتى به من غار بنى سلّيم من بركة المغرب ، في مواضع أخرى كثيرة . وأجود أنواعه أربعة : وهي الافرندي ، والهندي ، والكّرمانى ، والكركى ، وأجوده في الجملة الأخضر المشبع الخضرة ، الشبيه اللون بالرمّيد ، معزوف بحضرة حسنة ، فيه أهلة وعبون بعضها من بعض حسان ؛ وأن يكون صابا أملس يقبل الصّفالة . ومن خاصته في نفسه : أن فيه رخاوة بحيث إنه إذا صنع منه آنية أو نصب للسكاكين ومرت عليه أعداد سنين ، ذهب نوره لرخاوته وأنحل ، ولذلك إذا حكّ آنحك سريعا ، وإذا خرط خرزا أو أواني أو غير ذلك كان في خرطه سهولة ، وإذا تقع في الزيت آشتدت خضرته وحسن ، فإن غفّل عنه حتى يطول لبثه في الزيت مال إلى السواد .

ومن منافعه : أنه إذا مسح به على مواضع لدغ العقرب سكنه بعض السكون ؛ وإذا سحق منه نبيء ، وأذيب بالخل وذلك به موضع القوبة الحادثة من المرة السوداء أذهبها .

ومن عجيب : خواصه أنه إذا سقى من تحالته شارب سم نفعه بعض النفع ؛ وإن شرب منه من لم يشرب سما كان سما مفرطا يقطع الأمعاء ، ويذهب البدن ، ويحدث فيه سما لا يبرأ سريعا ، لا سما إذا حكّ بمجديدة ؛ ومن أمسك في به ومصه

(١) في مردات ابن الطاربيزا، وهي أرمع

أضربه . وقيمته أن الأفریدی الخالص منه كل مثقال بمثقالين من الذهب، ويوجد منه فصوص وغيرها . وقد ذكر يعقوب بن إسحاق الكندي: أنه رأى منه صحيفة تسع ثلاثين رطلا .

الصنف العاشر

البُلُورُ

قال بليوس : وهو حجر بُورِقِيٌّ وأصله اليوقوتية إلا أنه فعدت به أعراض عن بلوغ رتبة الياقوت ؛ وقد اختلف أصحابنا الشافعية رحمهم الله في نفاسته على وجهين : أحدهما أنه من الجوهر النفيس كالياقوت ونحوه ؛ والثاني أنه ليس بنفيس لأن نفاسته في صنعته لا في جوهره .

ويوجد بأماكن ، منها برية العرب من أرض الحجاز وهو أجوده ، ومنه ما يؤتى به من الصين وهو دونه ، ومنه ما يكون ببلاد الفرنجة وهو في غاية الجودة ، ومنه معادن توجد بأرمينية تميل إلى الصفرة الزجاجية .

وقد ذكر التيفاشي : أنه ظهر في زمنه معدنٌ منه بالقرب من مراكش من المغرب الأقصى إلا أن فيه تشعيراً ، وكثر عندهم حتى فرش منه لملك المغرب مجلسٌ كبيراً أرضاً وحيطاناً . ونقل عن بعض التجار : أن بالقرب من غزنة من بلاد الهند على مسيرة ثلاثة عشر يوماً منها بينها وبين كاشغرجبلين من بلورخالص مطلين على وادٍ بينهما ، وأنه يُقَطَّعُ في الليل لتأثير شعاعه إذا طلعت عليه الشمس بالنهار في الأعين .

وأجوده : أصفاه وأنقاه وأشفه وأبيضه وأسلمه من التشعير ؛ فإن كان مع ذلك كبيراً الحرم — آنية أو غيرها — كان غاية في نوعه .

وقد ذكر الكندي : أن في البلور قطعا تخرج كل قطعة منه من المعدن أكبر من مائة من . وتقل التيفاشي : أنه كان بقصر شهاب الدين الغوري صاحب غزوة أربع خواب للماء كل خابية تسع ثلاث رَوَايَا ماء على محامل من بلور ، كل محمل ما بين ثلاثة قناطير الى أربعة ؛ وذكر أيضا أنه رأى منه صورة ديك مخروط من صنعة الفرنج اذا صب فيه الشراب ظهر لونه في أظفار الديك .

ومن خاصيته : ما ذكره أفرسطس الحكيم أنه يذوب بالنار كما يذوب الزجاج ويقبل الصَّبَع .

ومن خاصته أيضا : أنه اذا استقبل به الشمس ووجه موضع الشعاع الذي يخرج منه الى نحرقة سوداء احترقت وظهر فيها النار .

ومن منافعه : أن من تختم به أو علقه عليه لم ير منام سوء . وقيمته تختلف بحسب كبر آنبته وصغرهما وإحكام صنعتهما .

قال التيفاشي : وبالجملة فالقطعة التي تحمل^(١) منه رطلا إذا كانت شديدة الصفاء مائة من الشعير ، تساوي عشرة دنانير مصرية .

الصف الحادي عشر

المرجان

وهو حجر أحمر في صورة الأحجار المتشعبة الأغصان ؛ ومعدنه الذي يتكون فيه بموضع من بحر القلزم بساحل إفريقية ، يعرف بمرمى الحرز ، ينبت بقاعه كما ينبت النبات ، وتعمل له شباك قوية مقلدة بالرصاص ، وتدار عليه حتى يلتف فيها ، ويجذب

(١) مراده : وزن ولكنه كثيرا ما يستعمل بعض لغات العامة .

جذبا عنيفا فيطلع فيها المرجان . وربما وجد ببعض بلاد الفرينجة إلا أن الأكبر والأكثر والأحسن بمرسى الخرز؛ ومنه يجلب إلى بلاد المشرق .

ولأهل الهند فيه رغبة عظيمة ؛ وإذا استخرج حك على مسن الماء ؛ ويجلي بالسذابج المعجون بالماء على رُخامة فيظهر لونه ويحسن ؛ ويثقب بالفولاذ أو الحديد المسقى .

وأجوده ما عظم حرمه ، وأستوت قصباته ، وأشتدت حمرته ، وسلم من التسويس - وهو خروق توجد في باطنه حتى ربما كان منه شيء خاوٍ كالعظم - وأردؤه : ما مال منه إلى البياض أو كثرت عقده وكان فيه تشطيب ، ولا سبيل إلى سلامته من العقده لوجود التشعب فيه ؛ فإن اتفق أن تقع منه قطعة مضمته مستوية لا عقده فيها ولا تشطيب كانت في نهاية الجودة .

وقد يوجد منه قطع كبار فتحمل إلى صاحب إفريقيا فيعمل له منها دوى وأنصبة سكاكين .

قال التيفاشي : رأيت منها تحبة طول شبر ونصف ، في عرض ثلاث أصابع ، وارتفاع مثلها بغطائها في زاوية الحمرة وصفاء اللون . وقد ذكر ابن الطوير في تاريخ الدولة الفاطمية بالديار المصرية وترتيبها : أنه كان لخلفاء الفاطميين دواة من المرجان تُحمل مع الخليفة إذا ركب في المواكب العظام أمام ركب على فرس ، كما سيأتي ذكره في الكلام على المسالك والممالك في المقالة الثانية فيما بعد إن شاء الله تعالى .

ومن خاصته في نفسه : أنه إذا ألقى في الخل لآن وأبيض ، وإن طال مكثه فيه أنحل ؛ وإذا أخذ منه خاتم أو غيره ولبس جميعه بالشمع ثم نقش في الشمع بإبرة بحيث ينكشف حرم المرجان وجعل في خل الخمر الحاذق يوما وليلة أو يومين

وليتين ثم أخرج وأزيل عنه الشمع ظهرت الكتابة فيه حفرا بتأثير الخلل فيه ، وبقية الخاتم على حاله لم يتغير .

قال التيفاشي : وقد جربنا ذلك مرارا . ومتى ألقى في الدهن ظهرت حرته وأشرق لونها .

ومن منافعه فيما ذكره الاسكندر : أنه إذا علق على المصروع أو من به النقرس نفعه ، وإن أحرق وأستن به زاد في بياض الأسنان وقلع الحفر منها وقوى اللثة ، وطريق إحراقه أن يجعل في كوز فخار ويطين رأسه ويوضع في تنور ليلة . وإذا سحق وشربه من به عسر البول نفعه ذلك ، ويحلل أورام الطحال بشربه ، وإذا علق على المعدة نفع من جميع عللها كما في الزمرد ، وإذا أحرق على ما تقدم وشرب منه ثلاثة دوانق مع دائق ونصف صمغ عربي ببياض البيض وشرب بماء بارد نفع من نقي الدم .

قال التيفاشي : وقيمته بإفريقية غشيا الرطل المصري من خمسة دنانير إلى سبعة مغربية ، وهي بقدر دينارين إلى ما يقاربهما من الذهب المصري ، وبالاسكندرية على ضعف ذلك وثلاثة أضعافه ، ومن اسكندرية يحمل الى سائر البلاد ، ويختلف سعره بحسب قرب البلاد وبعدها ، وقلته ، وكثرته ، وصغره ، وجودته ، وردائه ، وحسن صنعه .

الصنف الثاني عشر

البادزهر الحيواني

وهو حجر خفيف هش . وأصل تكونه في الحيوان المعروف بالأيل بتخوم الصين ، وإن هذا الحيوان هناك يأكل الحيات ، قد اعتاد ذلك غذاء له ، فيحدث عن ذلك وجود هذا الحجر منه على ماسياتي بيانه ، وقد اختلف الناس في أية موضع يكون

من هذا الحيوان ، فقيل : إنه يتكون في مآقي عينيه من الدموع التي تسقط من عينيه عند أكل الحيات ، ويتربى الحجر حتى يكبر فيحتمك فيسقط عنه ؛ وقيل : يكون في قلبه فيصاها لأجله ويذبح ويستخرج منه ؛ وقيل : في مرارته .

قال أرسطاطاليس : وله ألوان كثيرة منها : الأصفر والأغبر المشرب بالحجرة والمشرب بالبياض . وأعظم ما يوجد منه من مثقال إلى ثلاثة مثاقيل .

وأجوده : الخالص الأصفر الخفيف المش ؛ ويستدل على خلوصه بكونه ذا طبقات رفاق متراكبة كما في اللؤلؤ ؛ وبه نقط خفية سود ؛ وأن يكون أبيض المحك مر المذاق .

قال التيفاشي : وكثيرا ما يغش فتصنع حجارة صغار مطبقة من أشياء مجموعة تشبه شكل البادزهر الحيواني ، ولكنها تتميز عن البادزهر الحقيقي بأن المصنوع أغبر كمد اللون ساذج غير منقط ، والبادزهر الحقيقي الخالص : أصفر أو أغبر بصفرة فيه نقط صغار كالتمش ، وطبقاته أرق من طبقات المصنوع بكثير ، وهو أحسن من المصنوع ، وأهش ومحك أبيض .

ومن خاصته في نفسه : أن احتكاكه بالأجسام الخشنة يخشنه ويغير لونه وسائر صفاته حتى لا يكاد يعرف . وقد ذكر التيفاشي : أنه كان معه حجر منه ، فجعله مع ذهب في كيس وسافر به فاحتك بالذهب فتغير لونه ونقص وزنه حتى ظن أنه غير عليه ؛ وأنه ربطه بعد ذلك في خرقة وتركه أياما فعاد في الصفة إلى ما كان ، إلا أنه بقي على نقص ما ذهب منه .

ومن منافعه : دفع السموم القاتلة وغير القاتلة ، حارة كانت أو باردة ، من حيوان كانت أو من نبات ؛ وأنه ينفع من عض الهوام ونهشها ولدغها ؛ وليس في جميع

الأحجار ما يقوم مقامه في دفع السموم . وقد قيل : إن معنى لفظ بادزهر : النافى للسم ؛ فإذا شرب منه المسموم من ثلاث شعيرات إلى اثنتي عشرة شعيرة مسحوقة أو مسحولة أو محكوكة على المبرد بزيت الزيتون أو بالماء أخرج السم من جسده بالعرق ؛ وخلصه من الموت . وإذا سحق وندّر على موضع النهشة جذب السم إلى خارج وأبطل فعله .

قال ابن جمع : وإن حكّ منه على مسنّ في كل يوم وزن نصف دانيق وسقيته الصحيح على طريق الاستعداد والاحتياط قاوم السموم القتالة ولم تحش له غائلة ولا إثارة خلط . ومن تختم منه بوزن اثنتي عشرة شعيرة في فصّ خاتم ثم وضع ذلك الفص على موضع اللدغة من العقارب وسائر الهوام ذوات السموم نفع منها نفعا بينا ؛ وإن وضع على فم الملدوغ أو من سقى سما نفعه .

قلت : هذه هي الأحجار النفيسة الملوكية التي تلتفت الملوك إليها وتعنى بشأنها ، أما غيرها من الأحجار كالبنفس ، والعقيق ، والجَزَع ، والمِغْنَطِيس ، واليشم ، والسبج ، والألّازورد ، وغيرها مما ذكره المصنفون في الأحجار فلا أعتدّاد به ولا نظر إليه وذلك أهملت ذكره .

النوع السادس

نفيس الطيب

ويحتاج السكّاب إلى وصفه عند وصوله في هديّة وما يجري مجرى ذلك ؛ والمعتبر

منه أربعة أصناف :

الصنف الأول

المسك

وهو أجملها . قال محمد بن أحمد التيمي المقدسي في كتابه "طيب العروس" :
وأصل المسك من دابة ذات أربع ، أشبه شيء بالطبي الصغير ، قيل : لها قرن واحد ،
وقيل : قرنان ، غير أن له نايتين رقيقين أبيضين في فكه الأسفل خارجين من فيه قائمين
في وجهه كالخنزير .

قال بعض أهل المعرفة بالمسك : وهو فضل دعوى يجتمع من جسمها إلى
سرتها ، بمنزلة المواد التي تنصب إلى الأعضاء في كل سنة في وقت معلوم ، فيقع الورم
في سرتها ويجمع إليها دم غليظ أسود فيشتد وجعها حتى تمسك عن الرعى وورود
المياه حتى يسقط عنها .

ثم قيل : إن تلك الطباء تصاد وتذبح وتؤخذ سررها بما عليها من الشعر ، والمسك
فيها دم عبيط ، وهي النواخج ، فإن كانت النابغة كثيرة الدم أكتفى بما فيها ، وإن
كانت واسعة قليلة الدم زيد فيها من غيرها ، ويصب فيها الرصاص المذاب وتحاط
بالخوص وتعلق في حلق مستراح أربعين يوماً ، ثم تخرج وتعلق في موضع آخر حتى
يتكامل جفانها وتشتد رائحتها ، ثم تصير النواخج في مزاود صغار وتخيطنها التجار
وتحملها ، وقيل : إنه ينبت لهذه الطباء حين يعرض لها هذا العارض بناءً كالمنارة
في طول عظم الذراع لتأتي الطباء فتحك سررها بذلك البناء فتسقط النواخج ، حتى إنه
يوجد في تلك المراغة ألوف من النواخج ما بين رطب وجامد .

ثم قيل : إن هذه الطباء توجد بمنارات بين الصين وبين التبت والصغد من بلاد
الترك ، وإن أهل التبت ياتقطن ما ترب إليهم ، وقد قيل : إن المسك يحمل إلى التبت
من أرض بينها وبين التبت مسيرة شهرين .

وبالجملة فإنه تختلف أسماء أنواعه باختلاف الأماكن التي ينسب إليها، إما باعتبار أصل وجوده فيها، وإما باعتبار مصيره إليها .

وأجوده في الجملة : ما طاب مرعى ظيبه، ومرعى ظبائه النبات الذي يتخذ منه الطيب كالسنبل ونحوه، ولا يخفى أن بعض نبات الطيب أطيب رائحة من بعض، حتى يقال إن منه مارائحته كرائحة المسك . وقيل أجوده : ما كمل في الظبي قبل ينوته عنه .

وقال أحمد بن يعقوب : وأجود المسك في الرائحة والنظر ما كان تَفَاحِيًا تشبه رائحته رائحة التفاح اللباني، وكان لونه يغاب عليه الصفرة، ومقاديره وسطا بين الجلال والرقاق، ثم ما هو أشد سوادا منه إلا أنه يقاربه في الرأي والمنظر، ثم ما هو أشد سوادا منه، وهو أدناه قدرا وقيمة . قال وبلغني عن تجار الهند : أن من المسك صنفين آخرين يُتَّخَذَانِ من نبات أرض : أحدهما لا يفسد بطول المكث، والثاني يفسد بطول المكث، والمشهور منه عشرة أصناف .

ونحن نورد هنا على ترتيبها في الفضل مقدما منها في الذكر الأفضل فالأفضل على ما رتبته أحمد :

الأول : التَّبَيّ - وهو ما حمه التجار من التبت إلى خراسان على الظهر لطيب مرعاه وحميه في البر دون البحر .

الثاني : الصَّفْدَى - وهو ما حمل من الصفد من بلاد الترك على الظهر إلى خراسان .

الثالث : الصِّينِيّ - وإنما نقصت رتبته لأن مرعاه في الطيب دون مرعى التبت، ولما يلقاه من عفونة هواء البحر بطول مكثه فيه . وأفضل الصيني : ما يؤتى به من خانفو، وهي مدينة الصين العظمى، وبها ترسو مراكب تجار المسلمين، ومنها

يحمل في البحر إلى بحر فارس ؛ فإذا قرب من بلد الأبله ارتفعت رائحته ؛ وإذا خرج من المركب جادت رائحته وذهبت عنه رائحة البحر .

الرابع : الهندي - وهو ما يحمل من التبت إلى الهند ثم يحمل من الهند إلى الديبل ثم يحمل في البحر إلى سيراف من بلاد العجم ، وعمان من البحرين ، وعدن من اليمن ، وغيرها من النواحي ؛ وسبب انحطاط رتبته عن الصيني وإن كان من جنس التبت مع أنه أقرب مسافة من الصيني - ما ذكره المسعودي : أنه إذا حمل إلى الهند أخذه كفرة الهند فلطخوه على أصنامهم من العام إلى العام ثم يبدلونه بغيره ؛ ويبيعه سدنة الأصنام ، فيطول مكثه على الأصنام تضعف رائحته ؛ على أن محمد بن العباس قد فضل الهندي على الصيني لقرب مسافة حمله في البحر .

الخامس : القنباري - ويؤتى به من بلد تسمى قنبار بين الصين والتبت .

قال أحمد بن يعقوب : وهو مسك جيد إلا أنه دون التبت في القيمة ، والجوهر ، واللون ، والرائحة . قال : وربما غلطوا به فنسبوه إلى التبت .

السادس : الطفرغزي - وهو مسك رزين يضرب إلى السواد ، يؤتى به من أرض الترك الطفرغز - وهم التتر - وهو بطيء السحق ، ولا يسلم من الخشونة إلا أنهم ربما غلطوا به أيضا .

السابع : القصارى - ويؤتى به من بلد يقال لها القصار بين الهند والصين .

قال ابن يعقوب : وقد يلحق بالصيني إلا أنه دونه في الجوهر والرائحة والقيمة .

الثامن : الجزيري - وهو مسك أصفر حسن الرائحة ، يشابه التبت إلا أن

فيه زعارة .

التاسع : الجبليّ - وهو مسك يؤتى به من السّيد من أرض الموليان، وهو كبير النواجح حسن اللون إلا أنه ضعيف الرائحة .

العاشر : العصارى - وهو أضعف أصناف المسك كلها وأدناها قيمة، يخرج من النابغة التي زيتها أوقية زنة درهم واحد من المسك .

قلت : أما المسك الداريّ فإنه منسوب إلى دارين، وهي جزيرة في بحر فارس معدودة من بلاد البحرين ترسو إليها مراكب تجار الهند، ويحمل منها إلى الأقطار وليست بمعدن للمسك .

الصف الثاني

العنبر

قال محمد بن أحمد التيمي : والأصل الصحيح فيه أنه ينبع من صخور وعيون في الأرض ، يجتمع في قرار البحر، فإذا تكاثف اجتذبه الدهانة التي هي فيه على أقطافه من موضعه الذي تعلق به ، وطفا على وجه الماء وهو حاز ذائب فتقطعه الرياح وأمواج البحر قطعاً كباراً وصغاراً فترمي به الرياح إلى السواحل ، لا يستطيع أحد أن يدنو منه لشدة حره وفورانته ، فإذا أقام أياماً وضربه الهواء جمد ، فيجمعه أهل السواحل .

قال أحمد بن يعقوب : وربما ابتلعه سمكة عظيمة يقال لها : الكيال وهو فائر فلا يستقر في جوفها حتى تموت فتطفو ويطحها البحر إلى الساحل فيشق جوفها ويخرج منها ، ويسمى : العنبر السمكي ، والعنبر المبلوع .

قال التيمي : وهو في لونه شبيه بالنار، رديء في الطيب للشهوكة التي يختص بها من السمك . قال : وربما طرح البحر النطعة المنبر فيبصرها طائراً من الكائنات

فيرفرف عليها بجناحيه ، فإذا سقط عليها ليختطف بمنقاره منها تعلق منقاره ومخاليبه بها فيموت ويبلى ويبقى منقاره ومخاليبه فيها ، ويعرف : بالعنبر المناقيرى .

قال التيمي : ولأهل سواحل البحر التي يوجد بها العنبر يُجَبُّ يركبونها مؤذبة تعريف العنبر ، يسرون عليها في لبالى القمر على شاطئ البحر ، فإذا رأت العنبر وقد قام راكبها أو غفل بركت بصاحبها حتى يتزل عنها فيأخذها .

قال التيمي : وألوان العنبر مختلفة ، منها : الأبيض ، وهو الأشهب ، والأزرق ، والرمدى ، والجزازى ، وهو الأبرش ، والصفائح وهو الأحمر ، وهما أدنى العنبر قدرا . قال : وأفضل العنبر وأجوده ما جمع قوة رائحة وذكاء بغير زعارة .

قال أحمد بن يعقوب : وأنواع العنبر كثيرة ، وأصنافه مختلفة ، ومعادنه متباينة ، وهو يتفاضل بمعادنه ويجوهره ، والذي وقفت على ذكره منه ستة أضرب :

الأول : الشحري — وهو ما يقذفه بحر الهند إلى ساحل الشحر من أرض اليمن . قال : وهو أجود أنواع العنبر ، وأرفعه ، وأفضله وأحسنه لونا ، وأصفاه جوهرًا وأغلاه قيمة .

الثانى : الزنجي — وهو ما يقذفه بحر البربر الآخذ من بحر الهند في جهة الجنوب إلى سواحل الزنج وما والاها .

قال التيمي : وزعم الحسين بن يزيد السيرافى أنه أجود العنبر وأفضله ، ويؤتى به منها إلى عدن ، ولونه البياض .

الثالث : السلاهطى — قال التيمي : وأجوده الأزرق الدسم الكثير الدمن ، وهو الذى يستعمل فى الفوالى .

الرابع : القاقليّ - وهو ما يؤتى به من بحر قاقلة من بلاد الهند إلى عدن من بلاد اليمن ، وهو أشهبُ جيد الريح ، حسن المنظر خفيف ، وفيه يبس يسير ، وهو دون السلاهطى لا يصلح للغوالى إلا عن ضرورة ؛ وهو صالح للذرائر والمكسّات .

الخامس : الهنديّ - وهو ما يؤتى به من سواحل الهند الداخلة ، ويحمل إلى البصرة وغيرها ؛ ومنه نوع يؤتى به من الهند يسمّى : الكرك بالوس ، يأتون به إلى قرب عُمان تشتريه منهم اصحاب المراكب .

السادس : المغربيّ - وهو ما يؤتى به من بحر الأندلس فتحمله التجار إلى مصر ، وهو اردأ الأنواع كلّها ، وهو شبيه في لونه بالعنبر الشجرى . قال التيمي . ويقال له به فيه .

قال التيمي : ومن العنبر صنف يعرف بالندّ ، ونقل عن جماعة من أهل المعرفة أن دابة تخرج من البحر شبيهةً ببقر الوحش فتلقيه من دبرها فيؤخذ وهو لين يمتدّ ، فما كان منه عذب الرائحة حسن الجوهر فهو أفضله وأجوده . قال : وهو أصناف : أحدها الشجرى وهو أسود فيه صفرة ، يخبّض اليد إذا لمس ، ورائحته كرائحة العنبر اليابس ، إلا أنه لا بقاء له على النار ، وإنما يستعمل في الغوالى إذا عزر العنبر السلاهطى . ومنه : الزنجي وهو نظير الشجرى في المنظر ودونه في الرائحة ؛ وهو أسود بغير صفرة . ومنه : الخمرى وهو يخبّض اليد وأصول الشعر خضبا جيدا ، ولا ينفع في الطيب .

قلت : أما المعروف في زماننا بالعنبر مما يلبسه النساء وإنما يقال له : الندّ ، وفيه

جزء من العنبر . قال في نهاية الأرب : وهو على ثلاثة أضرب :

(١) مراده باللبس : الاستعمال .

- الأول : المثلث - وهو أجودها وأعطرها ؛ وهو يركب من ثلاثة أجزاء : جزء من العنبر الطيب ، وجزء من العود الهندي الطيب ، وجزء من المسك الطيب .
- الثاني - وهو دونه أن يجعل فيه من العنبر الخام الطيب عشرة مثاقيل ، ومن الندّ العتيق الجيد عشرة مثاقيل ، ومن العود الجيد عشرون مثقالا .
- الثالث - وهو أدناها أن يؤخذ لكل عشرة مثاقيل من الخام عشرة مثاقيل من الندّ العتيق وثلاثون مثقالا من العود ، ومن المسك ما أحب .

الصنف الثالث

العود

قال التيمي : أخبرني أبي عن جماعة من أهل المعرفة أنه شجر عظام تنبت ببلاد الهند ، فمنه ما يجلب من أرض قشмир الداخلة ؛ من أرض سرنديب ، ومن قمار ، وما اتصل بتلك النواحي ؛ وأنه لا تصير له رائحة إلا بعد أن يعتق ويقشر ؛ فإذا قشر وجفف حمل إلى النواحي حينئذ .

قال : وأخبرني بعض العلماء به أنه لا يكون إلا من قلب الشجرة ، بخلاف ما قارب القشركا في الأبنوس والعناب ونحوهما من الأشجار التي داخلها فيه دهانه ، وما في خارجها خشب أبيض ؛ وأنه يقطع ويقلع ظاهره من الخشب الأبيض ، ويدفن في التراب سنين حتى تأكل الأرض ما داخله من الخشب ويبقى العود لا تؤثر فيه الأرض .

وحكى محمد بن العباس : أنه يكون في أودية بين جبال شاهقسة ، لا وصول لأحد إليها لصعوبة مسلكها ؛ فيتكسر بعض أشجاره أو يتعفن بكثرة السيول لِمَمَر الأزمان ، فتأكل الأرض ما فيه من الخشب ويبقى صمم العود وخالصه فتجزه السيول

وُخْرِجَهُ مِنَ الْأُودِيَةِ إِلَى الْبَحْرِ فَتَقْدِفُهُ الْأَمْوَاجُ إِلَى السَّوَاوِحِلِ ، فَيَلْتَقِطُهُ أَهْلُ السَّوَاوِحِلِ وَيَجْمَعُونَهُ فَيَبِيعُونَهُ .

ويقال : إنه يأتي به قوم في المراكب الى ساحل الهند فيقفون على البعد بحيث لا ترى أشخاصهم ، ثم يطلعون ليلا فيضعونه بفرضة تلك البلاد ، ويخرج أهل البلد نهارا فيضعون بإزائه بضائع ويتركونها الى الليل ، فيأتي أصحاب العود فمن أعجبه ما بإزاء متاعه أخذه وإلا تركه ؛ فيزيدونه حتى يُعْجِبَهُ فَيَأْخُذُهُ ؛ كما يحكى في السُّمُورِ وغيره في ساكني أقصى الشمال .

وأجود العود ما كان صلباً ، رزينا ، ظاهر الرطوبة ، كثير المسامية والدهنية ، الذي له صبر على النار ، وغليان ، وبقاء في الثياب .

أما اللون فأفضله : الأسود ، والأزرق الذي لا يبيض فيه ؛ ثم منهم من يفضل الأسود على الأزرق ؛ ومنهم من يفضل الأزرق على الأسود .

وهو على ثمانية عشر ضربا :

الأول : المندلي - نسبة الى معدنه ؛ وهو مكان يقال له : المندل من بلاد الهند .

قال محمد بن العباس الخشكي : وهو أرفع أنواع العود وأفضلها وأجودها وأبقاها على النار وأعبقها بالثياب ؛ على أن التجار لم تكن تجلبه في الجاهلية والى آخر الدولة الأموية ، ولا ترغب في حمله للحرارة في رائحته ال أن دخل الحسين بن برمك الى بلاد الهند هاربا من بني أمية ، ورأى العود المندلي فاستجاده ورغب التجار في حمله ؛ فلما غلب بنو العباس على بني أمية ، وحضر بنو برمك إليهم وقربوهم ؛ دخل الحسين

(١) هكذا بالأصل .

أبن برمك يوما على المنصور قرأه ينبخر بالعود القماری، فأعلمه أن عنده ما هو أطيب منه، فأمره بإحضاره، فأحضره إليه فاستحسنه، وأمر أن يكتب إلى الهند بجمل الكثير منه، فاشتهر بين الناس وعز من يومئذ، وأحتمل ما فيه من حرارة الرائحة وزعارتها، لأنها تقتل القمل وتمنع من تكونه^(١) في الثياب.

الثاني: القامروني - وهو ما يجلب من القامرون؛ وهو مكان مرتفع من الهند. وقيل القامرون: أسم لشجر من شجر العود؛ وهو أغلى العود ثمنا وأرفع قدره.

قال التيمي: وهو قليل لا يكاد يجلب إلا في بعض الحين؛ وهو عود رطب جدا، شديد سواد اللون، رري، كثير الماء.

وذكر الحسين بن يزيد السيرافي: أنه ربما ختم عليه فأنطبع وقيل انختم لبينه. قال: ويكون فيه ما قيمة المن منه مائتا دينار.

الثالث: السمندوري - وهو ما يجلب من بلاد سمندور؛ وهي بلد سفالة الهند، ويسمى لطيب رائحته: ريحان العود، وبعضه يفصل بعضا. قال التيمي: وتكون القطعة الضخمة منه منأ واحدا.

الرابع: القماری - وهو ما يجلب من قمار؛ وهي أرض سفالة الهند، وبعضه يفصل بعضا أيضا، وتكون القطعة منه نصف رطل إلى ما دون ذلك.

الخامس: القاقلي - وهو ما يجلب من جزائر بحر قاقلة؛ وهو عود حسن اللون، شديد الصلابة دسم، فيه ريحانية حمرة، وله بقاء في الثياب إلا أن قناره ربما تغير على النار فيبغى إلا يستقصى إلى آخره.

(١) في الأصل: تلونه وهو نصيف.

السادس : الصَّنْفِيُّ - وهو ما يجلب من بلد يقال لها؛ الصَّنْفُ ببلاد الصين :
وهو من أحلى الأعواد وأبقاها في الثياب .

قال التيمي : ومنهم من يفضله على القاقلي ويرى أنه أطيب وأعبق وآمن من
القنار ، وربما قدموه على القماري أيضا . قالوا : وأجود الصَّنْفِيِّ الأسود الكثير
الماء ، وتكون القطعة منه مئاً وأكثر وأقل . ويقال : إن شجره أعظم من شجر
الهندي والقماري .

السابع : الصندفوري - وهو ما يجلب من بلاد السندفور من بلاد الصين ؛
وهو دون الصَّنْفِيِّ ، ويقال : إنه صنف منه ولذلك كانت قيمته لاحقاً بقيمته ،
وفيه حسن لون وحلاوة رائحة ، ورزانه ، وصلابة ؛ إلا أنه ليس بالقطع الجبار .

الثامن : الصَّيْنِيُّ - ويؤتى به من الصين ؛ وهو عود حسن اللون ، أول
رائحته تشاكل رائحة الهندي إلا أن قناره غير محمود ؛ وتكون القطعة منه نصف
رطل وأكثر وأقل .

التاسع : القطعي - وهو عود رطب حلو طيب الرائحة ، وهو نوع من الصَّيْنِيِّ .
العاشر : القسور - وهو عود رطب حلو طيب الرائحة ؛ وهو أعذب رائحة من
القطعي إلا أنه دونه في القيمة .

الحادي عشر : الكلهي - وهو عود رطب يمتنع ، وفيه زعارة ، وشدة
مرارة للدهانة التي فيه ؛ وهو من أعبق الأعواد في الثياب وأبقاها .

الثاني عشر : العولاتي - وهو عود يجلب من جزيرة العولات بنواحي قمار
من أرض الهند .

(١) في باقوت ؛ . وهو من أردأ العود لافرق بينه وبين الخشب الا البير .

الثالث عشر : اللوقيني - وهو ما يجلب من لوقين ؛ وهي طرف من أطراف الهند وله نَحْمَرَةٌ في الثياب إلا أنه دون هذه الأعواد في الرائحة والقيمة .

الرابع عشر : المانطائي - وهو ما يجلب من جزيرة ما نطاء ؛ وقيمته مثل قيمة اللوقيني ، وهو خفيف ليس بالحسن اللون .

قال أحمد بن العباس : وهو قطع بكار مُلَسٌّ لا عُقْدَ فيها ، إلا أن رائحته ليست بطيبة وإنما يصلح للأدوية .

الخامس عشر : القندغلي - ويؤتى به من ناحية كَلَهٌ ^(١) وهي ساحل الزنج - وهو يشبه القماري إلا أنه لا طيب لرائحته .

السادس عشر : السمولى - وهو عود حسن المنظر ، فيه نَحْمَرَةٌ وله بقاء في الثياب .

السابع عشر : الرانجى - وهو عود يشبه قرون الثيران ، لا ذكاء له ، ولا بقاء في الثياب .

الثامن عشر : المحرم - سمي بذلك لأنه قد وقع بالبصرة فشك الناس في أمره ، فخرمه السلطان ومنعه فسمى المحترم ، وهو من أدنى أصناف العود .

وجعل بعضهم بين الصنفي والقاقلي صنفا يقال له : العطلى يؤتى به من الصين ، وهو عود صلب خفيف حسن المنظر إلا أنه قليل الصبر على النار . وقد ذكر أحمد ابن العباس بعد ذلك أصنافا من العود ليست بذات طائل .

منها : الأفليق - وهو عود يؤتى به من أرض الصين ، يكون في العظم مثل الخشب الرانجى الغلاظ يباع المن منه بدينار وأقل وأكثر ؛ والعود الطيب الريح

(١) الذى فى معجم البلدان لباقوت : أنها كآوة ، وأما كَلَهٌ فقد قال : إنها فرضة بالهند اه .

في قشوره ، وداخله خشب خفيف مثل الخلاف ، وإذا وضع على الجمر وجد له في أوله رائحة حلوة طيبة ، فإذا أخذت النار منه ظهرت منه رائحة رديئة كرائحة الشعر .

الصنف الرابع

الصنندل

وهو خشب شجر يؤتى به من سفالة الهند ؛ وهو على سبعة أضرب :

الأول : المقاصيري - وهو الأصفر ، الدسيم ، الرزين ، الذي كأنه مسح بالزعفران الذكي الرائحة .

وآختلف في سبب تسميته بالمقاصيري فقليل : نسبة إلى بلد تسمى : مقاصير ؛ وقيل : إن بعض خلفاء بني العباس آتخذ لبعض أمهات أولاده ومحاطيه مقاصير منه ؛ وهو شجر عظام يُقطع رطبا ؛ وأجوده ما أصفر لونه وذكت رائحته ولم يكن فيه زعارة .

قال التيمي : وهو يدخل في طيب النساء الرطب واليابس ؛ وفي البرميكات ، والمثلثات ، والذرائر ؛ ويتخذ منه قلائد ، ويدخل في الأدوية ؛ ويقال : إن صاحب اليمن الآن يعمل له منه الأيسرة ، وإنه يأمر بقطع ما يحمل منه من اليمن إلى غيرها من البلاد قطعاً صغاراً حتى لا يكون منها ما يعمل سريراً لغيره من الملوك

الثاني : الأبيض منه الطيب الريح - وهو من جنس المقاصيري المتقدم ذكره لا يخالفه في شيء إلا في البياض ؛ ويقال : إن المقاصيري هو باطن الخشب وهذا الأبيض ظاهره .

الثالث: الجوزى - وهو صُلب العود أبيض، يَضْرِب لونه الى السُّمْرَة، ويؤتى به من موضع يقال له: الجَوْزُ؛ وهو طيب الرائحة إلا أنه أضعف رائحة من الذى قبله .
الرابع : الساوس ويقال : الكاوس - وهو صندل أصفر طيب الرائحة إلا أن فى رائحته زعارة؛ ويستعمل فى الذرائر، والمثلثات، فى الطيب والبخورات .

الخامس : يضرب لونه الى الحمرة - وهو على نحو من الذى قبله .

السادس : صندل جعد الشعرة - لا بساطة فيه اذا شقق بل يكون فيه تجعيد كما فى خشب الزيتون ؛ وهو أذكى أصناف الصندل إلا أنه لا يستعمل فى شىء سوى البخورات والمثلثات .

السابع : أحمر اللون - وهو خشب حسن اللون ، ثقيل الوزن لا رائحة له ، إلا أنه نتخذ منه المنجورات والمخروطات كالدوى وقطع الشطرنج ونحوها مع ما يدخل فيه من الأعمال الطيبة .

قلت : هذا ما يحتاج الكاتب الى وصفه من أصناف الطيب النفيسة مما يهدى أو يرد هدية، ويجرى ذكره فى مكاتبات الملوك، أما ما عدا ذلك من أصناف الطيب كالسُنْبُل، والقرنفل، والكافور، فليس من هذا القبيل .

النوع السابع

ما يحتاج الى وصفه من الآلات، وهى أصناف :

الصنف الأول

الآلات الملوكية

ويحتاج الكاتب الى وصفها عند وصف المواكب الحفيلة التى يركب فيها السلطان، وهى عدة آلات :

مها : الخاتم - بفتح التاء وكسرهما - وحكى فيه أن قتيبةً والجوهرى وغيرهما
 خَتَامٌ وخَاتَمٌ ، وهو ما يجعل في الإصبع من الخي ، وهو مأخوذ من الختم ، وهو الطبع ،
 سمى بذلك لأنه يختم بنقشه على الكتب الصادرة عن الملوك . وسيأتى في الكلام
 على ختم الكتب : أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يكتب إلى بعض ملوك
 الأعاجم فقبل له : إنهم لا يقرءون كتاباً غير محتوم ، فأتخذ خاتماً من ورقٍ وجعل
 نقشه "محمد رسول الله" وأقتدى به في ذلك الخلفاء بعده ، ثم توسعوا فيه إلى أن
 جعلوا للكتب طابعاً مخصوصاً وأفردوا له ديواناً سموه "ديوان الخاتم" وأقتفى الملوك
 أثرهم في ذلك ، ثم غلب بمملكتنا وما ناهزها الأكتفاء في المكاتب باللصاق ، وصار
 أسم الخاتم مقصوراً على ما يجعل في الإصبع خاصة سواء كان فيه نقش أم لا ،
 وصارت الملوك إنما تلبس الخواتم بفصوص الجواهر من اللبوايت ونحوها تجملاً ،
 وربما بعثت بها في تأمين الخائف علامة للرضا عليه والصفح عما جناه وأقرته .

ومنها : المنديل بكسر الميم ، وهو مندِيلٌ يُجعل في المنطقة المشدودة في الوسط مع
 الصولق وغيره ، ثم جرى اصطلاح الملوك على البعث به في الأمانات كما تقدم في الخاتم .
 والمنديل : آلة قديمة للوك ، فقد حكى أنه كان للأفضل بن أمير الجيوش أحد
 وزراء الفاطميين مائة بدلة مغلقة على أوتاد من ذهب ، على كل بدلة منها مندِيلٌ من
 لونها ، ولم يكن المنديل من آلات الخلافة بل إنما كان من آلات البردة على ما سيأتى
 ذكره في الكلام على ترتيب الخلافة في المقالة الثانية إن شاء الله تعالى .

ومنها : التخت ، ويقال له : السرير ، وهو ما يجلس عليه الملوك في المواكب ،
 ولم يزل من رسوم الملوك قديماً وحديثاً ، رفعةً لمكان الملك في الجلوس عن غيره
 حتى لا يساويه غيره من جلسائه ، وقد أخبر تعالى في كتابه العزيز أنه كان لسليمان عليه

السلام كرسى بقوله : ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ ورأيتُ في بعض التواريخ أنه كان له كرسىٌّ من عاج مغطى بالذهب .

ثم هذه الأيسرة تختلف باختلاف حال الملوك ، فتارة تكون من أبنية رخام ونحوه ، وتارة تكون من خشب ، وتارة من فرشٍ محشوةً متراكبةً ، وقد حكى أنه كان لملوك الفرس سريرٌ من ذهب يجلسون عليه ، وكان عمرو بن العاص رضى الله عنه وهو أمير مصر يجلس مع قومه على الأرض غير مرتفع عليهم ، ويأتيه المقوقسُ ومعه سرير من ذهب ، يحمل معه على الأيادي ، فيجلس عليه فلا يمنعه عمرو من ذلك ، إجراءً له على عادته في الملكِ فيما قيل ، لما عقده له من الذمة وآخذه معه من العهد .

ومنها : المِظَلَّةُ ، وأسمها بالفارسية : الچتر - بنون بين الجيم والزاي المعجمة - ويعبر عنها العامة الآن بالقبة والطبر ، وهي قبة من حرير أصفر ، تحمل على رأس الملك ، على رأس ربح بيد أمير يكون راكبا بجذاء الملك ، يُظَلُّه بها حالة الركوب من الشمس في المواكب العظام ، وسيأتى ذكرها في الكلام على ترتيب المملكة في الدولة الفاطمية . وهذه الدولة في المقالة الثانية إن شاء الله تعالى .

ومنها : الرِّقْبَةُ ، وهي لباس لرقبة فرس السلطان من حرير أصفر ، قد طُرزت بالذهب الزركش حتى غلب عليها وصار الحرير غير مرئي فيها ، تشد على رقبة فرس الملك في المواكب العظام لتكون مضاهية لما يركب به من الكنبوش الزركش المغطى لظهير الفرس وكفاه .

ومنها : الغاشية ، وهي غاشية سرج من أديم محروزة بالذهب ، يظنها الناظر كلها ذهباً ، يلقيها على يديه يمينا وشمالا .

ومنها : الحفتاه ، وهي فرسان أشهبان قريبا الشبه ، برقتين من زركش ، وعدة تضاهى عدة مركوب السلطان كأنهما معدان لأن يركبهما السلطان ، يعلوهما مملوكان

من الممالك السلطانية قريبي الشبه أيضا ، على رأس كل منهما قبعة من زركش مشابه للآخر .

ومنها : المنطقه - بكسر الميم - وهي ما يشد في الوسط ، وعنها يعبر أهل زماننا بالحياصة ، وهي من الآلات القديمة ، فقد روى : أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه كان له منطقة . وهذه الآلة قد ذكرها في " التعريف " في الآلات الملوكية ، على أن ملوك الزمان لم تجر لهم عادة بشد منطقة ، وإنما يلبسها الملك للأمرء عند إلباسهم الخلع والتشريف ، وهي تختلف بحسب اختلاف الرتب ، فمنها ما يكون من ذهب مرصع بالفصوص ، ومنها ما ليس كذلك .

ومنها : الأعلام ، وهي الرايات التي تُحمل خلف السلطان عند ركوبه ، وهي من شعار الملك القديمة ، وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعقد لأمرء سراياه الرايات عند بعثها ، ثم قد يعبر عن بعضها بالمصائب جمع عصا ، وهي الألوية ، أخذها من عصا الرأس ، لأن الراية تُعصب رأس الرمح من أعلاه ، وقد يعبر عنها بالسناجق جمع سنجق ، والسنجق باللغة التركية معناه الطعن ، سميت الراية بذلك لأنها تكون في أعلى الرمح ، والرمح هو آلة الطعن يسمى بذلك مجازا .

ومنها : الطبول ، ويقال لها : الدبادب ، والبوقات ، والزمير المعروف بالصهان الذي يضرب به عشية كل ليلة بباب الملك وخلفه إذا ركب في المواكب ونحوها ، وهي المعبر عنها بالطبلخاناه ، وهي من شعار الملك القديم .

وقد ذكر في " مسالك الأبصار " : أن الطبل في بلاد المغرب يختص ضربه بالسلطان دون غيره من كل أحد كما سيأتي ذكره في الكلام على مملكة المغرب في المسالك والممالك إن شاء الله تعالى .

والسرف فيها إرهابُ العدو وتخذيدهُ كما كتب به أرسطو في كتاب "السياسة" للإسكندر ، أو تقويةُ النفوس وتشجيعُها على الحرب كما قاله الغزالي رحمه الله في "الإحياء" ، وكلما كثرت أعدادها كان أنخم لشأن الملك وأبلغ في رفعة شأنه . وقد حكى أن ديابد الإسكندر كانت أربعين حملا .

قلت : وقد ذكر في "التعريف" من جملة الآلات الملوكية الدواة ، والقلم ، والمِرْمَلَةُ ، ولا يخفى أنها بالآت الكُتَابِ أليق وإن كان السلطان لا يستغني عنها ، وسيأتي الكلام عليها في الكلام على آلات الكتابة من هذه المقالة إن شاء الله تعالى .

الصنف الثاني

آلات الركوب ، وهي عدة آلات

منها : السرج — وهو ما يقعد فيه الراكب على ظهر الفرس ، وأشكال قوابله مختلفة ، ثم من السرج ما يكون مغشًى بالذهب ، وهو مما يصلح للولوك .
ومنها : ما يكون مغشًى بالفضة البيضاء ، وكل منها قد يكون منقوشا وقد يكون غير منقوش ، ومنها ما يكون بأطراف فضة ، ومنها ما يكون سادجا .
ومنها : اللجام — وهو الذي يكون في فكّ الفرس يمنع من الجراح ، وقوابله أيضا مختلفة ، ثم منها ما يكون مطليا بالذهب ، ومنها ما يكون مطليا بالفضة ، ومنها ما يكون سادجا ، ومنها ما يكون رأسه وجنباه محلى بالفضة ، ومنها ما يكون غير محلى .
ومنها : الكنبوش — وهو ما يستر به مؤخر ظهر الفرس وكَنَلُهُ ، وهو تارة يكون من الذهب الزركش ، وتارة يكون من الخنايش ، وهي الفضة المُلبَّسة بالذهب ، وتارة يكون من الصوف المرقوم ، وبه يركب القضاة وأهل العلم .
ومنها : العباءة بالمد — وهي التي تقوم مقام الكنبوش .

ومنها : المِهْمَازُ — وهو آلة من حديد تكون في رِجْلِ الفارس ، فوق كعبه ، فوق الخلف وما في معناه ؛ ومؤخره إصبع مَحْدَدُ الرَّأْسِ إذا أصاب جانب الفرس تحركت وأسرعت في المشي أو جدت في العَدْوِ ؛ وهو تارة يكون من ذهب محض ، وتارة يكون من فضة ، وتارة يكون من حديد مَطْلَى بالذهب أو الفضة ؛ وقد اعتاد القضاة والعلماء في زماننا تركه .

ومنها : الكُورُ — وهو ما يقعد فيه الراكب في ظهر النجيب ؛ وهو المَجِينُ ، والعرب تسميه : الرَّحْلَ ؛ ثم قد يكون مقسّمه ومؤخره مغشّى بالذهب أو الفضة ، وقد يكون غير مغشّى .

ومنها : الزَّمَامُ — وهو ما يقاد به النجيب ، وَيَضْبِطُهُ به الراكب كما يَضْبِطُ الفارس الفرس بالعنان .

ومنها : الرَّكَّابُ — وهو ما تجعل فيه الرَّجُلُ عند الركوب ، وكانت العرب تعتاده من الجلود والخشب ، ثم عدل عن ذلك إلى الحديد .

قال أبو هلال العسكري في كتابه "الأوائل" : وأقول من آتخذه من الحديد المَهَلَّبُ بنُ أَبِي صُفْرَةَ ؛ وكانت رُكْبُ العرب من خَشَبٍ فكان الفارس يصبكُ^(١) الراكب بركابه فيوهن مِرْفَقَهُ .

ومنها : السُّوطُ — وهو ما يكون بيد الراكب يَضْرِبُ به الفرس أو النجيب ، وأهل زماننا يعبرون عنه بالمِقْرَعَةِ لأنه يُقْرَعُ به المركوب إذا تقاعس ؛ وهو بدل من القضيب الذي كان للخلفاء على ما سيأتي ذكره في الكلام على ترتيب الخلافة في المقالة الثانية إن شاء الله تعالى .

(١) لعله : المركوب

الصنف الثالث

آلات السفر؛ وهي عدة آلات

منها : المِحْفَةُ - بكسر الميم - وهي تَحْمَلُ على أعلاه قُبَّةٌ، وله أربعة سواعد : ساعدان أمامها وساعدان خلفها، تكون مغطاة بالجوخ تارة وبالحرير أخرى، تُحْمَلُ على بغلين أو بعيرين يكون أحدهما في مقدمتها والآخر في مؤخرتها، إذا ركب فيها الراكب صار كأنه قاعد على سرير، لا يلحقه أنزاج؛ وقد جرت عادة الملوك والأكابر باستصحابها في السفر خشية ما يعرض من المرض .

ومنها : المِحْمَلُ - بكسر الميم الأولى وفتح الثانية^(١) - وهو آلة كالمِحْفَةِ إلا أنه

يحمل على أعلى ظهر الجمل بخلاف المِحْفَةِ فإنها تحمل بين جملين أو بغلين .

ومنها : الفَوَانِيسُ - جمع فَنُوسٍ - وهي آلة كُرِّيَّةٌ ذات أضلاع من حديد،

مغشاةً بنحرة من رقيق الكَنَّانِ الصافي البياض، يتخذ للاستضاءة بغرز الشمعة في أسفل باطنه فيشرف عن ضوءها؛ ومن شأنها أن يحمل منها آثنان أمام السلطان أو الأمير في السفر في الليل .

ومنها : المَشَاعِلُ، جمع مَشَعَلٍ؛ وهي آلة من حديد كالقَفَصِ مِقْتُوْحُ الأعلى،

وفي أسفلها حزقة لطيفة، توقد فيه النار بالحطب فيبسط ضوءه؛ يحمل أمام السلطان ونحوه في السفر ليلا أيضا .

ومنها : الخِيَامُ، جمع خَيْمَةٍ؛ ويقال لها : الفُسْطَاطُ والقُبَّةُ أيضا، وهي بيوت

تتخذ من نحر القطن الغليظ ونحوه، تحمل في السفر لوقاية الحر والبرد، وكانت العرب تتخذها من الأديم، وقد آمنت الله تعالى عليهم بذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ

مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾

(١) ضبطه في القاموس والمصاحح : كجلس؛ ولعل ما في الأصل ثمة ثانية نظرا لكونه آلة .

والمملوك يُتباهى في سَعَتِهَا ، وتُتباهى بكبرها . وسيأتي في الكلام على ترتيب الدولة الفاطمية أنه كان لبعض خلائمهم خِيْمَةٌ تُسَمَّى : القَاتُولُ سُمِّتَ بِذَلِكَ لِأَنَّ قَرَأْنَا مِنَ الْفَرَّاشِينَ وَقَعَ مِنْ أَعْلَى عَمُودِهَا فَمَاتَ لَطْوُهُ .

ومنها : الخِرْكَاهُ ، وهى بَيْتٌ مِنْ خَشَبٍ مَصْنُوعٌ عَلَى هَيْئَةٍ مَخْصُوصَةٍ وَيَغْشَى بِالْجُودِ وَنَحْوِهِ ، تَحْمَلُ فِي السَّفَرِ لِتَكُونَ فِي الْخِيْمَةِ لِلْبَيْتِ فِي الشِّتَاءِ لِقِيَامَةِ الْبَرْدِ .
ومنها : الْقُدُورُ ، جَمْعُ قَدِيرٍ ، وهى الآلة التى يَطْبَخُ فِيهَا وَتَكُونُ مِنْ نُحَاسٍ غَالِبًا ، وَرَبْمَا كَانَتْ مِنْ بَرَامٍ .

والمملوك يُتباهى بِكَثْرَتِهَا وَعِظَمِهَا ، لِأَنَّهَا مِنْ دَلَائِلِ كَرَمِ الْمَلِكِ وَكَثْرَةِ رِجَالِهِ . وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْضَ قَدَرٍ مَا كَانَتْ الْجَنُّ تَعْمَلُهُ لَهُ مِنَ الْقُدُورِ بِقَوْلِهِ : (يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ) .
ومنها : الْأَثَافِي ، وهى الآلة المثلثة التى تَعَلَّقُ عَلَيْهَا الْقَدْرُ عِنْدَ الطَّبْخِ ، وَتَكُونُ مِنْ حَدِيدٍ .

ومنها : النَّارُ التى يُوقَدُ بِهَا لِلطَّبْخِ وَنَحْوِهِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى نِيرَانِ الْعَرَبِ ذِكْرَ نَارِ الْقِرَى ، وهى نَارٌ كَانَتْ تُرْفَعُ لَيْلًا لِيَرَاهَا الضَّيْفُ فَيَهْتَدَى بِهَا إِلَى الْحَيِّ .

ومنها : الْجِفَانُ ، جَمْعُ جَفْنَةٍ ، وهى الآنية التى يُوضَعُ فِيهَا الطَّعَامُ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى التَّدْوِيرِ أَنَّهَا مِمَّا كَانَتْ الْجَنُّ تَعْمَلُهُ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَيْضًا . وَقَدْ كَانَتْ الْعَرَبُ تَفْتَخِرُ بِكِبَرِ الْجِفَانِ لِذَلَالَتِهَا عَلَى الْكَرَمِ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الْأَعْشَى فِي مَدْحِ الْمُحَلَّقِ لَيْلَةَ بَاتَ عَلَيْهِ :

نَفَى الدَّامَ عَنْ آلِ الْمُحَلَّقِ جَفْنَةً * بَكَائِيَةَ الشَّيْخِ الْعِرَاقِيِّ تَفْهِيْقُ

قِيلَ : أَرَادَ بِالشَّيْخِ الْعِرَاقِيِّ كَثْرِي ، فَشَبَّهَ جَفْنَتَهُ بِجَفْنَتِهِ .

ومنها : حِيَاضُ الْمَاءِ ؛ وهي حياض من جلد تحمل في السفر ليقى الماء فيها لسقى الدواب ونحوها ؛ وكَبَرُ قَدْرُهَا دليل على رِفْعَةِ قدر صاحبها ونخامته لدلالاتها على كثرة دوابه ، واتساع عسكره .

الصنف الرابع

آلات السلاح ؛ وهي عدة آلات

منها : السِّيفُ ؛ وهو معروف . وسيأتى في الكلام على الألقاب في المقالة الثالثة أنه مأخوذ من قولهم : ساف إذا هلك لأنه به يقع الهلك .

واعلم أن السيف إن كان من حديد ذَكَرَ - وهو المعبر عنه بالفولاذ - قيل : سيف فولاذ ، وإن كان من حديد أثنى - وهو المعبر عنه في زماننا بالحديد - قيل : سيف أَيْث ؛ فإن كان من حديد أثنى وحداه من حديد ذكر كما في سيوف الفَرَنْجِيَّةِ ، قيل : سيف مُدَّكَرٌ . ويقال : إن الصاعقة إذا نزلت إلى الأرض وردت صارت حديدا ، وربما حفر عليها وأخرجت فطبت سيوفا ، فتجىء في غاية الحُسْنِ والمضَاءِ . ثم إن كان عريض الصَّفِيحِ قيل له : صَفِيحَةٌ ؛ وإن كان محدقا لطيفا قيل له : قَصِيْبٌ ؛ فإن كان قَصِيْرًا قيل : أَيْثٌ ؛ فإن كان قَصِيْرُهُ بحيث يحمل تحت الثياب ويُشْتَمَلُ عليه قيل : مِشْمَلٌ - بكسر الميم - فإن كان له حد واحد وجانبه الآخر جاف قيل فيه : صَمَّامَةٌ - وبهذا كان يُوصَفُ سيفُ عمرو بن معدى كرب فارس العرب ، فإن كان فيه حُرُوزٌ مستطيلة قيل فيه : قَتَّاراتٌ - وبذلك سُمِّيَ سيفُ رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ذَا الْفَقَّارِ" يروى أنه كان فيه سبع عشرة قَتَّارة .

(۱) هكذا في الأصل واملها : مصحفة عن بردت .

(۲) لعله : مدققا . (۳) كذا بالأصل ، وصوابه : مَشْمَلَةٌ كما في المخصص والمسانيد .

ثم تارة ينسب السيف الى الموضع الذي طبع فيه ، فيقال فيما طبع بالهند : هِنْدِيٌّ ومُهَنْدٌ ، وفيما طبع باليمن : يَمَانِيٌّ ، وفيما طبع بالمَشَارِفِ - وهي قُرَى من قُرَى العرب قريبة من ريف العراق - قيل له : مَشْرَفِيٌّ ؛ فإن كان من المعدن المسمّى بقَسَاسٍ ؛ وهو معدن موصوف بجودة الحديد قيل له : قَسَاسِيٌّ .

وتارة ينسب السيف الى صاحبه كالسيف الشَّرِيحِيّ - نسبة الى قَيْن من قِيُون العرب اسمه : سَرِيحٍ معروف عندهم بحسن الصنعة . ويوصف السيف بالحَسَامِ ؛ وهو القاطع ؛ أخذاً من الحَسَمِ ، وهو القطع ، وبالصارِمِ ؛ وهو الذي لا ينبوعن الصَّريبة .

والناس يبالغون في تحلية السيوف فتارة تُرْصَعُ بالجواهر ، وتارة يُحَلِّونَهَا بالذهب ، وتارة يحلونها بالفضة ؛ وان كان الاعتبار إنما هو بالسيف لا بالحلية .

ومنها : الرَّفْحُ : وهو آلة الطعن . والرماح ضِرْبَانُ :

أحدهما : مَتَّخَذٌ مِنَ الْقَنَاءِ ، وهو قَصَبٌ مسدود الداخل ، يَنْبَتُ ببِلَادِ الْهِنْدِ يقال للواحدة منه : قَنَاءَةٌ ، ويقال لمفاصلها : أَنَابِيْبٌ ، ولعقدتها : كُؤُوبٌ ؛ فإن كان قد نشأ في نباته مستقيماً بحيث لا يحتاج الى تثقيب قيل له : الصَّعْدَةُ - بفتح الصاد وسكون العين المهملتين - وان احتاج الى تقويم مقوم قيل له : مَثْتَفٌ .

ويوصف القنا : بِالْحَطِيّ - بفتح الحاء المعجمة - نسبة الى الحَطِّ ؛ وهي بلدة بالبحرين تجلبُّ اليها الرِّمَاحُ من الهند ، وتنقل منها الى بلاد العرب ، وليست تُنبت القنا كما توهمه ابن أصبغ في أرجوزته المذهبية .

الثاني : مَا يَتَّخَذُ مِنَ الْخَشَبِ كَالزَّانِ وَنَحْوِهِ ، وَيُسَمَّى : الذَّائِلُ - بالذال المعجمة

وكسر الموحدة - .

ويقال للحديد الذي في أعلى الرُّمَح : السَّنان ، وللذى في أسفله : الزُّجُّ والعَقَب .
ويُوصف الرُّمَح : بالأسمر، لأن لون القنَّ السُّمْرَةَ ، وبالْعَسَّال ؛ وهو الذي يضطرب
في هزّه ، وباللَّدْن ؛ وهو اللِّين ، وبالسُّمَهْرِي ، نسبة الى بلدة يقال لها سُمَّهْرَة من
بلاد الحبشة ، وقيل الى السُّمَهْرَة ؛ وهي الصَّلاَبَة .

ومنها : الطَّبر ؛ وهو باللغة الفارسية الفأْس ، ولذلك يسمَّى السُّكَّر الصُّلب :
بالطَّبرَزْد يعنى الذى يكسر بالفأس . والى الطَّبر تنسب الطَّبر داريَّة – وهم الذين يحملون
الأطبار حول السلطان – على ما سيأتى ذكره فى الكلام على ترتيب المملكة فى المسالك
والممالك إن شاء الله تعالى .

ومنها : السَّكِين ، وسيأتى ذكرها فى آلات الدُّوابة فى الكلام على آلات الكتابة ،
وانما سميت سَكِينا لأنها تُسَكِّن حركة الحيوان ؛ وتسمى : المُدِّيَّة أيضا لأنها تقطع
مدى الأجل . وهذه الاشتقاقات أولى بألة الحرب من آلة الكتابة .

وحاصل الأمر أن السكين تختلف أحوالها بحسب الحاجة إليها ، فتكون لكل
شئ ، بحسب ما يناسبه .

ومنها : القَوْس ، وهى مؤنثة . والقَيْسِيُّ على ضربين .

أحدهما : العربية ؛ وهى التى من خشب فقط ، ثم إن كانت من عُودٍ واحد
قيل لها : قَيْصِب ، وإن كانت من فلقين قيل لها : فِلَق .

الثانى : الفارسية ؛ وهى التى تُرَكَّب من أجزاء من الخشب والقرن والعقب
والغراء ؛ ولأجزائها أسماء يخص كل جزء منها اسم ، فموضع إمساك الرامى من القوس
يسمى : المَقْبِص ؛ ومجرى السهم فوق قبض الرامى يسمى : كَيْد القوس ؛ وما يُعْطَف
من القوس يسمى : سِيَّة القوس ؛ وما فوق المَقْبِص من القوس ؛ وهو ما على

يمين الرامي يسمي : رأس القوس ، وما أسفله ، وهو ما على يسار الرامي يسمي :
رجل القوس .

ومنها : النَّشَاب ، والنَّبْل ، فالنَّبْل ما يرمى به عن القسي العربية ، والنَّشَاب
ما يرمى به عن القسي الفارسية حكاة الأزهرى .

ومجرى الوتر من السهم يسمي : الفوق ، حديدته يسمي : النَّصْل ، والرَّيشُ
يسمي : القُدْدَبُ ، والسهم قبل تركيب الريش يسمي : القِدْحُ — بكسر القاف وسكون
الذال المهملة — .

ومنها : الكَنَانَةُ ، ويقال لها . الحَجَبَةُ ، وهي بكسر الكاف ، وهي ظرف السهام ،
وتكون تارة من جلد وتارة من خشب .

ومنها : الدَّبُّوسُ ، ويسمي : العامود ، وهو آلة من حديد ذات أضلاع ينتفع
بها في قتال لابس البيضة ومن في معناه ، ويقال إن خالد بن الوليد رضی الله عنه :
به كان يقاتل .

ومنها : العصا ، وهي آلة من خشب تفيد في القتال نحو إفادة الدبوس .

ومنها : البيضة ، وهي آلة من حديد توضع على الرأس لوقاية الضرب ونحوه ،
وليس فيه ما يرسل على القفا والآذان ، وربما كان ذلك من زرد .

ومنها : المغنر — بكسر الميم ، وهو كالبيضة إلا أن فيه أطرافاً سدولة على قفا
اللابس وأذنيه ، وربما جعل منها وقاية لأنفه أيضاً ، وقد تكون من زرد أيضاً .

ومنها : الدرع ، وهو جبة من الزرد المنسوج يلبسها المقاتل لوقاية السيوف
والسهام ، وهي تذكروثونث ، وقد أخبر الله تعالى عن داود عليه السلام أنه ألين
له الحديد فكان يعمل منه الدروع بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتِ

وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ . وَقَوْلِهِ : ﴿وَعَلَّمَنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بِأْسِكُمْ﴾ ولذلك
تنسب الدروعُ الفائقةُ إلى نَسَجِ داودَ عليه السلام .

ومن الدروع ما يقال لها : السَّوْقِيَّةُ ، نسبةً إلى سَلُوقٍ - قريةٌ من قُرَى اليمن ؛
وربما قيل : دُرُوعٌ حَطُومِيَّةٌ^(١) - بضم الحاء المهملة - نسبةً لحطوم رجل من
عَبْدِ الْقَيْسِ .

وأعلم أن لبس العرب في الحرب كان الزردَ ، أما الآن فقد غلب عمل القَرَاقَاتِ
من الصفائح المتخذة من الحديد المتواصل بعضها ببعض .

ومنها : التُّرْسُ ؛ وهو الآلة التي يتقى بها الضرب والرمي عن الوجه ونحوه ،
وتسمى : الجُنَّةَ أيضا بضم الجيم أخذا من الأجتنان وهو الاختفاء ؛ وربما قيل
لها : الجَجْفَةُ - بفتح الحاء المهملة والجيم - ثم هي تارة تكون من خشب ، وتارة
تكون من حديد ، وتارة تكون من عيذان مضموم بعضها إلى بعض بنحيط القطن
ونحوه ؛ فإن كانت من جلد قيل لها : دَرَقَةٌ - بفتح الدال والراء المهملتين - .

الصفحة الخامس

آلات الحصار؛ وهي عدة آلات

منها : المَنْجَنِيْقُ - بفتح الميم وسكون النون وفتح الجيم وكسر النون الثانية
وسكون الياء وقاف في الآخر - وحكى ابن الجواليقي فيه كسر الميم ، وحكى فيه
منجنوق بالواو ومَنْجَمِيْقُ بإبدال النون الثانية ميما ؛ وهو اسم أعجمي ، فإن الجيم
والقاف لا يجتمعان في كلمة عربية ، ويجمع على مجانيق ومناجيق .

(١) لعل زيادة الواو من محريف النساخ . والصواب حطامية نسبة إلى حطم رجل الخ ؛ أنظ

للسان والقاموس .

قال الجوهرى : وأصله من جى نيك وتفسيره بالعربية : ما أجودنى . قال
ابن خلكان : تفسير من وتفسير جى : ايش ، وتفسير نيك : جيد .

قال ابن قتيبة فى كتابه "المعارف" وأبو هلال العسكى فى "الأوائل" : وهو
آلة من خشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف ،
وفيه تجعل كفة المنجنيق التى يجعل فيها الحجر ، يجذب حتى ترفع أسافله على أعاليه ،
ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذى فيه الكفة فيخرج الحجر منه فما أصاب شيئا إلا أهلكه .

وأول من وضع المنجنيق : جذيمة الأبرش ملك الحيرة على العرب . وذكر
الواحدى فى تفسير سورة الأنبياء : أن الكفار لما أضرموا النار لإحراق إبراهيم
عليه السلام لم يقدرُوا على القرب من النار ليلقوه فيها ، فحماههم اللعين إبليس فعلمهم
وضع المنجنيق فعملوه وألقوه فيه فقتلوا به فى النار ، فكان أول منجنيق عمل .

ومما يتحقق بالمنجنيق : الزيارات وهى اللوالب والحبال التى يجذب بها المنجنيق
حتى ينحط أعلاه ليرمى به الحجر .

ومنها : السهام الخطاية^(١) وهى سهام عظام يرمى بها عن قسي عظام توتر بلوالب
يجز بها ويرمى عنها فتكاد تحرق الحجر .

ومنها : مكاحل البارود ، وهى المدافع التى يرمى عنها بالنفط ، وحالها مختلف :
فبعضها يرمى عنه بأسهم عظام تكاد تحرق الحجر ، وبعضها يرمى عنه ببندق من حديد
من زينة عشرة أرطال بالمصرى الى ما يزيد على مائة رطل ، وقد رأيت بالإسكندرية
فى الدولة الأشرفية - شعبان بن حسين ، فى نيابة الأمير صلاح الدين بن عمّام
رحمه الله - بها مدفعا قد صنيع من نحاس ورصاص وقيد بأطراف الحديد رُمى عنه ،

(١) لعله مصحح والذي يؤخذ من النحصر أن السهم الخطاى هو السهم العليظ الحاد رطله هذا

كما يبيده التفسير بعد ، تأمل .

من المِيدَانِ بُنْدُوقِيَّةٌ من حديد عَظِيمَةٍ مُجَمَّاةٌ، فوَقَعَتْ في بَحر السِّلْسِلَةِ خَارِجَ بَابِ
الْبَحْرِ، وَهِيَ مَسَافَةٌ بَعِيدَةٌ .

وَمِنْهَا قَوَارِيرُ النَّفْطِ ؛ وَهِيَ قَدُورٌ وَمَحْوَاهَا يَجْعَلُ فِيهَا النَّفْطُ وَيُرْمَى بِهَا عَلَى
الْحِصُونِ وَالْقِلَاعِ لِلْإِحْرَاقِ ؛ عَلَى أَنَّ الْقَوَارِيرَ فِي اللُّغَةِ اسْمٌ لِلزَّجَاجِ وَإِنَّمَا اسْتَعِيرَتْ
فِي آيَاتِ النَّفْطِ مَجَازًا .

وَمِنْهَا السِّتَائِرُ ؛ وَهِيَ آيَاتُ الْوَقَايَةِ مِنَ الطَّوَارِقِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا مِمَّا يَسْتُرُ بِهِ
عَلَى الْأَسْوَارِ وَالسُّفُنِ الَّتِي يَقَعُ فِيهَا الْقِتَالُ وَنَحْوِ ذَلِكَ

الصنّف السادس

آلات الصيد ؛ وَهِيَ عَدَّةُ آيَاتٍ

مِنْهَا قَوْسُ الْبُنْدُوقِ - وَيُسَمَّى الْجَلَّاهِقَ - قَوْسٌ يَتَّخِذُ مِنَ الْقَنَا وَيَلْفُ عَلَيْهِ
الْحَرِيرُ وَيَغْتَرَى ؛ وَفِي وَسْطِ وَتَرِهِ قِطْعَةٌ دَائِرَةٌ تَسْمَى الْجَوْزَةَ تَوْضَعُ فِيهَا الْبُنْدُوقِيَّةُ
عِنْدَ الرَّمْيِ .

وَمِنْهَا الْجِرَاوَةُ ؛ وَهِيَ آلَةٌ مِنْ جِلْدٍ يَجْعَلُ فِيهَا الْبُنْدُوقِيَّةَ الطِّينَ الَّذِي يَرْمَى بِهِ عَنِ
الْقَوْسِ الْمَقْدَمِ ذَكَرَهُ .

وَمِنْهَا الشِّبَاكُ ؛ وَهِيَ آلَةٌ تُتَّخَذُ تَعَدُّدًا مِنْ خَيْطَانٍ وَتَنْصَبُ لِاِقْتِنَاصِ الصَّيْدِ ،
وَكَذَلِكَ تَطْرَحُ فِي الْمَاءِ فَيَصَادُ بِهَا السَّمَكُ .

وَمِنْهَا الزَّبَطَانَةُ (١) ؛ وَهِيَ آلَةٌ مِنْ خَشَبٍ مَسْتَطْبِلَةٌ كَالرَّمْحِ مَجُوفَةٌ الدَّخْلُ يَجْعَلُ
الصَّائِدُ بُنْدُوقِيَّةً مِنْ طِينٍ صَغِيرَةً فِي فِيهِ ، وَيَنْفَخُ بِهَا فِيهَا فَتُجْرَحُ مِنْهَا بِحَدَّةٍ فَتَصِيبُ
الطَّيْرَ قَرِيبَهُ ؛ وَهِيَ كَثِيرَةُ الْإِصَابَةِ .

(١) فِي الْأَصْلِ : الزَّبْرِبَطَانَةُ ؛ وَالنَّصَحِيُّعُ عَنِ الْقَامُوسِ .

ومنها الفخج ؛ وهو آلة مُمَوَّسَةٌ لها دَفَّتَانِ تفتحان قسرا ، وتعاقدان في طرف
شظاة ونحوها ، إذا أصابها الصيد انطبقت عليه .

ومنها الصنابير ، جمع صِنَارَةٍ ، وهي حديدة معقمة مَحْدَدَةٌ الرأس يصاد بها
السمك .

الصنف السابع

آلات المعاملة ؛ وهي عدة آلات

منها الميزان ؛ وهو أحد الآلات التي يقع بها تقدير المقدرات ، فالموازين قديمة
الوضع قال تعالى : ﴿ وَالسَّيَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَفِيمُوا
الْوِزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ وأمر شعيب عليه السلام قوله بإقامة
القِسْطِ بِالْوِزْنِ كما أخبر تعالى عنه بقوله : ﴿ وَوَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ .

قال أبو هلال العسكري : وأول من اتخذ الموازين من الحديد عبد الله بن
عامر . قال : وأول من وضع الأوزان سمير اليهودي ، وذلك أن الحجاج ضرب
الدرهم بأمر عبد الملك بن مروان ونهى أن يضربها أحد غيره ، فضربها سمير ،
فأمر الحجاج بقتله لاجترائه عليه . فقال سمير : أنا أدلك على ما هو خير للمسلمين من
قتلي ، فوضع الأوزان ؛ وزن ألف وحمساية وثلاثمائة إلى وزن رُبْعِ قيراط ، وجعلها
حديدا فعفا عنه .

كان الناس قبل ذلك إنما يأخذون الدرهم الوازن فيزنون به غيره ، وأكثرنا

بفوحه عاذا .

ومنها : الذراع ، مؤنثة ، وهي إحدى الآلات التي تقدر بها المقادير أيضا ، بها
تقدر الأرضيون ، ويقاس البز وما في معناه ، ولم يزل الناس قديما وحديثا يتعاملون بها

على اختلافها ، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ . وقد ذكر الماوردي في الأحكام السلطانية سبع أذرع : إحداهما العُمريَّةُ ، وهي الذراع التي قدرها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمسح سواد العراق . قال موسى بن طلحة : وطولها ذراع وقبضة وإبهام . قال الحكم بن عتيبة : عمَّد عمر رضي الله عنه إلى أطولها ذراعا وأقصرها ذراعا ، فجمع منها ثلاثة وأخذ الثلث منها وزاد عليها قبضة وإبهاما قائمة ، ثم ختم في طرفها بالرصاص ، وبعث بذلك إلى حذيفة وعثمان بن حنيف فمسحا بها السواد .

الثانية الهاشمية ، وتسمى الزيادة .

قال : وهي أربع وعشرون إصبعًا ، كل إصبع سبع شعيرات مُعتدلات معترضات ظهرًا لبطن ، كل شعيرة عرض سبع شعرات من شعر البرذون ، وهنده الذراع التي يعتمدها الفقهاء في الشرعيات ، وبها قدروا البريد المعتبر في مسافة قصر الصلاة وغيرها ، وربما عبروا عنها بذراع الملك ، وسميت بالهاشمية لأن أبا جعفر المنصور ثانی خلفاء بني العباس اعتبرها ومِلَّ بمقتضاها في المساحة وتبعه سائر خلفائهم على ذلك ، وينسب العباس من بني هاشم ، فنسبت إلى بني هاشم مباينة لمن تقدمهم من خلفاء بني أمية .

قال الماوردي : وتسمى الزيادة ، لأن زيادا مسح بها السواد أيضا .

الثالثة البلالية ، وهي أنقص من الهاشمية المقدم ذكرها ثلاثة أرباع عشرها ، وإنما سميت البلالية لأن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري هو الذي وضعها ، وذكر أنها ذراع جده أبي موسى

الرابعة السوداء ، وهي دون البلالية بإصبعين وثلاثي أصبع ، وأول من وضعها الرشيد ، قدرها بذراع خادم أسود كان قائما على رأسه .

قال الماوردي : وهي التي يتعامل بها الناس في ذرع البزّ والتجارة والأبنية
وقياس نيل مصر .

الخامسة اليوسُفية ؛ وهي ذراع السودان بثلثي إصبع ؛ وأول من
وضعها أبو يوسف صاحب أبي حنيفة .

قال الماوردي : وبها يذرع القضاة الدور ببغداد .

السادسة القصبة ؛ وهي أنقص من الذراع السوداء بإصبع وثلثي إصبع ،
وأول من وضعها ابن أبي ليلى القاضي .

قال الماوردي : وبها يتعامل أهل كلواندي .

السابعة المهرانية ؛ قال الماوردي : وهي بالذراع السوداء ذراعان وثلثا ذراع ،
وأول من وضعها المأمون ؛ وهي التي يتعامل بها في حفر الأنهار ونحوها
ومنها : المقصّ - بكسر الميم - وهو الآلة المعروفة ، وينتفع به في أمور مختلفة .

الصف الثامن

آلات الأيب ؛ وهي عدة آلات

منها : الرّد - بفتح النون وسكون اراء المهملة - وهو من حكم الفرس ، وضعه
أردشير بن بابك أول طبقة الأكاسرة ، من ملوكهم ، ولذلك قيل له : زردشير ، وضعه
مثالا للدنيا وأهلها ، فرتب الرقعة آثني عشر بيتا بعدد شهور السنة ، والمهارك ثلاثين
قطعة بعدد أيام الشهر ، وجعل القصوص بشابة الأفلاك ، ورهبها مثل ثقلها
ودورانها ، والنقط فيها بعدد الكواكب السيارة ، كل وجهين منها سبعة : وهي
الشمس ويقابله اليك ، والبنج ويقابله الدوم ، والجنهار ويقابله الناب ، وجعل

ما يأتي به اللاعب من النقوش كالقضاء والقدر تارة له وتارة عليه ، وهو يصرف المهارك على ما جاءت به النقوش ، إلا أنه إذا كان عنده حُسن نظر عرف كيف يتألى ، وكيف يتحيل على الغلب وقهر خصمه ، مع الوقوف عند ما حكمت به الفصوص كما هو مذهب الأشاعرة ، لكن قد وردت الشريعة بذمه ، قال صلى الله عليه وسلم : " مَنْ لَعِبَ بِالزَّرْدِشِيرِ فَكَأَنَّمَا غَمَسَ يَدَهُ فِي لَحْمِ خَنْزِيرٍ " وفي رواية : " مَلْعُونٌ مَنْ لَعِبَ بِالزَّرْدِشِيرِ " . وفي تحريمه عند أصحابنا الشافعية وجهان : أحدهما التحريم ، والثاني الكراهة . وإذا قلنا : حرام فالأصح أنه صغيرة ، وقيل : كبيرة .

ومنها : الشَّطْرَبُجُّ - بفتح الشين المعجمة أو السين المهملة لغتان ، والأولى منهما أفصح - وهو فارسي معرب ، وأصله بالطارسية شش رنك ، ومعناه ستة ألوان وهي الشاه - والمراد بها الملك - والفرزان ، والفيل ، والفرس ، والرَّحُّ . والبيدق .

ثم الشَّطْرَبُجُّ من أوضاع حكماء الهند وحكمتهم . وضعه صصبه بن داهر الهندي بلهيب ملك الهند مساواة لأردشير بن بابك في وضعه النرد ، وعرضه على حكماء زمانه فقبضوا بتفضيله ، ثم عرضه على الملك وعترفه أمره ، فقال : أحتمكم على ، فتمنى عليه عدد تضعيف بيوته من قمحة الى نهاية البيوت ، فاستصغره همته وأنكر عليه مواجته بطلب تزيير يسير ، فقال : هذه طلبتي ، فأمر له بذلك ، فحسبه أرباب دواوبنه فقالوا للملك : إنه لم يكن عندنا ما يقارب القليل من ذلك ، فأنكر ذلك فأوضحه له بالبرهان ، فكان إعجابه بالأمر الثاني أكثر من الأول .

قال ابن خلكان : ولقد كان في نفسى من هذه المبالغة شيء حتى أجمع في بعض حساب الإسكندرية ، فأوضح لي ذلك وبينه ، وذلك أنه ذكر أنه ضاعف

(١) الذي في القاموس أنه بكسر الشين ولا يفتح أثره ، وفي لسان العرب أنت الكسوفه أجود

ليكون من باب جردحل .

الأعداد الى البيت السادس عشر ، فأثبت فيه اثنين وثلاثين ألفا وسبعائة وثمانية وستين حبة ، وقال : تجعل هذه الجملة مقدار قَدَحٍ ، ثم ضاعف السابع عشر الى البيت العشرين فكان فيه وية ، ثم انتقل من الويات الى الأردب ، ولم يزل يُضَعِّفُهَا حَتَّى آتَى فِي الْبَيْتِ الْارْبَعِينَ إِلَى مِائَةِ أَلْفِ إِرْدَبٍ وَأَرْبَعَةَ وَسَبْعِينَ أَلْفَ إِرْدَبٍ وَسَبْعِمِائَةَ وَاتْنِينَ وَسِتِينَ إِرْدَبًا وَثَلَاثِينَ إِرْدَبًا ، وقال : هذا المقدار شونة ، ثم ضاعف الشُّونَ إِلَى بَيْتِ الْخَمْسِينَ فَكَانَتْ الْجُمْلَةُ أَلْفًا وَأَرْبَعَةَ وَعِشْرِينَ شُونَةً ، وقال : هذا المقدار مَدِينَةً ، ثم انه ضاعف ذلك البيت الى الرابع والستين ، وهو نهايتها ، فكانت الجملة ست عشرة ألف مدينة وثلثمائة وأربعمائة وثمانين مدنة ، وقال : تعلم أنه ليس في الدنيا مدن أكثر من هذا العدد .

قال الصلاح الصفدي في شرح اللامية : وآخر ما اقتضاه تضعيف رقعة الشطرنج ثمانية عشر ألف ألف ست مرات ، وأربعمائة وستة وأربعون ألفا خمس مرات ، وسبعمائة وأربعة وأربعون ألفا أربع مرات ، وثلاثة وسبعون ألفا ثلاث مرات ، وسبعمائة وتسعة آلاف مرتين ، وخمسمائة وأحد وخمسون ألفا، وستمائة وخميس عشرة حبة عددا .

قال الشيخ شمس الدين الأنصاري : إذا جمع هذا العدد هرماً واحداً مكعباً ، كان طوله ستين ميلاً ، وعرضه كذلك ، وارتفاعه كذلك ، بالميل الذي هو أربعة آلاف ذراع .

واللعب بالشطرنج مباح ، وقد ذكر الشيخ أبو إسحاق الشيرازي رحمه الله في "المهذب" : أن سعيد بن جبیر الإمام الكبير التابعي المشهور كان يلعب الشطرنج عن استدبار . ومن يضرب به المثل في لعب الشطرنج الصولي ، وهو أبو بكر محمد ابن يحيى بن عبد الله بن العباس بن حنبل تكين الكاتب . ويقال : إن اناسون كان

لا يجيد لعب الشطرنج، فكان يقول : عجبا منى كيف أدبر ملك الأرض من الشرق إلى الغرب ولا أحسن تدير رقعة ذراعين في ذراعين . ثم في جلته عند أصحابنا الشافعية ثلاثة أوجه أصحها أنه مكروه ، والثانى أنه مباح ، والثالث حرام ، فإن افترن به رهن من الجانبين أو أحدهما فإنه محترم بلا نزاع .

الصنف التاسع

آلات الطرب ، وهى عدة آلات

منها العود ، وهو آلة من خشب مخرقة ، له عنق ورأسه ممال إلى حلقه ، وهو آلة قديمة وتسميه العرب المزهّر - بكسر الميم - وهو آخر آلات الطرب وأرفعها فدرا وأطيبها سماعا ، حتى يقال إنه قيل له : هل يسمع أحسن منك ؟ فقال : لا ، وأمال رأسه إلى حلقه فهى مماله لأجل ذلك

ومنها الحنك ، قال فى "التعريف" : وهو آلة محدثة طيبة النغمة ، لذيد السماع يقابىب العود فى حسنه ، وشكله مبالن لشكل العود ، ورأسه ممال إلى أسنل ، يقال إنه قيل له : هل يسمع أحسن منك ؟ فقال : نعم ، يريد العود .

ومنها الرباب - بفتح الراء - وهى آلة مجوفة مركب عليها خصلة لطيفة من شعر ممتز عليها بقوس وتره من شعر فيسمع لها حس طيب ، وأكثر من يعبث بها العرب

ومن أنواعها نوع يعبر عنه بالكمنحة لطيف القدر فى تدويره ، أطيىب حسا وأشجى من الرباب

ومنها الدف - بضم الدال - وهو معروف ، ثم إن كان يعبر ضجوج - وهى للمعبّر عنها فى زمننا بالصراصير - حل سماعه ، أو بصجوج فالأصح كذاك .

ومنها : الشبابةُ - بفتح الشين - وهي الآلة المتخذة من القصب المجوف ، ويقال لها : البراع أيضا تسمية لها باسم ما اتخذت منه ، وهو البراع يعنى القصب ، وربما عبر عنها بالمزمار العراقي ، وتصحيح مذهب الشافعي رضي الله عنه يختلف فيها ، فالشافعي رحمه الله يميز سماعها والنووي يمنع من ذلك .

الصنف العاشر

المسكرات وآلاتها ، وهي عدة أشياء

منها الخمر ، وهي ما اتخذ من عصير العنب خاصة ، وهي محرمة بنص القرآن . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ وأبو حنيفة يبيحها للتداوي والعطش ، ولم تبيح عند الشافعية إلا لاساغة لقمة المفصوص خاصة ، وشاربها يحد بالاتفاق ، وحكم بنحاستها تغليظا في الزجر عنها ، وأباح أبو حنيفة المثلث : وهو ما ذهب ثلثاه وبقى ثلثه ، وقال بطهارته ، وجرى عند أصحابنا الشافعية وجه بالطهارة

أما المتخذ من الزبيب والتمر وماشاكله فإنما يقال له نبيذ ، وقد ذهب الشافعي رضي الله عنه الى التول بتنجيسه والحد لشربه وإن لم ينته منه الى قدر يحصل منه سُكْر . ومنع أبو حنيفة الحد في القدر الذي لا يسكر .

ثم للخمر أسماء كثيرة باعتبار أحوال ، فتسمى الخمر لأنها تُخمر العقل أي تنطيه ، والحميا لأنها تُحمي الجسد ، والعقار لأنها تعاقر الدن أي تطول مدتها فيه الى غير ذلك من الأسماء التي تكاد تتجاوز مائة .

ومنها الإبريق ، وهو الإناء الذي يُصب منه ، والإبريق في أصل اللغة ماله خرطوم يصب منه .

ومنها القَدْحُ ؛ وهو إناء من زجاج ونحوه يصبُّ فيه من الإبريق المقدم ذكره .
ومنها الكَأْسُ ؛ وهو القَدْحُ بعد امتلائه ، ولا يسمى كأسًا إذا كان فارغًا بل
قَدْحًا كما تقدم .

ومنها الكُوبُ - بالياء الموحدة - وهو الذى لا عُرْوَةَ له يُمسك بها ، أما
إذا كانت له عروة فإنه يقال له كوز بالزاي المعجمة .

قلت : والعَجَبُ ممن يذهب طبيبته في حياته الدنيا ، ويفوز بما وصفه المرارة
وطبعه إزالة العقل الذى به تُدرِكُ اللذة ، ويفوت النعيم المقيم في دار البقاء ! فقد
ورد " أن من شرب الخمر في الدنيا لم يطعمها في الآخرة "

قال العلماء : إذا رآها ، لا يشتهيها ولم تطلبها نفسه ، وقد وصف الله تعالى حال
نعم الجنة بقوله : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ
لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْفُونَ ﴾ وأتبع ذلك بكلمة النعمة في قوله : ﴿ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا
يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ جَزَاءً لِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ! فلا تحرمنا خير ما عندك بشر ما عندنا .

ومنها : الحَشِيشَةُ التى يأكلها سفلةُ الناس وأراذلهم ، وتسميها الأطباء بالشهدانج .
وعبر عنها ابن البيطار في مفرداته بالثقب الهندي ، وهى مدمومة شرعاً ، ومضرة
طبعاً ، تُفسد المزاج ، وتؤثر فيه الجفاف وغلبة السوداء ، وتفسد الدهن ، وتورث
مَسَاءة الأخلاق ، وتُحطُّ قدر متعاطيها عند الناس ؛ الى غير ذلك من الصفات الذميمة
المتكاثرة . وكلام القاضى حسين يدل على أنه لا يحد متعاطيها وإن فسق ، فإنه قال :
وغير الخمر مثل البنج وجوز مائل والأفيون لا يحد متعاطيه بحال ؛ بل إن تعمد

تسأوله فسق به، وإن تناوله غاطًا أو للتداوى لم يفسق، وقد أفرد ابن القسطلاني
الحشيئة بتصنيف سماه "تكرمة المعيشة"، في ذم الحشيئة^(١) ذكر الكثير من معانيها
ومساوي متعاطيها، أعادنا الله تعالى من ذلك .

النوع الثامن

ما يحتاج الى وصفه الأفلاك والكواكب، وفيه مقصدان :

المقصد الأول

في بيان ما يقع عليه اسم الفلك وعدد أكرهه^(١)، وما بين كل كرتين

وحركة الأفلاك في اليوم واللييلة

أما ما يقع عليه اسم الفلك فالمراد بالأفلاك السموات . قال صاحب "مناج
الفكر" : توأطأت الأمم على تسمية أجرام السموات أفلاكًا ، وقال ابن قتيبة
في "أدب الكاتب" : الفلك مدار النجوم الذي يضمها ، واحتج بقوله تعالى بعد
ذكر النجوم : "وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ" قال : وسمى فلَكًا لاستدارته ، ومنه قيل :
فلَكةُ المفزل لاستدارتها .

وأما شكل الفلك وهيئته ، فقد اختلف علماء الهيئة في ذلك : فذكر الآكثرون
منهم أنها كُرِيَّةٌ لا مسطحة ، لأن أسرع الأشياء حركة السموات وأسرع الأشكال
حركة الكرة لأنها لا تثبت على مكان من الأمكنة إلا بأصغر أجزائها .

وأما عدد أكرهه ، فقد ذكر الجمهور من علماء الهيئة أن الفلك عبارة عن تسع
أكرٍ متسقة ، ملتفة بعضها فوق بعض التفاف طبقات البصلة ، بحيث يماس محذب

(١) في التاموس الكرة لغية في الكرة . وقد جمعها المؤلف على هذه اللفظة ، وفي اللسان : أن أكرًا

جمع كرة مغلوب اللام الى موضع الغاء فانظره .

كل كُرَّةٍ سُفلى متعَرِّكَةٌ أُخرى عَلياً اذ لا خَلَاءَ بَيْنَهُمَا عِنْدَهُمْ . قالوا : وأقربُ هذه الأُكْرَى الى الأرض كُرَّةُ القَمَرِ ، ثم كُرَّةُ عَطَّارِدَ ، ثم كُرَّةُ الزُّهْرَةِ ، ثم كُرَّةُ الشَّمْسِ ، ثم كُرَّةُ المِرْيَاحِ ، ثم كُرَّةُ المُشْتَرَى ، ثم كُرَّةُ زُحَلٍ ، ثم كُرَّةُ الكَوَاكِبِ الثَّابِتَةِ ، ثم كُرَّةُ الفَلَكِ الأَطْلَسِ ، وسمي بالأطلس لأنه لا كواكب فيه ، ثم الفلكُ المحيطُ . ويسمى فلكُ الكلِّ ، وفلكُ الأفلاكِ ، والفلكُ الأعلى ، والفلكُ الأعظمُ ، وحكى النوحسى^(١) فى "كتاب الآراء والديانات" أن بعض القدماء ذهب الى أن كُرَّةَ الشمسِ أعلى من سائر كُرَّاتِ الكواكب ، وبعدها كُرَّةُ القمرِ ، وبعدها كُرَّةُ الكواكبِ المتحيرة ، ثم كُرَّةُ الكواكبِ الثابتة . والمتنلسفون من الإسلاميين لما حكمت عليهم نصوص الكتاب والسنة بالاقْتِصَارِ على ذكر سبع سموات ، زعموا أن الفلك الثامن من الأفلاك التسعة هو الكُرْسِيُّ ، والفلك التاسع هو العرش . وذهب بعض القدماء من علماء الهيئة الى أن فوق الكُرَّةِ التاسعة كُرَّةٌ عاشرة هى المحركة لسائر الأُكْرَى . وذهب آخرون الى أن وراء مهابة الأجرام السماوية خَلَاءٌ لا نهاية له ، وذهب بعض الفلاسفة الى أن وراءها عالمُ الصورة ، ثم عالمُ النفس ، ثم عالمُ السياسة ، ثم عالمُ العِلَّةِ الأولى ، ويعنون به البارئ تعالى عن الجهة . والصابئة يسمون هذه العوالم أفلاكاً

وأما ما بين كل كُرَّتَيْنِ ، فذهب أهل الهيئة الى أنها مترابطة لا خلاءَ بَيْنَهَا لِكِبْرٍ قد ورد الشرع بما يخالف ذلك ، فأطبق القصاصُ من أهل الأثر على أن بين كل سماءَ وسماءَ خمسمائة سنة ، وفى سنن الترمذى أن "بين كل سماءَ وسماءَ واحدة أو اثنتان أو ثلاثٌ وسبعون سنة" .

(١) أهمله فى الأصل ولم نعرض عليه بعد البحث

وأما حركة الأفلاك اليومية، فإن الفلك الأطلس المقدم ذكره يتحرك بما في ضمنه في اليوم والليلة حركة واحدة دورية على قطبين بئلين يسميان قطبي العالم أحدهما^(١) عظمى تقطع هذا الفلك نصفين تسمى دائرة مُعدّل النهار، لأن الشمس متى حلت بها أعتدل النهار في سائر الأقطار، وتقاطع هذه الدائرة دائرة أخرى متوهمة تقسم هذا الفلك نصفين على تقطين متقابلتين، يصير نصفها في شمالي مُعدّل النهار ونصفها الآخر في جنوبيه، ويسمى منطقة البروج، وهذه الدائرة ترسمها الشمس بحركتها الخاصة في السنة الشمسية، ومن ثم قسمت اثني عشر قسماً ويسمى كل قسم منها برجاً.

المتصد الثاني

في ذكر الكواكب ومحلها من الأفلاك؛ وهي على ضربين

الضرب الأول

الكواكب السبعة السيارة

وهي زحل، والمشتري، والمريخ، والشمس، والزهرة، وعطارد، والقمر. ويتعلق القول بها من جهة مراتبها، وأشتقاق أسمائها، ومقادير أبعادها من الأرض، وقدر محط كل كوكب منها.

فأما القمر، فماخوذ من التسمية وهي البياض، سمي بذلك لبياضه؛ وقد تقدم أن فلكه أقرب الأفلاك إلى الأرض؛ وهو المعبر عنه بالسما الدنيا، ودوره ألف ومائة وخمسة وتسعون ميلاً، وهو جزء من تسعة وثلاثين جزءاً من الأرض؛ وبعده

(١) في المواضع التي ذكرها «و يقسم الفلك خط من دائرة تقسمه نصفين ... وتسمى هذه الدائرة

دائرة مُعدّل النهار» . فاعلم في عبارة الأصل مقطعاً من الناتج وحرره .

عن الأرض مائة ألف وسبعة آلاف وخمسة وتسعون ميلاً . وهو يسمى هلالاً
الليلة الأولى والثانية والثالثة ثم هو قمرٌ إلى آخر الشهر . ويسمى في ليلة أربع عشرة :
بالبدْر ، قيل لمبادرته الشمس قبل الغروب ، وقيل : لتمامه وأملائه ، كما قيل
لعشرة آلاف : بدرة لأنها تمام العدد ومنتهاه . ويسمى ليلة في آخر الشهر ، ورماً
أسْتَسْرَ ليلتين فلا يرى بمعنى أنه يختفي فلا يرى ، ويسمى هذا الاختفاء السرار .

وأما عطارد فعناه النافذ في الأمور ، ولذلك سمي الكاتب ، ودور في الفلك
الثاني بعد فلك القمر ، ودور قمره سبعة وعشرون ميلاً ، وهو جزء من اثنين وعشرين
جزءاً من الأرض ، وبعد ما بينه وبين الأرض مائتا ألف وخمسة آلاف وثمانمائة
ميل .

وأما الزهرة فماخوذة من الزاهر وهو الأبيض ، سميت بذلك لبياضها ،
وهي في الفلك الثالث من القمر ، ودور قمرها ستة آلاف وسبعة وأربعون ميلاً ، وهي
جزء من ستة وثلاثين جزءاً من الأرض ، وبعدها عن الأرض خمسة آلاف وخمسة
وثلاثون ألفاً وستمائة وأربعة عشر ميلاً .

وأما الشمس فسميت بذلك لشبهها بالشمسة وهي الواسطة التي في الخنقة ،
لأن الشمس واسطة بين ثلاثة كواكب سفلية ، وهي القمر وعطارد والزهرة ، وبين
ثلاثة علوية ، وهي المريخ والمشتري وزحل ، وذلك أنها في الفلك الرابع من القمر ،
ودور قمرها مائة ألف وثمانمائة وثمانون ميلاً ، وهي مثل الأرض مائة وست
وستون مرة وربع وثمان مائة ، وبعدها عن الأرض ثلاثة آلاف ألف وخمسة آلاف
وأثنان وتسعون ألفاً ومائة وثلاثة وأربعون ميلاً .

وأما المِرْيَحُ فماخوذ من المَرِيحِ ، وهو شجر تَحْتَكُ أغصانه فتورى النار ، فسمى بذلك لشبهه بالنار في أحمراره ، وقيل : المِرْيَحُ في اللغة هو السهم الذى لا ريش له ، والسهم الذى لا ريش له يلتوى في سيره ، فسمى النجم المذكور بذلك لكثرة التوائه في سيره ، وهو في الفلك الخامس من القمر ، وهو مثل الأرض مرة ونصفاً ، وبعده عن الأرض ثلاثة آلاف ألف وتسعمائة ألف وأثنى عشر ألفاً وثمانمائة وستة وستون ميلاً .

وأما المُشْتَرَى فسمى بذلك لحسنه كأنه اشترى الحسن لنفسه ، وقيل : لأنه نجم الشراء والبيع عندهم ، وهو في الفلك السادس من القمير ، ودور قرصه أحد وتسعون ألفاً وتسعمائة وتسعة وسبعون ميلاً ، وهو مثل الأرض خمس وسبعون مرة ونصف وثمان مرة ، وبعده عن الأرض ثمانية وعشرون ألف ألف وأربعمائة ألف وثمانية وستون ألفاً ومائتا ميل .

وأما زُحَلُ فماخوذ من زَحَلَ إذا أبطأ ، سمي بذلك لبطئه في سيره ، وقد فسره بعض المفسرين قوله تعالى « النَّجْمُ الثَّاقِبُ » ودور قرصه تسعون ألفاً وسبعمائة وتسعة عشر ميلاً ، وبعده عن الأرض ستة وأربعون ألف ألف ومائتا ألف وسبعمائة وسبعة وسبعون ميلاً ، وأهل المغرب يسمون زُحَلَ المَقَاتِلِ ، ويسمون المِرْيَحَ الأحمر ، ويسمون عَطَارِدَ الكَاتِبِ .

والفُرْسُ يسمون الكواكب السبعة بأسماء بلغتهم ، فيسمون زُحَلَ كِيَوَانَ ، والمُشْتَرَى تير ، والمِرْيَحَ بهرام ، والشمس مهراً ، والزُّهْرَةَ أناهيد ، وعَطَارِدَ هرمس ، والقمر ماه .

وأعلم أن لكل من هذه الكواكب السبعة حركتين :

إحدهما قسريّة؛ وهى حركته بحركة فلك الكل فى اليوم والليلة حركة تامّة، وتسمى الحركة السريعة .

والثانية حركة ذاتية يتحرك فيها هو بنفسه من المغرب الى المشرق وتسمى الحركة البطيئة .

ويختلف الحال فيها بالسير باختلاف الكواكب، فلكل واحد منها سيرٌ يخصّه، وهذه الحركة فى القمر أبينُ لسرعة سيره، إذ يقطع الفلك بالسير من المغرب الى المشرق فى كل ثمانية وعشرين يوماً مرة . وقد مثل القدماء من الحكماء للحركتين المذكورتين بمثالين .

أحدهما بحركة السفينة براكبها الى جهة جريان الماء وتحرك الراكب فيها الى خلاف تلك الجهة .

والثانى تحرك نملة تدبّ على دُولاب الى ذات الشمال، والدُولاب يدور الى ذات اليمين .

الضرب الثانى

الكواكب الثابتة

وهى الكواكب التى فى الفلك الثامن على رأى علماء الهيئة، وسميت ثابتة لأنها ثابتة بمكانها من الفلك لا تتحرك من المغرب الى المشرق، كما تتحرك السبعة السيارة، إلا حركة يسيرة جداً، وإنما تتحرك بحسب حركة فلك الكل بها من المشرق الى المغرب فى اليوم والليلة، والذى يحتاج الى ذكره منها الكواكب المشهورة مما تُتعرّف به الأزمنة على ما تقدم ذكره، أو ما يدخل تحت الوصف والتشبيه .

وهى ثلاثة أصناف :

الصنف الأول

نجوم البروج التي تنقل فيها الشمس في فصول السنة

وهي اثنتا عشرة صورة في اثني عشر برجاً، بعضها من منازل القمر، وبعضها من صور أخرى جنوبية وشمالية، وبعضها من كواكب متفرقة لا تنسب إلى صورة .

الأول الحمل وهو الكبش ، وهو صورة كبش على خط وسط السماء مقدّمه في المغرب ومؤخره المشرق ، وأول ما يطلع منه فمه ، وهو الكوكب الجنوبي المنفرد من الكوكبين الشماليين من مفصل اليد من الشرطين ، وعلى قرنيه الكوكبان الجنوبيان المقتربان من الشرطين ، وعلى عينه اليمنى الكوكب الشمالي المضيء من الشرطين ، وعلى عينه اليسرى كوكب خفي بقرب الشمالي من الشرطين ، وعلى تحييه آخر مثله ، وعلى مفصل يده الكوكبان الشماليان اللذان على عقب الرجل اليسرى من الثريا ، وهو الذي يقال له البطين ، ويده وساقاه ممتدان إلى الشمال ، وكأنه إنما يظهر منه يد واحدة ورجل واحدة ، والثريا على طرف أليته .

الثاني الثور وهو صورة ثور على خط وسط السماء ، مقدّمه إلى المشرق ومؤخره إلى المغرب ، وظهره إلى الشمال ، ويده ورجلاه إلى الجنوب ، وعلى مؤخره أربعة كواكب تسمى القطع أي هي موضع ذنبه المقطوع ، والدبران وجهه ، وركن الدبران فمه ، والكوكب المضيء الذي في الدبران عينه ، وكوكبان خارجان عن الدبران فردة قرنيه ، وفرنه الآخر كوكب متباعد عن الدبران نفسه إلى الشمال ، وليس وجهه مستويا ولكنه شبيه بالمقطوع الذي جعل خده على رأس عنقه ويده منحطتان إلى الجنوب ، ويظهر منه رجل واحدة ويدان ، وذنبه أتر ، والثريا خارجة عنه إلى الشمال وكذلك اللطخة ، وهي ثلاثة أنجم تشبه الثريا بين الثريا والدبران وليستا من صورته .

الثالث التَّوَمُّ : وهو المعبر عنه في أَيْسَنَةِ الناس بِالْحَوْزَاءِ . قال الحسين بن يونس الحاسب في كتابه في "هيئة الصور الفلكية" : والناس مخطئون في ذلك وإنما الحوزاء هي الصورة المعروفة بِالْحَبَّارِ في الصور الجنوبية ، وقدم التوعم الأيمن بعض^(١) كواكب الجبار التي على تاجه . قال : والتوعم على خط وسط السماء جَسَدَانِ ملتصقان برأسين ، يظهر لكل واحد منهما يد واحدة ورجل واحدة ، والرأسان في جهة المشرق ، ورجلاهما في جهة المغرب ، والذراع الشامي هو الرأسان ، ويده اليمنى وهي التي في جهة الشمال هي الذراع اليماني ، والمضىء من الذراع اليماني يسمّى الشَّعْرَى الغَمِيصَاءَ ، ويده اليسرى ممتدة الى التوابع .

الرابع السَّرَطَانُ : وهو صورة سَرَطَانٍ على وسط السماء ، رأسه الى الشمال ومؤخره الى الجنوب ، والنَّثْرَةُ على صدره ، وعينه كوكبان خفيان تحت النثرة يُدْعَيَانِ بِالْحَمَارَيْنِ وَزُبَانَاهُ كوكبان فيهما خفاء ، وأحدهما أضوا من الآخر ، يكونان شماليين من التوعم ومؤخره كَفُّ الأَسَدِ .

الخامس الأَسَدُ ، في وسط السماء ، فَمُّهُ مفتوح الى النَّثْرَةَ ، وعلى رأسه كواكب مضيئة ، والطَّرْفُ على عنقه ، والجبهة على صدره وقلبه الكوكب الجنوبي المضىء من النَّثْرَةَ ، وهو عظيم النور ، وكاهله كواكب خفية خارجة عن الطَّرْفِ والجبهة الى الشمال والخراستان خاصرته ، والصَّرْفَةُ ذنبه ، وكَفُّهُ المتقدمة في آخر السَّرَطَانِ ، وكفه الأخرى بعد هذه الكف الى المشرق ، ورجله الأولى تخرج من الكوكب القبلي من الخراطين الى الجنوب ، والأخرى تحت هذه للمشرق ، وكبده كوكب يتوسط مع الجبهة شمالي منها ، وسائر فقاراته الى المشرق .

(١) لعل الصواب اليمنى

السادس العذراء في وسط السماء . قال حسين بن يونس : والعرب تسميها السُّنْبَلَةَ وهو خطأ ، وإنما هي حاملة السنبلة ، ورأسها في الشمال بميلة الى المغرب ورجلاها في الجنوب ، وهي مستقبلة المشرق وظهرها الى المغرب . قال : ورأسها كواكبٌ صفار مستديرة كاستدارة رأس الإنسان تكون جنوبية من كوكبي الخرتانين ومنكباها أربعة كواكب تحت هذه الى الشرق ، وجناحها الأيمن ستة كواكب كهيئة الجناح .

السابع الميزان ، وهو صورة ميزان^(١) ، كفتاها الى جهة المشرق وقبها الى جهة المغرب ، والسمك الأعزل على قبها من الجهة اليمنى ومقابله كوكب آخر على قبها من الجهة الشمالية ، وكوكب آخر خارج من وسطها الى المغرب على علاقتها ، وهو على قصبة السُّنْبَلَةَ ، وكوكبان من الغفر على محامله مع كواكبٍ أخرى ، وزبانيا العقرب كفتاه .

الثامن العقرب ، وهو صورة عقرب على وسط السماء ، رأسه في المغرب ، وذنبه في المشرق ، وإحدى رجله في الجنوب ، والأخرى في الشمال ، والغفر على رأسه ، والزبانيا اللذان هما كفتا الميزان زبانياه ، وعيناه كوكبان خفيان فيما بينهما وبين الإكليل ، والإكليل على صدره ، والقلب هو قلبه ، ونياط القلب كوكبان خفيان والقلب في وسطهما ، وهو خارج عنهما الى الشمال ، والشولة ذنبه ، والكواكب التي على طرفها جبهته ، وإبرته لطحمة مستطيلة فيما بين الشولة والنعائم الصادرة ، ففيه من منازل القمر خمس منازل ، وهي الغفر ، والزبانيا ، والإكليل ، والقلب ، والشولة ، وأظهر ما تكون صورة العقرب وهو على الأنف عند الغروب ، ففيه من منازل القمر ثلاث منازل : الإكليل والقلب والشولة .

(١) في المصباح « الميزان مذكر » فعمل تأنيث المؤلف له باعتبار أنه صورة .

التاسع القوس، ويسمى الرامى، ونجوم هذا البرج نصفه شبه فرس، وهو مؤخره الى جهة المغرب، ونصفه وجه إنسان، تقوس وهو في جهة المشرق، ورأسه في الشمال ورجلاه في الجنوب، والنعام الواردة على وسطه، وهو على الجسد الذي يشبه بدن القوس، وذنبه يشبه لطفة مستطيلة مع كوكب صغير تحتها والكواكب دعبان ^(١) أى النعام، والبدة على مقبض القوس ويده اليمنى قابضة على رأس السهم، وهى كواكب تكون تحت لطفة صغيرة قريبة منها

العاشر الجدى: وهو صورة جدى مستلق على ظهره، مقدمه في المغرب، ومؤخره في المشرق، وظهره للجنوب ويده ورجلاه الى الشمال، وهو شبهه بالمتقلب الى القوس وقرناه الى بطنه، وفمه الى القوس، وليس له إلا يد واحدة، والكواكب الشمالى من سعد الذابح أحد قرنيه، والجنوبى منه قرنه الآخر، وكوكب آخر خفى تحت سهم القوس غربى سعد الذابح فمه، وعلى كتفه سعد بلع، وعلى وركه سعد السعود، والمضى من سعد السعود حق وركه وشق الحوت الجنوبى على ظهره، وطرف يده ثلاثة كواكب مضيئة بقرب اللامح فيها خفاء، وطرف رجلاه الكواكب المسمى رأس الدلو.

الحادى عشر الدلو، وهو صورة رجل قائم بيده دلو، رأسه الى الشمال ورجلاه الى الجنوب، وظهره الى المشرق، ووجهه الى المغرب، والكواكب التى تسمى الحباء من سعد الأخبية رأسه، ويده اليسرى من فوق رأسه حتى تنزل الى الدلو الذى عن يمينه، وسعد الأخبية مرفقه الأيسر، وبطنه يسمى الحجر، ودلوه أربعة سعود من السعود السبعة التى ليست من منازل القمر، هى سعد نائشة، وسعد الملك، وسعد اليهام وسعد الماتح، وكل سعد منها كوكبان، وعلى رجلاه اليسرى كوكب عظيم النور،

(١) كذا فى المخطوط ولم نهد انى إيضاحه ..

وعلى رِجله اليمنى كوكب أبيض يقرب في العِظَم من الذي قبله ، والفرع المقدم خارج عن صورته الى الشمال .

الثاني عشر الحوت : وهو صورة سمكتين إحداهما المنزلة التي تسميها أصحاب المنازل بطن الحوت وهي شمالية ، والثانية جنوبية عنها وهي أطول منها وأخفى الكواكب ، والكواكب السبعة السيارة ترسم الجنوبية منهما بمسيرهن ، وشق السمكة الجنوبية ثلاثة من السُّعُود السبعة التي من غير منازل القمر هي سعد الهمام وسعد البارِع وسعد الماطر ،^(١) وإيس الفرغ المؤخر في جسم الحوت بل خارج عنه الى الشمال والمغرب .

الصنف الثاني

نجوم منازل القمر التي يتنقل فيها القمر من أول الشهر الى الثامن والعشرين منه وهي ثمان وعشرون منزلة يداخل أكثرها صور البروج الاثني عشر المتقدمة . الأولى الشَّرطان ، والشَّرطان تثنية شَرط ، وهو العلامة ، كأنه سمي بذلك لكونه علامة على طلوع الفجر عند طلوعه ، وتسمى أيضا النَّطْح والنَّاطِح لأنها عند أصحاب الصور قرنا الحمل ، وهما كوكبان نيران بينهما قاب قوسين ، أحدهما في الشمال والآخر في الجنوب الى الجانب الجنوبي ، ومنها كوكب أطف منه يعد معه أحيانا ولذلك يسمي بعضهم هذه المنزلة الأشراط على الجمع لا على التثنية ، وهذه الثلاثة الكواكب إذا ظهرت في المشرق ظهرت كأنها مقلوبة منكسة ، وواحد منها أحمر مضى ، وتحتة آخر خفي ، والثالث في الشمال وهو أحمر مضى .

(١) الذي في القاموس سعد مطر .

الثانية البُطَيْنُ ، تصغير بطن ، وإنما صُغِرَ فرقا بينه وبين بطن الحوت الآتى ذكره في جملة المنازل ، والبُطَيْنُ ثلاثة كواكب مثل أثافي القدر : وهي الشكل المثلث الذي ينصب عليه القدر عند الطبخ ، وهي على القرب منها في موضع بطن الحمل من الصورة ، وواحد منها مضى ، وأثنان خفيان ، والخفيان يطلعان قبل المضى .

الثالثة الثُريَّا ، ويسمى النجم علما عليها . وبه فسر قوله تعالى ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ وهي ستة أنجم صغار يظنها بعض الناظرين سبعة أنجم ، وهي في شكل مثلث متساوي الساقين ، وبين نجومها نجوم صغار جدا كالرشاش . ومطلعها الى الشمال عن مطلع الشرطين والبطين ، وأقول ما يطلع منها ويغيب هو الجانب العريض دون الأنفاذ منها ، وهي عند أصحاب الصور بالقرب من محل ذنب الثور المقطوع . قال ابن يونس : وليست من صورة الثور ، وبعضهم يسميها آية الحمل لقربها منه .

الرابعة الدبران ، ويسمى تاي النجم لكونه يطلع تلو الثريا ، وربما سمي حادي النجم لذلك ، ويسمى أيضا السجده وعين الثور ، وهذه المنزلة سبعة أنجم تشبه شكل الدال ، واحد منها مضى ، أحمر عظيم الثور ، واسم الدبران واقع عليه في الأصل ثم غلب عليه وعلى باقي المنزلة . وهذه الكواكب السبعة عند أصحاب الصور هي رأس الثور ، وأقول ما يطلع منه طرف الدال ، ويكون رميها الى الجنوب وفتحها الى الشمال ، والكوكب الأحمر المضى هو آخر ما يطلع منها ، والعرب تقول للكوكبين القريبين منه : كلباه ، والباقي غنمه ، وربما قالوا : قلاصه ، ويقولون في خرافاتهم : إن الدبران خطب الثريا الى القمر فقالت : ما أصنع بسبوت ؟ فساق إليها الكواكب المسماة بالقلاص مهراً . فهربت منه فهو يطلبها أبدا . ولا يزال تائها لها . ومن ثم قالوا في أمثالهم : « أوفى من الحادي وأغدر من الثريا » .

(١) المراد بالحادي الدبران كما تقدم في كلامه وكما يشير اليه قول الشاعر : كما وفي بقلاص النجم حاديها .
ورقع في الأصل الجارى وهو تصحيف .

الخامسة المُنْقَعَة ، سميت بذلك تشبيهاً بدائرة تكون في عُنُق الفرس ، وقد مر القول عليها في الكلام على أوصاف الخيل ، وهي ثلاثة كواكب محابية صغار تسمى الأثافي ، وهي على أعلى القدم اليسرى من التوهم المعبر عنه بالجوزاء .

السادسة المُنْعَةُ ، وهي خمسة أنجم على شكل الصَّوْبُلْحَانِ ، أربعة منها على حط مستقيم ، الثالث منها يسمى قوس الجوزاء ، والخامس منعطف الى جهة الجنوب مقدار شبر في رأى العين ، وسميت هُنَّةً لأنعطافها أخذاً من قولهم : هنتُ الشيء إذا عطفته ، وبعضهم يسميها التحية ، وهي عند أصحاب الصور خلاف لأحد التوهمين المعبر عنهما بالجوزاء ، ويقال : الهنعة قوس الجوزاء يرمى بها ذراع الأسد ، وقائل ذلك يزعم أنها ثمانية أنجم في صورة قوس من مقبضها النجمان اللذان يقال لهما : الهنعة ، وبعضهم يقول : إن الهنعة كوكبان مقترنان ، الشماليُّ منهما أضوؤهما وحذاءهما ثلاثة كواكب تسمى التَّحَابِي ر بما عدل القمر فنزل بها .

السابعة الذراع : وهي كوكبان : أحدهما نير والآخر مظلم ، بينهما قدر سوط في رأى العين ، وفيما بينهما كواكبٌ صغار تسميها العرب الأظفار ، وسميت هذه المنزلة بالذراع لأنها عندهم ذراع الأسد والأسد ذراعان ، مقبوضةٌ وفيها ينزل القمر وهي جنوبية ، وسميت مقبوضةً لأن الأخرى أرفع منها في السماء ، ولهذا سميت مبسوطةً ، وهي مثلها في الصورة ، وأصحاب الصور يجعلون هذه الذراع في صورة الكلب الأصغر ، وربما عدل القمر عن المقبوضة فنزل بها .

الثامنة الثرة ، وهي لَطْخَةٌ كَثِيفَةٌ تحاب يجعلها أصحاب الصور على صدر السَّرَطَانِ ، وسميت ثرةً لأن الى جانبها نجمين صغيرين هما عند العرب على منخري

(١) الذي في القاموس واللسان في مادة (دن ع) أنها نجاة وجمعها نحاني .

الأسد، وتسميهما الحمارين، وقيل إنها لما كانت أمام جبهة الأسد شبت بشيء نثره من أنفه، ويقال إنها فم الأسد ومنخراه، وتسمى اللهاة أيضا وتشبه بالمعلف .

التاسعة الطُرفُ ، وهي كوكبان خفيان مقترنان بين يدي الجبهة، سما بذلك لموقعهما موقع عيني الأسد، وقدامهما ستة كواكب صغار تسميها العرب الأشفار اثنان منها في نسق الطرف، والأربعة البواقى بين يديه .

العاشرة الجبهة، ثلاثة كواكب نيرة قد عدل أوسطها الى الشرق، فهي لذلك على شكل مثلث مستطيل القاعدة قصير الساقين، والى الجنوب عنها نجم أحمر مضى، جدا يسمى قلب الأسد يرسمه المنجمون فى الأسطرلاب، وأصحاب الصور يجعلون الجبهة على كتف الأسد .

الحادية عشرة الخراتان، وتسمى الزبرة وعرف الأسد والزبرتين، وهما كوكبان نيران بينهما فى رأى العين مقدار ذراعين، وهما معترضان ما بين المشرق والمغرب، يمتدان عند التوسط مع خط الاستواء، وسما الخراتين تشبيها بتقبين فى السماء، ومنه نخرت الإبرة، وتحت هذين النجمين تسعة أنجم صغار. وسميت الزبرة لشعر يكون فوق ظهر الأسد مما يلي خاصرته، وعدوا الجميع أحد عشر كوكبا منها نجمان هما الخراتان والتسعة الشعر .

الثانية عشرة الصرفة، وهى كوكب نير، وهو عند أصحاب الصور قنب الأسد، والقنب : وعاء التضييب، وبالقرب من هذا الكوكب سبعة أنجم صغار تسمى ملاصقة له، وسمى هذا الكوكب بالصرفة لأنصراف الحر عند طلوعه مع الفجر من المشرق، وأنصراف البرد إذا غرب مع الشمس، ويقال الصرفة نأب الدهر لأنها تفتقر عن فصل الزمانين، ويشكل مع الخراتين مثلثا له زاوية قائمة وإحدى ساقيه أطول من الأخرى وفى قاعدته قصر .

الثالثة عشرة العواء، وهي حمسة كواكب نيرة على شكل لام^(١)، كان اعتبر ابتداءؤها من الشمال وعطفها من جهة الجنوب لكن المعطف منها أربعة والمنعطف واحد، ويقال لها أيضا وركا الأسد، وتشبهها العرب بكلاب تعوى خلف الأسد لأنها وراءه، ولذلك سميت العواء، وأصحاب الصور يجعلونها في السنبلة على صدرها.

أربعة عشرة السماك، وهو السماك الأعزل؛ وهو كوكب نير يميل لونه الى الزرقة، وسمى سماكا لكونه قريبا من سمت الرأس. وسمت الرأس أعلى ما يكون من الفلك وسمته العرب الأعزل لأنه يطلع الى جانبه نجم مضى، يسمونه السماك الراح لكوكب صغير بين يديه، والأعزل لاشيء بين يديه ففرق بينهما، وأحدهما جنوبى، وهو المنزلة، وأصحاب الصور يثبتون السماكين: الأعزل والراح في صورة العذراء، وهي السنبلة، والعرب تجعلهما ساقى الأسد، وربما عدل القمر فذل بعجز الأسد، وهو أربعة كواكب بين يدي السماك الأعزل يقال لها عرش السماك، وتسمى أيضا الخباء، والأحمال، والغراب، وهذه المنزلة حد ما بين المنازل اليمانية والمنازل الشامية، فما كان أسفل من مظهره فهو يماني وهو شق الجنوب، وما كان فوقه فهو شامي وهو شق الشمال.

الخامسة عشرة المغفرة، ثلاثة كواكب خفية على خط فيه تقويس، وسميت بذلك لختائها مأخوذة من المغفرة التي تستر الذنب وتخفيه يوم القيامة، ومنه المغفر الذى فوق الرأس، وقيل لأنها زباني العقرب، وقيل مأخوذة من الغفرة وهي الشعر الذى فى طرف ذنب الأسد، وأصحاب الصور يجعلونها بين ساقى الأسد.

(١) فى لسان العرب لأنها تخبى ألف... ويقال كأنها نور.

السادسة عشرة الزُّبَّانَانِ ، وهما كوكبان نيران هما عند العرب يد العقرب يترس بهما : أى يدفع عن نفسه ، وأصحاب الصُّور يجعلونهما كفتى الميزان ، وبينهما فى رأى العين قدرُ قامة الرجل .

السابعة عشرة الإكليلُ ، وهو ثلاثة كواكب مجتمعة فى خفاء الغفرِ مصطفة معترضة ، بين كل كوكب وكوكب منها قدرُ ذراع فى رأى العين ، سميت بذلك لأنها فوق جبهة العقرب كالناج ، وهى عند أصحاب الصُّور على عمود الميزان .

الثامنة عشرة القلبُ ، وهو كوكب أحمر يُرْمَضُ مضطرب قريب من الجبهة بين كوكبين خفيين تسميهما العرب نياطى القلب أى علاقته ، وسمته أصحاب الصُّور قلباً لوقوعه موضع القلب من صورة العقرب ، والقلوب أربعة هذا أحدها ، والثانى قلب السمكة ، والثالث قلب الثور ، والرابع قلب الأسد . وحيث ذكر القلب على الإطلاق دون إضافة فالمراد قلب العقرب هذا .

التاسعة عشرة الشُّولةُ ، وهى كواكب متقاطرة على تقويس فى بُرج العقرب أشبه شئء بذنب العقرب إذا شالته ، ولذلك سميت الشُّولةُ ، وفى الشُّولة كوكبان خفيان ملتصقان يظهران كأنهما كوكب واحد مشقوق يسميان الإبرة والحمة ، وخلفهما نجم صغير لا يزايلهما يقال له التابع . وقال قوم : إنما ينزل القمر الشُّولة على المحاذاة ولا ينحط إليها لأنها منحدره عن طريقه ، وربما نزل بالسفار فيما بين القلب والشُّولة ، وهى ستة كواكب بيض منعطفة .

العشرون النعائم ، وكواكبها ثمانية ، منها أربعة يمانية نيرة تشكل مربعاً فيه أطراف تسمى الواردة وهى المنزلة ، وسميت واردة : لأنها لما كانت قريبة من الحجره شبت بنعأم وردت نهرا ، والأربعة الأخرى تسمى النعائم الصادرة لأنها لما كانت

بعيدة من المجرة شبت بنعام وردت ثم صدرت ، والواردة التي هي المتزلة عند أصحاب الصور واقعة في يد الرامي الذي يجذب بها القوس .

الحادية والعشرون البَلْدَةُ ، وهي فُرْجَةٌ في السماء مستديرة شبه الرقعة ليس فيها كواكب ، والبَلْدَةُ في كلام العرب الفُرْجَةُ من الأرض ، ويقال لصدر الإنسان : البَلْدَةُ لأنها قطعة مستطيلة ، ويدل عليها ستة كواكب مستديرة صغار خفية تشبه القوس ، وبعضهم يسميها الأُدْحِيَّ لأن بالقرب منها كواكب تسميها العرب البَيْضَ لقربها من النعائم ، وربما عدل القمر فنزل بالأُدْحِيَّ ، وأصحاب الصور يجعلون البَلْدَةَ على جبهة الرامي .

الثانية والعشرون سَعْدُ الدَّابِّحِ ، وهو كوكبان صغيران بينهما في رأي العين أقل من قدر ذراع ، أحدهما مرتفع في ناحية الشمال والآخر منخفض في ناحية الجنوب سمي سعدا لأنهما في أيام طلوعه ، وسمى ذابِحًا لقوة البرد في إبان طلوعه فتموت المواشي ببرده ، وقيل سمي ذابِحًا لأن بالقرب من نجمة الشمال نجما صغيرا كأنه ملتصق به ، تقول العرب : هو شاتُه التي تُذْبِحُ ، ولذلك جعلوا الذابِحَ صفةً لسعد بخلاف سائر السعود ، فإنها يضاف إليها ما بعدها كما قاله الزجاج في مقدمة أدب الكاتب ؛ وأصحاب الصور يثبتون هذا السعد في موضع قرني الجدي من الصورة .

الثالثة والعشرون سَعْدُ بَلَعٍ ، وهو نجمان أيضا يشبهان سعدا الذابِحَ في المسافة التي بينهما لكن أحد الكوكبين خفي وهو الذي بلعه ، وهذا السعد عند أصحاب الصور على كعب ساكب الماء القريب من صورة الدلو ، وسمى بلع لأنه في أيام طلوعه تفيض الأنهار وتزيد الآبار ، فكانت الأرض آبتلعت ماءها ، وقيل لأنه يطلع في الوقت الذي قيل فيه " يَا أَرْضُ أَبْلِعِي مَائِكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْبِلِي " زمن نوح (عليه السلام) .

الرابعة والعشرون سعد السُّعُود، وعدته كوكبان أيضا على ما تقدم في السعدين من البُعد، وقيل هو ثلاثة كواكب أحدها نير والآخران دونه في النور، وأصحاب الصُّور يثبتونه على صدر ساكب الماء القريب من صورة الدُّو، وربما قصر القمر فنزل سعد نائِرة، وهو أسفل من سعد السعود، ويسمى أصحاب الصور نجميه بالمُجَبِّين، وهما في مؤخر الجدى، ومنهم من يثبت سعد السعود نجما واحدا .

الخامسة والعشرون سعد الأُخْيِيَّة، والناس مختلفون فيه، فمنهم من يقول : إنه كوكب واحد حوله ثلاثة كواكب مثلثة تشبه رجل بطة والكوكب هو السعد والثلاثة الخباء، ومنهم من يجعل الكوكب الذي في وسط الثلاثة عمود الخباء، وهو عند أصحاب الصُّور على الكَتِفِ الشرقية من جسد ساكب الماء، وسمى سعد الأُخْيِيَّة لخروج المخبات فيه من الثمار والحشرات، وكانت العرب تتبرك به لأخضرار العود فيه .

السادسة والعشرون الفرغ المقدم، ويقال فيه مقدم الدُّو والفرغ الأول والفرغ الأعلى وعرقوة الدُّو العليا، وهو كوكبان نيران بينهما في رأى العين نحو من خمسة أذرع، وأصحاب الصُّور يزعمون أن الشماليَّ منهما على متن الفرس .

السابعة والعشرون الفرغ المؤخر، ويقال له مؤخر الدُّو السفلى، وهو كوكبان يشبهان ما تقدم، أحدهما شمالي والآخر جنوبي، وهما عند أصحاب الصُّور على مؤخر الفرس، وربما قصر القمر فنزل في الكرب الذي في وسط العراق، وربما نزل ببدة الثعلب .

الثامنة والعشرون الحوت، وهو آخر المنازل، ويقال لها السمكة، وتسمى الرشاء أيضا، وهي ثمانية عشر كوكبا تشكل شكل سمكة رأسها في جهة الشمال

وَدَنَّبَهَا فِي جِهَةِ الْحَنُوبِ ، وَفِي الشَّرْقِيِّ مِنْهَا كَوْكَبٌ نَيْرٌ يُسَمَّى سُرَّةَ الْحُوتِ ، وَبَطْنَ الْحُوتِ ، وَبَطْنَ السَّمَكَةِ ، وَقَلْبَ السَّمَكَةِ ، وَرَبَّمَا عَدَلَ الْقَمَرَ فَتَزَلُ بِالسَّمَكَةِ الصُّغْرَى ، وَهِيَ مِنَ السَّمَكَةِ الْكُبْرَى فِي الشَّمَالِ مِثْلَ صَوْرَتِهَا إِلَّا أَنَّهَا أَعْرَضُ مِنْهَا وَأَقْصَرُ ، وَأَصْحَابُ الصُّوَرِ يَجْعَلُونَ الْكَوْكَبَ النَّيِّرَ مِنَ الْحُوتِ فِي حَدِّ الْمَرَأَةِ الْمَسْلُوسَةِ ، وَرَأْسِهَا هُوَ الشَّمَالِيُّ مِنَ الْفَرَعِ الْمُوَئَّرِ .

الصنف الثالث

من النجوم الثوابت ما ليس داخلًا في شيء من البروج ومنازل القمر مما هو مشهور مما ذكرته العرب في شعرها وشبهت به وضربت به الأمثال وهي عدة نجوم :

منها بنات نعش وهي سبعة أنجم على القرب من القطب الشمالي ، منها أربعة في صورة نعش وثلاثة أمامه مستطيلة وهي المعبر عنها بالبنات ، وتعرف هذه بنات نعش الكبرى ، وبالقرب منها سبعة أنجم على شكلها .

ومنها الجدي الذي تعرف به القبلة ، وهو نجم صغير على القرب من القطب الشمالي يستدل به على موضع القطب ، ويقال له جدي بنات نعش الصغرى .

ومنها الفرقدان ، وهما كوكبان متقاربان معدودان في بنات نعش .

ومنها السها ، وهو كوكب خفي في بنات نعش الكبرى ، والناس يمتحنون به أبصارهم لطفائه .

ومنها السماء الراح ، وهو غير الأعزل المتقدم ذكره في منازل القمر ، سمي راحًا لكوكب يقده . تقول العرب : هو رُحُّه بخلاف الأعزل فإنه الذي لا رُحَّ معه .

ومنها النَّسْرُ الواقع ، وهو ثلاثة أنجم كأنها أثنافى ، سمي الواقع لأنهم يجعلون آئين منه جناحيه ويقولون : قد ضمهما إليه كأنه طائر وقع .

ومنها النَّسْرُ الطائر ، سمي بذلك لأنهم يجعلون آئين منه جناحيه ويقولون : قد بسطهما كأنه طائر ، والعاقة تسميه الميزان .

ومنها الكَفُّ الخَضِيب ، وهو كف الثَّريَّا المبسوطة ، ولها كف أخرى يقال لها الجَدْماء ، وهى أسفل من الشَّرَطِين .

ومنها العَيُّوقُ ، وهو فى طَرْفِ المَجْرَةِ الأيمن ، وعلى أثره ثلاثة كواكب بِنَنَةٌ يقال لها الأَقلام ، وهى من مواقع العَيُّوقِ .

ومنها سَهِيلٌ ، وهو كوكب أحمر منفرد عن الكواكب واقربه من الأفق كأنه أبداً يضطرب ، وهو من الكواكب اليمانية ، قال ابن قتيبة : ومطلعه عن يسار مُسْتَقْبِلِ قِبْلَةِ العِراقِ . قال : وهو يرى فى جميع أرض العرب ، ولا يرى فى شىء من بلاد أَرْمِينِيَّةِ .

ومنها الشَّعْرِيَّانِ : العَبُورُ ، وكانت تعبد فى الجاهلية لقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى ﴾ وهى فى الجوزاء ، والشَّعْرَى الغُمَيْصَاءُ ، ومع كل واحدة منهما كوكب يقال له المِرْزَمُ .

ومنها سعد ناشرة ، وسعد الملك ، وسعد البهائم ، وسعد الهائم ، وسعد البارع ، وسعد مطرب ، وكل سعد منها كوكبان ، بين كل كوكبين فى رأى العين قدر ذراع فهى متناسقة ، وهذه السعود الستة غير السعود الأربعة المتقدمة فى منازل القمر ، تكون جملة السعود عشرة .

فإذا عرَّفَ الكاتب أحوال الأفلالك والكواكب وأسماءها وصفاتها ، عرف كيف يصفها عند احتياجه الى وصفها ، وكيف يعبر عنها عند جريان ذكرها

كما قال بعضهم يمدح بعض الرؤساء :

لَا زِلْتَ تَبْقَى وَتَرْقَى لِلْعُلَا أَبَدًا * مَا دَامَ لِلسَّبْعَةِ الْأَفْلَاكِ أَحْكَامُ
مَهْرٍ وَمَاهٍ وَكَيَوَانٍ وَتِيرٍ مَعَا * وَهَيْرِمِسٍّ وَأَنَاهِيدٍ وَبَهْرَامِ

مشيرا بذلك الى ذكر الأفلاك السبعة ، وما لها من الكواكب السبعة السيارة
بالأسماء الفارسية المقدم ذكرها .

وكما قال الطُّغْرَائِي فِي لَامِيَةِ الْعَجْمِ :

وَإِنْ عَلَانِي مَنْ دُونِي فَلَا تَعْجَبْ * لِي أُسُوءُ بِانْحِطَاطِ الشَّمْسِ عَنْ زُحَلِ

مشيرا الى كون فلک زُحَلِ أعلى من فلک الشمس لما تقدم أنها في الرابع ، وهو

في السابع .

وكما قال بعضهم يصف خُضْرَةَ السَّمَاءِ وَمَا لَهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ :

كَأَنَّ سَمَاءَنَا وَالشُّهْبُ فِيهَا * وَأَصْفَرُهَا لِأَكْبَرِهَا مُزَاجِمِ
بِسَاطِ زُمُرِدٍ نَثَرَتْ عَلَيْهِ * دَنَائِرٌ يَخَالِطُهَا دَرَاهِمِ

وكما قال ذُو الرُّمَّةِ وَقَدْ ذَكَرَ الثَّرِيَاءَ :

يَدْفُ عَلَى آثَارِهَا دَبْرَانُهَا * فَلَا هُوَ مَسْبُوقٌ وَلَا هُوَ يَلْحَقُ
بِعَشْرِينَ مِنْ صُغْرَى النُّجُومِ كَأَنَّهَا * وَإِيَّاهُ فِي الْخَضْرَاءِ لَوْ كَانَ يَنْطِقُ
قِلَاصٌ حَدَاهَا رَاكِبٌ مَتَعَمِّمٌ * إِلَى الْمَاءِ مِنْ جَوْزِ التَّنُوفَةِ مُطْلَقُ

مشيرا إلى ما تقدم من خِطْبَةِ الدَّبْرَانِ الثَّرِيَاءِ وَهَرَبِهَا مِنْهُ وَإِمْهَارِهِ إِيَّاهَا بِالْقِلَاصِ

بِهِ النُّجُومِ الَّتِي حَوْلَهَا .

وكما قال أَبُو الْفَرَحِ الْبَيْغَا ذَا كَرَا حَالٍ مُخْتَفٍ يُرْجَى لَهُ الظُّهُورُ :

سَتَخْلُصُ مِنْ هَذَا السِّرَارِ وَأَيُّمَا * هَلَالٌ تَوَارَى فِي السَّرَارِ فَمَا خَلَصَ

مشيرا بذلك إلى حالة تَوَارَى الْقَمَرِ حَالَةَ السَّرَارِ ثُمَّ خُلُوصِهِ عِنْدَ إِهْلَالِهِ .

النوع التاسع

مما يحتاج الكاتب إلى وصفه العلوّيات مما بين السماء والأرض،

وهي على أصناف

الصنف الأول

الريح

وهي مؤنثة، يقال هبت الريح تهبُّ هبوا، وتجمع على رياح، وقد دل الاستقراء على أنها حيث وردت في القرآن الكريم في معرض العذاب، كانت بلفظ الإفراد وحيث وردت في معرض الرحمة كانت بلفظ الجمع. قال تعالى في جانب العذاب: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ وقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا﴾ وقال في جانب الرحمة: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ وقال جلت قدرته: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ إلى غير ذلك من الآيات. ومن ثمَّ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اشتدت الريح قال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رِيَّاحًا وَلَا تَجْعَلْهَا رِيَّاحًا» وقد ورد القرآن الكريم بأن الله تعالى هو الذي يرسلها، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾

وذهبت الفلاسفة إلى أنها تحدث عن الطبيعة، وأن سبب ذلك دخان يرتفع من الأرض فيضربه البرد في ارتفاعه فيتناكس ويتحامل على الهواء ويمتدحه الهواء بشدة فيحصل الريح.

وأصول الرياح أربعة:

الأولى "الصبا" وهي التي تأتي من المشرق، وتسمى القبول أيضا، لأنها في مقابلة

مُستقبل المشرق.

قال في صناعة الكُتَّاب : وأهل مصر يسمونها الشرقية ، لأنها تأتي من مشرق الشمس ؛ وهي التي نُصِرَ بها النبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب كما أخبر صلى الله عليه وسلم بقوله : ”نُصِرْتُ بالصِّبَا“ .

الثانية ”الدُّبُورُ“ : ومهَّبا من مغرب الشمس إلى حد القطب الجنوبي ، وسميت الدُّبُورَ لأن مستقبل المشرق يستدبرها ، وتسمى الغربية لهبوبها من جهة المغرب ؛ وبها هلكت عاد كما أخبر عليه السلام بقوله : ”وَأُهْلِكْتُ عَادَ بالدُّبُورِ“ .

الثالثة ”السَّمَالُ“ : ويقال فيها شَمَالٌ وشَمَالٌ وشَامِلٌ ومهموزا وغير مهموز ؛ ومهَّبا من حد القطب الشمالي إلى مغرب الشمس ، وسميت شمَالًا لأنها على شمال من استقبال المشرق .

قال في صناعة الكُتَّاب : وتسمى البحرية لأنها يُسَارَ بها في البحر على كل حال الرابعة ”الجنُوبية“ : ومهَّبا من حد القطب الأسفل إلى مطلع الشمس وتسمى بالديار المصرية : القِبْلِيَّةُ لأنها تأتي من القبلة فيها ، وتسمى بها أيضا المَرِيْسِيَّةُ لأن في الجهة القبليَّة بلاد المَرِيْسِ ، وهم نَصْرَبِ مِنَ السُّودَانِ ؛ وهي أَرْدَا الرِّيحِ عِنْدَ أَهْلِ مِصْرَ . وقال النحاس : وكل ريح جاءت من مَهَبٍ رِيحِيْن تسمى النَّجَاءُ ، سميت بذلك لأنها نَكَبَتْ عَن مَهَابٍ هَذِهِ الرِّيحِ وَعَدَلَتْ عَنهَا .

قال في ”فقه اللغة“ : وإذا جاءت بنفيس ضعيف وروج فهي النسيم ؛ وإن ابتدأت بشدة قيل لها : النابغة ؛ فإن حركت الأغصان تحريكاً شديداً وقلعت الأشجار قيل : زَعَزَعَ ؛ فإن جاءت بالحصباء قيل : حاصبة ؛ فإذا هبت من الأرض كالعمود نحو السماء قيل لها : إعصار . وقد ورد بها القرآن في قوله تعالى : ﴿ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ ﴾ والعامَّة تسميها : الزُّوبَعَةُ ، ويزعمون أن الشيطان هو

الذى يثيرها، ومن ثم سماها الترك نعيم بك يعنى الشيطان؛ فإذا كانت باردة، فهي :
 الصَّرْصَر . وقد وقع ذكرها في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ ؛
 فإذا لم تُلقح شجرا ولم تحمل مطرا ، فهي العقيم . وقد قال تعالى في قصة عاد :
 ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ كانت لا مطر فيها .

الصنف الثاني

السحاب

وهو الأجرام التي تحمل المطرين السماء والأرض ينشئها الله سبحانه وتعالى
 كما أخبر بقوله : ﴿ وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ ﴾ ويسوقها إلى حيث يشاء كما ثبت
 في الصحيح "أنت رجلا سمع صوتا من سحابة : أسقى حديقة فلان" .

وذهب الحكماء إلى أنه بخار متصاعد من الأرض مرتفع من الطبقة الحارة إلى
 الطبقة الباردة فيثقل ويتكاثف وينعقد فيصير سحابة .

قال الثعالبي في "فقه اللغة" : وأول ما ينشأ يقال له : الدُّشء ؛ فإذا انسحب
 في الهواء ، قيل له : سَحَابٌ ؛ فإذا تغيرت به السماء ، قيل له : غَمَامٌ ، فإن سُمع
 صوت رعد من بعيد قيل فيه : عَقْرٌ ؛ فإذا أظلم ، قيل : عَارِضٌ .

وقد أخبر تعالى عن قوم عاد بقوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا
 هَذَا عَارِضٌ مِّمَطْرُنَا ﴾ ؛ فإن كان بحيث إذا رُؤي ظن أن فيه مطرا قيل له : مُخَيَّلَةٌ ؛
 فإن كان السحاب أبيض قيل له : مُزْنٌ ؛ فإذا هراق ما فيه قيل : جَهَامٌ ، وقيل
 الجَهَامُ : هو الذى لا مطر فيه .

وقد أولع أهل النظم والنثر بوصفه وتشبيهه .

الصنف الثالث

الرعد

وهو صوت شائل يُسَمَع من السحاب ، وقد اختلف في حقيقته فروى أنه صوت ملكٍ يزجُرُ به السحاب ، وقيل : غير ذلك ، والنصيرية بن الشيعة يزعمون أنه صوت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث زعموا أن مسكنه للسحاب ، وذهبت الفلاسفة إلى أنه دُخان يتصاعد من الأرض ويرتفع حتى يتصل بالسحاب ويدخل في تضاعيفه ويبرد فيصير ريحا في وسط الغيم ، فيتحرك فيه بشدة فيحصل منه صوت الرعد ، ويقال منه : رَعَدَت السماء ، فإذا زاد صوتها ، قيل : أرتجست ، فإذا زاد قيل : أَرَزَمَت ودَوَّت ، فإذا اشتد قيل : قَصَفَت وقعقت ، فإذا بلغ النهاية قيل : جَلَجَت وهددت .

الصنف الرابع

البرق

وهو ضوء يرى من جوانب السحاب ، وقد اختلف فيه أيضا فروى أن الرعد صوت ملكٍ يزجُرُ به السحاب وأن البرق ضحكُه ، والنصيرية من الشيعة يزعمون أنه ضحكُ أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أيضا ، والفلاسفة يقولون : إنه دُخان يرتفع من الأرض حتى يتصل بالسحاب كما تقدم في الرعد ، ثم تقوى حركته فيشتعل من حرارة الحركة الهواء والدخان فيصير نارا مضيئة وهو البرق ، ويقال : ومض البرق إذا لمع لمعانا قويا ، وأومض إذا لمع لمعانا خفيا ، فإن أطمع في المطر ثم ظهر أن لا مطر فيه قيل : خَلَبَ .

الصنف الخامس

المطر

وهو الماء الذى يخلقه الله تعالى فى السحاب ويسوقه إلى حيث يشاء وقد ذهب
الحكماء إلى أنه بُحَّر يتصاعد من الأرض أيضا فيه أو فى حرارة الشمس أو فيهما^(١)
فيجتمع، وربما أعانت الرياح على جمعه بأن تسوق البعض إلى البعض حتى يتلاحق؛
فإذا انتهى إلى الطبقة الباردة تكاثف وصار ماء وتقاطر كالبخار الذى يتصاعد من
القدر وينتهى إلى غطاء القدر، وعند أدنى برودة ينعقد قطرات .

ثم للمطر زمان يكثر فيه، وزمان يقل فيه؛ وقد رتب العرب ذلك على أنواء
الكواكب التى هى منازل القمر، وجعلوا لكل منها نوءاً ينسب إليه .

قال أبو حنيفة الدينورى^١ "فى كتاب الأنواء الكبير" : كانت العرب تقول :
لا بد لكل نوء كوكب من أن يكون فيه مطر، أو ريح، أو غيم، أو حر، أو برد .
ينسبون ما كان فيه من ذلك إليه؛ وقد اختلف فى معنى النوء فذهب ذاهبون إلى
أن النوء فى اللغة : النهوض؛ وذهب الفراء إلى أنه : السقوط والميلان؛ وذهب
آخرون إلى أنه يطلق على النهوض والسقوط جميعا، على أنهم متفقون أن العرب
كانت ترى الأمر للسقوط دون الطلوع، فمن ذهب إلى أن المراد بالنوء : السقوط
يجريه على بابه، ومن ذهب إلى أن المراد بالنوء : النهوض يقول : إنما سمي نوءاً
طلوع الكوكب لا لسقوط الساقط، ومنهم من يطلق النوء على السقوط وإن
كان موضوعه فى اللغة النهوض من باب التفاؤل، كما يقال للديع : سليم، وللهلكة :
مفازة، على أن بعضهم قد ذهب إلى أن الكوكب ينوء بمعنى ينهض ثم يسقط، فإذا
سقط فقد مضى نوءه ودخل نوء الكوكب الذى بعده .

(١) كذا بالأصل . ولعل الصواب من الأرض أيضا أو من حرارة الشمس أو منها .

قال أبو حنيفة الدينوري : وهو التأويل المشهور الذي لا ينازع فيه لأن الكوكب إذا سقط النجم الذي بين يديه أطلَّ هو على السقوط ، وكان أشبهه حالا بحال الناهض . وقد عدها أبو حنيفة ثمانية وعشرين نوعاً بعدد منازل القمر المتقدمة الذكر ، وذكر أن بعضها أجهر وأشهر من بعض .

الأول - "نوء الشرطين" ، وهو ثلاث ليال ، وأثره محمود عندهم .

الثاني - "نوء البطين" ، وهو ثلاث ليال ، وليس بمذكور عندهم ولا محمود .

قال ابن الأعرابي : يقال إنه ماناء البطين والدبران أو أحدهما فكان له نظر ، إلا كاد ذلك العام يكون جذبا .

الثالث - "نوء الثريا" ، وهو خمس ليال وقيل سبع ، وأثره محمود عندهم مشهور .

الرابع - "نوء الدبران" ، وهو ثلاث ليال وقيل ليلة ، وليس بمحمود عندهم ، ولم يسمع في أشعارهم له ذكر .

الخامس - "نوء الهقعة" ، وهو ست ليال ، ولا يذكر نوءها إلا بنو الجوزاء التي الهقعة رأسها ، والجوزاء مذكورة النوء مشهورة .

السادس - "نوء الهنعة" ، وهو ثلاث ليال لا يكاد ينفرد عن نوء الجوزاء .

السابع - "نوء الذراع المقبوضة" وهي خمس ليال وقال ابن كفاة : ثلاث ليال ، وهو أقل أنواء الأسد ، وأثره محمود عندهم موصوف ؛ وربما نسب إلى المرزوم ، وهو أحد كوكبي الذراع المذكورة ، وربما نسب إلى الشعري الغميصاء ، وهو كوكبها الآخر الذي هو أنور من المرزوم ، وقد ذكر العرب مع الذراع المقبوضة الذراع المبسوطة فتجمعهما معاً في النوء ، وهما لا ينفردان معاً بل ولا يطلعان معاً ، لكن لكثرة

صحبة إحداهما للأخرى في الذكر وأجتماعهما في اسم واحد مع تجاورهما وكونهما
عُضْوَيَّ صورة واحدة، وهي صورة الأسد .

الثامن - "نوء النثرة"، وهو سبع ليال، وله عندهم ذكر مشهور .

التاسع - "نوء الطرفية"، وهو ست ليال، ولم يسمع به مفردا لغلبة الجبهة
الآتية الذكر عليه .

العاشر - "نوء الجبهة"، وهو سبع ليال، وذكره مشهور لديهم .

الحادي عشر - "نوء الزبرة"، ونوءها أربع ليال، وقلما تنفرد لغلبة الجبهة
عليها أيضا .

الثاني عشر - "نوء الصرفة"، وهو ثلاث ليال، ولا يكاد يوجد لها ذكر
عندهم في أشعارهم .

الثالث عشر - "نوء العواء"، وهو ليلة واحدة، وليس من الأنواء المشهورة .

الرابع عشر - "نوء السماك الأعزل"، وهو أربع ليال، وله ذكر مشهور، وكثيرا
ما يذكر معه السماك الراح، وليس له نوء معه ولكنهما متقاربان في الطلوع، وحينئذ
فإفراد السماك الراح بالنوء خطأ .

الخامس عشر - "نوء الغفر"، وهو ثلاث ليال، وقيل ليلة، وما بينه وبين

نوء الهنعة المتقدمة الذكر من أنواء الأسد، وهي ثمانية أنواء : أولها الذراع، وآخرها
نوء السماك، وليس له في السماء نظير في كثرة الأنواء .

السادس عشر "نوء الزباني"، وهو ثلاث ليال .

السابع عشر "نوء الإكليل"، وهو أربع ليال .

الثامن عشر - "نوء القلب"، وهو ليلة واحدة، وليس بمحمود .

- التاسع عشر "نوء الشَّوْلَةِ"، وهو ثلاث ليال، وقلما يذكر .
- العشرون "نوء النعائم"، وهو ليلة واحدة، وليس له ذكر .
- الحادي والعشرون "نوء البلدة"، وهو ثلاث ليال، وقيل ليلة .
- الثاني والعشرون "نوء سعد الذابح"، وهو ليلة واحدة .
- الثالث والعشرون "نوء سعد بلع"، وهو ليلة واحدة .
- الرابع والعشرون "نوء سعد السعود"، وهو ليلة، وليس بمحمود، ولا مذكور .
- الخامس والعشرون "نوء سعد الأخبية"، وهو ليلة واحدة .
- السادس والعشرون "نوء الفرغ المقدم"، وهو أربع ليال، وله ذكر مشهور .
- السابع والعشرون "نوء الفرغ المؤخر"، وهو أربع ليال، وله ذكر أيضا .
- الثامن والعشرون "نوء الخوت"، وهو ليلة واحدة. وليس بالمذكور من حيث إنه يغلب عليه ما قبله وما بعده فلا يذكر .

قال أبو حنيفة الدينوري : والأيام في هذه الأنواء تابعة لليالي لتقدم الليل عليها ، قال : وإنما جعلوا لهذه النجوم أنواء موقوتة وإن لم تكن جميع فصول السنة مظنة الأمطار، لأنه ليس منها وقت إلا وقد يكون فيه مطر .

وقال ابن قتيبة : أول المطر الوشمي، سمى بذلك لأنه يسم الأرض بالنبات، ثم الربيع، ثم الصيف، ثم الخميم .

قال التعالي عن أبي عمرو : إقبال الشتاء الحريف، ثم الوشمي، ثم الربيع، ثم الصيف^(١)، ثم الخميم .

(١) في نسخة : الصيف .

الصف السادس

الثلج

وهو شئ ينزل من الهواء كالقطن المندوف فيقع على الجبال وعلى سطح الأرض فتذيب الشمس منه ما لافته شدة حرارتها ، ويبقى في أماكن مخصوصة من أعلى الجبال بالأمكنة الباردة جميع السنة ؛ وقد ذكر الحكماء أنه بخار يتصاعد من الأرض إلى الهواء كما يتصاعد المطر فيصبيه برد شديد قبل أن ينعقد قطرات فيتساقط أجزاء لطيفة ، ثم ينعقد بالأرض إذا نزل إليها ؛ ويوصف بشدة البرد وشدة البياض وسيأتي الكلام على ما ينقل منه من الشام إلى ملوك الديار المصرية في خاتمة الكتاب إن شاء الله تعالى .

الصف السابع

البرد بفتح الراء

وهو حب يسقط من الجوّ؛ وقد ذكر الحكماء أنه بخار يتصاعد من الأرض أيضا ويرتفع في الهواء فلا تدركه البرودة حتى يجتمع قطرات ، ثم تدركه حرارة من الجوانب فتتهزم برودتها إلى مواطنها فتنعقد ؛ وحب هذا البرد متفاوت المقادير، منه ما هو قدر الحمص فما دونه ، ومنه ما هو فوق ذلك ؛ ويذكر أنه يقع منه ما هو بقدر بيض الحمام والدجاج .

قال الحكماء : ولا يتصور وقوعه إلا في الخريف والربيع ويوصف بما يوصف به الثلج من شدة البرد وشدة البياض ، ويُشبه به أسنان الإنسان الناصعة البياض .

الصفحة الثامن

قوس قزح

وهو قوس يظهر في الجو من حمرة وخضرة؛ وقد ورد النهي عن تسميته قوس قزح، وتسميته قوس الله، لأن قزح أسم للشيطان.

قال الحكماء: والسبب فيه أن الهواء إذا صار رطبا بالمطر مع أدنى صقالة صار كالمرآة، والمخاذي له إذا كان الشمس في قفاه يرى الشمس في الهواء كما يرى في الشمس المرآة، ويستبك ذلك الضوء بالبخار الرطب فيتولد منه هذا القوس.

قال الحكماء: ويكون له ثلاثة ألوان يعنون حمرة بين خضرتين أو خضرة بين حمرتين، وربما لا يكون اللون المتوسط، ويكون مرتفعا ارتفاعا قريبا من الأرض؛ فإن كان قبل الزوال رُوى ذلك القوس في المغرب، وإن كان بعد الزوال رُوى في المشرق، وإن كانت الشمس في وسط السماء، فلا يمكن أن يرى الا قوسا صغيرا في الشتاء إن اتفق.

وفيه تشبهات للشعراء يأتي ذكرها في آخر المقالة العاشرة إن شاء الله تعالى.

الصفحة التاسع

الهالة

وهي الدائرة التي تكون حول القمر. قال الحكماء: والسبب فيها أن الهواء المتوسط بين البصر وبين القمر صقيل رطب، فيرى القمر في جزء منه، وهو الجزء الذي لو كان فيه مرآة لرؤى القمر فيها، ثم الشيء الذي يرى في مرآة من موضع لو كانت فيه مرآة كثيرة محيطة بالبصر، وكانت موضوعة على تلك النسبة فيرى

النقى في كل واحدة من المرآني ، فاذا توصلت المرآني رؤى في الكل ، فترى
حيث دائرة .

ولأهل النظم والنثر فيها وصف وتشبيه .

الصف العاشر

الحر

وسلطانه أواخر فصل الربيع وأوائل فصل الصيف ، والسبب فيه مسامحة
الشمس للرؤوس ، فتشتد نازرة في الهواء وحريم الأرض ، لاسيما المجاز وما في معناه .
وأهل النظم والنثر مولعون بوصف شدة حره .

الصف الحادي عشر

البرد

وسلطانه أواخر فصل الخريف وأوائل فصل الشتاء .
وأهل النظم والنثر مكثرون من ذكره ووصفه ، حتى إنه ربما أفرد بعض الناس
ما قيل فيه وفي وصفه بالتصنيف .

الصف الثاني عشر

المبأ

وهو الذي يحصل من ضوء الشمس عند مقابلتها كوة يدخل منها الضوء ، فيكون
شبه عمود ممتد من الكوة إلى حيث يقع ضوء الشمس من الأرض ، وفيه أجزاء
لطيفة متفاوتة تُحس بالنظر دون اللمس ، وقد شبه الله تعالى به أعمال الكفار

في القيامة فقال جل من قائل : ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾^١ ،
 ومن الناس من يزعم أن الواحدة من أجزائه هي المراد بالذرة المذكورة في القرآن
 بقوله تعالى : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ .
 ولأهل النظم والنثر أيضا فيه الوصف والتشبيه .

النوع العاشر

ما يحتاج الكاتب إلى وصفه الأجسام الأرضية ،
 وهي على أصناف

الصنف الأول

الجبال ، والأودية ، والقفار

فإنما "الجبال" فهي أوتاد الأرض ، أرسى الله تعالى بها الأرض حيث مادت لما
 دحاها الله تعالى على الماء ، وقد روى أن الكعبة كانت رابية حمراء طافية على وجه
 الماء قبل أن يدحو الله الأرض ، وأن الأرض منها دحيت ، فلما مادت وأرسيت
 بالجبال كان أول جبل أرسى منها جبل أبي قبيس بمكة المشرفة ، فلهذا هو أقرب
 الجبال من الكعبة مكانا . وقد نقل ان قاف جبل محيط بالدنيا عنه تفتتح جميع
 جبال الأرض ، والله أعلم بحقيقة ذلك . وتوصف الجبال بالعظمة في القدر والعلو
 وصعوبة المسلك ، وما يجري مجرى ذلك .

وأما "الأودية" فهي وهاد في خلال الجبال جعلها الله تعالى مجارى للسيل ونبات
 الزرع ومدارج الطرقات وغير ذلك . وتوصف بالآتساع وبُعد المسافة والعُمق ، وربما
 وصفت بخلاف ذلك .

وأما "القفار" فهي : البرارى المتسعة الأرجاء الخالية من الساكن . وتوصف بالسعة وبعُد المسافة وقلة الماء والإيجاش وصعوبة المسلك ، وما يجرى مجرى ذلك .

الصنف الثانى

المياه الأرضية ؛ وهى على ضربين

الضرب الأول

الماء الملح

ووقع فى لغة الامام الشافعى "رضى الله عنه الماء المالح ؛ وهو أحد العناصر الأربعة ، وسيأتى فى الكلام على الأرض فى المقالة الثانية أنه محيط بالأرض من جميع جهاتها إلا ما اقتضته الحكمة الالهية لعبارة الدنيا من كشف بعض ظاهرها الأعلى وأنه تفرعت منه بحار مبيثة فى جهات الأرض لتجرى السفن فيها بما ينفع الناس . وقد ذكر الحكماء أن فى الماء الملح كثافة لا توجد فى الماء العذب ، ومن أجل ذلك لا ترسب فيه الأشياء الثقيلة كما ترسب فى الماء العذب ، حتى يقال : ان السفن التى تغرق فى البحر الملح لا تبلغ أرضه بخلاف التى تغرق فى الأنهار فانها تنزل إلى قعرها . وشاهد ذلك أنك اذا طرحت فى الماء العذب بيضة دجاجة ونحوها غرقت فيه ، فاذا أذبت فى ذلك الماء ملحا بحيث يغلب على الماء وطرحت فيه البيضة عامت ؛ وقد اختلف فى الماء الملح هل هو كذلك من أصل الطبيعة أو عرضت له الملوحة بسبب ملاقاه من سبخ الأرض على مذهبين . ومن خصائص البحر الملح أنه فى غاية الصفاء حتى إنه يرى ما فى قعره على القرب من شطه . ويوصف البحر بالسعة والطول والعرض وكثرة العجائب حتى يقال فى المثل : "خُذْتُ عَنِ الْبَحْرِ وَلَا حَرَجَ" .

الضرب الثاني

الماء العذب

قالت الحكماء : والسبب فيه أن الأبخرة تتصاعد من قعر الأرض فتدخل في الجبال وتحتبس فيها ولا تزال تتكامل ويحصل منها مياه عظيمة فتنبعث لكثرتها . وهو على ثلاثة أنماط :

النمط الأول - "ماء الأنهار" ، وهي ما بين صغار وكبار وقريبة المدى وبعيدته ، وقد وردت الأخبار بأن أفضلها خمسة أنهار ، وهي : سيحون ، وجيحون ، والدجلة ، والفرات ، ونيل مصر ، والنيل أفضل الخمسة وأعذبها وأخفها ماء ، على ما سيأتي ذكره في المقالة الثانية إن شاء الله تعالى . وفي الأنهار الكبار تسير السفن .

النمط الثاني - "العيون" ، وهي مياه تنبع من الأرض وتعلو إلى سطح الأرض ثم تسرح في قني قد حُفرت لها ، وهي منبعثة في كثير من الأقطار .

النمط الثالث - "البئار" ، وهي حفاائر تحفر حتى ينبع الماء من أسفلها ويرتفع فيها ارتفاعا لا يبلغ أعلاها . وقد اختلف في الماء الذي ينبع من الأرض هل هو الذي نزل من السماء أو غيره ، فذهب فاهبون إلى أنه هو الذي نزل من السماء محتجين لذلك بقوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ﴾ الآية . وذهب آخرون إلى أن الذي ينبع من الأرض غير الذي نزل من السماء محتجين بقوله تعالى : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَجَرَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ ويوصف الماء للاستحسان بالعدوبة ، والصفاء ، والرقة ، والحلقة ، وشدة البرد ، وفي معناه الشيم . ويشبه في شدة البرد بالزلال وهو ما يترتب داخل الثلج في تجاوز يف توجد فيه فيكون من أشد الماء بردا .

الصنف الثالث

النبات ، وفيه ثلاثة مقاصد

المقصد الأول

في أصل النبات

قد ذكر المسعودي في مروج الذهب : أن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض خرج من الجنة ومعه ثلاثون فصية مودعة أصناف الثمر، منها عشرة لها قشر وهي الجوز، واللوز، والجلوز، والفستق، والبَلُوط، والشاه بلوط، والصنوبر، والنارج، والرمان، والحشخاش، ومنها عشرة لثمرها نوى وهي الزيتون، والرطب، والمشمش، والخوخ، والإجاص، والغبيراء، والنبق، والعناب، والمخيطي^(١)، والزعرور، ومنها عشرة ليس لها قشر ولا نوى وهي التفاح، والسفرجل، والكمثرى، والعنب، والتين، والأترج، والخرنوب، والتوت، والقنأ، والبطيخ .

المقصد الثاني

فيما تختص به أرض دون أرض من أنواع النبات

إعلم أن النبات منه ما يوجد في كثير من الآفاق، ومنه ما يختص ببعض الأماكن دون بعض، وقد حكى أبو بكر بن وحشية في كتاب الفلاحة النبطية : أن بلاد سجلماسة من جنوبي بلاد المغرب الأقصى شجرة ترتفع نصف قامة أو أرفع . ورقها كورق الغار ، إذا عمل منها إكليل ولبسه الرجل على رأسه ومشى أو عدا أو عمل عملاً لم ينم مادام ذلك الإكليل على رأسه ، ولا يباله من ضرر السهر وضعف القوة ما ينال من سهر وعمل .

(١) كذا في المبررات لابن البيطار أيضا ولكن في التاموس : وكثامة وجيز ، فعمل به لغة نادرة .

وفي بلاد إفريقية شجرة إذا قعد الإنسان تحتها نصف ساعة مات ، وإن مسها ماس
أو قطع منها غصنا أو ورقة أو هزها مات .

قلت : وما يختص بأرض دون أرض اللسان وهو : شجرة لطيفة على نحو
ذراع تفترع فروعا ، لا تنبت في سائر الدنيا إلا في الديار المصرية بموضع مخصوص
من بلدة يقال لها المطرية ، على القرب من مدينة عين شمس ، وتسقى من بئر هناك ،
ويقال : إنه أغتسل فيها المسيح عليه السلام ، ولذلك النصارى يعظمون اللسان
ويتبركون به .

المقصد الثالث

في ذكر أصناف النبات التي أولع الكُتَّاب والشعراء بوصفها وتشبيهها ،

وهي على ضرب

الضرب الأول

ماله ساق

وهو الشجر ، وأكثر ما أولع أهل النظم والنثر بثمارها أو نورها في الوصف
والتشبيه نثرا ونظما ، كاللوز ، والفستق ، والجُلُوز وهو البندق ، والشاه بلوط وهو
القسطل ، والصنوبر ، والرمان ، والخلنار ، والإجاص ، والقراصيا ، والزعرور
والخوخ ، والمشمش ، والعناب ، والنبق ، والعنب ، والتين ، والتوت ، والتفاح ،
والسفرجل ، والكمثرى ، والتفاح ، والخروب ، والأترج ، والنارج ، والليمون ،
والطلع ، والبسح ، والبسر ، والتمر ، والرائج وهو جوز الهند ، والتجار يسمونه
البارجيل . وربما وقع الوصف والتشبيه لبعض أصول الشجر ، كالنخل والكرم
غيرها .

الضرب الثاني

ما ليس له ساق

وقد أولعوا بالوصف والتشبيه منه ؛ فمن ذلك الزرع : من البرّ والشعير ونحوهما ويتبع ذلك نور الباقلاء ، وكذلك الخشخاش ، والكائن ، والبطيخ الهندى وهو الأخضر ، والحراسانى وهو العبدلى ؛ نسبة إلى عبد الله بن طاهر ، فإنه أول من نقله من خراسان إلى مصر ، والبطيخ الصينى وهو الأصفر ؛ والرنديتو وهو المعروف باللفّاح ، والقثاء ، والخيار ، والباذنجان ؛ والسلجم وهو اللّفت ، والجزر ، والثوم ، والبصل ، والكراث ، والرياس ، والهلبيون ، والنّعناع ، وغير ذلك .

الضرب الثالث

الفواكه المشمومة

والذى أولع بوصفه وتشبيهه منه الورد على اختلاف ألوانه : من أحمر ، وأبيض ، وأصفر ، وأزرق ، وأسود ؛ والنّسرين ، والبان ، والخلاف ، والنيلوفر ، والبفسج ، والرجس ، والياسمين ، والآس ، والزعفران ، والريحان .

الضرب الرابع

الأزهار

والذى وقع الولوع بوصفه وتشبيهه من ذلك الحيرى وهو المنثور من أصفر أو أزرق ، والسوسن ، والآذريون وهو ورد أصفر له ريح ؛ والحزم وهو الخزامى ، والشقيق^(١) . ويسمى : الشقاق ، ويقال له : شقائق النعمان ، لأن النعمان بن المنذر حمى ظهر الكوفة وبه هذا النبات فعرف به ، والبهار وهو نور أحمر والأشوان ، وغير ذلك .

(١) لعله والشقيقة ، فنى اللسان : أن الشقائق لا واحد له أو واحدته شقيقة ، وعلل لذلك فأنظر .

الضرب الخامس

الرياض

وهي الأماكن المشتعلة على الأشجار، والأزهار، والمياه الحارية ونحو ذلك .
وقد اتفق جَوَابُ الأرض على أن منتزهات الأرض أربعة مواضع وهي: ^(١) سُفْد سَمَرَقَنْدَ،
وشعب بَوَانَ، ونهر الأَبْلَةَ، وغُوطَة دِمَشَقَ .

وقد أكثر الشعراء في وصف الرياض وولع الكُتَّاب بمثل ذلك .

الطرف الثالث من الباب الأول من المقالة الأولى

في صنعة الكلام، ومعرفة كيفية إنشائه، ونظمه، وتأليفه، وفيه مقصدان

المقصد الأول

في الأصول التي يبني الكلام عليها وهي سبعة أصول

الأصل الأول .

المعرفة بالمعاني، والنظر فيه من وجهين

الوجه الأول

في شرف المعاني، وفضلها

إعلم أن المعاني من الألفاظ بمنزلة الأبدان من الثياب؛ فالألفاظ تابعة، والمعاني متبوعة؛ وطلب تحسين الألفاظ إنما هو لتحسين المعاني؛ بل المعاني أرواح الألفاظ وغايتها التي لأجلها وُضِعَتْ، وعليها بُنِيَتْ؛ فأحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى أشد من احتياجه إلى تحسين اللفظ، لأنه إذا كان المعنى صواباً واللفظ منحطاً ساقطاً

(١) كذا وقع بالأصل ولم نجد في كتب اللغة التي بأيدينا « انتزه » أو « منتزها » والصواب

« منتزهات » بتقديم التاء على النون .

عن أسلوب الفصاحة كان الكلام كالإنسان المشوه الصورة مع وجود الروح فيه ،
وإذا كان المعنى خطأ كان الكلام بمنزلة الإنسان الميت الذي لا روح فيه ؛ ولو كان
على أحسن الصور وأجملها .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير في "المثل السائر" : ومما رأيت من المدّعين لهذا
الفن الذين حصلوا منه على القشور ، وقصروا معرفتهم على الألفاظ المسجوعة الغثة ،
التي لا حاصل وراءها ، أنهم إذا أنكرت هذه الحالة عليهم ؛ وقيل لهم : إن
الكلام المسجوع ليس عبارة عن تواطؤ الفقر على حرف واحد فقط ، إذ لو كان
عبارة عن هذا وحده لأمكن أكثر الناس أن يأتوا به من غير كلفة ، وإنما هو
أمر وراء هذا ؛ وله شروط متعددة ، فإذا سمعوا ذلك أنكروه لخلوهم عن معرفته ؛
وإذا أنكروا عليهم الاقتصار على الألفاظ المسجوعة ، وهدّوا إلى طريق المنادى ،
يقولون : لنا أسوة بالعرب الذين هم أرباب الفصاحة ؛ فإنهم إنما اعتنوا بالألفاظ ،
ولم يعتنوا بالمعاني اعتناءهم بالألفاظ . فلم يكفهم جهلهم فيما ارتكبوه حتى ادّعوا
الأسوة بالعرب فيه فصارت جهالتهم جهالتين . قال : ولم يعلموا أن العرب ، وإن
كانت تعنى بالألفاظ فصاحها وتهذبها فإن المعاني أقوى عندها ؛ وأكرم عليها ،
وأشرف قدرا في نفوسها .

ولما كانت الألفاظ عنوان المعاني وطريقها إلى إظهار أغراضها أصلحها ،
وزينوها وبالغوا في تحسينها ، ليكون ذلك أوقع لها في النفس ، وأذهب بها في الدلالة
على القصد . ألا ترى أن الكلام إذا كان مسجوعا لذّ لسامعه فحفظه ، وإذا
لم يكن مسجوعا لم يأنس به أنسه في حالة السجع ؛ فإذا رأيت العرب قد أصلحوا
الفاظهم وحسنوها ورققوا حواشيها وصللوا أطرافها ، فلا تظن أن العناية إذ ذاك
إنما هي بالألفاظ فقط ، بل هي خدمة منهم للمعاني ؛ فصار ذلك كإبراز صورة الحسناء

في الحُلل الموشاة والأثواب المحبرة؛ فإننا قد نجد من المعاني الفاحرة ما شوّه من حسنه
بذّادة لفظه وسوء العبارة عنه .

قال أبو هلال العسكري رحمه الله : ومن عرف ترتيب المعاني وأستعمل الألفاظ
على وجوهها بأغنة من اللغات ثم أنتقل إلى لغة أخرى تهيأ له فيها من صنعة الكلام
ما تهيأ له في الأولى . ألا ترى أن عبد الحميد الكاتب أستخرج أمثلة الكتابة التي رسمها
لن بعده من اللسان الفارسي ، وحوّلها إلى اللسان العربي . فلا يكمل لصناعة الكلام
إلا من تكبّل لإصابة المعنى وتصحيح اللفظ والمعرفة بوجود الاستعمال .

قال في "المثل النائر" : وأعلم أن المعاني الخطابية قد حُصرت أصولها ، وأوّل
من تكلم في ذلك حكاء اليونان ؛ غير أن الحصر كلي لا جزئي ، ومُحال أن تُحصَر
جزئيات المعاني وما يتفرّع عليها من التفريعات التي لا نهاية لها ، لا جرم أن ذلك
الحصر لا يستفيد بمعرفته صاحب هذا العلم ، ولا يفتقر إليه ؛ فإن البدوي البادئ
راعى الإبل ما كان يمرّ شيء من ذلك بفهمه ، ولا يخطر بباله ، ومع هذا ؛ فإنه كان
يأتى بالسحر الخلال إن قال شعرا أو تكلم نثرا .

قال : ولقد فاوضني بعض المتفلسفين في هذا ، وأنساق الكلام إلى شيء ذكره
لأبي علي بن سينا في الخطابة والشعر ، وذكر ضربا من ضروب الشعر اليوناني يقال
له المورثيا ، وقام فأحضر كتاب الشفاء لأبي علي ووقفني على ما ذكره ، فلما وقفت
عليه أستجّهته ؛ فإنه طَوّل فيه وعرّض كأنه يخاطب بعض اليونان ، وكل هذا الذي
ذكره لغو لا يستفيد به صاحب الكلام العربي شيئا ، ثم مع هذا جميعه فإن معول
القوم فيما يدكر من الكلام الخطابي أنه يُورد على مقدمتين ونتيجة ؛ وهذا مما لم يخطر
لأبي علي بن سينا ببال فيما صاغه من شعرا أو كلام مسجوع عمله وعند إفاضته

في صوغ مصاغه لم تحيط المقدمتان والنتيجة له بيال؛ ولو أنه فكر أولاً في المقدمتين والنتيجة، ثم أتى بنظم أوثر بعد ذلك، لما أتى بشيء يُنتفع به، ولطال الخطب عليه.

قال: بل إن اليونان أنفسهم لما نظموا ما نظموه من أشعارهم، لم ينظموه في وقت نظمه وعندهم فكرة في مقدمتين ولا نتيجة، وإنما هذه أوضاع توضع وتطول بها مصنّفات كتبهم في الخطابة والشعر، وهي كما يقال:

قَدَاتِعُ لَيْسَ لَهَا طَائِلٌ * كَأَنَّهَا شِعْرُ الْأَيُّورِدِيِّ

الوجه الثاني

في تحقيق المعاني، ومعرفة صوابها من خطئها، وحسنها من قبحها.

وقد قسم صاحب الصناعتين المعاني على خمسة أصناف

الصنف الأول

ما كان من المعاني مستقيماً حسناً، كقولك رأيت زيدا

وهو أعلى الأنواع الخمسة وأشرفها

قال في "الصناعتين": والمعنى الصحيح الثابت ينادى على نفسه بالصحة،

ولا يجوز إلى التكلف لصحته حتى يوجد المعنى فيه خطيباً.

فأما المعنى المستقيم الجزل من النظم؛ فمن الوعظ قول الخبر من تولب يذم

طول الحياة:

يُودُّ الْفَتَى طُولَ السَّلَامَةِ وَالْفَتَى * فَكَيْفَ تَرَى طُولَ السَّلَامَةِ يَفْعَلُ؟

يَكَادُ الْفَتَى بَعْدَ اعْتِدَالٍ وَصِحَّةٍ * يَنْسُو إِذَا رَامَ الْقِيَامَ وَيُجْمَلُ

وقول أبي العتاهية في الوعظ بزوال العز والنعمة بالموت :

وكانت في حياتك لي عظات * وأنت اليوم أوعظ منك حيا!

وفي وصف الأيام قول أبي تمام :

على أنها الأيام قد صرن كلها * عجائب حتى ليس فيها عجائب

ومن المدح قول أمية بن أبي الصلت :

عطاؤك زين لأمرئ إن حبوته * بسبب وما كل العطاء زين

وليس بشين لأمرئ بذل وجهه * إليك كما بمض السؤال يشين

وقول أبي تمام :

يَسْتَعْدِبُونَ مَنَابِعَهُمْ كَأَنَّهُمْ * لَا يَتَنَسَوْنَ مِنَ الدُّنْيَا إِذَا قَاتَلُوا

وقول الآخر :

هم الألى وشبوا للجد أنفسهم * فما يبالون ما نالوا إذا حمدوا

ومن الفعصر قول مفعن بن أوس :

لعمرك ما أهديت كفى لريبة * ولا حملتني نحو فاحشة رجلي

ولا قادني ستمى ولا بصرى لها * ولا دأى رأيت عليها ولا عقلي!

وأعلم أني لم تصبني مصيبة * من الدهر إلا قد أصابت قتي قبلي!

ولست بمأش ما حبيت لمنكر * من الأمر لا يمشي إني مثله مثلي!

ولا مؤثر نفسي على ذي قرابة * وأثر ضيفي ما أقام ، على أهل!

وقول الآخر :

ولست بنظار إلى جانب الغني * إذا كانت العلباء في جانب الفقير

وقول الشنفرى :

أطيل مطال الجوع حتى أميته * وأضربُ عنه القاب صفحا فذهل
ولولا آجتابُ العار لم يلف مشرب * يعاشُ بهِ إلا لدى وما ككل

ومن الغزل قول جرير :

إن العيون التي في طرفها حور * قتلنا ثم لم يُحِين قتلانا
بصرعن ذا اللب حتى لا حراك به * وهن أضعف خلق الله أركاناً

وقول النظام :

توهمته طسرفي فالَم خده * فصار مكان الوهم من نظري أثر
وصافه قلبي فالَم كنه * فمن صفح قلبي في أنامله حفر
ومر بفكري خاطراً بخرخته * ولم أر خلقاً قط يحرحه الفكر

ومن التشبيب قول القائل :

ومن عجب أني أحش إليهم * وأسأل عنهم من أرى وهم معي
وتطلبهم عيني وهم في سوادها * ويشتاقهم قلبي وهم بين أضاعي

وقول الآخر :

إن لم أزر ربكم سعياً على حدقي * فإن ودي منسوبٌ إلى الملقى
تبت يدي إن شئتني عن زيارتكم * بيض الصفاح ولو سدت بها طريقي

ومن الحكمة قول المتنبي :

والظلم من شيم النفوس فإن تجدد * ذا عنة فليعله لا يظلم

وقول الآخر :

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى * ظمئت وأي الناس تصنؤ مشاربه؟

وقول الآخر :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبِقٍ أَحَا لَا تَلْتَمِسُهُ * عَلَى شَعَثِ أَى الرِّجَالِ الْمُهْتَدِبُ؟

ومن الهجو قول الطرمّاح في تميم :

تَمِيمٌ بِطَرَقِ اللُّؤْمِ أَهْدَى مِنَ القَطَا * وَلَوْ سَلَكَتْ سُبُلَ المَكَارِمِ ضَلَّتِ

وقول الآخر :

لَوِ أَطْلَعَ الغُرَابُ عَلَى تَمِيمٍ * وَمَا فِيهَا مِنَ السُّوءَاتِ شَابَا

إلى غير ذلك من معاني الشعر الحسنة البهيجة الرائقة .

ومما ينخرط في هذا السلك من النثر ما يُحكى أن أعرابيا وقف على عبد الملك بن مروان برملة اللّوى فقال : رحم الله امرأ لم تُنجج أذناه كلامي ، وقدّم معاذه من سوء .
مُفَامِي ، فإن البلاد مُجْدِبَةٌ ، والحال مُسْغِبَةٌ ، والحياء زاجر ، يمنع من كلامكم ، والفقر عاذِر ، يدعو إلى إخباركم ، والدعاء إحدى الصدقتين ، فرحم الله امرأ أمر بهير ،
أر دعا بخير .

ومعاني القاضى الفاضل هى التى ترقص لها القلوب ، وتطرب لها الألباب ،

ويهجم قبولها على النفوس من غير حاجب ولا بواب ، فمن ذلك قوله :

”يا بنى أيوب ، لو ملكتم الدهر لامتطيتم ليلائه أدايم ، وقلدتم أيامه صوارم ،
وأفدتم شموسه وأفواره فى الهبات دنانير ودراهم ، وأيامكم أعراس وما تم فيها على
الأموال ماتم ، والجود فى أيديكم خاتم ، ونفس حاتم فى نقش ذلك الخاتم“ .

فهذا هو السحر الحلال ، والمعانى التى تخضع لها شم الجبال ، ولا يقال فيه قيل

ولا قال .

الصنف الثاني

ما كان مستقياً قبيحاً كقولك قد زيدا رأيت

قال في "الصناعتين": وإنما قبيح لأنك أفسدت نظام اللفظ بالتقديم والتأخير. وهذا النوع يسميه علماء المعاني: التعقيد. وسماه ابن الأثير في "المثل السائر" المعاظلة المعنوية، وهو تقديم ما الأوّل به التأخير، كتقديم الصفة أو ما يتعلق بها على الموصوف، وتقديم الصلة على الموصول ونحو ذلك؛ وهو من المذموم المرفوض عند أهل الصنعة، لأن المعنى يختلّ به ويضطرب. قال في "المثل السائر": وهو ضدّ الفصاحة، لأنّ الفصاحة هي الظهور والبيان، وهذا عارٍ عن هذا الوصف؛ فمن ذلك قول بعضهم:

فأصبحت بعد خطّ بهجتها * كأن قفراً رسومها قلماً

يريد فأصبحت بعد بهجتها قفراً كأن قلماً خط رسومها فقدم خبر كأن، وهو خطّ عليها بجاء مختلفاً مضطرباً، وأقبح منه وأكثر اختلالاً قول الفرزدق:

إلى ملك ما أمّه من محارب * أبوه، ولا كانت كلب تصاير

يريد إلى ملك أبوه ما أمّه من محارب، والمعنى ما أم أبيه من محارب؛ يمدحه بذلك ذماً لمحارب. وكذلك قوله، يمدح خال هشام بن عبد الملك:

وما مثله في الناس إلا ملكا * أبو أمّه حتى أبوه يقاربه

يريد وما مثله في الناس حتى يقاربه إلا ملكاً أبوه، وهو خاله، فلما استعمل فيه التقديم والتأخير في غير موضعه جاء مشوهاً رثاً كما تراه. قال الوزير "ضياء الدين ابن الأثير": وقد استعمل الفرزدق من التماثل كثيراً كأنه يقصد ذلك ويتعمده لأن مثله لا يبغى إلا متكأنّاً متصوداً، وإلا فإذا ترك مؤلف الكلام نفسه تبرى

على سببها وطبيعتها في الأسترسال لم يعرض له شيء من هذا التعقيد؛ ألا ترى أن المقصود من الكلام معدوم في هذا النوع، إذ المقصود من الكلام إنما هو الإيضاح والإبانة وإعتمام المعنى؛ فإذا ذهب هذا الوصف المقصود من الكلام ذهب المراد به. ولا فرق عند ذلك بينه وبين غيره من اللغات كالفارسية والرومية وغيرهما.

الصنف الثالث

ما كان مستقياً ولكنه كذب كقولك حملت الجبل،

وشربت ماء البحر، وما أشبه ذلك

وأنتم أن المعاني المستعملة في الشعر والكتابة أكثرها جارٍ على هذا الأسلوب خصوصاً المعاني الشعرية، فإنه مقدمات تخيلية تُوجب في النفس انقباضاً وانقباضاً على ما هو معتاد في علم المنطق. وقد قال في "الصناعتين": إن أكثر الشعر مبني على الكذب والاستحالة من الصفات الممتنعة، والمنعوت الخارجة عن العادة، والألغاز الكاذبة من قذف المحصنات، وشهادة الزور، وقول البهتان، ولا سيما الشعر الجاهلي الذي هو أقوى الشعر وأخفه. قال: وليس يراد منه إلا حُسن اللفظ وجودة المعنى فهذا الذي سوغ استعمال الكذب وغيره مما جرى ذكره فيه. وقيل لبعض البلاسفة: فلان يكذب في شعره. فقال: يراد من الشاعر حسن الكلام، والصدق يراد من الأنبياء عليهم السلام.

قال الشيخ زكي الدين بن أبي الأصعب رحمه الله في كتابه "تحرير التحبير": وأنا أقول قد اختلف في المبالغة، فنقوم يرون أن أجود الشعراً كذبه، وخير الكلام ما بولغ فيه، ويحتجون بما جرى للناطقة الذبياني مع حسان بن ثابت رضي الله عنه في استدراك النابغة عليه تلك المواقع المحجبة في قوله:

لنا الجففاتُ الغرُّ يلمعن بالضحى * وأسيافنا يَقَطْرُنَ من تَجْدَةٍ دَمَا

فإن النابغة إنما عاب على حسان ترك المبالغة والقصة مشهورة . قال : والصواب مع حسان وإن روى عنه أنقطاعه في يد النابغة ، وقوم يرون المبالغة من عيوب الكلام ، ولا يرون محاسنه إلا ما خرج مخرج الصدق ، وجاء على منبج الحق ، ويزعمون أن المبالغة من ضعف المتكلم وتعجزه عن أن يخترع معنى ، أو يفتزع معنى من معنى ، أو يجلج كلامه شيئا من البدع ، أو ينتخب ألفاظا موصوفة بصفات الحسن ، ويجيد تركيبها ، فإذا عجز عن ذلك كله عدل إلى المبالغة يسد بها خلله ويتم نقصه ، لما فيها من التهويل على السامع ، ويدعون أنها ربما أحالت المعاني فأخرجتها عن حد الإمكان إلى حد الامتناع . قال : وعندى أن هذين المذهبيين مردودان ، أما الأول فلقول صاحبه إن خير الكلام ما بولغ فيه ، وهذا قول من لا نظره ، لأننا ترى كثيرا من الكلام والأشعار جاريا على الصدق المحض خارجا مخرج البحث ، وهو في غاية الجودة ، ونهاية الحسن ، وتمام التمام ، وكيف لا والمبالغة ضرب واحد من المحاسن ، والمحاسن لا تُحصَرُ ضروريتها ، فكيف يقال : إن هذا الضرب على أنفراده بفضل سائر ضروريات المحاسن على كثرتها ! وهذا شعر زهير والحطيئة وحسان ، ومن كان مذهبه توخى الصدق في شعره غالباً ، ابس فوق أشعارهم غايةً لمرقاً ، ألا ترى إلى قول زهير .

ومهما يكن عند امرئ من خليقة * وإن حالها تخفى على الناس تعلم

وإلى قول طرفة :

لعمرك إن الموت ما أخطا الفتى * لكنا لظول المرخي وثنياء في اليد

وإلى قوله :

سئدي لك الأيام ما كنت جاهلاً * ويأتيتك بالأخبار من لم تُرود

وإلى قول الخطيئة :

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ * لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ
فإنك تجد هذه الأشعار في الطبقة العليا من البلاغة. وإن خلت من المبالغة،
والذي يدل على أن مذهب أكثر الفحول ترجيح الصدق في أشعارهم على الكذب
ما روى عن الحرورية امرأة عمران بن حطان قاضي الصفرية من الخوارج أنها
قالت له يوماً : أنت أعطيت الله تعالى عهداً ألا تكذب في شعرك ، فكيف
قلت :

فَهِنَاكَ مَجْسَرَاةُ بِنْتِ ثَوَّ * رِيكَانُ أَشْجَعٍ مِنْ أَسَامِهِ ؟

وقال : يا هذه ، إن هذا الرجل فتح مدينة وحده وما سمعت باسمه فتح مدينة
نظ . وهذا حسن يقول :

وَإِنَّمَا الشَّعْرُ لُبُّ الْمَرْءِ يَعْزِضُهُ * عَلَى الْمَجَالِسِ إِنْ كَيْسًا وَإِنْ حَمَقًا
وَإِنَّ أَشْعَرَ بَيْتٍ أَنْتَ قَائِلُهُ * بَيْتٌ يُقَالُ إِذَا أَشْدَّتْهُ صَدَقًا

على أن هؤلاء الفحول وإن رجحوا هذا المذهب لا يكرهون ضده. ولا يمتدحون
فضله. وقاموا تخلوا بعض أشعارهم منه إلا أن ترننى الصدق كان الغالب عليهم ،
وكانوا يكثرون منه. ومن أكثر من شيء عُرف به كما أن النابضة ومن تابعه
على مذهب لا يكرهون ضده المبالغة ، وإلا فكل احتجاج جاء به على النعمان في
الاعتذار جارح يرى الحقيقة. كقولها :

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرِكْ لِنَفْسِكَ رِيْبَةً * وَبِئْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبٌ

فغائب الكلام الحسن بترك المبالغة فقط مخطئ ، وعائب المبالغة على الإطلاق
غير مصيب : وخير الأمور أوسطها .

والتحقيق أن المبالغة إذا لم تخرج عن حد الإمكان ، ولم تَجْرِ مجرى الكذب المحض ، فإنها لا تُذَم بحال ، كقول قيس بن الخطيم :

طَعَنْتُ أَبْنَ عَبْدِ الْقَيْسِ طَعْنَةَ نَائِرٍ * لَهَا نَفْدٌ أَوْ لَا الشُّعَاعُ أَضَاءَهَا

مَلَكْتُ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَرْتُ فَتَقَّهَا * يَرَى قَائِمٌ مِنْ دُونِهَا مِنْ وِرَاءِهَا ^(١)

فإن ذلك من جيد المبالغة . إذ لم يكن خارجا مخرج الاستحالة مع كونه قد بلغ النهاية في وصف الطعنة ، وكذلك قول أبي تمام :

تَكَادُ تَنْتَقِلُ الْأَرْوَاحُ لَوْ تَرَكْتُ * مِنَ الْجُسُومِ إِلَيْهَا حِينَ تَنْتَقِلُ

فإنه لم يقنع بصحيح المبالغة وقربها من الوقوع فضلا عن الجواز بتقديم كاد . حتى قال : لَوْ تَرَكْتُ ، قال : وهذا أصح بيت سمعته في المبالغة وأحسنه ، وعلى حذو ورد قول شاعر الحماسة ، وقد بالغ في مدح ممدوحه فقال :

رَهَنْتُ يَدِي بِالْعَجْزِ عَنْ شُكْرِ بَرِّهِ * وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشُّكْرِ مَزِيدُ

وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ اسْتِطَاعَتُهُ * وَاصْكُرْ مَا لَا يُسْتَطَاعُ شَدِيدُ

فإن هذا الشاعر ألقي بيده وأظهر عجزه ، وأعترف بقصوره عن شكر بر هذا الممدوح ، وفطن أنه لو اقتصر على ذلك ، لأحتمل أن يقال له : عجزك عن شكر لا يدل على كثرة بره ، لأحتمل أن يكون لضعف ما أدرك عن الشكر ، إذ لا يلزم من عجز الإنسان عن شيء تعظيم ذلك الشيء ، ولا بُدَّ لاحتمال أن يكون العجز انضمام الإنسان ، فأحترز عن ذلك بقوله :

* وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشُّكْرِ مَزِيدُ

(١) في اللسان ما . ولعلها رواية .

ثم تم المعنى بأن قال للشُّكُور، للمبالغة في الشكر، فإن شكورا معدول عن شاكر للمبالغة كما تقدم؛ ثم أظهر عذره في عجزه بأن قال في البيت الذي يليه :

• ولو كان مما يُستطاع أستطعت •

ثم ذيل هذا المعنى بإخراج بقية البيت مُخَرَّجَ المثل السائر ليكثر دورانه على الألسنة فيحصل تجديد مدح المدوح كل حين، والتنويه بذكره في كل زمان، حيث قال :

• ولكن ما لا يُستطاع شديد •

أما إذا خرجت المبالغة عن حد الإمكان، وجرت مجرى الكذب المحض، فإنها مذمومة في الشرع وإن كان الشعراء يستبيحون مثل ذلك ولا يتحاشون الوقوع فيه . وقد أخبر تعالى عنهم بالكذب بقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَمِينُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ وفي قوله صلى الله عليه وسلم : "أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد : **الآن كل شيء ما عدا الله باطل**" •
إشارة لذلك أيضا .

فن المبالغة في الشعر المتبهة إلى حد الكذب قول البحتري :

ولو قست يوماً حملها يحتمها • لكانا سواء لا بل الجمل أوسع
وصفها برقة الخصر وغلظ الساق حتى جعل حملها الذي يدور على ساقيها أوسع
من حقاها الذي يدور على خصرها ؛ وأبلغ منه قول الآخر :

من الهيف لو أن الخلاخيل صيرت • لها وشحا جالت عليها الخلاخل
بجعل الخلاخل يحول في ندها ، لكنه ليس من المدح في شيء ، لأن الخلاخل لو صار
وشاحاً للمرأة لكانت في غاية الدمامة حتى تصير في خلقة الجرو والهير .

(١) الجرو مثل الجيم وهو رنة الكلب والسياب .

وأبلغ منه قول الآخر .

وَرَحِبُ صَدْرِي لَوْ أَنَّ الْأَرْضَ وَاسِعَةٌ * كَوْسِعِهِ لَمْ يَضُقْ عَنْ أَهْلِهِ بَدَأُ

فجعل صدره في السعة والرحب أوسع من الأرض ، ونحوه قول الآخر :

وَيَوْمَ كَطُولِ الدَّهْرِ فِي عَرَضِ مِثْلِهِ * وَوَجْدِي مِنْ هَذَا وَهَذَا أَطُولُ

إلا أنه استعمل العَرَضُ في غير موضعه ، إذ الدهر يوصف بالطول لا بالعَرَضُ ،

وهو قد جعل له طولاً وعَرَضاً ، ويقرب منه قول أبي الطَّيِّبِ :

كَفَى بِجِسْمِي نُحُولًا أَيَّ رَجُلٍ * لَوْلَا مَخَاطَبَتِي إِيَّاكَ لَمْ أَبْنِ^(١)

فجعل كلامه هو الذي يدل عليه من شدة النُّحُولِ .

قال الشيخ زكي الدين بن أبي الأصبع : ومما يجري به التمثيل في باب المبالغة

قول بعض العرب يذم إنسانا بقوله : فلان تَكُونُ له الحاجةُ فيَغْضَبُ قبل أن يظلمها .

وتكون اليه فيردُّها قبل أن يفهمها . وقول بعض بلغاء الكُتَّابِ : إن من النعمة على

المُتَنَبِّ عليك ألا يخلو من مساعد ولا يخشى من معاند ، ولا تلحقه نقيصة المكذِبِ .

ولا يُكْرِهُهُ عَوَزُ الأوصاف بالتطاب ، ولا ينتهي من القول إلى منتهى إلا وجد بعده

مقتضى ووراءه منجى . وسيأتي من المبالغة في أوصاف الخيل والسلاح ، وغيرها في

قسم الأوصاف من ذلك ما فيه مَقْنَعٌ إن شاء الله تعالى .

الصنف الرابع

ما كان محالا ، وهو ما لا يمكن كونه البتة ، كقولك أتيتك أمس .

وأتيتك غدا ، وما أشبه ذلك

قال في "الصناعتين" : فإن اتصل الكذب بحال صار كذبا محالا ، كقولك :

رَأَيْتُ قَاعِدًا قَائِمًا ، وَمَرَرْتُ بِبِقِظَانٍ نَائِمٍ ، فإنه كذب للإخبار بخلاف الواقع ، ومحال

(١) المشهور في الرواية : لم ترفى ، وهي التي شرح عليها العكبري .

لعدم إمكان الجمع بين النقيضين ؛ وقد تقدم في النوع الثالث أن أكثر الشعر مبني على الكذب، والاستحالة من الصفات الممتعة والنعوت الخارجة عن العادة، وذلك في الكذب مما لا نزاع في كثرته في الشعر كما تقدم .

أما المحال فانه قليل الوقوع، نادر في النظم والنثر، معدود من المعاييب، محكوم عليه بالرد .

فمن ذلك قول عبد الرحمن بن عبد الله القس :

وإني إذا ما الموتُ حلَّ بنفسها * يزالُ بنفسي قبلَ ذاك فاقبرُ

قال العسكري : هذا من المحال الذي لا وجه له ، قال : وهو شبهه بقول القائل : إذا دخل زيد الدار ، دخل عمرو قبله ، ثم قال : وهذا عين المحال الممتنع الذي لا يجوز يريد أنه قد توقف كل من الأمرين على الآخر لأنه لا يوجد إلا به فيلزم الدور ، وهو محال فيحكم فيه بالبطلان وقطع الدور .

ومما يلتحق بالمحال وينخرط في سلكه تناقض المعاني وأضطرابها .

فمن ذلك قول المسيب بن عيسى في وصف ناقة :

فتسل حاجتها إذا هي أعرضت * بنخيصة سرج اليمين وساع
فكأنت قنطرة بموضع كورها * ملساء بين غوامض الأوساع
وإذا أظفت بها أظفت بكلكل * بيض الفرائص مجفّر الأضلاع

قال في "الصناعتين" : وهذا من المتناقض لأنه قال بنخيصة ، ثم قال موضع

كورها قنطرة ، وهي مجفّرة الأضلاع فكيف تكون نخيصة وهذه صفتها !

وقريب منه قول الحطيئة :

حرج بلاود باليكاس كأنه * متطوف حتى الصباح يدور

حتى إذا ما الصبح شقَّ عموده . وعلاه أسطع من سناه منير
وحصى الكتيب بصفحته كأنه * خبت الحديد أطارهن الكبير

زعم أنه لم يزل يطوف حتى أصبح وأشرف على الكتيب ، فمن أين صار الحصى
بصفحته ! . وقول المرقش الأصغر :

صحَّ قلبه عنها على أن ذكراً * إذا خطرت دارت به الأرض قائماً

وكيف صحا عنها من إذا ذكرت دارت به الأرض !

الصنف الخامس

ما كان غلطاً ، وهو أن تريد الكلام بشئ فيسبق لسانك إلى خلافه ، كقولك :

ضربني زيد وأنت تريد ضربتُ زيداً

قال في "الصناعتين" : فإن تعمدت ذلك ، صار كذباً ، وهذا النوع أكثر وقوعاً

من الذي قبله ، قال : وقد وقع فيه الفحول من الشعراء .

وأصناف الغلط في المعاني كثيرة ، فمن ذلك الغلط في الأوصاف ، وهي على

وجوه : منها وصف الشئ بخلاف ما هو عليه وذكره بما يتأف به .

فمن غريب هذا النوع قول الراعي في وصف المسك :

يَكْسُو المَفَارِقَ واللِّبَاتِ ذَا أَرَجٍ * من قُصِبِ مُعْتَلِفِ الكافور دَرَجِ

بفعل المسك من قُصِبِ الظُّبِي ، وهو معاهُ وجعل الظُّبِي يَعْتَلِفِ الكافور فيتولد منه

المسك ، وهذا من طرائف الغلط . وقريب منه قول زهير يصف الضفادع :

يَخْرُجْنَ من شَرَبَاتِ ماؤِهَا طِحْلٌ * على الجُدُوعِ تَخَافُ النِّمَّ والْفَرَقَا

(١) في اللسان يخفن ، فإ في الأصل رواية له .

ظن أن الضفادع يخرجن من الماء مخافة الغرق، ونشوءها فيه . وقريب منه قول
دَى الرِّمَّةِ :

إذا آنجابت الظُّلْمَاءُ أَضْحَتْ رُءُوسَهَا * عليهن من جَهْدِ الكَرَى وهى ضُلْعٌ

فوصف الرؤوس بالضلع . قال ابن أبي فروة : ما أغفلت هذا، ولقد قلت
لدى الرمة : ما علمت أحدا أضلع الرؤوس غيرك، قال : أجل .

قال في "الصناعتين" : ومما لم يُسمع مثله قط قول عدي بن زيد في الخمر :

والمُشْرِفُ الهَيْدَبُ يَسْمَى بِهَا * أَخْضَرَ مَطْمُونًا بِمَاءِ الحَرِيصِ

فوصف الخمر بالخضرة، والحريص : السحابة تَحْرِصُ وجه الأرض أى تَفُشِّرُهَا،
ومنه سميت إحدى الشجاج في الرأس الحارصة لأنها تشق الجلد .

ومنها وصف الشيء على خلاف المعهود، والعادة المعروفة .

فمن ذلك قول المرار :

وخالٍ على خديك يسدو كأنه * سنا البدر في دنجاء بادٍ دجونها

والمعروف أن الخيلان سود أو سمر، والحدود الحسان إنما هي البيض، فأتى

هذا الشاعر بقلب المعنى، ومثله قول الآخر :

كأنما الخيلان في وجهه * كواكبٌ أحْدَقْنَ بالبدر

قال أبو هلال العسكري : ويمكن أن يُجَجَّ لهذا الشاعر بأن يقال : تشبيه

الخيلان بالكواكب من جهة الاستدارة لا من جهة اللون .

ومن ذلك قول امرئ القيس في وصف الفرس أيضا :

وللسوط الهوبُ وللساقِ رةٌ * وللزجر منه وقعٌ أخرج مهذب

قال أبو هلال العسكري : فلو وصف أحسن حمارٍ وأضعفه ، ما زاد على ذلك ؛

وفول القائل :

صَبَبْنَا عَلَيْهَا ظَالِمِينَ سَيَاطِنًا * فَطَارَتْ بِهَا أَيْدٍ سِرَاعٌ وَأَرْجُلٌ

بفعل ضربها بالسوط من باب الظلم لأنها لا تتوجه إلى ذلك ؛ ومن ذلك قول

امرئ القيس :

وَأَرْكَبُ فِي الرَّوْعِ خَيْفَانَةً * كَمَا وَجَّهَهَا سَعْفٌ مُنْتَشِرٌ

شبه ناصية الفرس بسعف النخلة لطولها ، وإذا غطى الشعر عين الفرس

لم يكن كريما .

ومثله قول طرفة يصف ذنب البعير :

كَأَنَّ جَنَاحِي مَضْرَجِيٌّ تَكْفًا * حِقَافِيهِ ، شُكَّافِي الْعَسِيْبِ بِسَدِّ

بفعل ذنبه كشيء طويلا عريضاً ؛ وإنما توصف النجائب بحففة الذئب

ورقة الشعر .

ومنها أن يجرى في مفاصل العظام على خلاف المألوف العربى ، وذلك قول

جنادة :

مَنْ حَبَّهَا أَتَمَّنَى أَنْ يَلَاقِيَنِي * مِنْ نَحْوِ بِلْدَتِهَا نَاجِحٌ لِيَعَاذَا

لَكِنِّي يَكُونُ فِرَاقٌ لَا لِقَاءَ لَهُ * وَتُضَيِّرُ النَّفْسَ بِأَسَاثِمِ تَدْلَاهَا

فإذا تمنى المحب للحبيب الموت فإدا عسى أن يتمنى البغيض لبيغضه

وفول الآخر :

وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِقَتْلِهَا مِنْ حُبِّهَا * كَمَا تَكُونُ حَصِيْمَتِي فِي الْمُحْشَرِ

فذكر أن شدة الحب حملته على قتل محبوبته حتى تخاصمه في الحشر لطلب حقها،
وشدة الحب لا تحمل إلا على الإكرام والبر، على أنها قد تكون تكرهه، فترك حقها
له حتى لا يطول وقوفها معه للخصام، وقول نصيب :

فإن تصلي أصلك وإن نعدى . بهجسٍ بعد ذلك فلا أبالي

والعاشق يلاطف قلب محبوبه ولا يُناجده ، ولا يلاجه .

الأصل الثاني

من صناعة إنشاء الكلام النظر في الألفاظ ، والنظر فيها من وجهين

الوجه الأول

في فضل الألفاظ وشرفها

قد تقدم في الكلام على المعاني أن الألفاظ من المعاني بمنزلة الثياب من الأبدان
فالوجه الصبيح يزداد حسنا بالحلل الفاحزة والملابس البهيبة ، والقبيح يزول عنه
بعض القبح ، كما أن الحسن ينقص حسنه برثائه ثيابه وعدم بهجة ملبوسه ، والقبيح
يزداد قبحا إلى قبحه . فالألفاظ ظواهر المعاني ، تحسن بحسنها ، وتقبح بقبحها ،
وقد قال أبو هلال العسكري في كتابه "الصناعتين" : ليس الشأن في إيراد المعاني ،
لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي وإنما هو في جودة اللفظ ،
وصفائه ، وحسنه وبهائه ، ونزاهته ونقائه ، وكثرة طلاوته ومائه ، مع صحة السبك
والتركيب ، وانخلاق من أود النظم والتأليف .

قال : وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا ، ولا يُقنع من اللفظ بذلك
حتى يكون على ما تقدم من نعوته ، ثم قال : ومن الدليل على أن مدار البلاغة تحسين
اللفظ أن الخطب الرائعة ، والأشعار الرائقة ، ما عملت لإفهام المعاني فقط ، لأن

الردى، من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الإفهام، وإنما يدل حسن الكلام وإحكام صنعه، ورويق ألفاظه، وجودة مقاطعه، وبديع ماديه، وغريب ميانيه، على فضل قائله، وفهم منشيئه، وأكثر هذه الأوصاف ترجع إلى الألفاظ دون المعاني، وتوخي صواب المعاني أحسن من توخي هذه الأمور في الألفاظ، ولهذا يتأنق الكاتب في الرسالة، والخطيب في الخطبة، والشاعر في القصيدة، وبالفنون في تجويدها، ويغنون في ترتيبها، ليدلوا على براعتهم، وحذقهم بصناعتهم، ولو كان الأمر في المعاني لطرخوا أكثر ذلك فرجوا كذا كثيرا، وأسقطوا عن أنفسهم تعباً طويلاً، وأيضاً فإن الكلام إذا كان لفظه حلواً عذبا، وسائساً سهلاً، ومعناه وسطاً، دخل في جملة الجيد، وجرى مع الرائع النادر كقول الشاعر:

ولما قضينا من مني كل حاجة * ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حذب المهاري رحالنا * ولم ينظر الغادي الذي هو راعح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا * وسالت بأعناق المطي الأباطح

وليس تحت هذه الألفاظ كثير معنى، وهي رائعة معجبة، وإنما هي: ولما
قنينا الحج، ومسحنا بالأركان، وشدت رحالنا على مهازيل الإبل، ولم ينظر بعضهم
بعضاً، جعلنا تحدث وتسير بنا الإبل في بطون الأودية، وإذا كان المعنى هو
واللفظ بارداً فاتراً كان مستهجنًا ملفوظًا، ومذمومًا مردودًا، كقول أبي العتاهية
في أبي عثمان سعيد بن وهب:

مات والله سعيد بن وهب * رحم الله سعيد بن وهب

يا أبا عثمان أبكيت عيني * يا أبا عثمان أوجعت قلبي

الوجه الثاني

الألفاظ المفردة، وبيان ما ينبغي استعماله منها، وما يجب تركه

اعلم أن الذي ينبغي أن يستعمل في النظم والنثر من الألفاظ هو الرائق البهيج الذي تقبله النفس، ويميل إليه الطبع، وهو الفصيح من الألفاظ دون غيره .

والفصيح في أصل اللغة هو الظاهر البين، يقال : أفصح الصبح إذا ظهر وبان ضوءه ، وأفصح اللبن إذا تجلت عنه رغوته وطهر، وأفصح الأعشى وفصح إذا أمان بعد أن لم يكن بين . وأفصح الرجل عما في نفسه إذا أظهره .

قال في "المثل السائر" : وأهل البيان يفتنون عند هذا التفسير، ولا يكشفون عن السر فيه . قال : وهذا القول لا تتبين حقيقة الفصاحة، لأنه يلزم أنه إذا لم يكن اللفظ ظاهرا بينا لم يكن فصيحاً جيداً، ثم إذا ظهر وتبين صار فصيحاً على أنه قد يكون اللفظ ظاهراً لزيد ولا يكون ظاهراً لعمرو، فيكون فصيحاً عند واحد دون آخر . وليس كذلك، بل الفصيح ما لم يختلف في فصاحته، لأنه إذا تحقق حد الفصاحة وعرف ما هي لم يبق في اللفظ المخصص بها خلاف، وأيضاً فإنه لو جيء باللفظ فصيحاً يلبو عنه السمع، وهو مع ذلك ظاهر بين فينبغي أن يكون فصيحاً وليس كذلك لأن الفصاحة وصف حسن اللفظ لا وصف قبحه .

قال : وتحقيق القول في ذلك أن يقال : الكلام الفصيح هو الظاهر البين، والظاهر البين أن تكون ألفاظه مفهومة لا يحتاج في فهمها إلى استخراج من كتب لغة، وإنما كانت بهذه الصفة لأنها تكون مالوفة الاستعمال بين أرباب النظم والنثر، دائرة في كلامهم، وإنما كانت مالوفة الاستعمال دائرة في الكلام دون غيرها من الألفاظ لمكان حسنها، وذلك أن أرباب النظم والنثر غرّبوا اللغة باعتبار ألفاظها، وسبّروا

وقسموا فأختاروا الحسن من الألفاظ فاستعملوه، ونفوا القبيح منها فلم يستعملوه؛
 تحسن الألفاظ سبب استعمالها دون غيرها، واستعمالها دون غيرها سبب ظهورها
 وبيانها، فالقبيح إذا من الألفاظ هو الحسن. ثم قال: والمرجع في تحسين الألفاظ
 وقبحها إلى حاسة السمع، فما يستلذه السمع منها ويميل إليه هو الحسن، وما يكرهه
 وينفر عنه هو القبيح، بدليل أن السمع يستلذ صوت الببل من الطير وصوت
 الشجرور ويميل إليهما، ويكره صوت الغراب وينفر عنه، وكذلك يكره نبيق الحمار
 ولا يجد ذلك في صهيل الفرس، والألفاظ جارية هذا المجرى؛ فإنه لا خلاف في أن
 لفظة المزنة والديمية يستلذهما السمع، ولفظة البعاق قبيحة يكرهها السمع، والألفاظ
 الثلاثة من صفة المطر ومعناها واحد؛ وأنت ترى لفظي المزنة والديمية وما جرى مجراهما
 مألوفة الاستعمال، وترى لفظ البعاق وما جرى مجراه متروكا لا يستعمل وإن استعمل
 وإنما يستعمله جاهل بحقيقة الفصاحة أو من ذوقه غير سليم؛ لا جرم أنه ذم وقدح فيه،
 ولم يلفت إليه، وإن كان عربياً محضاً من الجاهلية الأقدمين؛ فإن حقيقة الشيء إذا
 علمت وجب الوقوف عندها ولم يعرج على ما خرج عنها.

إذا علمت ذلك فلا يوصف اللفظ المفرد بالحسن حتى يتصف بأربع صفات:

الصفة الأولى.

ألا يكون غريباً؛ وهو ما ليس مانوس الاستعمال ولا ظاهر المعنى.
 ويسمى: الوحشي أيضاً نسبة إلى الوحش لبقاره وعدم تأنسه وتأنسه،
 وربما قلب فقيل: الحوشي نسبة إلى الحوش، وهو النار.
 قال الجوهري: وزعم قوم أن الحوش بلاد الجح ودار رمل يهرب لا يسكنها
 أحد من الناس، فالغريب والوحشي والحوشي كله بمعنى.

(١) كذا في العمدة أيضاً، وفيه تساهل لأن الفارسي لا يشار للحاش، انظر القاموس.

ثم الغريب على ضربين :

الضرب الأول - ما يُعاب استعماله مطلقاً، وهو ما يُحتاج في فهمه الى بحث

وتنقيب، وكشف من كتب اللغة، كقول ابن جحدر .

حَلَّتْ بِمَا أَرْقَلَتْ حَوْلَهُ * هَمْرَجَلَةٌ خَلَّتْهَا شَيْظَمٌ

وما شَبَّرَقَتْ مِنْ تُوْفِيَةٍ * بها من وحى الجن زيزيم

فالإرقال : ضرب من السير؛ وهو نوع من الخبب، يقال منه : أرقلت الناقة

تُرْقِلُ إرقالا، والهمرجلة : الناقة السريعة، وقال أبو زيد : الهمرجلة : الناقة

النَّجِيبَةُ الرَّاحِلَةُ، وَالشَّيْظَمُ : الشَّدِيدُ الطَّوِيلُ، وَهُوَ مِنْ صِفَاتِ الْإِبِلِ وَالخَيْلِ وَالْأَنْثَى

شَيْظَمَةٌ . وَالشَّبَّرَقَةُ : الْقَطْعُ، يُقَالُ : شَبَّرَقْتُ الثَّوْبَ أَشَبَّرَقَهُ شَبَّرَقَةً إِذَا قَطَعْتَهُ،

وَشَبَّرَقْتُ الطَّرِيقَ إِذَا قَطَعْتَهَا . وَالتُّوفَةُ : الْمَفَازَةُ، وَيُقَالُ فِيهَا : تُوْفِيَةٌ أَيْضًا، وَالْوَحَى

هنا . الصَّوْتُ الْخَفِيُّ، يُقَالُ : سَمِعْتُ وَحَاةَ الرَّعْدِ وَهُوَ صَوْتُهُ الْمَتَدُّ الْخَفِيُّ . وَقَوْلُهُ

زيزيم : حكاية لأصوات الجن إذا قالت : زى زى، وحاصله أنه يقول : حَلَّتْ

هذه الخائفة بما سارت هذه الناقة الشديدة السير العظيمة الخلق، وما قطعت من مفازة

لا يُسمع فيها إلا أصوات الجن؛ وهذا مما لا يوقف على معناه إلا بكد وتعب في كشفه

وتتبعه من كتب اللغة .

الضرب الثاني - ما يحتاج إلى تدقيق النظر في التصريف وتخريج اللفظ على وجه

بعد، كلفظ مسرج من قول العجاج .

وَمُثَلَّةٌ وَحَاجِبًا مُرَجَّجًا . وَفَاحِمًا وَمَرَسِنًا مُسَرَّجًا

فالمثلاة : شمعة الدين . والحاجب معروف . والمزجج : المنوس مع طول ودقة

في طرفه . والفاحم : السمر الأسود الذي لونه كلون الفحم . والمرسن : الأنف ؛

وصفه بكونه مُسَرَّجًا إما أنه كالسيف السُّرِّيحيّ في الدقّة والأتواء، والسُّرِّيحيّ نسبة إلى قَيْن يسمّى سُرِّيحا تنسب إليه السيوف، وإما أنه كالسراج في البريق واللمعان، أو من قولهم سَرَّجَ اللهُ وجهه إذا بهَّجه وحسَّنه . فهذا ومثله مما لا يقف على معناه إلا من عرف التصريف وأتقنه .

إذا تقرر ذلك فأعلم أن اللفظ يختلف في الغرابة وعدمها باختلاف النسب والإضافات ؛ فقد يكون اللفظ مألوفاً متداولاً الاستعمال عند كل قوم في كل زمن، وقد يكون غريباً متوحّشاً في زمن دون زمن، وقد يكون غريباً متوحشاً عند قوم، مستعملاً مألوفاً عند آخرين .
وهو أربعة أصناف :

الصنف الأول

المألوف المتداول الاستعمال عند كل قوم في كل زمن

وهو ما تداول استعماله الأول والآخِر من الزمان القديم وإلى زماننا كالسما والارض، والليل والنهار، والحز والبرد، وما أشبه ذلك، وهو أحسن الألفاظ وأعدبها، وأعلاها درجة، وأعلاها قيمة، إذ أحسن اللفظ ما كان مألوفاً متداولاً كما تقدم؛ وهذا لا يقع عليه اسم الوحشي بحال .

قال في "المثل السائر" وأنت إذا نظرت إلى كتاب الله العزيز الذي هو أفصح الكلام وجدته سهلاً سليماً، وما تضمنه من الكلمات الغريبة يسير جداً . هذا وقد أنزل في زمن العرب العرّباء، وألفاظه كلّها من أسهل الألفاظ وأقربها استعمالاً وكفى بالقرآن الكريم قدوة . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن وهي السبع المثاني " يريد فاتحة الكتاب . وإذا نظرت إلى

ما أشتمت عليه من الألفاظ وجدتها سهلة قريبة يفهمها كل أحد حتى صبيان المكاتب وعوام السوقة وإن لم يفهموا ما تحتها من أسرار الفصاحة والبلاغة، فإن أحسن الكلام ما عرف الخاصة فضله، وفهم العامة معناه؛ وهكذا فلتكن الألفاظ المستعملة في سهولة فهمها وقرب تناولها؛ والمقتدى بألفاظ القرآن يكتفى بها عن غيرها من جميع الألفاظ المشورة والمنظومة؛ وقد كانت العرب الأول في الزمن القديم تتحاشى اللفظ الغريب في نظمها ونثرها، وتميل إلى السهل وتستعذبه؛ ويكفى من ذلك كلام قبيصة بن نعيم لما قدم على امرئ القيس في أشياخ بني أسد يسألونه العفو عن دم أبيه، فقال له: "إنك في المحل والقدر من المعرفة بتصرف الدهر وما تُحدثه أيامه، وتنتقل به أحواله بحيث لا تحتاج إلى تذكير من واعظ، ولا تبصير من مجرب؛ ولك من سودد منصبك، وشرف أعراقك، وكرم أصلك في العرب محمدٌ يحتمل ما حمل عليه من إقالة العثرة ورجوع عن الهفوة؛ ولا تتجاوز الهمم إلى غاية إلا رجعت إليك فوجدت عندك من فضيلة الرأي، وبصيرة الفهم، وكرم الصّبح ما يطول رغباتها، ويستغرق طلباتها، وقد كان الذي كان من الخطب الجليل، الذي عمّت رزيتة زارا واليمن، ولم تُخصص بذلك كندة دوننا للشرف البارع الذي كان يُجرب؛ ولو كان يُفدى هالك بالأنفس الباقية بعمده لما بخلت كرائمنا بها على مثله، ولكنه مضى به سبيل لا يرجع أنراه على أولاده؛ ولا يأنحى أقصاه أذناه؛ فاحمدُ الحالات في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إحدى خلال ثلاث: إما أن اخترت من بني أسد أشرفها بيتا، وأعلها في بناء المكرمات صوتا، فقدناه إليك بنسعة تذهب مع شجرات حُمامك بباقي قصرته وتقول: رجل امتحن بهالك عزيز فلم يستل سخيمته إلا لشكر من الانتقام؛ أو ناداه بما يرجح على بني أسد من نعيمها، فهي ألوف تجاوزت أسنانه، فكان ذلك فداء رجعت به النضب إلى أجنانها، لم يرددها تسليط

الإحْن على البرءاء، وإِبا أن وادَعْتنا إلى أن تَضَعَ الحوامِلُ فُتْسِدَل الأُزُر وتُعْقَد الخُمُر فوق الرابَّات .

فبكى أمرؤ القيس ساعةً، ثم رفع رأسه فقال :

”لقد عَلِمْتِ العَرَبُ أَنه لا كُفَّءَ لِحُجْرٍ في دَمٍ، وَأَنى لِنِ أَعْتَصَصَ بِهِ جَمَلاً ولا نَاقَةً، فَا كُنَسَبَ بِهِ مُسَبَّةَ الأَبَدِ، وَفَتَّ العَضُدَ، وَأما النِّظْرَةَ فَقَدِ أَوْجَبَتْها الأَجِنَّةُ في بَطونِ أَمهاتِها، وَلِنِ أَكُونُ لَعَطْها سَباباً، وَسَتَعْرِفونَ طَلائِعَ كَنَدَةَ مِنْ بَعْدِ ذَلكَ، نَحْمَلُ في القلوبِ حَنَقاً، وَفوقِ الأَسِنَّةِ عَلَقاً .

إِذا جالَتِ الحَرْبُ في مَازِقٍ * تُصافِحُ فِيها المَنابِياَ النَّفوسا

أَتَقِيمونَ أَمْ تَنصَرِفونَ؟“ قالوا : بَلِ تَنصَرِفُ بِأسواِ الأَخْتِيارِ وأبلى الأَحْتِيارِ، بِمَكروهِ وأذِيَّةِ، وَحَرْبِ وَبليَّةِ .

ثم نهضوا عنه وقبيصة يتمثل :

لَعَلَّكَ أَنْ تَسْتَوِخِمَ الوِردَ إِذا غَدَتِ . * كَتائِبنا في مَازِقِ الحَرْبِ تُمَطِّرُ

فقال أمرؤ القيس : لا والله ! ولكن استعذبه ، فرويدا ينفرج لك دجهاها عن فرسان كندة وكئاب حمير . ولقد كان ذكر غير هذا بي أولى إذ كنت نازلاً برمي ، ولكك قلت فأوجبت .

فقال قبيصة : ما يتوقع فوق قدر المعاتبة والإعتاب ، فقال أمرؤ القيس :

هو ذاك .

قال في ”المثل السائر“ : فليُنظر إلى هذا الكلام من الرجلين : قبيصة وأمرؤ القيس حتى يدع المتعسفون نعتهم في استعمال الرحشي من الألفاظ ، فإن هذا الكلام قد كان في الزمن القديم قبل الإسلام بما شاء الله ، وكذلك هو كلام كل شعبي

من العرب مشهور، وما عداه فليس بشيء . قال : وهذا المشار إليه هاهنا هو من
جرل كلامهم ، وهو على ما تراه من السلاسة والعدوبة ؛ وإذا تصفحت أشعارهم
أيضا وجدت الوحشي من الألفاظ قليلا بالنسبة إلى المسلسل في الفهم والسمع ؛
وعلى هذا المنهج في الجزالة والسهولة يجري من النظم قولُ امرئ القيس :

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة * كفاني ولم أطلب قليل من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤئل * وقد يدرك المجد المثل أمثالي

فانظر إلى هذين البيتين ليس فيهما لفظة غريبة، ولا كره مع ما نيهما من

الجزالة ؛ وكذلك أبيات السموءل المشهورة وهي :

إذا المرء لم يدنس من اللوم عرضه * فكل رداء يرتديه جميل
وإن هو لم يحمل على النفس ضمتها * فليس إلى حُسن الشاء سبيل
تعيّرنا أنا قليل عدينا * فقلت لها إن الكرام قائل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا * عزيز وجار الأكثرين ذليل
يقرب حب الموت آجالنا * وتكرهه آجالهم فتطول
وما مات منا سيد في فراشه * ولا طل منا حيث كان قتيلا
وأسيافنا في كل غرب ومشرق * بها من قراع الدارين قول
معوذة الأئسل نصالها * فتعمد حتى يستباح قبيل

فإذا نظرت ماتضمنته هذه الأبيات من الجزالة، خلقتها زبرا من الحديد مع ماهي

عليه من السهولة والعدوبة، وأنها غير فظة ولا غليظة . وقد ورد للعرب في جانب الرقة
من الأشعار ما يكاد تدوب لرقته التلويح ؛ كقول عروة بن أدينة :

إن التي زعمت فؤادك ملها * خلقت هواك كما خلقت هوى لها
بيضاء بكرها النعيم فصاعيا * بلباقة فادقها وأجلها

حَجَّيْتُ تَحِيَّتَهَا فَقُلْتُ لِصَاحِبِي * مَا كَانَ أَكْثَرَهَا لَنَا وَأَقْلَاهَا!
 وَإِذَا وَجَدْتُ لَهَا وَسَاوَسَ سَلْوَةٍ * شَفَعَ الضَّمِيرُ إِلَى الْفَوَادِ فَسَلَّهَا
 وَقَوْلُ يَزِيدَ بْنِ الطَّرِيقَةِ فِي مَحْبُوبَتِهِ مِنْ بَنِي جَرَمٍ :
 بِنَفْسِي مِمَّنْ لَوْ مَرَّ بَرْدٌ بِنَانِهِ * عَلَى كَيْدِي كَانَتْ شِفَاءً أَنَامِلِهِ

وإذا كان هذا قول ساكن الغلاة، لا يرى إلا شيحة أو قيصومة، ولا يأكل إلا
 ضبا أو يربوعاً، فما بال قوم سكنوا الحضر، ووجدوا رقة العيش يتعاطون وحشي
 الألفاظ وشطف العبارات! ولا يُخَادُّ إلى ذلك إلا جاهل بأسرار الفصاحة، أو عاجز
 عن ملوك طريقها، فإن كل أحد ممن حصل على نبذة من علم الأدب يمكنه أن يأتي
 بالوحشي من الكلام، إما بأن يلتقطه من كتب اللغة، أو يتلقفه من أربابها. وأما
 الفصيح المتصنف بصفة الملاحه، فإنه لا يقدر عليه ولو قدر عليه لما علم أين يضع
 يده في تأليفه وسبكه.

قال : وإن مارى في ذلك مُمَارٍ فليُنظَر إلى أشعار علماء الأدب ممن كان يُسَار إليه
 حتى يعلم صحة ذلك، فإن ابن دريد قد قيل إنه أشعر علماء الأدب وإذا نظرت إلى
 شعره وجدته بالنسبة إلى شعر الشعراء المجيدين مُحَطَّأً، مع أن أولئك الشعراء لم
 يعرفوا من علم الأدب عَشْرَ مَعْتَارٍ ما علمه، وأين شعره من شعر العباس ابن الأحنف!
 وهو من أوائل الشعراء المُحَدِّثِينَ، وشعره كثر نسيم على عذبات أعصان، أو كثر لؤيات
 طل على طرر ریحان، وليس فيه لفظة واحدة غريبة يُحتاج إلى استجراجها من كتاب
 من كتب اللغة، كقوله :

وَإِنِّي لِيرِضِي قَلِيلُ نَوَالِكُمْ * وَإِنْ كَسْتُ لَا أَرْضَى لَكُمْ بِفَلِيلِ
 بُحْرَةَ مَا قَدْ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ * مِنَ الْوَدِّ إِلَّا عُدُّهُ بِجَمَلِ

وقوله في محبوبته فوز :

يا فوز يا مئبة عباس • قلبي يقدي قلبك القاسي
أسأت إذ أحسنت ظني بكم • والحزم سوء الظن بالناس
يُمَلِّقُنِي شَوْقِي فَأَتِيكُمْ • والقلب مملوء من الياس

وهل أعذب من هذه الأبيات؟ وأعلق بالخاطر، وأسرى في السمع؟ ولمثلها تسهر
راقداً الأجفان، وعن مثلها تتأخر السوابق عند الرهان. ومن الذي يستطيع أن
يسلك هذه الطريق التي هي سَهْلَةٌ وَعُرَّةٌ، قريبة بعيدة؟ . وقد كان أبو العتاهية
أيضاً في عُرَّة الدولة العباسية، وشعر العرب إذ ذاك موجود كثيراً، وإذا تأملت
شعره وجدته كالماء الجاري، رقة الفاظ، ولطافة سبك، وليس بريك ولا واهٍ،
وأنظر إلى قصيدته التي يمدح بها المهدي ويثبب بيجارته عتب وحى :

ألا ما لسيدي مالها • تيدل فأحمل إيدالها
ألا إن جارية للإمام • هم قد أسكن الحسَنُ سرِّبَالها
لقد أتعب الله قلبي بها • وأتعب في اللوم عُدَالها
كأن بعيني في حيث ما • سلكت من الأرض تَمْنَالها

فلما وصل إلى المديح قال من جملة :

أتته الخِلافة منقاداً • إليه تُجَرُّ أذبالها
فلم تك تصلح إلا له • ولم يك يصلح إلا لها
ولو رامها أحدٌ غيره • لزلزلت الأرض زلزالها
ولو لم تطعه نيات القلوب • لما قبل الله أعمالها

فهذه الأبيات من أرق الشعر غزلاً ومديحاً، وقد أذعن لمديحها الشعراء

من قبل ذلك العصر، وهي على ما ترى من السلاسة واللطافة على أقصى الغايات،

حَتَّى قَالَ بَسَّارٌ عِنْدَ سَمَاعِ الْمَهْدِيِّ لَهَا مِنْ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ "انظروا إلى أمير المؤمنين هل طار عن أعواده" "يريد هل زال عن سريره طرباً بهذا المدح . وعلى هذا الأسلوب كان أبو نُوَاسٍ في السهولة والسلاسة والرقّة ، ولذلك قُدِّمَ على شعراء عصره مع ما فيه من خول الشعراء ومقلقيهم كسالم بن الوليد وغيره ، وذلك لرقّة شعره وسهولته ، كقوله في محبوبته جنات :

أَلَمْ تَرَ أَنِّي أَفَيْتُ عُمَيْرِي * بِمَطْلِبِهَا وَمَطْلِبِهَا عَسِيرِ
فَلَمَّا لَمْ أَجِدْ سَبِيلاً إِلَيْهَا * بَقَرْتَنِي وَأَعَيْتَنِي الْأُمُورِ
تَحَجَّجْتُ وَقَلْتُ قَدْ حَجَّجْتُ جِنَانَ * فَيَجْمَعُنِي وَإِيَّاهَا الْمَسِيرِ

فانظر إلى هذه الأبيات ليس فيها لفظة منغلقة ، وكذلك سائر شعره ، وكان هو وأبو العتاهية كأنما يُنْفِقَانِ مِنْ كَيْسٍ وَاحِدٍ . ومن لطيف ما يحكى في توافق طريقتهما واتحاد ما أخذهما أن أبا نُوَاسٍ جَلَسَ يَوْمًا إِلَى بَعْضِ التُّجَّارِ سَفْدَادٍ هُوَ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ فَاسْتَسْقَى أَبُو نُوَاسٍ مَاءً فَلَمَّا شَرِبَ قَالَ

عَدَّتْ الْمَاءُ وَطَابًا *

ثم قال : أجزوه ، فأخذ أولئك الشعراء يترددون في إجازته وإذا هم بأبي العتاهية مجازاً فقال : ما شأنكم مجتمعين ؟ فقالوا كَيْتَ وَكَيْتَ وَقَدْ قَالَ أَبُو نُوَاسٍ

عَدَّتْ الْمَاءُ وَطَابًا *

فقال أبو العتاهية مجزاً له

* حَدِّثَا الْمَاءَ شَرَابًا *

فَعَجِبُوا لِقَوْلِهِ عَلَى الْفُورِ مِنْ عَيْرِ تَلْبِثَ ، فهذا هو الكلام السهل الممتنع تراه يطمعك أن تأتي بمثله ، فإذا حاولت مماثلته راع عنك كما يروغ الشطب ، وهكذا ينبغي أن يكون من خاض في كتابة أو شعر ، فإن خير الكلام ما دخل الأذن بغير إذن .

ومن الثر قول سعيد بن حميد : وأنا من لا يُحَاجُّكَ عن نفسه ، ولا يغالطك عن جُرمِهِ ، ولا يستدعي بِرِّكَ إلا من طريقته ، ولا يَسْتَعِطِفُكَ إلا بالإقرار بالذنب . ولا يستميلك إلا بالاعتراف بالجرم ، نبت بي عنك غيرة الحدائث ، وردتني إليك الحنكة ، وباعدتني منك الثقة بالأيام ، وقادتني إليك الضرورة ، فإن رأيت أن تستقبل الصنيعة بقبول العذر ، وتجدد النعمة باطراح الحقد ، فإن قديم الحرمة وحديث النبوة يحقان ما بينهما من الإساءة ، وإن أيام القدرة وإن طالت قصيرة ، والمتعة بها وإن كثرت قليلة ، ففعلت إن شاء الله تعالى .

وانظر إلى قوة هذا الكلام في سهولته ، وقرب ماأخذه مع بعد تناوله والإتيان بمشاكله . وأجزل منه مع السهولة قول الشعبي للحجاج ، وأراد قتله لخروجه عليه مع ابن الأشعث : ”أجذب بنا الجناب ، وأحزن بنا المنزل ، فاستحلستنا الحذر ، واكتحلنا السهر ، وأصابتنا فتنة لم تكن فيها بررة أتقاء ، ولا بخررة أقوياء“ فعفا عنه .

قال صاحب ”الصناعتين“ : وقد غلب الجهل على قوم فصاروا يستجيدون الكلام إذا لم يقفوا على معناه إلا بكده ، ويستفصحونه إذا وجدوا الفاظه كرة غليظة ، ويرأسبه مريبه ، ويستحقرون الكلام إذا رأوه سلسا عذبا ، وسهلا حلوا ، ولم يعلموا أن السهل أمنع جانبا ، وأعز مطلبا ، وهو أحسن موقعا ، وأعذب مستمعا ، ولهذا قيل : ”أجيد الكلام السهل المتنع“ وكان المفضل يختار من الشعر ما يقل تداول الرواة له ، ويكثر الغريب فيه . قال العسكري : وهذا خطأ في الاختيار ، لأن الغريب لم يكثر في كلام إلا أفسده ، وفيه دلالة على الاستكراه والتكلف .

ووصف الفضل بن سهل عمرو بن مسعدة فقال : هو أبلغ الناس ، ومن بلاغته أن كل أحد يظن أنه يكتب مثل كتبه ، فإذا رامها ، تعذرت عليه .

وقال العباس بن ميمون: قلت للسيد: ألا تستعمل الغريب في شعرك؟ فقال: ذلك عي في زمانى، وتكلف منى لو قلته، وقد رزقت طبعاً وأتساعاً فى الكلام، فأنا أقول ما يعرفه الصغير والكبير، ولا يحتاج إلى تفسير، ثم أنشدنى

أيا رب إني لم أريد بالذى به * مدحت علياً عبر وجهك فأرحم

قال فى "الصناعتين": فهذا كلام عاقل يصع الكلام موضعه، ويستعمله فى إبانة،

ومن كلام بعض الأوائل: تلخيص المعانى رفقى، والشادق فى غير أهل نقص، والنظر فى وجوه الناس عى، ومس اللحية هلك، والاستعانة بالغريب تجز، والخروج عما بنى عليه الكلام إسهاب، فأجود الكلام ما كان جزلاً سهلاً، لا يتغلق معناه، ولا يستبهم مغزاه، ولا يكون مكدوداً مستكرهاً، ومتوعراً متفعرراً، ويكون ريباً من الغثاة، عارياً من الرثاة، فالكلام إذا كان لفظه شتاً، ومعرصه رثاً، كان مردوداً ولو آحتوى على أجل معنى وأنبله، وأرفعه وأفضله. قال فى المثل السائر: أما البداوة والأمنجية، فتلك أمة قد خلت، ومع أنها قد خلت وكانت فى زمن العرب العاربة فإنها قد عيبت على مستعملها فى ذلك الوقت فكيف الآن، وقد غلب على الناس رقة الحضر

الصنف الثانى

الغريب المتوحش عند كل قوم فى كل زمن

وهو ما لم يكن متداول الاستعمال فى الزمن الأول ولا ما بعده، بل كان مرفوضاً عند العرب كما هو مرفوض عند غيرهم، ويسمى الوحشى الغليظ، والعكر، والمتوعر وهو على ثلاثة أضرب:

الضرب الأول

ما يعاب استعماله في النظم والنثر جميعاً

قال في "المثل السائر": والناس في قبح استعماله سواء، لا يختلف فيه عربيٌّ بآديٍّ، ولا قرويٌّ متحضرٌ. قال: وليس وراءه في القبح درجة أخرى، ولا يستعمله إلا أجهلُّ الناس ممن لم يخطر بباله شيء من معرفة هذا الفن أصلاً، وهو ما مجَّه "تمك"، ونبا عنه لسانك، وثقل عليك النطق به، على أنه قد وقع منه ألقاظ لبعض الشعراء المفلتقين من العرب والمحدثين. من ذلك لفظ الجحيش في قول تابط شراً من أبيات الحماسة:

يَظَلُّ بِمَوْمَاةٍ وَيُمْسِي بِغَيْرِهَا * جَحِيشًا وَيَعْرُورِي ظُهُورَ الْمَسَالِكِ

فإن لفظة جحيش من الألقاظ المنكرة القبيحة

قال في "المثل السائر": ويالله العجب! أليس أنها بمعنى فريد؟ وفريد لفظة حسنة رائقة لو وضعت في هذا البيت موضع جحيش لما أختل شيء من وزنه، فتأبط شراً مأثور من وجهين: أحدهما استعماله القبيح والثاني أنه كانت له مندوحة عن استعماله فلم يبدل عنها، وأقبح من ذلك لفظ أطلقم في قول أبي تمام:

وَدَدْتُ لِمَا أَطْلَحِمُ الْأَمْرَ وَأَنْبَعَثْتُ * عَشَوَاءُ تَالِيَةً غُبَسًا دَهَارِيَسًا

فإن لفظة أطلقم من الألقاظ المنكرة التي جمعت الوصفين القبيحين من أنها غريبة، وأنها غليظة في السمع، كرهية على الذوق، وكذلك لفظة دهاريس في آخر البيت المذكور.

وعلى حد ذلك ورد لفظ جيدر في قوله من أبيات في وصف فرس:

نِعْمَ مَتَاعُ الدُّنْيَا حَبَاكَ بِهِ * أَرُوعٌ لَاجِيدِرٌ وَلَا جَبَسٌ

فلفظة جيدر وحشية غليظة؛ وأغلظ منها لفظة جَفَخَتْ في قول أبي الطَّيِّبِ

المتنبي :

جَفَخَتْ وهم لا يَجْفَخُونَ بها بهم * بشيم على الحسب الأغر دلائل

فإن لفظة جَنَخَ مَرَّةً الطعم ، وإذا مَرَّتْ على السمع أَقْشَعَرَّ مَبَا ، وكان له مندوحة عن استعمالها فإن جَفَخَتْ بمعنى فَخَرَتْ وهما في وزن واحد ، فلو أتى بلفظ فَخَرَتْ وَيَفْخَرُونَ مكان جَفَخَتْ وَيَجْفَخُونَ لَأَسْتَقَامَ وزن البيت وحطى في استعماله بالأحسن ، فهو في ذلك كَتَابَطَ شَرًّا في لفظة بَحْيِش في توجه الملامة عليه من وجهين .

قال في "المثل السائر" : وما أعلم كيف يذهب هذا وأمثاله على هؤلاء الفحول من الشعراء !

هذا ما أورده ابن الأثير من هذا النوع ؛ ويشبه أن يكون منه لفظ الحَقْلَدُ في قول زهير :

نَقِيٌّ نَقِيٌّ لَمْ يُكْثِرْ غَنِيمَةً * بِهَيْكَةِ دِي قُرْبِي وَلَا بِحَقْلَدٍ
(١)

والحَقْلَدُ : السيء الخلق .

قال في "الصناعتين" : وقد أخذ الرواة على زهير في لفظة الحَقْلَدُ فاستبدلوه وقالوا : ليس في لفظ زهير أنكر منها ، وكذلك لفظ الجَرِشِيِّ في قول أبي الطَّيِّبِ في مدح سيف الدولة بن حمدان وأسمه علي :

مُبَارَكُ الْأَسْمِ أَغْرُ اللَّقْبِ • كَرِيمُ الْجَرِشِيِّ شَرِيفُ النَّسَبِ

فلفظ الجَرِشِيِّ مما يكرهه السمع ، وينبو عنه اللسان ، والجَرِشِيُّ بمعنى النَّفْسِ بجعل اسمه مباركا ، ولقبه أغر ، ونفسه كريمة ، ونسبه شريفا ، وذلك أنه كان يسمى علياً وهو أسم مبارك لموافقة أسم أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه ، ويلقب سيف الدولة

(١) في القاموس «الحقلد في قول زهير : الاثم» ومثله في لسان العرب .

وهو لقب أعرابي مشهور، وأغرأ أخذاً من غرة الفرس لأنها أشهر ما فيها، ووصفه
بكرم النفس إما باعتبار الحسب والعراقة، وإما باعتبار بذل المال وكثرة العطاء،
وأشار إلى شرف نسبه باعتبار عراقة في بيت الملك وعراقة حسبه .

الضرب الثاني

ما يعاب استعماله في التردون النظم

وهذا الضرب مما ذكر صاحب المثل السائر أنه أستخرجه بفكره، ولم يجد فيه
قولا لغيره . قال : وهذا ينكره من يسمعه حتى ينتهي إلى ما أوردته من الأمثلة ،
ولربما أنكره بعد ذلك إما عنادا وإما جهلا لعدم الذوق السليم عنده، ثم ذكر منه
أمثلة . منها لفظ شرنبثة من قول الفرزدق :

ولولا حياء زدت رأسك شجة * إذا سرت ظلت جوانبها تغلي
شرنبثة شطاء من ير ما بها * يشبه ولو بين الحماسي والطفل

قال : فلفظة شرنبثة من الألفاظ الغريبة التي يسوغ استعمالها في الشعر، وهي
هاهنا غير مستكرهة إلا أنها لو وردت في كلام مشور من كتاب أو خطبة، لعيبت
على استعمالها .

ومنها لفظة شمشخر الواردة في أبيات بشرى في وصفه لقاء الأسد حيث قال :

وأطلقت المهند عن يميني * فقد له من الأضلاع عشرًا
فخر مضرًا بدم كاني * هدمت به بناء شمشخرًا

وكذلك في قول البحتري في قصيدته التي يصف فيها إيوان كسرى :

شمشخر تعلقوا له شرفات * رفعت في رؤس رضوى وقديس

(١) في منامات بديع الزمان الحميداني بتعاقب الشيخ محمد عبده : « وأطلقت المهند من ... الخ »

فإن لفظة مُشْمَخِرٌ لا يحسن استعمالها في الخطب والمكاتبات، ولا بأس بها في الشعر، وقد وردت في خطب الشيخ الخطيب ابن نباتة كقوله في خطبة يذكر فيها أهوال يوم القيامة : أَقْمَطَرُ وَبَالُهَا، وَأَشْمَخَرٌ نَكَالُهَا، مَا طَابَتْ وَلَا سَاغَتْ .

ومنها لفظة الكَنَهَوْرِ من أوصاف السحاب كقول أبي الطيب :

يَأَلَيْتَ بِأَكِيَّةٍ شَبَّانِي دَمْعَهَا * نَظَرْتُ إِلَيْكَ كَمَا نَظَرْتُ فَتَعْدِرًا

وَتَرَى الْفَضِيلَةَ لَا تَرُدُّ فَضِيلَةً * الشَّمْسُ تُسْرِفُ وَالسَّحَابُ كَنَهَوْرًا

فلفظة الكَنَهَوْرِ لا تعاب نظماً، وتعاب نثراً .

ومنها لفظة العِرْمِسُ ، وهو أسم الناقة الشديدة فإن هذه اللفظة يسوغ استعمالها

في الشعر ولا يُعاب استعمالها كقول المتنبي :

وَمَهْمَةٌ جَبْتَهُ عَلَى قَدَمِي * تَعَجَّزُ عَنْهُ الْعَرَامِسُ الدُّلُّ

فإنه جمع هذه اللفظة ولا بأس بها، ولو استعملت في الكلام المشهور من

الخطب لما طابت ولا ساغت، وقد جاءت موحدة في شعر أبي تمام في قوله :

هِيَ الْعِرْمِسُ الْوَجْنَاءُ وَابْنُ مَلَمَةٍ * وَجَاشَ عَلَى مَا يُجِدُّ الدَّهْرُ خَائِفُضٌ

ومنها لفظة الشَّدْنِيَّةِ في قول أبي تمام أيضا .

* يَا مَوْضِعَ الشَّدْنِيَّةِ الْوَجْنَاءُ *

وهي ضرب من النوق فإن الشَّدْنِيَّةِ لا تعاب شعراً وتعاب أو وردت في

أو خطبة . هذا ما أورده في "المثل السائر" لهذا الضرب من الأمثلة

ثم قال : وهكذا يجري الحكم في أمثال هذه الألفاظ، وعلى هذا فاعلم أن كل

ما يسوغ استعماله في الكلام المشهور يسوغ استعماله في الكلام المنظوم، وليس كل

ما يسوغ استعماله في الكلام المنظوم يسوغ استعماله في الكلام المشهور . قال : وذلك

شيء، أستنبطته وأطلعت عليه لكثرة ممارستي هذا الفن، ولأن الذوق الذي عندي
دَلَّنِي عليه، فمن شاء أن يقلدني فيه، وإلا فليُدِّين النظرَ حتى يطلع على ما أطلعت
عليه. والأذهان في مثل هذا المقام تتفاوت، على أن الشيخ سعد الدين التفتازاني رحمه الله
قد تابعه على ذلك في شرح اللخيص، فلا أعلم أقلده في ذلك أم ذوقه أذاه إليه؟

الضرب الثالث

ما يعاب استعماله بصيغة دون صيغة

قال في "المثل السائر": وهذا الضرب من هذه الصناعة بمنزلة عليّة، ومكانة
شريفة، وجبُّ الأسرار اللغوية منوط به. قال: وقد لقيت جماعة من مدّعي فن
القصيدة وقاوضتهم وقاوضوني، وسألتهم وسألوني، فما وجدت أحدا منهم يتقن
معرفة هذا الموضوع كما ينبغي؛ وقد أستخرجت فيه أشياء لم أَسْبَقَ إليها فإن اللفظة
الواحدة قد تنتقل من هيئة إلى هيئة، أو من صيغة إلى صيغة، فننتقل من التبع
إلى الحسَن وبالعكس فيصير القبيح حسَنًا، والحسَنُ قبيحًا، والمرجع في ذلك إلى
الذوق السحيح والطبع السليم؛ وقد دبر منه على تسعة أنماط:

النمط الأول - ما يرجح فيه الأسم في الاستعمال على الفعل، وذلك في مثل
لفظ خَوْدٍ، فإنها عبارة عن المرأة الناعمة، فإذا نقلت إلى صيغة الفعل، قيل خَوَدَ
على وزن فَعَّلَ بتشديد العين ومعناها أسرع. يقال: خَوَدَ البعير إذا أسرع في مشيه،
فهى على صيغة الأسم حسنة رائقة، قد وردت في النظم والنثر كثيرا، وإذا جاءت
على صيغة الفعل لم تكن حسنة، كقول أبي تمام:

والى بنى عبد الكريم تَوَاهَقَتْ • رَتَكَ النَّعَامِ رَأَى الطَّرِيقَ فَخَوَدًا^(١)

(١) في المثل السائر: الغلام. وكذا في ديوان أبي تمام.

إلا أن لفظة خَوَّدَ قد استعملت على غير هذا الوجه في بعض المواضع فزال عنها بعض القُبْح وإن لم تلحق بدرجة الرائق الحسن ، كقول بعض شعراء الحماسة :
 أقولُ لنفسي حين خَوَّدَ رَأْيَا : * رُوَيْدِكَ لِمَا تُشْفِقِي حين مُشْفِقِي
 رُوَيْدِكَ حَتَّى تَنْظُرِي عَمَّ تَنْجَلِي * عَمَايَةَ هَذَا الْعَارِضِ الْمَتَالِقِ
 وَالرَّأَى : النِّمَاطُ ، والمراد أن نفسه فرت وفزعته ، شبه بإسراع النعام في فراره وفزعه ، فلما أورد ذلك على سبيل المجاز زال بعض القُبْح .

قال : وهذا يدركه الذوق الصحيح فهي في بيت أبي تمام فيبيحة سمجة ، وهاهنا بين بين ، ويقاس على ذلك أشباهه ونظائره .

النمط الثاني - ما يترجح فيه فعل الأمر والمستقبل في الاستعمال على الفعل الماضي وذلك في مثل لفظة ودَّع ، وهي فعل ماض ثلاثي لا يُثَقَّلُ بها على اللسان ، ومع ذلك فإنها لا تستعمل على صيغتها الماضية إلا جاءت غير مستحسنة ، فإذا استعملت على صيغة الأمر أو الاستقبال جاءت حسنة بهجة رائقة ، أما على صيغة الأمر فكما في قوله تعالى : ﴿ فَذَرَهُمْ يَحْوِضُوا وَيَلْعَبُوا ﴾ (٢) ولم ترد في القرآن الكريم إلا على هذه الصيغة ، وأما على صيغة الاستقبال فكقول النبي صلى الله عليه وسلم وقد واصل في شهر رمضان فواصل معه قوم ، فقال : " لو مُدِّدْنَا الشَّهْرَ لَوَاصِلْنَا وَإِصَالًا يَدْعُ لَهُ الْمُتَعَمِّقُونَ تَعَمِّقَهُمْ " . وقد استعملها أبو الطَّيِّبِ على هذا الوجه في قوله :

تَشْفِكُمْ بِقَنَاهَا كُلَّ سَالِهَةٍ * وَالضَّرْبُ بِأَخْذِ مَنْكُمْ فَوْقَ مَا يَدْعُ

جاءت في كلامه بهجة رائقة ، وأما الماضي من هذه اللفظة فلم يستعمل إلا شاذًا ولا حُسنَ له ، كقول أبي العتاهية :

(١) في الحماسة : "مكانك" (٢) كان عابه أن يمثل بقوله تعالى : "ودع أذاهم" .

أَثَرُوا فَلَمْ يُدْخِلُوا قُبُورَهُمْ * شَيْئًا مِنَ الثَّرْوَةِ الَّتِي جَمَعُوا
وَكَانَ مَا قَدَّمُوا لِأَنْفُسِهِمْ * أَعْظَمَ نَعْمًا مِنَ الَّذِي وَدَّعُوا

فلم تقع في كلامه من الحسن موقعا، ولا أصابت من الطلاوة غرضا، وهذه لفظة واحدة لم يتغير شيء من أحوالها سوى أنها نذات من صيغة الى صيغة، وكذلك لفظة وذر، فإنها لا تستعمل ماضية، وتستعمل على صيغة الأمر كقوله تعالى: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْتَبِعُوا﴾ وتستعمل مستقبلة أيضا كقوله تعالى: ﴿سَأَصْلِيه سَفَرًا وَمَا أَدَّكَ مَا سَفَرًا لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ ولم ترد في القرآن الكريم إلا على هاتين الصيغتين، وكذلك في غير القرآن الكريم من فصيح الكلام، أما في حالة المضى، فإنها أفرج من لفظة وددع، وقد استعملت ماضية مع شدوذا، وهذه لم تستعمل أصلا.

النمط الثالث — ما يرجح فيه الإفراد في الاستعمال على التثنية، وذلك في مثل لفظ الأخذع، فإنها يحسن استعمالها في حالة الإفراد دون التثنية، مما وردت فيه مفردة بحاءات حسنة رائقة، قول الصمّة بن عبد الله من شعراء الحماسة:

تَأْتَمَّتْ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّى وَجَدْتُنِي * وَجِئْتُ مِنَ الْإِضْعَاءِ لِيْنَا وَأَحْدَعًا

ومما ورد فيه لفظ التثنية بحاء ثقيلًا مستكرها قول أبي تمام:

يَادَهُمْ قَوْمٌ مِنْ أَحْدَعِيكَ فَقَدْ * أَصْجَجْتَ هَذَا الْأَنَامَ مِنْ حُرْقِكَ

هكذا ذكره في المثل السائر، ثم قال: وليس لذلك سبب إلا أنها جاءت موحدة في أحدهما حسنت، وجاءت مثناة في الآخر فقبحت.

النمط الرابع — ما يرجح فيه الإفراد في الاستعمال على الجمع، وذلك كلفظة الأرض فإنها لم ترد في القرآن الكريم إلا مفردة، سواء أفردت بالذكر عن السماء كما في قوله تعالى: ﴿رَبُّوَاللَّهُ أَبْتَلَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ أو فُوتت بالسماء مفردة كما في قوله تعالى:

﴿ وَيُمِسُّ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ أو مجموعة كما في قوله تعالى :
 ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ ولو كان استعمالها بلفظ الجمع مستحسناً
 لكان هذا الموضع وشبهه به أليق لمقابلة الجمع في السموات ، ولما أراد أن يأتي بها
 مجموعة قال : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ وكذلك لفظة
 البَيْعَةُ ، وكذلك لفظة طَيْفٍ في ذكر طَيْفِ الخيال ، فإنها تجمع على طُيُوفٍ ، وهي
 في حالة الإفراد من أرق الألفاظ وألطفها ، فإذا جمعت زالت عنها تلك الطلاوة ،
 وفارقتها تلك البهجة ، ولذلك وردت في القرآن الكريم بلفظ الإفراد قال تعالى :
 ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ^(١) مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ .
 ولم نزل الشعراء في القديم والحديث يستعملونه بلفظ الإفراد فيقع أحسن موقع ،
 ولم يلجأوا باستعماله مجموعاً .

قال في " المثل السائر " : وبالله العجب ! من هذه اللفظة ومن أختها عادة
 ووزناً ، وهي صَيْفٍ فإنها تستعمل مفردة ومجموعة ، وكلاهما في الاستعمال حسن رائق ،
 قال : وهذا مما لا يُعَمُّ السر فيه ، والذوق السليم هو الحاكم في الفرق بين هاتين
 اللفظتين وما يجري مجراهما . وكذلك يحرى الحكم في جميع المصادر ، فإنها في حالة
 الإفراد أحسن منها في حالة الجمع ، وقد جاء منها بعض ألفاظ مجموعة بفئات ثمة
 مسكرهه ، كما في قول عنترة :

فإن يبرا فلم أنبت عليه . وإن يفقد فحق له الفقد

فالفقود جمع مصدر من قولنا : فقد يفقد فقداً ، وليس له من الرويق والطلاوة
 ما لمفرده ، وهو لفظ فقد ، وإن كان جائزاً من جهة العربية .

النمط الخامس - ما يترجح فيه الجمع في الاستعمال على الإفراد كلفظة اللب الذي
 هو لعقل ، فإن استعمالها بصيغة الجمع في غاية الحسن والبهجة والطلاوة ، وقد ورد

(١) هذه إحدى القرائن في الآية

بهذه الصيغة في غير موضع من القرآن الكريم ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَبَدَّ كَرَّ أُولُو
الْأَلْبَابِ ﴾ وقوله : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الوارد
فيها ذلك بصيغة الجمع ، أما في حالة الإفراد فإنها قليلة الاستعمال مع أنها لفظة ثلاثية
خفيفة على النطق ، بعيدة المخارج ، ليست بمستثقلة ولا مكروهة .

قال في "المثل السائر" : وإذا تأملت القرآن الكريم ودققت النظر في رموزه
وأسراره وجدت هذه اللفظة قد روعي فيها الجمع دون الإفراد ، فإن أضيفت
أو أضيف إليها حسن استعمالها ، وساغ في طريق الفصاحة إيرادها . أما إضافتها
فكقول النبي صلى الله عليه وسلم في ذكر النساء : " مَا رَأَيْتُ نَاقِصَاتِ عَقْلِ وَدِينِ
أَنْتَبَّ لُبَّ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ " وأما الإضافة إليها فكقول جرير :
إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ * قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَا قَتْلَانَا
يَصْرَعَنَّ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا تَحْرَاكَ بِهِ * وَهِنَّ أضعفُ خَلْقِ اللَّهِ أَرْكَانًا

قال في "المثل السائر" : فإن عبرت هذه اللفظة عن الجمع والإضافة لم تأت
حسنة . قال : ولا تجد دليلا على ذلك إلا مجرد الذوق السليم ، وكذلك لفظة كوب
فإنها لم ترد في القرآن الكريم إلا مجموعة ، وهي وإن لم تكن مستقبحة في حالة الإفراد
فإن الجمع فيها أحسن . وأنظر إلى ما عليها من الطلاوة والمائية في قوله تعالى :
﴿ يَطْوِفُ عَلَيْهِمْ وَيُدَانُ مَخْلَدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴾ وعلى هذا النحو
لفظ رَجًا بالقصر ، ومعناه الجانب ، فإنها قد وردت في القرآن بلفظ الجمع في قوله
تعالى : ﴿ وَاللَّذَاتُ عَلَى أَرْجَائِهِنَّ ﴾ أي جوانبها ، ولم تستعمل مفردة : لأن الجمع يكسبها
من الحسن ما لم يجدها لها حالة الإفراد ، فإن أضيفت حالة الإفراد كرجا البئر ونحوه
حسنت كما في حالة الجمع .

قال في "المثل السائر": وليس كذلك لفظ الصوف والأصواف، وإن كان لم يرد في القرآن الكريم إلا مجموعا حيث قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَنَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴾ لأن لفظ الصوف مستحسن في حالة الإفراد كما في حالة الجمع، قال:

وإنما قبَّح ذكره في قول أبي تمام:

كَانُوا بَرُودَ زَمَانِهِمْ فَتَصَدَّعُوا * فَكَأَنَّمَا لَيْسَ الزَّمَانُ الصُّوفَا

لأنها جاءت مجازية في نسبتها إلى الزمان. قال: وعلى هذا النهج وردت لفظة حبر وأحبار فإنها مجموعة أحسن منها مفردة، ولم ترد في القرآن الكريم إلا بمجموعة.

النمط السادس - ما يترجح فيه بعض الجموع في الاستعمال على بعض كما في جمع صائب من قولك: سهم صائب، فإنه يقال في الجمع سهام صوائب وصائبات وصييب بالتشديد، وهذه الجموع كلها حسنة، رائقة، معجبة، دائرة على السنة أرباب النثر والنظم، ويقال في جمعه أيضا صييب على وزن كُتِبَ، وهو جمع قبيح، مرفوض الاستعمال، ثقيل على النطق، جاف عن السمع، وقد استمله أبو نؤاس في شعره حيث قال:

مَا أَحَلَّ اللَّهُ مَا صَنَعْتَ * عَيْنُهُ تِلْكَ الْعَشِيَّةَ بِي
قَتَلْتُ إِنْسَانًا كَبِيدِي * بِسَهَامٍ لِرَدَى صَيْبٍ

بخاءت غثة كريهة نابية عن السمع، نافرة عن اللسان؛ وكذلك الجمع في قيد، فإنه يجمع على قيود، وهو جمع سائغ القبول، شائع الاستعمال، ويقال في جمعه أيضا: أقياد، وهو من الجمع المستكرهة الخارجة عن الاستعمال، وقد ورد في قول جرير:

القوافي من أبيات الحماسة:

ذهب الرقادُ فما يحسُّ رقادُ • مما شجاك ونامت العوادُ

لما أتاني من عينة أنه • أمست عليه تظاهر الأقيادُ

فلم يحسن ولم يرق ، وكذلك التول في جمع قُبَّة ، فإنه يجمع على قباب وهو جمع
حسن دائر على ألسنة الفصحاء من أهل النظم والشعر ، ويجمع أيضا على قُبَب ، وليس
يستحسن ، وإن كان هو في الكراهة دون أقياد في جمع قِيد ، وقد استعمله ابن
سكّان التيمي في قوله

مَآذَا تَرَيْنَ أُنْدِيهِمْ لِأَرْحَلِنَا • فِي جَانِبِ الْبَيْتِ أَمْ نَبِي لِمُمْ قُبَابًا؟

فلم يحسن حسن قباب بل جاءت كريمة مستشعبة ، وأعجب ما في هذا الباب أن
الجمع قد يكون متفقا في لفظة واحدة إلا أنها مختلفة المعنى فيختلف الاستعمال في الجمع
باختلاف المعاني حتى لو جىء بجمع في مكان جمع لم يحسن استعماله وإن كان جائزا من
جهة العربية ، كلفظ العين ، فإنها تطلق من جملة مدلولاتها على العين الباصرة ، والعين
من الناس ، وهو التيمُّ منهم ، والعين الباصرة تجمع على عيون ، والعين من الناس تجمع
على أعيان ، وقد شد هذا الموضع على المتنبي في قوله :

وَالنَّوْمُ فِي أَعْيَانِهِمْ نَحْرٌ • وَالْحَيْلُ فِي أَعْيَانِهَا قَبْلُ

بجمع العين الباصرة على أعيان في الموضعين .

قال في "المثل السائر" : وكان الذوق يأبى ذلك ولا يجد له على اللسان حلاوة
وإن كان جائزا ، وأعجب من ذلك كله أنك ترى وزنا واحدا من الألفاظ ، فتارة
تجد مفردة حسنا ، وتارة تجد جمعه حسنا ، وتارة تجدهما جميعا حسنين .

فما مفردة أحسن من جمعه جبرور ، وهو فرخ الحبارى ، فإنه يجمع على حبارير
ومفردة أحسن من جمعه ، وكذلك طنبور وطنابير ، وعرقوب وعراقيب ، وما
أشبه ذلك .

ومما جمعه أحسن من مفردة بهلول وبهليل ، ولطموم ولطاميم ، وهذا ضد الأول .
ومما مفردة حسن وجمعه حسن جمهور وجماعه ، وعرجون وعراجين وما
أشبه ذلك .

النمط السابع — ما يترجح فيه أحد صور الوزن الواحد باختلافه بالحركة والسكون
كلفظ الثلث والرابع إلى العشر ، فإنها في حالة سكون الوسط كلها حسنة سائغة
الاستعمال فإذا تحزكت أوساطها فقلت : ثلث ، ورابع ، وخمس ، وكذلك إلى عشر ،
فإن الحسن من ذلك جميعه ثلاثة وهي الثلث ، والخمس ، والستس ، أما الربع ، والسبع ،
والثمن ، والتسع ، والعشر فليس كذلك في حسنه . قلت : إنما يظهر ذلك في السبع ،
والتسع ، والعشر خاصة فإن الثقل ظاهر فيها ، أما الربع والثمن فانهما في الحسن مع
تحريك الوسط كالثلث ، والخمس ، والستس ، وقد ورد القرآن بتحريك الوسط
فيهما في سورة النساء حيث قال تعالى : **وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُنْ**
لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ : **وَلَكِن الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِذْ**
لَمْ يَكُن لَكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثَّمَنُ مِمَّا تَرَكَنَّ : **وَإِى حُسْنٍ وَفَصَاحَةٍ بَعْدَ**
وروده في القرآن الكريم .

النمط الثامن — ما تترجح فيه أبنية بعض أسماء الفاعلين في الاستعمال على بعض
كاسم الفاعل المبني من فَعَلَ بفتح الفاء وكسر العين ، فإنه يبنى على فاعل ويُعَلَّ بِكسر
العين وفَعْلَانٌ ، نحو حَمَدَ فهو حامد ، وحَمِدٌ ، وحَمْدَانٌ ، وفَرِحَ فهو فرح ، وفَارِحٌ ،
وفرحانٌ ، وغَضِبَ فهو غضبانٌ ، وغاضبٌ ، فالأفعال الثلاثة على وزن واحد ، وصيغُ
أسماء الفاعلين المبنية منها مختلفة في الأحسن الغالب استعماله ، فحامد من حَمَدَ أحسن
من حَمِدٍ وحَمْدَانٍ ، وفرح من فَرِحَ أحسن من فرحان ، وغضبان من غَضِبَ

أحسن من غاضب ، وإن كان جائزا ، وقد جاء بناء آسم الفاعل من فَرِحَ على فارخ
في قول بعض شعراء الحماسة :

فما أنا من حُزِنٍ وإن جَلَّ جَارِعٌ * وَلَا يُسْرُورٍ بَعْدَ مَوْتِكَ فَارِحُ

فلم يحسن كحسن فَرِحَ ، أما ما جاء منه على وزن فُعَلَةٍ نحو هُمَزَةٍ وَمُرَّةٍ وَجُثْمَةٍ
وَنُومَةٍ وَأُكْنَةٍ وَلُحْنَةٍ ، وما أشبه ذلك ، فقد قال في "المثل السائر" : الغالب على
هذه اللفظة أن تكون حسنة .

النمط التاسع - ما يترجم من أوزان الأفعال بعضها على بعض كلفظة فعل
وَأَفْعَلٌ ، فإن لفظاً فعل لما موضع تستعمل فيه ، ولفظة أَفْعَلٌ لما موضع تستعمل
فيه ، تقول : قعدت إلى فلان إذا جلست إليه ، وأقتعدت غارب الجمل ، إذا ركبت
عليه ، ولا يحسن أن تقول أقتعدت إلى فلان وقعدت على غارب الجمل وإن كان
ذلك جائزا ، وكذلك أَفْعَلٌ وَأَفْعُوْعَلٌ فإنك تقول أَعْشَبَ المكان ، فإذا كثر عُشْبُهُ
قلت : أَعْشَوْشَبَ فلفظة أَفْعُوْعَلٌ للتكثير ، وهي على ما فيها من تكرار الحروف طيبة
عذبة ، وكذلك سائر ما في وزنها نحو أَخْشَوْشَنَ المكان ، وَأَغْرَوْرَقَتِ العين ، وأحلولى
الطعم ، وما أشبه ذلك .

قال في "المثل السائر" : وهذا كله مما أخذته بالاستقراء ، وفي اللغة مواضع
كثيرة من ذلك لا يمكن استقصاؤها .

فانظر إلى ما فعله اختلاف الصيغة بالألفاظ ، وعليك بتفقد أمثال هذه الكلمات
لتعلم كيف تضع يدك في استعمالها . فكثيرا ما يقع خفول الخطباء والشعراء في مثاتها ،
ومرأتى اللغات من كتاب ، وشاعر إذا مرَّت به الألفاظ عرصتها على ذوقه الصحيح ،
فما يجده الحسن منها مبرحاً وحده ، وما يجده الحسن منها مجموعاً جمعاً ، وكذلك يجري
الحكم فيما سوى ذلك من الألفاظ

الصنف الثالث

المتوحش في زمن دون زمن

وهو ما كان متداول الاستعمال في زمن العرب، ثم رُفِضَ وتُرك بعد ذلك، وبهذا لا يعاب استعماله على العرب لأنه لم يكن عندهم وَحْشِيًّا، ولا لديهم غمريًّا كما سيأتي التنبيه عليه؛ وإنما يُعَاب استعماله على غيرهم ممن قَصُرَ فهمهم عنه، وَقَلَّتْ معرفتهم به؛ وقد كان كلام العرب مشحونا به في نظمهم ونثرهم، دائرا على ألسنتهم في مخاطباتهم ومحاوراتهم، غير معيب ولا ملوم عليه؛ وأنظر إلى ما تضمنته خطيبهم وأشعارهم من الغريب ترى ذلك عيلا؛ فمن ذلك قول أبي المثلِّم الهذلي:

أَبِي الْمِثْلِمِ نَابٍ بِالْعَظِيمَةِ مِثْلَافُ الْكَرِيمَةِ جَسَدٌ غَيْرُ تَبِيحٍ
حَامِي الْحَقِيقَةِ نَسَّالُ الْوَدِيقَةِ مِثْلَاقُ الْوَسِيقَةِ لَا نِكْسٌ وَلَا دَرَانُ
رَبَاءُ مَرْقَبَةٍ مَنَاعُ مَغْلَبَةٍ * وَهَابُ سَنَبِيَّةٍ قَطَاعُ أَقْرَانِ
هَبَّاطُ أَوْدِيَّةٍ حَمَّالُ آلُوِيَّةِ * شَهَادُ أَنْدِيَّةٍ سِرْحَانُ قَتِيَانِ

وقول أعرابي في وصف إبل: كُومٌ بَهَّازِرٌ، مُكْدٌ خَنَاجِرٌ، عِظَامُ الْخَنَاجِرِ، سِبَاطُ الْمَشَافِرِ، أَجَوَافُهَا رِغَابٌ، وَأَعْطَانُهَا رِحَابٌ؛ تُنَمَّعُ مِنَ الْبَهْمِ، وَتَبْرُكُ لِلْحِمَمِ. يريد بالكوم جمع كوما، وهي الناقة العظيمة السنم، والبَهَّازِرُ جمع بهزرة، وهي الناقة العظيمة، والمُكْدُ جمع مَكُودٍ، وهي الناقة الغريرة اللبن، والخَنَاجِرُ جمع خَنَجُورٍ، وهي بمعنى المَكُودِ أيضا، والعِظَامُ الْخَنَاجِرِ: غِلَاطُ الْأَعْنَاقِ، وَسِبَاطُ الْمَشَافِرِ أَي مَرَسَلَاتُ الْمَشَافِرِ، وَالْمِشْفَرُ مِنَ النَّاقَةِ كَالْحِجْفَلَةِ مِنَ الْفَرَسِ؛ وَنَحْوُ ذَلِكَ بِمَا يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى وَيَخْرُطُ فِي هَذَا السَّلْكِ؛ فَهَذَا وَمِثْلُهُ لَا يُعَابُ اسْتِعْمَالُهُ عَلَى الْعَرَبِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ غَمْرِيًّا وَلَا لَدَيْهِمْ وَحْشِيًّا، بَلْ شَائِعًا بَيْنَهُمْ، دَائِرًا عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ فِي نِظْمِهِمْ وَنَثْرِهِمْ، وَأَعْظَمُ

شاهد لاستحسان استعماله عندهم ووضوح مَهِّجِهِ لديهم أن القرآن الكريم الذى هو أفصح كلام وأبهج لفظ قد أشتمل على ألفاظ من ذلك ، كقوله تعالى : ﴿ وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ وما أشبه ذلك ، وهذه الألفاظ كانت مفهومة عند العرب ، معلومة المعانى عند المخاطبين : لأن الله تعالى قد خاطبهم به وأمرهم فيه ونهاهم ، والخطاب بما لا يفهم بعيد ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ . وكذلك ورد فى الأخبار النبوية جملة مستكثرة من ذلك ، وهى المعبر عنها بتعريب الحديث . كقوله صلى الله عليه وسلم ” مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى تِرَةٌ “ أى نقص ، وقيل تبعه ، وقيل حسرة . وقوله صلى الله عليه وسلم : ” لِيَسْتَرْجِعْ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ فِي شِسْعٍ نَعَاهِ فَإِنَّهَا مِنَ الْمَصَائِبِ “ والشَّعُّ : أحد سيور النعل ، وقوله صلى الله عليه وسلم : ” أَلِظُوا بِيَاذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ “ أى ألزموا هذه الدعوة وأكثروا منها . وقوله صلى الله عليه وسلم فى الدعاء : ” وَأَعِيسِلْ حَوْتِي وَأَسْلُلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي “ وأشباه ذلك

وحديث أم زرع صريح فى شيوخ ذلك فيهم ، وعمومه فى مخاطباتهم ومكالماتهم ، وهو ما ثبت فى الصحيحين من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : ” حَدَّثَنِي إِحْدَى عَشْرَةَ أَمْرَأَةً فَتَعَاهَدْنَ وَتَعَاقَدْنَ إِلَّا يَكْتُمْنَ مِنْ أَخْبَارِ أَزْوَاجِهِنَّ شَيْئًا . قَالَتِ الْأُولَى : رَوْحِي لَحْمٌ جَمِيلٌ غَثٌّ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ ، لَا سَهْلٌ فَيَرْتَقِي وَلَا سَهْمِيٌّ فَيَنْتَقِي ، وَفِي رَوَايَةٍ فَيَنْتَقِلُ . “

قالت الثانية : رَوْحِي لَا أَبْتُ حَبْرَةَ ، إِنِّي أَخَافُ إِلَّا أَدْرَهُ ، إِنْ أَذْكُرُهُ أَذْكُرُ

عَشْرَةَ وَبِحَبْرَةَ .

قالت الثالثة : رَوْحِي الْعَشَقِيُّ ، إِنْ أَنْطِقَ أَطَاقَ ، وَإِنْ أَنْسَكَتُ أَعْلَقَ

قالت الرابعة : زوجي كليل تهامة ، لا حر ولا قر ولا خوف ولا سامة .

قالت الخامسة : زوجي إن دخل فهد ، وإن خرج أسد ، ولا يسأل عما عهد .

قالت السادسة : زوجي إن أكل لف ، وإن شرب أشف ، وإن اضطجع التّف ، ولا يوج الكف ، ليعلم البث .

قالت السابعة : زوجي عيائاً طباقاً ، كل داء له داء ، شجك أو فلك أو جمع كلاك .

قالت الثامنة : زوجي الريح ريح زرنب ، والمس مس أرنب .

قالت التاسعة : زوجي رفيع العماد ، طويل النجاد ، عظيم الرماد ، قريب البيت من الناد .

قالت العاشرة : زوجي مالك ، وما مالك ؟ مالك خير من ذلك ، له إبل قليات المسارح ، كثيرات المبارك ، وإذا سمعن صوت المزهير أيقن أنهن هوالك .

قالت الحادية عشرة : زوجي أبو زرع ، وما أبو زرع ؟ أناس من حلى أدنى ، وملا من شحم عضدي ، ويحجني فبيحت إلى نفسي ، وجدني في أهل غنمة يسق ، فجعلني في أهل صهيل وأطيط ودائس ومنق ، فعنده أقول فلا أقبح ، وأرقد فأتصبح ، وأشرب فاتقح ، (وفي رواية فاتقمح) ، أم أبي زرع ، فما أم أبي زرع ؟ عكومها رداح ، وبيتها فساح ، ابن أبي زرع ، فما ابن أبي زرع ؟ شطبة ، وشعبه ذراع الحفرة ، بنت أبي زرع ، فما بنت أبي زرع ؟ طوع أيها ، وطوع أمها ، وميل كسائها ، وغيظ جارتها ، جارية أبي زرع ، فما جارية أبي زرع ؟ لا تت حديثنا تنيثا (وفي رواية لا تبث حديثنا تبثا) ، ولا تنقت ميرتنا تنيثا ، ولا تملأ بيتنا تعشيشا . قالت : خرج أبو زرع والأوطاب ثمخص ، فلتى أسراة معها

وَلَدَانِ لَهَا كَالْفَهْدَيْنِ ، بَلْعَبَانِ مِنْ تَحْتِ حَصْرِهَا بِرُقَاتَيْنِ ، فَطَلَّقَنِي وَنَكَحَهَا ، فَتَكَحْتُ
بِعَدِهِ رَجُلًا سَرِيًّا ، رَكِبَ سَرِيًّا ، وَأَخَذَ خَطِيًّا ، وَأَرَاخَ عَلَيَّ نَعْمًا ثَرِيًّا ، وَأَعْطَانِي مِنْ
كُلِّ رَائِحَةٍ زَوْجًا ، (وفي رواية فأعطاني من كل ذابحة زوجا) . وقال : كُلِّي أُمَّ زَرْعٍ
وَمِيرَى أَهْلِكَ ، فَلَوْ جَمَعْتُ كُلَّ شَيْءٍ أَعْطَانِي مَا بَلَغَ أَصْعَرَ آيَةِ أَبِي زَرْعٍ “

قالت عائشة : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ” كَسْتُ لَكَ كَأَبِي زَرْعٍ
لِأُمِّ زَرْعٍ “ وفي رواية ” غير أنني لا أطلقك “ .

فإذا كان هذا كلام نساءهم الدائر فيما بينهم من محادثاتهن مع بعضهن في خلواتهن ،
فما ظنك بقرسان الكلام في نظمهم وثرهم ! فإني يُعَاب عليهم ذلك ، ويُنكر عليهم
الإتيان بمنه !

وفد آختم رجل وأمرأة إلى يحيى بن يعمر ، وهو من أكابر التابعين ووجاهتهم ،
فقال للرجل : أَأَنْ سَأَلْتُكَ نَمَّ شَكْرَهَا وَشَبْرِكَ ، أَنْشَأْتَ تَطْلُهَا وَتَصْهَانَهَا ؟ . أما غير
العرب ممن تكلف ذلك وأتى به في كلامه المعتاد في مخاطباته أو ثره ونظمه فإنه يُعَاب
عليه ذلك ، وينحط به عن درجة المصاحبة ، ويخرج به عن قانونها ، إذ المقصود
من الكلام إنما هو الإفهام لا غير ، فيحاطب كلُّ أحد بما يفهمه ولا يُكَلِّفُ بما
لا يعلمه ، وخير الكلام ما جاد وأفاد .

قال بشر بن المعتمر : إِيَّاكَ وَالتَّوَعَّرَ ، فَإِنَّهُ يُسَلِّمُكَ إِلَى التَّعْقِيدِ وَالتَّقْيِيدِ ، وَهُوَ
الَّذِي يَسْتَهْلِكُ مَعَانِيكَ ، وَيَمْنَعُكَ مَرَامِيكَ .

قال أبو هلال العسكري : وربما غلب سوء الرأي وقلة العقل على بعض علماء
العربية فيخاطبون السوقي ، والملوك والأعجمي ، بالفاظ أهل نجد ، ومعاني أهل
السراة ، وحكاياتهم في ذلك كثيرة .

قال أبو نصر الجوهري : سقط عيسى بن عمر عن حمار له فاجتمع عليه الناس فقال : مَا لَكُمْ تَكَاكُتُمْ عَلَى تَكَاكُوتِكُمْ عَلَى ذِي جِنَّةٍ ! افْرَتَقِعُوا عَنِّي . أَي مَا لَكُمْ أَجْتَمَعْتُمْ عَلَى أَجْتِمَاعِكُمْ عَلَى ذِي جِنَّةٍ تَفْرَقُوا عَنِّي . وَذَكَرَ الْجَاهِظُ هَذِهِ الْحِكَايَةَ عَنِ أَبِي عَلَقَمَةَ النَّحْوِيِّ بِزِيَادَةَ فَقَالَ : مَرَّ أَبُو عَلَقَمَةَ بِبَعْضِ طُرُقِ الْبَصْرَةِ فَهَاجَتْ بِهِ مِرَّةٌ فَوَثَبَ عَلَيْهِ قَوْمٌ يَعْضُونَ إِبْهَامَهُ وَيُؤَذِّنُونَ فِي أُذُنِهِ ، فَأَقْلَتَ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَقَالَ : مَا لَكُمْ تَكَاكُتُمْ عَلَى كَمَا تَكَاكُوتُونَ عَلَى ذِي جِنَّةٍ ! افْرَتَقِعُوا عَنِّي . فَقَالَ بَعْضُهُمْ : دَعُوهُ فَإِنَّ شَيْطَانَهُ يَتَكَلَّمُ بِالْمِنْدِيَّةِ .

وقال أبو علقمة يوماً لحاجمه : أَشَدُّ قَصَبِ اللَّهَازِمِ ، وَأَرْهَفِ طَبَابِ الْمَسَارِطِ ، وَأَمْرَ الْمَسْحِ ، وَاسْتَنْجِلِ الرَّشْحِ ، وَخَفِّفِ الْوِطَاءِ ، وَعَجِّلِ التَّرْعِ ، وَلَا تُكْرِهَنَّ أَيْتَاءَ وَلَا تَرْدَنَّ أَيْتَاءَ ، فَقَالَ لَهُ الْحَجَّامُ : لَيْسَ لِي عِلْمٌ بِالْحُرُوفِ .

ونظر إليه رجل وتحتة بغلٍ ميسرى حسن المنظر ، فقال : إِنْ كَانَ مَحْرَ هَذَا الْبَغْلِ كَمَنْظَرِهِ فَقَدْ كَلَّ ، فَقَالَ أَبُو عَلَقَمَةَ : وَاللَّهِ لَقَدْ نَحَرَجْتُ عَلَيْهِ مِنْ مِصْرَ فَتَنَكَّرْتُ الطَّرِيقَ مَخَافَةَ السَّرَاقِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ ، فَبَيْنَا أَنَا أُسِيرُ فِي لَيْلَةٍ ظَامِئًا قَتَاءً ، طَرَفًا مُدْهِمَةً ، حِنْدِسٍ دَاجِيَةٍ ، فِي صَحَّصَحِ أَمَّاسٍ ، إِذْ أَحَسَّ بِنَبَاةٍ مِنْ صَوْتِ نَغْرٍ ، أَوْ طَيْرَانِ ضَوْعٍ ، أَوْ نَغْضِ سُبْدٍ ، فَخَاصَّ عَنِ الطَّرِيقِ مُتَنَكِّبًا لِعِزَّةِ نَفْسِهِ . وَفَطَّلَ قُوَّتَهُ ، فَبَعَثْتَهُ بِاللِّجَامِ فَعَسَلَ ، وَحَرَكْتَهُ بِالرَّكَابِ فَنَسَلَ ، وَأَنْتَعَلَ الطَّرِيقَ يَنْتَالُهُ مُعْتَرِبًا ، وَالتَّحَفَ اللَّيْلَ لَا يَهَابُهُ مُظْلِمًا ، فَوَاللَّهِ مَا شَبِهْتَهُ إِلَّا بظبية نافرة تحفرها فتخاء شاعية ، فقال الرجل : فَادَعُ اللَّهَ وَسَلِّهُ أَنْ يَحْشُرَ مَعَكَ هَذَا الْبَغْلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، قَالَ : وَلِمَ ؟ قَالَ : لِيُجِيزَكَ الصَّرَاطَ بِطَفْرَةٍ .

وكانت امرأة تاكل الطين^(١) فحصل لها بسببه إسهال مرضت منه ، وكان لها ولد يتكلم بالغريب ، فكتب رفاقا وطرحها في المسجد الجامع بمدينة السلام . فيها صين أمرؤ ورعى ، دعا لامرأة إنفجاة مفسنة قد ميت بأكل الطرموق فأصابها من أجله ألاستصال أن يم الله عليها بالأطرنشاش . فكل من قرأ رقعته ، دعا عليه ولعنه ولعن أمه .

وحكى محمد بن أبي المغازي الضبي عن أبيه قال : كان لنا جار بالكوفة لا يتكلم إلا بالغريب ، فخرج إلى ضيعة له على حجر معها مهر فأفلتت ، فذهبت ومعها مهرها فخرج يسأل عنها ، فمزيجياط فقال : ياذا النصاح وذات السم ، الطاعن بها في غير وعى لغير عدى ، هل رأيت الحيناية النبأ يتبعها الحاسن المشرهف ؟ كأن غرته القمر الأزهر ، ينير في حصره كالحلب الأجرد ، فقال الحياط : أطلبها في ترلج ، فقال : ويحك ما تقول ! قبحك الله ، فإني ما أعرف رطانتك ، قال : لعن الله أبغضا لفظا وأخطانا منطنا .

وضرب عمر بن هبيرة عيسى بن عمر النحوي ضربا كثيرا من أجل وديعة فكان يقول وهو يضرب : ما هي إلا أتياب في أسفاط أخذها عشاروك . وسأله رجل عن مسألة . فقال : ليست مسالتك يثا ، أي ليست مستوية ، وأصل اليتن : حروح رجل الولد قبل رأسه . وسأله آخر عن كتابته ، فقال : كتبت حتى أقطع سوائي أي ظهري ، على أن أبا جعفر النحاس قد عد عيسى بن عمر من المطبوعين في ذلك ، قال الجاحظ : رأيتهم يديرون في كتبهم هذا الكلام ، فإن كانوا إنما رووه ودقوه لأنه يدل على فصاحة وبلاغة ، فقد باعده الله من صفة الفصاحة والبلاغة ،

(١) كذا في الصائغين أيضا ، ولعله مصحف عن الطير بالراء بدليل بقية الكلام ، فان الطرموق اسم

للحماش وهو من الطير .

وإن كانوا فعلا ذلك لأنه غريب فأبيات من شعر العجاج وشعر الطرماح وأشعار
هذيل تأتي لهم مع الرصف الحسن على أكثر من ذلك . فلو خاطب أحد الأصمعي
بمثل هذا الكلام، لظننت أنه يستجمل نفسه، وهذا خارج عن عادة البلغاء .

الصف الرابع

الغريب المتوحش عند قوم دون قوم

وذلك ككلام أهل البادية من العرب بالنسبة إلى أهل الحضر منهم، فإن أهل
الحضر يالفون السهل من الكلام، ويستعملون الألفاظ الرقيقة، ولا يستعملون
الغريب إلا في النادر، وأهل البادية يالفون اللفظ الجزل ويميلون إلى استعمال الغريب،
وإذا نظرت إلى أهل مكة وكلام قريش الذين نزل القرآن بلغتهم وبعث رسول الله
صلى الله عليه وسلم من أرومتهم، وكلام أهل حضرموت وما جاورها من اليمن
ومخالف الحجاز، علمت فرق ما بين الكلامين، وتبين ما بين الطرفين، حتى كأن
البادي يرطن بالنسبة إلى الحاضر، ويتكلم بلغة غير العربية، وكانت لغة رسول الله
صلى الله عليه وسلم التي يتكلم بها على الدوام، ويخاطب بها الخاص والعام، لغة قريش
وحاضرة الحجاز، إلا أنه صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم وجمع إلى سهولة
الحاضرة جزالة البادية، فكان يخاطب أهل نجد وتهامة وقبائل اليمن بلغتهم، ويخاطبهم
في الكلام الجزل على قدر طبقتهم .

فمن ذلك كلامه صلى الله عليه وسلم لطنفة النهدي وكناه إلى بني نهدي، وذلك
أنه لما قدم وفود العرب على النبي صلى الله عليه وسلم قدم عليه طنفة بن أبي زهير
النهدي . فقال : أتيناك يا رسول الله من غور تهامة على أكوار الميس، ترمي بنا
العيس . فستخاب الصبير، ونسبخاب الخبير، ونستعضد الرير، ونسرخيل الرهام،

وَنَسَجِيلُ الْحَمَامِ ؛ مِنْ أَرْضِ غَائِلَةِ النَّطَاءِ ، غَلِيظَةِ الْوِطَاءِ ؛ قَدْ جَفَّ الْمُدْهَنُ ، وَيَبَسَ الْجَعِينُ ؛ وَسَنَطَ الْأَمْلُوحُ ، وَمَاتَ الْعُسْلُوحُ ؛ وَهَلَكَ الْمَيْدِيُّ ، وَفَادَ الْوَيْدِيُّ ؛ بَرِئْنَا إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنَ الْوَثِيِّ وَالْعَثَنِ ، وَمَا يُحْدِثُ الزَّمَنُ ؛ لَنَا دَعْوَةُ السَّلَامِ ، وَشَرِيعَةُ الْإِسْلَامِ مَا طَمَّ الْبَحْرُ ، وَقَامَ تِعَارٌ ؛ وَلَنَا نَعْمٌ هَمَلٌ أَغْفَالٌ ، مَا تَبِضُّ بِبِلَالٍ ؛ وَوَقِيرٌ كَثِيرُ الرَّسْلِ ، قَلِيلُ الرَّسْلِ ، أَصَابَتْهَا سُدْيَةٌ حَمْرَاءُ مُؤَزَلَةٌ ، لَيْسَ لَهَا عِلٌّ وَلَا نَهْلٌ ؛ فَتَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ” اللَّهُمَّ بَارِكْ لِحَمِّ فِي مَحْضِهَا وَمَحْضِهَا وَمَذْقِهَا وَفِرْقِهَا ؛ وَأَبْعَثْ رَاعِيَهَا فِي الدَّثْرِ بِيَانِعِ الثَّمَرِ ، وَأَجْفُوْهُ لِحَمِّ الْقَدِّ ، وَبَارِكْ لِحَمِّ فِي الْمَالِ وَالْوَالِدِ ؛ مَنْ أَقَامَ الصَّلَاةَ كَانَ مُسْلِمًا . وَمَنْ آتَى الزَّكَاةَ كَانَ مُحْسِنًا . وَمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَانَ مُخْلِصًا . .

لَكُمْ يَا بَنِي نَهْدٍ وَدَائِعُ الشَّرْكِ ، وَوَضَائِعُ الْمُلْكِ ؛ لَا تُنَاطِطُ فِي الزَّكَاةِ ، وَلَا تُلْحَدُ فِي الْحَيَاةِ ، وَلَا تُتَنَاقَلُ عَنِ الصَّلَاةِ “ .

وَكُتِبَ مَعَهُ كِتَابًا إِلَى بَنِي نَهْدٍ فِيهِ : ” بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ! السَّلَامُ عَلَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، لَكُمْ يَا بَنِي نَهْدٍ فِي الْوِظِيْفَةِ الْفَرِيضَةُ ، وَلَكُمْ الْعَارِضُ وَالْفَرِيْشُ وَذُو الْعِيَانِ الرَّكُوبُ ، وَالتَّأْوُ التَّسْيِيسُ ؛ لَا يُمْنَعُ سَرْحَكُمْ ، وَلَا يُعْصَدُ طَاحِكُمْ وَلَا يُمْنَعُ دَرَكُمْ ؛ مَا لَمْ تُصَيِّرُوا الْإِمَاقَ ، وَتَأْكُلُوا الرِّبَاقَ ؛ مِنْ أَفْرَفِهِ الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ وَالذَّمَّةُ ، وَمَنْ ابَى فَعَلِيهِ الرَّبُوءَةُ . “

وَمِنْ ذَلِكَ كِتَابُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى قَبِيلَةِ هَمْدَانَ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفُودَ الْعَرَبِ قَدِمَ وَفَدَ هَمْدَانَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، مِنْهُمْ مَالِكُ بْنُ تَمِيْطٍ أَبُو ثَوْرٍ ، وَهُوَ ذُو الْمِشْعَارِ ، وَمَالِكُ بْنُ أَيْفَعٍ ، وَضَمَامُ بْنُ مَالِكِ السَّامَانِيُّ ، وَعَمِيرَةُ بْنُ مَالِكِ الْخَارِفِيِّ ، فَاتَّقَدُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّجِعَهُمْ

من ثُبُوكَ ، وعليهم مَقَطَّعاتُ الحَبْرَاتِ والعمائمُ العَدَنِيَّةُ ، برحالِ المَيْسِ على المَهْرِيَّةِ
والأَرْحَبِيَّةِ ، ومالكُ بنُ نَمِيطٍ ورجلٌ آخرٌ يرتجزانِ بالقومِ ، يقولُ أحدهما :

هَمْدَانُ خَيْرُ سُوْقَةٍ وَأَقْبَالُ * لَيْسَ لَهَا فِي الْعَالَمِينَ أَمْثَالُ
مَحَلُّهَا الْمَهْضَبُ وَمِنْهَا الْأَبْطَالُ * لَهَا إِطَابَاتٌ بِهَا وَأَكَالُ

ويقول الآخر :

إِلَيْكَ جَاوَزَنَ سَوَادَ الرَّيْفِ * فِي هَبَوَاتِ الصَّيْفِ وَالْحَرِيفِ
* مَحْطَّمَاتٍ بِجِبَالِ اللَّيْفِ *

فقام مالك بن نَمِيطٍ بين يديه ، ثم قال : يا رسول الله ، نَصِيْبَةٌ مِنْ هَمْدَانَ مِنْ كُلِّ
حَاضِرٍ وَبَادٍ ، أَنْتَ عَلَى قُلُوبِ نَوَاجِحٍ ، مَتَّصِلَةٌ بِجِبَالِ الْإِسْلَامِ ، لَا تَأْخُذُهُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ
لَا تَمُّ ، مِنْ مَخْلَافِ خَارِيفٍ ، وَيَايَمٍ ، وَشَاكِرٍ ، أَهْلُ السَّوَادِ وَالْقُرَى ، أَجَابُوا دَعْوَةَ
الرَّسُولِ ، وَفَارَقُوا آلِهَةَ الْأَنْصَابِ ، عَهْدُهُمْ لَا يَنْقُضُ مَا أَقَامَ لَعَلَّعٌ ، وَمَا جَرَى الْيَعْفُورُ بِصَلْعٍ .

فَكَتَبَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كِتَابًا فِيهِ : "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ !
هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَخْلَافِ خَارِيفٍ وَأَهْلِ جَنَابِ
الْمَهْضَبِ وَحِقَافِ الرَّمْلِ ، مَعَ وَافِدِهَا ذِي الْمِشْعَارِ مَالِكِ بْنِ نَمِيطٍ ، وَلَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ قَوْمِهِ
عَلَى أَنْ لَهُمْ فِرَاعَهَا وَوَهَاطَهَا مَا أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَتَوْا الزَّكَاةَ ، يَا كَاوْنَ عِلَافَهَا وَيَرْعَوْنَ
عَافِيَهَا ، لَهُمْ بِذَلِكَ عَهْدُ اللَّهِ وَذِمَامُ رَسُولِهِ ، وَشَاحِدُهُمُ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ " .

فقال في ذلك مالك بن نَمِيطٍ :

ذَكَرْتُ رَسُولَ اللَّهِ فِي فَحْمَةِ الدُّجَى * وَنَحْنُ بِأَعْلَى رَحْرَحَاتٍ وَصَلْدِ
وَهُنَّ بِنَا خَوْصٌ طَلَاخٌ تَعْتَلِي * بِرُبَّانِهَا فِي لَاحِبٍ مُتَمَدِّدِ
عَلَى كُلِّ فَمَلَاةٍ الدَّرَاعِينَ بِجَسْرَةٍ * تَمْرُنَا مَرَّ الْمِجْفَفِ الْخَبِيدِ

حَلَفْتُ بِرَبِّ الرَّاقِصَاتِ إِلَى مِنِّي * صَوَادِرَ بِالرُّجَّانِ مِنْ هَضْبٍ قَرَدِدٍ
بأن رسول الله فينا مُصَدِّقٌ * رسولُ أتى من عند ذي العرشِ مُهْتَدٍ
فما حَمَلَتْ من نَاقَةٍ فوق رَحَائِهَا * أبرَّ وأوفى ذمَّةً من مُحَمَّدٍ
وأعطى إذا ما طَالِبُ العُرْفِ جَاءَهُ * وأمضى بِحَدِّ المَشْرِفِ المُهْتَدِ

وفي رواية أن في كتابه إليهم : ”إن لكم فِرَاعَهَا وِهَاطَهَا وَعَرَازَهَا : أكلون
عَلَافَهَا وَتَرَعُونَ عَفَاءَهَا ؛ لنا من دِفْيِهِمِ وَصِرَامِهِمِ ما سَلَّمُوا بالمِثاقِ والأمانة ؛ ولهم من
الصَّدَقَةِ التُّلْبُ والنَّابُ ، والنَّصِيلُ والعارضُ ، والدَّاجِنُ والكَبْشُ الحَوْرِيُّ ؛ وعليهم
فيها الصَّالِغُ والقَارِخُ“ .

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم لِأَكِيدِرِ دُومَةَ . قال أبو عبيدة . أنا قرأته
فإذا فيه : ”بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ! من محمد رسول الله ، لِأَكِيدِرِ حين أجاب إلى الإسلام ،
وخلَعَ الأندَادَ والأصْنَامَ ؛ مع خالد بن الوليد ، سِيفِ اللَّهِ فِي دُومَةِ الجَنْدَلِ وَأَكْنَفِهَا ؛
إن لنا الضَّاحِيَةَ مِنَ الضَّحْلِ والبُورِ والمعَامِي وَأَغْفَالَ الأَرْضِ ، والحَلْقَةَ والسَّلَاحَ والحَافِرَ
والحِصْنَ ؛ ولكم الضَّامِنَةَ مِنَ النخْلِ ، والمعِينِ مِنَ المعمورِ ، لا تُعَدُّ سَارِحَتُكُمْ . ولا
تَعَدُّ فَارِدَتُكُمْ ؛ ولا يُحْظَرُ عَلَيْكُمُ النِّبَاتُ ، تُقِيمُونَ الصَّلَاةَ لوقتها ، وتُؤْتُونَ الزَّكَاةَ بِحَقِّهَا ؛
عليكم بذلك عهدُ اللَّهِ والمِثاقُ ، ولكم بذلك الصَّدقُ والوفاءُ ، شهد اللَّهُ وَمَنْ حَضَرَ مِنَ
المسلمين“ .

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى وائل بن حجرٍ وأهل حَضْرَمَوْتِ ، وهو
”بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ! من محمد رسول الله إلى الأقبالِ العَبَاهِلَةِ مِنْ أَهْلِ حَضْرَمَوْتِ
بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، على التَّيْعَةِ الشَّاةِ ، والتَّيْمَةِ لِصَاحِبِهَا وفي السُّبُوبِ

(١) الضحل بالسكون : النليل من الماء ، ويروى : ”لكم الضاحية من البعل“ وهو النحل .

الخمس ؛ لا خِلَاطَ ولا وِرَاطَ ، ولا سِنَاقَ ولا سِغَارَ ؛ ومن أجبى فقد أربى ، وكل مُسْكِرٍ حرامٌ .

وفي رواية أنه كتب إليهم " إلى الأقبال العباهلة والأرواع المشاييب ، وفي التبعة شاة لا مقورة الألباط ولا ضناك ، وأنطوا التبعة وفي السيوب الخمس ؛ ومن زنى من أمبكر فاصقعوه مائة ، وأستوفضوه عاماً ؛ ومن زنى من أمثيب فصرجوه بالأضاميم ، ولا توصيم في الدين ، ولا غمة في فرائض الله تعالى ؛ وكل مُسْكِرٍ حرامٌ ، ووائل بن حجر يترقل على الأقبال " .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله " في المثل السائر " : فصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقتضى استعمال هذه الألفاظ ، ولا تكاد توجد في كلامه إلا جواباً لمن يخاطبه بمثلها كحديث طهفة وما جرى مجراه ؛ على أنه قد كان في زمنه أولاً متداولاً بين العرب ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يستعمله إلا يسيراً لأنه أعلم بالفصح والأفصح .

الصفة الثانية

اللفظ الفصيح ألا يكون مبتدلاً عاماً ، ولا ساقطاً سوقياً

واللفظ المبتدل على قسمين

القسم الأول

ما لم تغيره العامة عن موضعه اللغوي إلا أنها آختصت باستعماله دون الخاصة فابتدل لأجل ذلك وسخف لفظه ، وأنحطت رتبته لأختصاص العامة بتداوله ، وصار من استعماله من الخاصة ملوماً على الإتيان به لمشاركة العامة فيه ؛ وقد وقع ذلك لجماعة من فحول الشعراء فعيب عليهم .

فمن ذلك قول الفرزدق من فمسيبة .

وأصبح مبيض الضريب كأنه . على سروات النبت قطن مندوف

فقوله مندوف من الألفاظ العامية المبتذلة ، وإن كان له أصل في اللغة يقال :

ندف القطن إذا ضرب به بالمندف ، ولذلك قيل للقطن المندوف : نديف .

ومن ذلك قول أبي نؤاس :

وملحة بالعدل تحسب أني . بالجهل أترك صعبة الشطار

فالشطار جمع شاطر ، وهو في أصل اللغة اسم لمن أعبأ أهله خبثاً ، يقال منه :

شطر وشطر بالفتح والضم شطارة بالفتح فيهما ، ثم استعمل في الشجاع الذي أعبأ

الناس شجاعةً ، وغلب دورانه على لسان العامة فأمتين وأبتدل ، فاستعمل أبي نؤاس

له غير لائق ، وكذلك قوله أيضا :

يامن جفاني وملا . نسبت أهلاً وسهلاً

وما تمرحبت لما . رأيت مالي قلاً

إني أظنك فيما . فعلت تحكى القرى

بلفظ القرى من أشد الألفاظ العامة أبتذالا ، وهو اسم لطائر صغير من طيور

الماء يخطف صغار السمك من الماء برجليه ومنقاره ، فإذا سقط على الماء

ولم يحصل على صيد ارتفع بسرعة ، فتضرب به العامة المثل نقول : فلان كأنه قرى ،

إذ وجد شيئاً أدل ، وإن وجد شراً تعلّى

وقوله أيضا .

وأتمر الجلد صيرته . في الساس راعا وشقراقا

مازلت أجرى كل ملكي فوقه . حتى دعا من تحته قاقا

فقله : قاقاً حكاية لصوت يضرب به المثل لصياح المغلوب، يقال : فعلت بفلان كذا وكذا حتى قال : قاق ؛ وأقبح من ذلك كله في الأبتدال بين العامة والسخافة قول المتنبي :

ومن الناس مَنْ يَجُوزُ عَلَيْهِمْ * شُعْرَاءُ كَانَهَا الْحَارِ بِارِ

قال في "المثل السائر" : وهذا البيت من مضحكات الأشعار وهو من جملة البرسام الذي ذكره في قوله :

إِنْ بَعْضًا مِنَ الْقَرِيضِ هُدَاءٌ * لَيْسَ شَيْئًا وَبَعْضُهُ أَحْكَامُ
فِيهِ مَا يَجْلِبُ الْبِرَاعَةَ وَالْفَهْمُ * فِيهِ مَا يَجْلِبُ الْبِرْسَامُ

وعد منه في "المثل السائر" قول البحري :

وَجُوهٌ حُسَّادِكَ مُسَوِّدَةٌ * أَمْ صُبِغَتْ بَعْدِي بِالزَّاجِ؟

قال : فلفظة الزاج من أشد ألفاظ العامة ابتدالا، وكذلك عد منه قول الالباني :

أَوْ دُمِيَّةٌ فِي مَرْمَرٍ مَرْفُوعَةٍ * بِنَيْتِ بَاحِرٍ يُسَادُ بِقَرْمِيدِ

قال : فلفظة أجر مبتدلة جدا . وإذا شئت أن تعلم شيئا من سر الفصاحة التي تضمنها القرآن الكريم، فأنظر إلى هذا الموضع فإنه لما جرى فيه بذكر الأجر لم يذكر بلفظه، ولا بلفظ القرمد أيضا، ولا بلفظ الطوب الذي هو لغة أهل مصر، فإن هذه الأسماء مبتدلة لكن ذكر في القرآن على وجه آخر، وهو قوله تعالى : ﴿ وَذَلَّ الشَّرْعُ عَنْ يَأْيِهَا الْمَلَأَ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا ﴾ فعبّر عن الأجر بالوقود على الطين؛ نعم من الألفاظ المبتدلة السخيفة لفظة الكافر وما أشق منه، ولذلك عابها القاضي الفاضل رحمه الله تعالى على ابن سناء الملك في بعض أشعاره حيث قال من أبيات

يُزْحَرَفُ مِنْهَا وَجْهٌ فَهُوَ جَنَّةٌ * وَيُحْضَرُ مِنْهَا نَضْرَةٌ فَهُوَ سِنْدَسٌ
صَلِيْبِي وَهَذَا الْحُسْنُ بَاقٍ فَرُبَّمَا * يُعْزَلُ بَيْتُ الْحُسْنِ مِنْهُ وَيُكْنَسُ

فلما وقف القاضي الفاضل رحمه الله على هذه القصيدة كتب إلى ابن سناء الملك من جملة فصل : وما قلت هذه الغاية ، إلا وتعلمني أنها البداية ، ولا قلت هذا البيت آية التصيدة إلا تلا ما بعده : وَمَا نُزِيهِمْ مِنْ آيَةٍ . أَفِيحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ . ولا عيب في هذه المحاسن إلا قصور الأفهام ، وتقصير الأنام ، وإلا فقد طَهِجَ النَّاسُ بِمَا تَحْتَهَا ، وَدَوَّنُوا مَا دُونَهَا ، وَشَغَلُوا التَّصَانِيفَ وَالْحَوَاطِرَ وَالْأَقْلَامَ بِمَا لَا يُقَارِبُهَا ، وَسَارَتِ الْأَشْعَارُ وَطَالَتْ بِمَا لَا يَبْلُغُ مُدَّهَا وَلَا نَصِيفَهُ ، وَالْقَصِيدَةُ فَائِقَةٌ فِي حُسْنِهَا ، بَدِيعَةٌ فِي فَنِّهَا ، وَقَدْ ذَلَّتِ السِّينُ فِيهَا وَأَنْقَادَتْ ، فَلَوْ أَنَّهَا الرِّاءُ لَمَا رَادَتْ ، وَبَيْتٌ يُعْزَلُ وَيُكْنَسُ أَرَدْتُ أَنْ أَكْنُسَهُ مِنَ الْقَصِيدَةِ ، فَإِنْ لَفِظَةُ الْكُنْسِ غَيْرَ لَائِقَةٍ فِي مَكَانِهَا .

فأجابه ابن سناء الملك قائلا : وعلم المملوك مانبه عليه مولانا من البيت الذي أراد أن يكُنسه من القصيدة ، وقد كان المملوك مشغولاً بهذا البيت ، مستحلياً له متعجباً منه ، معتقداً أنه قد ملَّح فيه ، وأنَّ قافية بيته أميرة ذلك الشعر وسيدة قوافيه ، وما أوقعه في الكنس إلا ابن المعتر في قوله :

وَقَوَامِي مِثْلُ الْقَنَاءِ مِنَ الْخَطِّ وَخَدِي مِنْ لِحْتِي مَكْنُوسٌ

والمولى يعلم أن المملوك لم يزل يجرى خلف هذا الرجل ويتعثر ، ويطلب مطالبه فتعسر عليه وتعدر ، ولا آنس ناره إلا لما وجد عليها هدى ، ولا مال المملوك إلا إلى طريق من ميلة إليه طبعه ، ولا سار قلبه إلا إلى من دلَّه عليه سمعه ، ورأى المملوك أبا عبادة قد قال :

وِيَا عَادِي فِي عِبْرَةٍ قَدْ سَفَحْتَهَا * لِبَيْنٍ وَأُخْرَى قَبْلَهَا لِلتَّجَنَّبِ

تُحَاوِلُ مِنِّي شَيْبَةً غَيْرَ شَيْمِي * وَتَطْلُبُ مِنِّي مَذْهَبًا غَيْرَ مَذْهَبِي
وقال :

وما زَارَنِي إِلَّا وَهَيْبَةٌ صَبَابَةٌ * إِلَيْهِ وَإِلَّا قَلْتُ أَهْلًا وَمَرْحَبًا
فَعَلِمَ الْمَمْلُوكُ أَنَّ هَذِهِ طَرِيقَةٌ لَا تُسَلَّكَ ، وَعَقِيلَةٌ لَا تُنْمَلُكَ ، وَغَايَةٌ لَا تُدْرَكُ ، وَوُجِدَ
أَبَا تَمَّامٍ قَدْ قَالَ :

* سَلِّمْ عَلَى الرَّبِّيعِ مِنْ سَلَمِي بِدِي سَلَمٍ
وقال : * خَشُنَتْ عَلَيْهِ أُخْتُ بَنِي خُشَيْنِ *

فَأَشْمَازُ مِنْ هَذَا النَّمِطِ طَبَعُهُ ، وَاقْشَعْرُ مِنْهُ فَهْمُهُ ، وَنَبَأٌ عَنْهُ ذَوْقُهُ ، وَكَادَ سَمِعَهُ
بِجَزَعِهِ وَلَا يَكَادُ يُسَيِّغُهُ ، وَوَجِدَ هَذَا السَّيِّدَ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ الْمُعْتَرِ قَدْ قَالَ :

وَقَفَّتْ فِي الرَّوْضِ أَبْيُكِي فَقَدَّ مُشَبِّهِي * حَتَّى بَكَتُ بِدُمُوعِي أَعْيُنُ الرَّهْرِ
لَوْلَمْ أَعْرِهَا دُمُوعَ الْعَيْنِ تَسْفَحُهَا * لَرَحِمْتِي لِأَسْتَعَارَتِهَا مِنَ الْمَطَرِ
وقال :

قَدْ كَفَّ غُصْنٌ لَا شَكَّ فِيهِ كَمَا * وَجْهَكَ شَمْسٌ نَهَارُهُ جَسَدُكَ

فَوَجِدَ الْمَمْلُوكُ طَبَعَهُ إِلَى هَذَا النَّمِطِ مَائِلًا ، وَخَاطَرَهُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ عَلَيْهِ سَائِلًا ،
فَنَسَّجَ عَلَى هَذَا الْأَسْلُوبِ ، وَغَلَبَ عَلَيْهِ خَاطَرُهُ مَعَ عِلْمِهِ أَنَّهُ الْمَغْلُوبُ ، « وَحُبُّكَ الشَّيْءُ
يُعْمَى وَيُصَمُّ » فَقَدَّ أَعْمَاءَ حُبِّهِ وَأَصَمَّهُ إِلَى أَنْ نَظَّمَ تِلْكَ اللَّفْظَةَ فِي تِلْكَ الْأَبْيَاتِ تَقْلِيدًا
لِابْنِ الْمُعْتَرِ حَيْثُ قَالَهَا ، وَحَمَلَ أَثْقَالَهَا ، وَهِيَ تُغْفَرُ لِذَلِكَ فِي جَنْبِ إِحْسَانِهِ ، فَأَمَّا
الْمَمْلُوكُ فَهِيَ عَوْرَةٌ ظَهَرَتْ مِنْ لِسَانِهِ .

فَأَجَابَهُ الْفَاضِلُ الْفَاضِلُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ : وَلَا حِجَّةَ فِيهَا أَحْتَجُّ بِهِ عَنِ الْكُنْسِ
فِي بَيْتِ ابْنِ الْمُعْتَرِ ، فَإِنَّهُ غَيْرُ مَعْصُومٍ مِنَ الْغَلْطِ ، وَلَا يُقَالُ إِلَّا فِي الصَّوَابِ فَقَطْ ،
وَقَدْ عَلِمَ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ رَشِيْقٍ فِي عَمْدَتِهِ مِنْ تَهَأُّفِ طَبَعِهِ ، وَتَبَايُنِ وَضْعِهِ ، فَذَكَرَ مِنْ
مَحَاسِنِهِ مَا لَا يُعَلَّقُ مَعَهُ كِتَابٌ ، وَمِنْ بَارِدِهِ وَغَيْثِهِ مَا لَا تُلْبَسُ عَلَيْهِ الثِّيَابُ .

وقد تَعَصَّبَ القاضي السعيد على أبي تمام فنقصه من حظه ، وللبُحْتَرِيِّ فاعطاه
أكثر من حفه ، وما أنصفهما :

ولو كان هذا مَوْضِعَ الْعَتَبِ لِأَشْتَفَى * فُوَادِي وَلَكِنْ لِلْعِتَابِ مَوَاضِعُ

قال المولى صلاح الدين الصَّفْدِي رحمه الله تعالى في شرح لامية العجم . وقد
استعمل ابن سناء الملك رحمه الله تعالى هذه اللفظة في غير هذا الموضع ولم يتعظ
بنهى الفاضل ولا أرعوى ولا أزدجر عما قبحه لأنه غلب عليه الهوى ، فقال :

تَوَسَّوسَ شِعْرِي بِهِ مُدَّةً * وَمَا بَرَحَ الْحَلِيَّ وَالْوَسْوَسَةَ

وَحَلَّصَنِي مِنْ يَدَيْ عِشْقِهِ * ظِلَامٌ عَلَى حَدِّهِ حَنْدَسَهُ

كَنَسْتُ فُوَادِي مِنْ عِشْقِهِ * وَلِحَيْتِهِ كَانَتْ الْمِكْنَسَةَ

قال : وأما القاضي الفاضل ، فما أظنه خلا في هذا الإيراد ، من ضعف أنتقاد ،
وأحاشى ذلك الذهن الوقاد ، من هذا الأعتقال في ورطة هذا الأعتقاد ، وما أراه
إلا أنه تعمد أن يعكس مراده ، ويوهي ماشده ويوهن ماشاده ، ويرميه ببلاء
البلادة ، إما على سبيل النكال أو النكادة ، لأن الفاضل رحمه الله ممن يتوحي هذه
الألفاظ ويقصدها ، ويُنْشِئُهَا وَيُنْشِدُهَا ، ويورى زنادها ويوردها .

فإن كلام القاضي الفاضل في بعض رسائله : وما أستطاعت أيديهم أن تقبض
بحمره ، ولا ألباهم أن تسيع حمره ولا سيوفهم أن تكنس قيمه .

قال في "المثل السائر" : ومثل هذه الألفاظ إذا وردت في الكلام ، وضعت من
قدره ولو كان منقاد شريفا . قال : وهذا القسم من الألفاظ المتبدلة لا يكاد يخلو
منه شعر شاعر ، لكن منهم المُقِلُّ ومنهم المُكثِرُ .

القسم الثاني

ما كان من الألفاظ دالاً على معنى وضع له في أصل اللغة فغيرته
العامة وجعلته دالاً على معنى آخر . وهو على ضربين

الضرب الأول - ما ليس بمستقبح في الذكر ولا مستكره في السمع . وذلك
كتسميتهم الإنسان إذا كان دميث الأخلق ، حسن الصورة أو اللباس أو ما هذا
سبيله ظريفاً ، والظرف في أصل اللغة : مختص بنطق اللسان فقط ، كما أن الصبابة
مختصة بالوجه ، والوضاءة مختصة بالبشرة ، والجمال مختص بالأنف ، والحلاوة
مختصة بالعينين ، والملاحة : مختصة بالفم ، والرشاقة : مختصة بالقدم ، والنسافة :
مختصة بالشمال ، فالظرف إنما يتعلق بالنطق فغيرته العامة عن بابه ونقلته إلى أعم
من موضوعه كما تقدم ، ومن وقع له الدهول عن ذلك فغايط فيه أو نوايس في قوله :

اختصم الجود والجمال * فيك فصارا إلى جدال

فقال هذا يمينه لي * للعرف والبذل والنوال

وقال هذا وجهه لي * للظرف والحس والكمال

فافترقا فيك عن تراض * كلاهما صادق المثال

فوصف الوجه بالظرف ، وهو من صفات النطق كما تقدم ، وكذلك أبو تمام

في قوله :

لك هضبة الحلم التي لو وازنت * أجاً إذا ثقأت وكان حصيها

وحلاوة الشيم التي لو مازجت * خلق الزمان القدم عاد ظريفا

فوصف الشيم بالحلاوة وهي مختصة بالعينين ، ووصف الخلق بالظرف وهو

مختص بالنطق كما تقدم بيانه .

الضرب الثاني - ما يُستقبح ذكره كما في لفظ الصُّرْم بالصاد المضمومة والسرْم بالسين، فإن الصُّرْم بالصاد في أصل اللغة عبارة عن القطع، يقال: صرمه بصِرْمِهِ صَرْمًا وصرْمًا بالفتح والضم إذا قطعه، وبالسين عبارة عن المحل المخصوص، وقد كانت العرب تستعمله بالصاد المضمومة في أشعارها بهذا المعنى فلا يعاب عليها، قال أبو صخر الهذلي:

فَد كَانَ صُرْمٌ فِي الْمَمَاتِ لَنَا * فَعَجِلْتُ قَبْلَ الْمَوْتِ بِالصُّرْمِ

فاستعمله بمعنى القطع ولم يُعب عليه لأن الألفاظ في زمن العرب لم تتغير بل كانت باقية على أوضاعها الأصلية، فقلبت العامة السين من المحل المخصوص صادا واستعملت لفظ الصُّرْم الذي هو القطع في المحل المخصوص، فصار لفظه مستقبحا وسماعه مستكرها، وعيب على أبي الطيب استعماله في قوله:

إِذَا قِ الْغَوَائِي حُسْنُهُ مَا أَذَقْنِي * وَعَفَّ بِخَازَاهِنٍ عَنِّي بِالصُّرْمِ

على أنه إنما يكره استعماله بصيغة الأسم لما تقدم، أما إذا استعمل بصيغة الفعل مثل صُرْمَ وِبَصْرِمُ وما شاكل ذلك، فإنه لا حرج في استعماله، وقد استعمله ابن الرومي بالسين على بابهِ بقاءً أقبح وأشنع، فقال يهجو الورد:

كَأَنَّهُ سُرْمٌ بِفَعْلٍ حِينَ يُخْرِجُهُ * عِنْدَ الْإِرَازِ وَبَاقِي الرَّوْثِ فِي وَسْطِهِ

قال الصلاح الصفدي: وأبن هذا التشبيه القبيح من قول الأخر في الورد أيضا:

كَأَنَّهُ وَجَنَةٌ الْحَبِيبِ وَقَدْ * نَقَطَهَا عَاشِقٌ بِدِينَارٍ

قال: فانظر إلى هذا، وجنة، وحبیب، ودينار، وإلى ذلك، سرْم، وبغل،

وروت، وشتان ما بينهما.

الصفة الثالثة

من صفات اللفظ المفرد الفصيح ألا يكون متنافراً بالحروف، فإن كانت حروفه متنافرة بحيث يثقل على اللسان ويعسر النطق به فليس بفصيح وذلك نحو لفظ المَعْجَعُ في قول بعض العرب عن ناقة: تركتها ترعى المَعْجَعُ بالخاء المعجمة والعين المهملة، وهو نبت أسود، وكذلك لفظ مستشزرات من قول امرئ القيس في قصيدته اللامية التي من جملة التصانيد السبع الطوال:

غَدَائِرُهُ مُسْتَشِزِرَاتٌ إِلَى الْعُلَا * تَصِلُ الْمَدَارِي فِي مِثْنِي وَمُرْسَلِ

فلفظ مستشزرات من المتنافر الذي يثقل على اللسان، ويعسر النطق به.

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله في "المثل السائر": ولقد رأيت بعض الناس وأنا أعيب على امرئ القيس هذا المنظر فأكبر ذلك لوقوفه مع شبهة التقليد في أن امرأ القيس أشعر الشعراء، فعجبت من ارتباطه بمثل هذه الشبهة الضعيفة، وقلت له: لا يمنع إحسان امرئ القيس من استقباح ماله من التبيح، بل مثال ذلك كمثل غزال المسك فإنه يخرج منه المسك والبعر، ولا يمنع طيب ما يخرج من مسكه من خبث ما يخرج من بعره، ولا تكون لذادة ذلك الطيب حامية للخبث من الاستكراه، فأسكت الرجل عند ذلك.

إذا علمت ذلك، فإن معظم اللغة العربية دائرة على ذلك، لأن الواضع قسمها في وضعه إلى ثلاثة أقسام: ثلاثياً، ورباعياً، وخماسياً، فالثلاثي من الألفاظ هو الأكثر، ولا يوجد فيه ما يكره استعماله إلا النادر، والخماسي هو الأقل، ولا يوجد فيه ما يستعمل إلا الشاذ النادر، والرباعي وسط بين الثلاثي والخماسي في الكثرة عدداً واستعمالاً، فيكون أكثر اللغة مستعملاً غير مكروه. قال: ولا تقتضي حكمة هذه

اللغة التي هي سيّدة اللغات إلا ذلك ، ولذلك أسقط الواضع منها حروفا كثيرة في تأليف بعضها مع بعض استثقالا وأستكراها ، فلم يؤلف بين حروف الخلق كالحاء والعين ، وكذلك لم يؤلف بين الجيم والقاف ، ولا بين اللام والراء ، ولا بين الزاي والسين ، وذلك دليل على عنايته بتأليف المتباعد المخارج دون المتقارب ، وكيف كان الواضع يُخَلُّ بمثل هذا الأصل الكلي في تحسين اللغة وقد أعتنى بأمور جزئية دون ذلك ! كما نلتته بين حركات الفعل في الوجود وبين حركات المصدر في النطق كالغَلَيَّانِ ، والضَّرْبَانِ ، والتَّنَزَّانِ ، والنَّزْوَانِ ؛ وغير ذلك مما يجرى هذا المجرى ، فإن جميع حروفه متحركات ليس فيها حرف ساكن ، وهي مماثلة لحركات الفعل في الوجود .

ومن نظر في حكمة وضع هذه اللغة إلى هذه الدقائق التي هي كالأطراف والحواشي فكيف كان يخل بالأصل المعول عليه في تأليف الحروف بعضها إلى بعض ! . على أنه لو أراد الناظم أو الناثر أن يعتبر مخارج الحروف عند استعمال الألفاظ ، أهي متباعدة أو متقاربة؟ لطال الخطب في ذلك وعسر ، ولما كان الشاعر ينظم قصيدا ، ولا الكاتب يدسئ كتابا إلا في مدة طويلة ، والأمر بخلاف ذلك ، فإن حاسة السمع هي الحاكمة في هذا المقام في تحسين لفظ وتقبیح آخر ، . على أنه قد يجيء من المتقارب المخارج ما هو حسن رائق ، ألا ترى أن الحروف الشجرية ، وهي الجيم والشين والياء متقاربة لأنها تخرج من وسط اللسان بينه وبين الحنك ، وإذا ترتب منها لفظ جاء حسنا رائقا ، فإن لفظه جيش قد اجتمع فيها الحروف الشجرية الثلاثة ، وهي مع تقارب مخارجها حسنة رائقة ، وكذلك الحروف الشفهية وهي الباء والميم والفاء متقاربة المخارج ، فإن تخرج جميعها من الشفة ، وإذا ترتب منها لفظ جاء سائسا غير متنافر ، كقولك أكلت بقمي ، وهو في غاية الحسن ، والحروف الثلاثة

الشفهية مع تقارب مخارجها مجتمعة فيهما وقد يجيء من المتباعد المخارج ما هو قبيح متنافر، كقولك : مَلَعَ بمعنى عدا، فإن الميم من الشفة، والعين من حروف الحلق واللام من وسط اللسان، فهذه الحروف كلها متباعدة من بعضها ومع ذلك فإنها كرتبة الاستعمال، ينبو عنها الذوق السليم، ولو كان التبعاد سببا للحسن لما كان سببا للقبح، على أنه لو عكست حروف هذه النمطة صارت علم وعاد القبح منها حسنا، مع أنه لم يتغير شيء من مخارجها، على أن اللام لم تزل فيها وسطا والميم والعين يكسفتانها من جانبيها، ولو كانت مخارج الحروف معتبرة في الحسن والقبح لما تغيرت هذه النمطة بتقديم بعض الحروف وتأخير بعض، وليس ذلك لأن إدخال الحروف من الألف إلى الحلق في مَلَعَ أعسر من إخراجها من الحلق إلى الشفة في علم، وقد انقلبت مَلَعَ فيها الباء وهي من حروف الشفة واللام وهي من وسط اللسان والعين هي من حروف الخلق وهي غير مكروهة .

قال في "المثل السائر" : ولربما أعترض بعض الجهال بأن الاستعمال في لفظ مستشزرات إنما هو لطولها وليس كذلك، فإننا لو حذفنا منها الألف والباء وقبلنا مستشزر لكان ثقبلا أيضا، لأن الشين قبلها تاء وبعدها زاي، فتقل النطق بها من لو أبدلنا من الزاي راء ومن الراء فاء فقلنا مُسْتَشْرِفٌ لزال ذلك، ومن ثم ظهر لنا أن اعتبار ابن سنان تركيب الكلمة من أقل الأوزان تركيبا غير معتبرا، وقد ورد في القرآن العظيم الفاظ طوال لا شك في حسنها وفصاحتها كقوله تعالى : **رَفِيعَ دَرَجَاتِهِمْ** الله **وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** وقوله تعالى : **لَيْسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ** فإن لفظ **فَسَيَكْفِيكَهُمْ** مركب من تسعة أحرف، ولفظ **لَيْسْتَخْلِفَنَّهُمْ** مركب من عشرة أحرف، ولفظ **مُسْتَشْرِزَاتٍ** مركب من ثمانية أحرف . قال : والأصل في هذا الباب أن الأصول لا تحسن إلا في الثلاثي وفي بعض الرباعي، كقولك عَابَ وَعَسَجَدَ، فالأولى ثلاثية،

والثانية رُبَاعِيَّةٌ، أما الخُمَاسِيَّةُ من الأصول فإنه قبيح، كقولك: صَهْصَيْقٌ وَجَحْمَرِشٌ، وما جرى مجراهما؛ ولهذا لا يوجد في القرآن الكريم من الخُمَاسِيَّةِ الأصول شيء إلا ما كان من اسم نبيٍّ عَرَبٍ اسمه، ولم يكن في الأصل عربياً كإبراهيم وإسماعيل ونحوهما .

الصفة الرابعة

من صفات اللفظ المفرد الفصيح ألا يكون على خلاف القانون المستنبط من تتبع مفردات ألفاظ لغة العربية وما هو في حكمها كوجوب الإتيان في نحو قام والإدغام في نحو مَدَّ، وغير ذلك مما يشتمل عليه علم التصريف، فإنه لو فكَّ الإدغام في مَدَّ فقال مَدَّد لم يكن فصيحاً، وعلى حدِّ ذلك جاء قول بعض العرب .

* الحمد لله العليُّ الأجل *

فإن عباس بابَه الإدغام فيقال الأجل .

قال الشيخ سعد الدين التفتازاني في شرح التلخيص: وأما نحو أبي يابى وعُورٍ وأستحوذَ وقَطِط شعوره وما أشبه ذلك من السواد الثابتة فليست من المخالفة في شيء لأنها كذلك ثبتت عن الواضع، فهي في حكم المستثناة .

فهذه الصفات الأربع هي عمود الفصاحة في اللفظ المفرد، وقطب دائرة حسنه، متى أتصف بها وسلم من أضدادها كان بالفصاحة متِّسبياً، وبالحسن والرونق مشتملاً، وللطبع ملائماً، وللسمع موافقاً، ومتى عَرِيَ عن ذلك خرج عن طرائق الفصاحة، وحاد عن سبيل الحسن، ومال إلى الهُجْنَةِ، فَمَجَّه السمع، وقلاه الطبع، ورفضته النفوس، ونفرت منه القلوب، فلزم العيبُ قائله، وتوجه العتبُ على مستعمله .

قال ابن الأثير رحمه الله : وقد رأيت جماعة من الجهال إذا قيل لأحدهم : إن هذه اللفظة حسنة وهذه قبيحة أنكروا ذلك وقال : بل كل الألفاظ حسن ، والواضع لم يضع إلا حسنا . قال : ومن يبلغ جهله إلى غاية لا يفرق بين لفظة الغصن ولفظة السلوج ، وبين لفظ المدامة ولفظ الإسفِيط ، وبين لفظ السيف ولفظة الخنثليل ، وبين لفظ الأسد ولفظة الفدوكيس ، فلا يفتن أن يُخاطبَ بخطاب ، ولا يُجاب بجواب ، بل يترك شأنه كما قيل : «أتركوا الجاهل بجهله ، ولو ألقى الجعفر في رحله» .

وما مثاله في ذلك إلا كمن يسوى بين صورة زنجية سوداء مظلمة السواد ، شوهاء الخلق ، ذات عين محمّرة ، وشفة غليظة ، وشعر قَطَط و بين صورة رومية بيضاء ، مشربة بجمرة ، ذات خد أسيل ، وطرف كحيل ، ومبسم كأنما نُظِم من أقاح ، وطيرة كأنها ليل على صباح . فإذا كان بإنسان من سُقم النظر أن يسوى بين هذه الصورة وهذه ، فلا يبعد أن يكون به من سُقم الفكر أن يسوى بين هذه الألفاظ وهذه ، ولا فرق بين السمع والنظر في ذلك ، فإن هذه حاسة وهذه حاسة ، وقياس حاسة على حاسة غير ممتنع ، ولا عبرة بمن يستحسن الألفاظ القبيحة ، ويميل إلى الصورة الشنيعة ، فإن الحكم على الكثير الغالب ، دون الشاذ النادر الخارج عن الاعتدال ، فانا لو رأينا من يُحبُّ أكل الفَحْم والحِصّ والتراب ، ويختار ذلك على ملاذ الأظعمة فانا لانستجيد هذه الشهوة بل نحكم عليه بالمرض وفساد المعدة ، وأنه يحتاج إلى العلاج والمداواة ، ومن له أدنى بصيرة يعلم أن لالألفاظ في الأذن نعمة لذيذة كنعمة الأوتار ، وصوتا مُنكرا كصوت الحمار ، وأن لها في الفم حلاوة كحلاوة العسل ، وصرارة كمرارة الحنظل . ولا حجة لأستعمال العرب لهذه الألفاظ ، فإن أستحسان الألفاظ وأستقباحتها لا يؤخذ بالتقليد من العرب ، لأنه ليس للتقليد فيه مجال . وإنما له خصائص وهيئات وعلامات إذا وجدت علم حسنه من قبحه والله أعلم .

الأصل الثالث

من صيانة إلقاء الكلام، تركيب الكلام، وترتيب الالفاظ
والنظر فيه من وجوه

الوجه الأول

في بيان فصل المعرفة بذلك، ومسيس حاجة الكاتب إلى معرفته، والإشارة
إلى حفي سره وتوغر مسلكه

قال أبو هلال العسكري: وأجناس الكلام المنظوم ثلاثة: الرسائل، والخطب،
والشعر، جميعها يحتاج إلى حُسن التأليف، وجودة التركيب، وحسن التأليف يزيد
المعنى وضوحاً وشرحاً، ومع سوء التأليف ورداءة الرصف والتركيب شعبة من
التمعية، فإذا كان المعنى سيئاً، ورصف الكلام رديئاً، لم يوجد له قبول، ولم تظهر
عليه طلاوة. فإذا كان المعنى وسطاً ورصف الكلام جيداً، كان أحسن موقفاً
وأطيب مستعملاً فهو بمنزلة العقد إذا جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها كان
رائعاً في المرأى، وإن لم يكن مرتفعاً نبيلاً، وإن آختل نظمه نُصبت الخسة منه
إلى ما لا يليق بها اقتصدت العين وإن كان فائقاً ثميناً، وحسن الرصف أن توضع
الإنشاد في ما يسبغ، وتمكن من أما كتبها، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير والحذف
والزيادة إلا ما لا يفسد الكلام، ولا يعنى المعنى، وتضم كل لفظة منها إلى شكلها
وتضاف إلى ترتيبها، وسوء الرصف تقديم ما ينبغي تأخيرها منها، وصرفها عن وجوهها،
وتغيير صيغتها، ومخالفة الاستعمال في نظمها.

وقد قال العتابي: الألفاظ أجساد والمعاني أرواح، وإنما تراها بعيون القلوب،
فإذا قَدست منها مؤخرها وأخرت منها مقدما أفسدت الصورة وغيرت المعنى، كما أنه

لو حُوِّلَ رَأْسٌ إِلَى مَوْضِعِ يَدٍ أَوْ يَدٌ إِلَى مَوْضِعِ رَأْسٍ أَوْ رَجُلٌ لَتَحَوَّلَتِ الْمَلَقَةُ،
وَتَغَيَّرَتِ الْحَلِيَّةُ .

قال في "الصناعتين" : وقد أحسن في هذا التمثيل .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله في "المثل السائر" : وهذا الموضع يضلُّ
في سلوك طريقه العلماء بصناعة صوغ الكلام من النظم والنثر، فكيف الجهال الذين
لم تتفتحهم منه رائحة ! ومن الذي يؤتبه الله فطرته ناصعة يكاد زيتها يضيء ولو لم
تمسسه نار ، حتى ينظر إلى أسرار ما يستعمله من الألفاظ فيضعها في مواضعها ؟
وذلك أن تفاوت التفاضل لم يقع في تركيب الألفاظ أكثر مما يقع في مفرداتها ،
إذ التركيب أعسر وأشق ، ألا ترى أن ألفاظ القرآن الكريم من حيث أنفرادها قد
استعملتها العرب ومن بعدهم ، وهي مع ذلك تفوق جميع كلامهم وتعلو عليه ، وليس
ذلك إلا لفصيلة التركيب . وأنظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ أَبْيَ مَاءِكَ
وَيَأْسَاءُ أَقْلَبِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى آبِلُودَى وَقِيلَ بَعْدًا لِلنَّعِيمِ
الظَّالِمِينَ ﴾ وما أشتمت عليه هذه الآية من الحسن والطلاوة والرونق والمائية التي
لا يقدر البشر على الإتيان بمثلها ، ولا يستطيع أفصح الناس وأبلغ العالم مضاداتها ، على
أن ألفاظها المفردة كثيرة الاستعمال دائرة على الألسنة ، فقوة التركيب وحسن السبك
هو الذي ظهر فيه الإعجاز وأختمت فيه البلاغة من حيث لاقت اللفظة الأولى بالثانية
والثالثة والرابعة ، وكذلك سائر الألفاظ إلى آخر الآية . ويشهد لذلك أنك لو أخذت
لفظة منها من مكانها وأفردتها عن أخواتها لم تكن لاسنة من الحسن والرونق ما لبسته
في موضعها من الآية ، ولكل كلمة مع صاحبها مقام

قال ابن الأثير : ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد ،

ككلاهما في الاستعمال على وزن واحد وعدة واحدة ، إلا أنه لا يحسن استعمال واحدة

في كل موضع تستعمل فيه هذه، بل يُفَرَّق بينهما في مواضع السبك، وهذا مما لا يدركه إلا من دَقَّ فِهْمُهُ، وجلّ نظره. وإذا نظرت إلى قوله تعالى: ﴿لِمَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ رأيت ذلك عياناً، فإن الجوف والبطن بمعنى واحد، وقد استعمل الجوف في الآية الأولى والبطن في الآية الثانية ولم يُستعمل أحدهما مكان الآخر، وكذلك قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ وقوله: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِيَنْتَهِيَ الَّذِينَ لَا قَلْبَ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ فالقلب والْفُؤَادُ سواء في الدلالة وإن كانا مختلفين في الوزن، ولم يستعمل أحدهما موضع الآخر.

ومما يجري هذا المجرى قول الأعرج من أبيات الحماسة:

نَحْنُ بَنُو الْمَوْتِ إِذَا الْمَوْتُ نَزَلَ * لَا عَارَ بِالْمَوْتِ إِذَا حُمَّ الْأَجَلُ

* الموت أحلى عندنا من العسل *

وقول أبي الطيب المتنبّي:

إِذَا شِئْتُ حَفَّتْ بِي عَلَى كُلِّ سَابِحٍ * رِجَالٌ كَأَنَّ الْمَوْتَ فِي قِمِّهَا شَهْدُ

فلفظة الشهيد ولفظة العسل كلاهما حسن مستعمل، وقد جاءت لفظة الشهيد في بيت أبي الطيب أحسن من لفظة العسل في بيت الأعرج، على أن لفظة العسل قد وردت في القرآن دون لفظة الشهيد بجاءت أحلى من الشهيد في موضعها، وكثيراً ما تجد أمثال ذلك في أقوال الشعراء المُفْلِقِينَ وَبُلْغَاءِ الْكُتُبِ وَمِصَاقِعِ الْأَطْبَاءِ، وتحتها دقائق ورموزاً إذا عَلِمْتَ وَقَيْسَ عَلَيْهَا كَانَ صَاحِبَ الْكَلَامِ قَدْ آتَمَى فِي النِّظْمِ وَالنَّثْرِ إِلَى الْغَايَةِ الْقَصْوَى فِي وَضْعِ الْأَلْفَاظِ فِي مَوَاضِعِهَا اللَّائِقَةِ بِهَا.

قال: وأعجب من ذلك أنك ترى اللفظة الواحدة تُرَوِّقُكَ فِي كَلَامٍ، ثم تراها

فِي كَلَامٍ آخَرَ فَتُكْرَهُهَا، وقد جاءت لفظة في آي القرآن الكريم بهجة رائقة، ثم جاءت

تلك اللفظة بعينها في كلام آخر بقاءت ركيكة نابية عن الذوق ، بعيدة من الاستحسان ،
 فمن ذلك لفظة يؤذى فإنها وردت في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَجِيبُ
 مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَجِيبُ مِنَ الْحَقِّ ﴾ بقاءت في غاية الحسن ونهاية الطلاوة ، ووردت
 في قول أبي الطيب :

تَلَذُّ لَهُ الْمُرُوءَةُ وَهِيَ تُؤْذِي * وَمَنْ يَعَشُقُ يَلَذُّ لَهُ الْغَرَامُ

بقاءت رثة مستهجنة ، وإن كان البيت من أبيات المعاني الشريفة ، وذلك
 لقوة تركيبها في الآية وضعف تركيبها في البيت الشعري ، والسبب في ذلك أن لفظة
 تؤذى إنما تحسن في الكلام إذا كانت مندرجة مع ما يأتي بعدها متعلقة به كما في الآية
 الكريمة حيث قال : ﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ ﴾ وفي بيت المتنبي جاءت منقطعة
 ليس بعدها شيء لتعلق به حيث قال :

* تَلَذُّ لَهُ الْمُرُوءَةُ وَهِيَ تُؤْذِي *

ثم آتائف كلاما آخر فقال :

* وَمَنْ يَعَشُقُ يَلَذُّ لَهُ الْغَرَامُ *

وقد جاءت هذه اللفظة بعينها في الحديث النبوي مضافة إلى كاف خطاب ،
 فأخذت من المحاسن بزمامها ، وأحاطت من الطلاوة بأطرافها ، وذلك أنه لما
 أشكى النبي صلى الله عليه وسلم جاءه جبريل فرقاه فقال : "بسم الله أرقبك من كل
 داء يؤذيك" فصارت إلى الحسن بزيادة حرف واحد ، وهذا من السر الخفي الذي
 يدق فهمه . وعلى نهج لفظة يؤذى يرد لفظة لي ، فإنها لا تحسن إلا أن تكون متعلقة
 بما بعدها ، ولذلك لحقها هاء السكت في قوله تعالى : ﴿ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهِ هَلَكَ عَنِّي
 سُلْطَانِيهِ ﴾ لما لم يكن بعدها ما يتعلق به ، بخلاف قوله : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ
 وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ فإنه لم تلحقها هاء السكت اكتفاء بما هي متعلقة به .

ومما يجرى مثل هذا المجرى لفظة القمّل ، فإنها قد وردت في قوله تعالى :
 ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ﴾ بغاءت في غاية الحسن ،
 ووردت في قول الفرزدق :

مِنْ عَزِيهِ أَجْتَحَرَتْ كَلْبٌ عِنْدَهُ « زَرَبًا كَأَنَّهُمْ لَدَيْهِ الْقُمَّلُ

بغاءت منحطة نازلة ، وذلك لأنها قد جاءت في الآية مندرجةً في ضمن كلام
 لم ينقطع الكلام عندها ، وجاءت في البيت فافيةً أنقطع الكلام عندها .

هذا ملخص ما ذكره ابن الأثير ، وقال : إنه لم يُسبق إليه ، وجعل الحاكم
 فيه الذوق السليم دون غيره : وعلى الجملة فلا نزاع في أن تركيب الألفاظ يُعطي الكلام
 من القوة والضعف ما تزيد به قيمة الألفاظ الفصيحة ، ويرتفع به قدرها ، أو يحطُّ
 مقدارها عن درجة الفصاحة والحسن إلى رتبة القبح والاستهجان .

الوجه الثاني

في بيان ما ينبنى عليه "تركيب الكلام" وترتيبه . وله ركنان
 الركن الأول - أن يُسلك في تركيبه سبيل الفصاحة والخروج عن الأكنة
 والمجننة .

والفصاحة في المركب بأن يتصف بعد فصاحة مفرداته بصفات

الصفة الأولى

أن يكون سائما من ضَعْفِ التاليف

بأن يكون تاليف أجراء الكلام على القانون النحويّ المشتهر فيما بين معظم
 أعمامة العرب لا يمتنع عند الجمهور ، وذلك كإحصاء قبل الذكر لفظاً أو معني ، نحو

ضرب غلامه زيدا، فإنه غير فصيح وإن كان ما اتصل بالفاعل فيه ضمير المفعول به
 مما أجازته الأخصس، وتبعه ابن جني لشدة اقتضاء الفعل المفعول به كالفاعل،
 وأستشهد بقوله :

لما عصى أصحابه مُصعباً * أدى إليه الكيل صاعاً بصاع

وقوله :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر * وحسن فعل كما يجزى سيمار

وقوله :

ألا ليت شعري، هل يلو من قومه * زهيراً على ما جر من كل جانب

الصفة الثانية

أن يكون سلباً من التعقيد

وهو ألا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المعنى الذي يراد منه، وهو على

ضربين :

الضرب الأول - وهو الذي يسميه ابن الأثير : المعانلة المعنوية - ألا
 يكون ترتيب الألفاظ على وفق ترتيب المعاني بسبب تقديم أو تأخير، أو حذف،
 أو إضمار، أو غير ذلك مما يوجب صعوبة فهم المراد، وإن كان ثابتاً في الكلام،
 جارياً على القوانين، كقول الفرزدق في مدح إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي،
 خال هشام بن عبد الملك :

وما مثله في الناس إلا مملكا * أبو أمه حتى أبوه يُقاربه

أى وما مثل هذا المدوح في الناس حتى يقاربه ويُشبهه في الفضائل إلا مملكا،
 أبو أم ذلك المملك أبو المدوح، فيكون المدوح خال المملك، والمعنى أنه لا يماثل

أحدُ هذا المدوح الذي هو إبراهيم بن هشام إلا ابن أخته هشام ، أفسده وعقد معناه ، وأخرجه عن حدّ الفصاحة إلى حدّ اللكنة ، وكذلك قوله في الوليد بن عبد الملك :

إلى ملكٍ ، ما أمّه من محاربٍ * أبوه ، ولا كانت كليبٌ تصاهرة

يريد إلى ملكٍ ما أم أبوه من محاربٍ ، وقوله :

تعال فإب عاهدتني لا تحوتني * نكن مثل من ياذب بصطحبان

يريد نكن يا ذب مثل من يصطحبان ، وقوله :

ولست خراسانُ التي كان خالدٌ بها أسدٌ ، إذ كان سيفاً أميرها

يريد أن خالد بن عبد الله كان قد ولي خراسان ووليها أسد بعده ، فمدح خالداً بأنه كان سيفاً ، بعد أن كان أسد أميرها ، فكأنه يقول وايت خراسان بالبلدة التي كان خالد بها سيفاً إذ كان أسد أميرها .

قال ابن الأثير : وعلى هذا التقدير ففي كان الثانية ضمير الشأن والحديث ، والجملة بعدها خبر عنها ، وقد قُدِّمَ بعض ما إذ مضافةً إليه وهو أسد عليها ، وفي تقديم المضاف إليه أو تنبيه منه على المضاف من القبح ما لا يخفاء به . قال : وأيضاً فإن أسداً أحد جزأى الجملة المنسرة للضمير ، والضمير لا يكون تفسيره إلا من بعده ، ولو تقدّم تفسيره قبله لما احتاج إلى تفسير ، ولما سماه الكوفيون الضمير المجهول ، وعلى نحو ذلك ورد قول الآخر :

فأصبحت بعد هجتها قفراً * كأن قفراً رسومها قلماً

يريد فأصبحت بعد هجتها قفراً كأن قلماً خط رسومها ، فقدم خبر كأن وهو خطٌ عليها بجاء محلاً مضطرباً .

قال في "المثل السائر" : وهذا البيت من أقبح هذا النوع لأن معانيه قد تداخلت ، وركب بعضها بعضا ، على أن ذلك قد وقع لجمع من فحول شعراء العرب ؛ كقول امرئ القيس :

هُمَا أَخَوَا فِي الْحَرْبِ مِنْ لَا أَخَالَهُ * إِذَا خَافَ يَوْمًا نَبْؤَةَ قَدَّاهُمَا

يريد أخوا من لا أخوى له في الحرب ؛ وقول النابغة .

يُثْرِنَ الثَّرَى حَتَّى يُبَاشِرَنَّ بَرْدَهُ * ، إِذَا الشَّمْسُ مَجَّتْ رِيقَهَا بِالْكَلاِ كُلِّ

قال أبو هلال العسكري : وهذا البيت مستهجن جدا لأن المعنى تعمى فيه ، يريد يثرن الثرى حتى يباشرن برده بالكلا كل إذا الشمس مجت ريقها ؛ وقول أبي حية الثميري :

كَمَا خُطَّ الْكِتَابُ بِكَفِّ ، يَوْمًا ، * يَهُودِيٌّ يَقَارِبُ أَوْ يُزِيلُ

يريد كما خط الكتاب بكف يهودي يوما يقارب أو يزيل ؛ وقول ذى الرمة :

نَضًا الْبُرْدَ عَنْهُ وَهُوَ مِنْ ، ذُو ، جُنُونِهِ * أَجَارِيٌّ ، صَهَّالٌ وَصَوْتُ مَبْرَسَمٍ

يريد وهو من جنونه ذو أجاري ؛ قال في "الصناعتين" : كأنه تخليط كلام محنون أو هجر مبرسم ؛ وقول الشماخ :

تَخَامَصُ عَنْ بَرْدِ الْهَيْشَاحِ إِذَا مَشَتْ * تَخَامَصُ حَافِي الْخَيْلِ فِي الْأَمْعَزِ الْوَجِي

يريد تخامص حافي الخيل في الوجي ، الأمعر .

قال أبو هلال العسكري : وليس للمحدث أن يجعل هذه الأبيات حجة ويبنى عليها فإنه لا يُعذر في شيء منها ، لإجماع الناس اليوم على حجانبة أمثالها وأستجادة ما يضح من الكلام ويسنين ، وأستردال ما يُشكّل منه ويستبهم ؛ وقد كان عمر رضى الله عنه يمدح زهيرا بأنه لم يكن يُعاظِل بين الكلام .

قال في "المثل السائر": والنزودت أكبر الشعراء تماظلا وتعقيدا في شعره، كأنه كان يعصد ذلك ويتعمده، لأن مثله لا يجيء إلا متكلفا مقصودا، وإلا فإذا ترك مؤلف الكلام نفسه تجرى على سبيلها وطبعها في الاسترسال لم يعرض له شيء من هذا التعقيد، يدلل أن المقصود من الكلام معدوم في هذا النوع، إذ المقصود من الكلام إنما هو الإيضاح والإبانة وإفهام المعنى، فإذا ذهب هذا الوصف المقصود من الكلام ذهب المراد به، ولا فرق عند ذلك بينه وبين غيره من اللغات كالفارسية والرومية وغيرهما.

الضرب الثاني من التعقيد - ألا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المراد بحل في انتقال ذهن من المعنى الأول المفهوم بحسب اللغة إلى الثاني المقصود، لإيراد اللفظ البعيدة المفتقرة إلى الوسائط الكثيرة، مع منقضاء القرائن الدالة على المقصود،

قول العباس بن الأحنف:

ما طلب بعد الدار عنكم لتقربوا * وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

يريد إلى أطلب بعد الدار عنكم لتقربوا منى، وتسكب عيناى الدموع لتجمد وتسكب الدمع بحصول التلاقي، والمعنى أنى طبت نفسا بالبعد والفراق، ووطنت نفسي على مقاساة الأزان والأشواق، وأتجرع الغصص، وأحتمل لأجلها حزنا يفيض الدموع من عيني، لأنسبب بذلك إلى وصل يدوم، ومسرة لاتزول، فتجمد عيني ويرفا دمعي، فإن الصبر مفتاح الفرج، فكنتى بسكب الدموع عن الكتابة والحزن، وهو ظاهر المعنى لأنه كثيرا ما يجعل دليلا عليه، يقال: أبكاني الدهر وأضحكني بمعنى ساءني وسرتني؛ وكنتى بجمود العين عما يوجبه دوام التلاقي من الفرح والسرور؛ فإن المتبادر إلى الذهن من جمود العين بظننا بالدمع عند إرادة البكاء حال الحزن، بظننا ما قصد الشاعر من التعبير به عن الفرج والسرور، وإن كانت

حالة جمود الدمع مشتركة بين بخل العين بالدمع عند إرادة البكاء، وبين زمن السرور الذي لم يُطلب فيه بكاء، وكذلك يجرى القول في كل لفظ مشترك ينتقل الذهن فيه من أحد المعنيين إلى الآخر إذا لم يكن هناك قرينة تصرفه إلى أحدهما، كما صرح به الرماني وغيره، خصوصا إذا كان أحد المعنيين الذي يدل عليه اللفظ المشترك مستقبحا كما نبه عليه ابن الأثير في الكلام على فصاحة اللفظ المفرد، ألا ترى أن لفظة التعزير مشتركة بين التعظيم والإكرام، وبين الإهانة بسبب الخيانة التي لا توجب الحد من الضرب وغيره، والمعنيان ضدان فحيث وردت معينا قرينة صرفتها إلى معنى التعظيم جاءت حسنة رائقة، وكانت في أعلى درجات الفصاحة، وعلى نحو ذلك ورد قوله تعالى: ﴿لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَفِّرُوهُ﴾ وقوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ الآية، فإنه لما ورد معينا قرينة التوفير في الآية الأولى وقرينة الإيمان والنصر في الآية الثانية زال اللبس وحسن التوفير، ولو وردت مهملةً بغير قرينة بإرادة المعنى الحسن لسبق الفهم إلى المعنى القبيح، كما لو قلت عزز القاضي فلانا وأنت تريد أنه عظمه، فإنه لا يتبادر من ذلك إلى الفهم إلا أنه أهانه، وعلى هذا النهج يجرى الحكم في الحسن والتبجح مع القرينة وعلاقتها.

قال ابن الأثير رحمه الله: فما ورد مع القرينة بقاء حسنا قول تأبط شرا:

أقول للحَيَّانِ، وَقَدْ صَغِرْتَ لَمْ * وَطَابِي وَيَوْمِي ضَيْقُ الْجَحْرِ مَعُورِ

فإنه أضاف الجحر إلى اليوم فأزال عنه هُجْمَةَ الاشتباه لأن الجحر يطابق على كل ثقب

بجحر الحية واليربوع ونحوهما، وعلى المحل المخصوص من الحيوان، فإذا ورد مهملا بغير قرينة تَحْصِصُهُ سبق إلى الفهم المعنى القبيح لاشتهاره دون غيره، وثمما ورد مهملا بغير قرينة بقاء قبيحا قول أبي تمام:

أَعْطَيْتَنِي دِيَةَ الْقَتِيلِ وَلَيْسَ لِي عَقْلٌ وَلَا حَقٌّ عَلَيْكَ قَدِيمٌ

وإن المتبادر إلى الأفهام من قوله وليس لي عقل أنه من العقل الذي هو ضد الجنون ولو قال وليس لي عليك عقل لزال اللبس . قال : فيجب إذاً على صاحب هذه الصناعة أن يراعى في كلامه مثل هذا الموضع .

الصفة الثالثة

أن يكون الكلام سليماً من تنافر الكلمات وإن كانت مفرداته فصيحة

وقد اختلف في معنى هذا التنافر على ثلاثة مذاهب :

المذهب الأول - أن المراد بتنافر الكلمات أن يكون في الكلام ثقل على اللسان ويعسر النطق به على المتكلم ، وإليه ذهب السكاكي وغيره من علماء البيان .

وهو على ضربين :

الضرب الأول - أن يكون فيه بعض ثقل ، كقول أبي تمام :

كَرِيمٌ مَتَى أَمَدَحُهُ أَمَدَحُهُ وَالْوَرَى * مَعِيَ ، وَإِذَا مَالَعْتُهُ ، لَمَتَّهُ وَحَدَى

فقوله أمدحه أمدحه فيه بعض الثقل على اللسان في النطق به ، وذلك أن الهماء متقاربان في المخرج ، وقد اجتمعا في قوله أمدحه ، ثم تكررت الكلمة في البيت مع تقارب مخرج الحرفين فنقلت بعض الثقل .

وأول من نبه على ذلك الأستاذ ابن العميد رحمه الله .

ومما يحكى في ذلك : أن الصحاب بن عبَّاد أنشد هذا البيت بحضرة ابن العميد ،

فقال له ابن العميد : هل تعرف في هذا البيت شيئاً من الهجئة ؟ فقال : نعم ،

مقابلة المدح باللوم وإنما يقابل المدح بالذم والهجاء ، فقال له ابن العميد : غير

هذا أريد، قال : لا أرى غير ذلك . فقال ابن العميد : هذا التكرير في أمده «
أمده مع الجمع بين الحاء والهاء وهما من حروف الخلق خارج عن حد الاعتدال ،
نافر كل التنافر، فاستحسن الصاحب بن عباد ذلك .

قال الشيخ سعد الدين التفتازاني في شرح تلخيص المفتاح : ولا يجوز أن يراد أن
الثقل في لفظة أمده دون تكرار، فإن مثل ذلك واقع في التنزيل نحو قوله تعالى :
(فَسَبِّحْهُ) والقول باشمال القرآن على كلام غير فصيح مما لا يجترئ عليه المؤمن .

الضرب الثاني — ما كان شديد الثقل بحيث يضطرب لسان المتكلم عند إرادة

النطق به ، كقوله :

وَقَبْرٌ حَرْبٍ يَمَكَّانٍ قَفْرٌ * وليس قُرْبٌ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرٌ

قال في عجائب المخلوقات : إن من الجن نوعا يقال له الهاتف ، فصاح واحد
منهم على حرب بن أمية فمات ، فقال ذلك الجنى هذا البيت . قال المسعودي
في "مروج الذهب" : والدليل على أنه من شعر الجن أمران : أحدهما الرواية ،
والثاني أنه لا يقوله أحد ثلاث مرات متواليات إلا تَعَتَّعَ فيه .

قال ضياء الدين بن الأثير : والسبب في ثقل البيت تكرير حرفي الباء والراء فيه ،
فهذه الباءات والراءات فيه كأنها سلسلة ، ولا خفاء بما في ذلك من الثقل . قال :
وكذلك يجري الحكم في كل ما تكرر فيه حرف أو حرفان إلا أنه لم يُطْلَقْ على ذلك اسم
التنافر، وجعل التنافر قسما مستقلا برأسه كما سيأتي ، وعد هذا من أنواع المعاطلة
اللفظية ، ثم ذكر من أمثله قول الحريري في مقاماته :

وَأَزُورُ مَنْ كَانَ لَهُ زَائِرًا * وَعَافَ عَافِي الْعُرْفِ عِرْفَانَهُ

وقول كشاجم :

وَالزُّهْرُ وَالْقَطْرُ فِي رُبَاهَا * مَا بَيْنَ نَظْمٍ وَبَيْنَ تَرٍّ

حدائق ، كَفَّ كُلَّ رِيحٍ • حَلَّ بِهَا خَيْطَ كُلِّ قَطْرِ

وقول الآخر :

مَلَيْتُ بِطَالٍ هَوْلُودٍ مُفَدَّى • بِأَيْسَحٍ مَانِعٍ مَنَى مُرَادَى

وقول المتنبي :

كَيْفَ تَرَى الَّتِي تَرَى كُلَّ جَفِينٍ • زَاهِمًا غَيْرَ جَنْهَبٍ غَيْرِ رَاقٍ

وعاب بيت الحريري لترك العين فيه في قوله :

• رَعَّافٌ عَافِي العُرْفِ عَمْرُ فَانَهُ •

وعاب البيت الثاني من بيتي كشاجم لترك الكاف فيه في "كف وكل" الأولى و "كل" الثانية، وقال هذا البيت يحتاج الناطق به إلى بركار يضعه في شدقه حتى يديره له ؛ وعاب البيت الذي يليه لترك الميم فيه، في أوائل الكلمات، وقال : هذه الميمات كأها عَسَدٌ ، متباعدة بعضها ببعض ؛ وعاب بيت المتنبي لترك الجسيم والراء في أكثر كلماته ، وقال : هذا وأمثاله إنما يعرض لفائده في نوبة الصرع التي تنوبه في بعض الأيام . قال : وكان بعض أهل الأدب من أهل عصرنا يستعمل هذا النسب من المماثلة كثيرا في كلامه نثرا ونظما ، وذلك لعدم معرفته لساوك الطريق ، كتبوا في وصف رجل سخى : أنت المريح كيد الريح ، والمليح إن تجهم المايح بالتكايح ؛ عند سائل يأوح ، بل تفوق إذ تروق مرأى يوح ؛ يا مغبوق كأس الحمد يا مصبوح ضاق عن نذاك الأوح ، وبيابك المفتوح يستريح ويريح ذو التبريح ، ويرقه الطايح . فانظر إلى حرفي الراء والحاء كيف لزمهما في كل لفظة من هذه الألفاظ بقاء على ما تراه من الثقل والغثاثة .

ثم قال : وأعلم أن العرب الذين هم الأصل في هذه اللغة قد عدلوا عن تكرير الحروف في كثير من كلامهم ، وذلك أنه إذا تكرر الحرف عندهم أدغموه استحسانا ،

فقالوا في جعل لك : جَعَلَّكَ ، وفي تضربونني تضربُونِّي ، وكذلك قالوا : أَسْتَعِدُّ
فلان للأمر إذا تَأَهَّبَ له ، والأصل فيه أَسْتَعَدَّد ، وَأَسْتَتَبَّ الأمر إذا تَهَيَّأ والأصل
فيه أَسْتَتَبَّ ، وأشبه هذا كثير في كلامهم حتى إنهم لِشِدَّةِ كراهتهم لتكرير الحروف
أبدلوا الحرفين المكررين حرفاً آخر غيره ، فقالوا : أَمَلَيْتُ الكتاب ، والأصل فيه
أَمَلت ، فأبدلوا اللام ياءً طلباً للخفة وفراراً من الثقل ، وإذا كانوا قد فعلوا ذلك
في اللفظة الواحدة فما ظنك بالألفاظ الكثيرة التي يتبع بعضها بعضاً .

قلت : ليس تكرار الحروف مما يوجب التنافر مطلقاً كما يقتضيه كلامه بل بحسب
التركيب ، فقد تكرر الحروف وتترادف في الكلمات المتتابعة مع القطع بفصاحتها
وإخفائها على اللسان وسهولة النطق بها ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ
بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمِّمٍ مِّن مَّن مَّعَكَ وَأُمٌّ سَمَّتْهُمُ ثُمَّ يَمْسَهُم مِّنَّا عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴾ كيف اجتمع فيه ست عشرة ميماً في آية واحدة ، قد تلاصق منها أربع ميمات
في موضع وميمان في موضع ، مع ما أشتملت عليه من الطلاوة والرواق الذي ليس
في قدرة البشر الإتيان بمثله ، والله أعلم .

المذهب الثاني - أن المراد بتنافر الكلمات أن تكون أجزاء الكلام غير
متلائمة ، ومعانيه غير متوافقة بأن يكون عجز البيت أو القرينة غير ملائم لصدره ،
أو البيت الثاني غير مشاكِل للبيت الأول ، وعليه جرى العسكرى في "الصناعتين"
فما اختلفت فيه أجزاء البيت الواحد قول السموءل :

فَنَحْنُ كِجَاءِ الْمُزْنِ مَا فِي نِصَابِنَا * كَهَامٌ وَلَا فِينَا يَعْدُ بِجَيْلٍ

فليس بين قوله ما في نصابنا كهامٌ وقوله فنحن كجاء المزن مناسبة لأن المراد بالكهام
الذي لا غناء به ولا فائدة فيه ، يقال قوم كهام أي لا غناء عندهم ، ورجل كهامٌ

أى مُسِنٌ ، كذلك سَيْفٌ كَهَامٌ أى كَلِيلٌ ، ولسان كَهَامٌ أى عِيٌّ ، وفرس كَهَامٌ أى بطيء ، فهو يصف قومه بالنَّجْدَةِ والبأس ، وأنه ليس فيهم من لا يُغْنِي ، وماء المزن إنما يحسُّن في وصف الجود والكرم . قال في "الصناعتين" : ولو قال : ونحن لِيُوثُ الحرب وأولو الصَّرامة والنجدة ، ما في نَصَابِنَا كَهَامٌ ، لكان الكلام مستويا ، أو فتحن كجاء المزن صَفَاءَ أخلاق وبذل أكَفٍّ ، لكان جيدا .

ومن ذلك قول طرفة :

وَأَسْتُ بِحَلَالِ التَّلَاحِ مَخَافَةٌ • وَلَمَّا مَتَى يَسْتَرَفِدِ القَوْمُ أَرْفَدُ

فالمصراع الثاني من البيت غير متسا كل لصورة المصراع الأول وإن كان المعنى صحيحا لأنه أراد : وأست بحلال التلّاح مخافة السؤال ولكنني أنزل الأمكنة المرتفعة ليتتابوني وأرْفِدَهُمْ ، وهذا وجه الكلام فلم يعبر عنه تعبيرا صحيحا ولكنه خلطه وحذف منه حذفًا كثيرا فصار كالمستأفر ، وأنبوء الكلام كثيرة ،

ومنه قول الأعشى :

وَإِنْ أَمْرًا أُسْرَى إِلَيْكَ وَدُونَهُ سَهْوَبٌ وَمَوَاهَةٌ وَبِيدَاءٌ سَمَاقٌ
لَمْ يَحْقُوقَةَ أَنْ تَسْتَجِيبِي لِصَوْتِهِ • وَأَنْ تَعْلَمِي أَنْ الْمُعَانَ مُوَفَّقٌ

فقوله : وَأَنْ تَعْلَمِي أَنْ الْمُعَانَ مُوَفَّقٌ غير متسا كل لما قبله ، وعلى نحو ذلك ورد قول عترة :

حَرِقُ الجَنَاحِ كَأَنَّ لِحْيَ رَأْسِهِ • جَلَمَانِ بِالْأَخْبَارِ هَشٌّ مُوَلَعٌ
بِأَنَّ الدِّينَ نَعَبَتْ لِي بِغُرَافِهِمْ هُمْ أَسَاءُوا لَيْلَ النَّهْمِ وَأَوْجَعُوا

فليس قوله : بِالْأَخْبَارِ هَشٌّ مُوَلَعٌ من صفة جناحيه ولحيته ، وقريب منه قول أبي تمام :

نَحْمَدُ ابْنَ الحَامِدِينَ شُهُودًا • وَإِنَّ مُصَابَ المُزْنِ حَيْثُ تَرِيدُ

فليس النصف الثاني من النصف الأول في شيء، وكذلك قول الطالبي :

قوم هدى الله العباد بجدتهم * والمؤثرون الضيف بالأزواد

فلا مناسبة بين صدر البيت وعجزه بوجه .

وعد بعض الأدباء من هذا النوع قول امرئ القيس :

كأنى لم أركب جواداً للذة، * ولم أتبطن كاعبا ذات خخال

ولم أسب الزق الروى ولم أقل * ليخيل كرى كرة بعد إجنال

وقال : لو وضع مصراع كل بيت من هذين البيتين في موضع الآخر لكان

أحسن وأدخل في استواء النسيج، فكان يقال :

كأنى لم أركب جوادا ولم أقل * لخيلى كرى كرة بعد إجنال

ولم أسب الزق الروى للذة * ولم أتبطن كاعبا ذات خخال

لأن ركوب الجواد مع ذكر ركور الخيل أجود، وذكركم مع ذكر الكواعب

أحسن .

قال في "الصناعتين" : قال أبو أحمد : والذي جاء به امرؤ القيس هو

الصحيح لأن العرب تضع الشيء مع خلافه، فيقولون : الشدة والرخاء، والبؤس

والنعيم، ونحو ذلك . وكذلك كل ما يجرى هذا المجرى .

قال أبو هلال العسكري : أخبرني أبو أحمد قال : كنت أنا وجماعة من

أحداث بغداد ممن يتعاطى الأدب نختلف إلى مدرستك نتعلم منه الشعر، فقتل لنا

يوما : إذا وضعت الكلمة مع لفيها كنتم شعراء، ثم قال : أجزوا هذا البيت :

* ألا إنما الدنيا متاع غرور *

فأجازه كل واحد منا بشيء فلم يرضه فقلت أنا :

* وإن عظمت في أنفيس وصدور *

فقال : هذا هو الجيد المختار .

قال : وأخبرني أبو أحمد الشطني قال : حدثنا أبو العباس بن عربي ، قال :

حدثنا حماد بن يزيد بن جبلة ، قال : دُفن مسامة رجلا من أهله ثم قال :

* تَرُوحُ وَتَغْدُو كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ *

ثم قال لبعضهم : أجز فقال :

* فَحَتَّى مَتَى هَذَا الرَّوَّاحُ مَعَ الْغُدُوِّ *

فقال مسامة : لم تصنع شيئا ، ثم قال لآخر : أجز فقال :

* فَيَا لَكَ مَغْدَى مَرَّةً وَمَرَّاحًا *

فقال : لم تصنع شيئا ، ثم قال لآخر : أجز فقال :

* وَعَمَّا قَلِيلٍ لَانَ رُوحٌ وَلَا نَغْدُو *

فقال : الآن تم البيت : وأشبه ذلك ونظائره كثيرة .

ومما اختلف فيه البيت الأول والثاني قول ابن هرمة :

وَإِنِّي وَتَرَكِي نَدَى الْأَكْرَمِينَ * وَقَدَحِي بِكَفِّي زَنْدًا شَحَا حَا

كَتَارِكَةَ بَيْضَهَا بِالْعَرَاءِ * وَمُلبِيسَةَ بَيْضِ أُخْرَى جَنَاحَا

وقول الفرزدق :

فَإِنَّكَ إِذْ تَهْجُو تَمِيًّا وَتَرْتَشِي * سَرَابِيلَ قَيْسٍ أَوْ سُجُوفَ الْعَمَائِمِ

كَمَهْرِيْقِ مَاءٍ بِالْفَلَاةِ ، وَغَرَّةُ * سَرَابٌ أَذَاعَتْهُ رِيَّاحُ السَّمَائِمِ

كان ينبغي أن يكون بيت ابن هرمة الأول مع بيت الفرزدق الثاني ، وبيتُ

الفرزدق الأول مع بيت ابن هرمة الثاني ، فيقال في الأول :

وَإِنِّي وَتَرَكِي نَدَى الْأَكْرَمِينَ * وَقَدَحِي بِكَفِّي زَنْدًا شَحَا حَا

كَمَهْرِيْقِ مَاءٍ بِالْفَلَاةِ وَغَرَّةُ * سَرَابٌ أَذَاعَتْهُ رِيَّاحُ السَّمَائِمِ

مع تغيير إحدى القافيتين ، ويقال في الثاني :

وإنك إذ تهجو تميًا وترثني * سراييل قيس أو سجوف العائم

تارككة بيضها بالعراء * وملبسة بيض أخرى جناحا

مع تغيير إحدى القافيتين حتى يصح التشبيه للشاعرين جميعا .

المذهب الثالث - أن المراد بتنافر الكلمات أن تذكر لفظة أو ألفاظ يكون

غيرها مما في معناها أولى بالذكر ، فتجىء الكلمة غير لائقة بمكانها ، وهو ما اصطلاح

عليه ابن الأثير في "المثل السائر" . وهو على ضربين .

الضرب الأول ما يوجد منه في اللفظة الواحدة فيمكن تبديله بغيره مما هو

في معناه سواء كان ذلك الكلام نظما أو نثرا ، وهو على أنواع شتى .

سها فك الإدغام في غير موضع فكّه ، كقول ابن أمّ صاحب :

مهلاً أعاذل قد جرّبت من خلقي * أنى أجود لأقوام وإن ضننوا

فك الإدغام في ضننوا ، وكان الأحسن أن يقال : وإن ضنوا أى بخلوا .

وعلى حدّ ذلك ورد قول المتنبي :

فلا يبرم الأمر الذى هو حائل * ولا يحلل الأمر الذى هو يبرم

فلو أدغم لجاءت اللفظة فارة في مكانها غير قلقة ولا نافرة ، وكذلك بلى ما جاء

على هذا النهج فلا يحسن أن يقال : بل الثوب فهو بالل ، ولا سلّ السيف فهو سالل ،

ولا هم بالأمر فهو هامم ، ولا خط الكتاب فهو خاطط ، ولا حنّ إلى كذا فهو حانن ،

وهذا لو عرض على من لا ذوق له أدركه ، فكيف من له ذوق صحيح كأبي الطيب ؟

لكن لا بد لكل جواد من كبوة .

ومنها زيادة حرف في غير موضعه كقول دعبيل :

شفيعك فاشكر في الحوائج إنّه * يصونك عن مكروهنها وهو يخاق

فالفاء في قوله فاشكر زائدة في غير محلها ، نافرة عن مكانها .

قال الوزير ضياء الدين ابن الأثير: أنشدني بعض الأدباء هذا البيت فقلت له: عجز هذا البيت، حسن، وأما صدره فقبیح لأن سبكه قَلِقَ نافر، والفاء في قوله فاشكر كأنها رُكْبَةُ البعير، وهي في زيادتها كزيادة الكرّش، فقال: لهذه الفاء في كتاب الله تعالى أشباه كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ فقلت له: بين هذه الفاء وتلك فرق ظاهر يدرك بالعلم أولا وبالذوق ثانيا، أما العلم فإن الفاء في قوله تعالى ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ فهي الفاء العاطفة إذ وردت بعد قوله: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ وهي مثل قولك: امش فأسرع، وقل فأبلغ، وليست الفاء التي في قول دُعِبِلٍ: شفيحك فاشكر من هذا القبيل، بل هي زائدة ولا موضع لها، وإنما نسبتها أن يقال: ربك أو ثيابك فطهر من غير تقدم معطوف عليه^(١)، وحاشا فصاحة القرآن من ذلك. فأذعن بالتسليم ورجع إلى الحق. قال: ومثل هذه الدقائق التي ترد في الكلام نظما كان أو نثرا لا يتفطن لها إلا الراشح في علم الفصاحة.

ومنها وصل همزة القطع في الشعر وإن كان ذلك جائزا فيه بخلاف النثر كقول أبي تمام:

قَرَأَنِي اللَّهُ وَالْوَدَّ حَتَّى كَأَنَّمَا * أَفَادَ الْغِنَى مِنْ نَائِلِي وَفَوَائِدِي
فَأَصْبَحَ يَلْقَانِي الزَّمَانُ مِنْ آجَلِهِ * بِإِعْظَامِ مَوْلُودٍ وَرَأْفَةِ وَالِدِي

فقوله من آجله بوصل همزة القطع من الكلام النافر؛ وعلى حده ورد قول أبي الطيب:

بُوسَطُهُ الْمَفَاوِزَ كُلَّ يَوْمٍ * طَلَابُ الطَّالِبِينَ لَا الْإِنْتِظَارُ

فقوله لا الانتظار بوصل همزة الانتظار كلام نافر.

(١) لم يذكر الثاني وقد ذكره في "المثل السائر" فقال: وأما الذوق فإنه ينبوع عن الفاء الواردة في قول

دعبل ويستقلها... إلى أن قال فلما سمع ما ذكرته أذعن الخ.

ومنها قطع همزة الوصل في الشعر أيضا وإن كان جائزا فيه كقول جميل :
 أَلَا أَرَى إِثْنَيْنِ أَجْمَلَ شَيْمَةً * عَلَى حَدَّائِنِ الدَّهْرِ مِنِّي وَمَنْ جُمِلُ
 وقوله أيضا :

إِذَا جَاوَزَ الْإِثْنَيْنِ سِرْفَانَةً * بِشَيْرٍ وَتَكْثِيرِ الْوُشَاةِ قَمِيْنُ

فقطع ألف الوصل في لفظ الإثنين في البيت الأول والثاني .

ومنها أن يفرق بين الموصوف والصفة بضمير من تقدم ذكره كقول البحتري :

حَلَفْتُ لَهَا بِاللَّهِ يَوْمَ التَّفْرِيقِ * وَبِالْوَجْدِ مِنْ قَلْبِي بِهَا الْمُتَعَلِّقِ

تقديره من قلبي المتعلق بها ، فلما فصل بين الموصوف الذي هو قاي والصفة التي

هي المتعلق بالضمير الذي هو بها قبح ذلك ، واو قاي من قلبها متعلق لزال
 ذلك القبح وذهبت تلك المهجنة . ونحو ذلك .

الأصل الرابع

المعرفة بالسجع الذي هو فوام الكلام المشور وعلو رتته

ويتعلق به ستة أغراض

الغرض الأول - في معرفة معناه في اللغة والأصطلاح ، وبيان حكمه

في حالتي الدرج والوقف .

أما في اللغة فقال في "مواد البيان" : إنه مشتق من الساجع : وهو المنسجم

لأستقامته في الكلام ، وأستواء أوزانه . وقيل من سجع الحمامة وهو ترجيعها الصوت

على حد واحد ، يقال منه تَجَعَّتِ الْحَمَامَةُ تُسَجَعُ تَجَجًا فهي ساجعة ، سَمَّى السَّجْعَ

في الكلام بذلك لأن مقاطع الفصول تأتي على ألقاظ متوازنة متعادلة ، وكلمات

متوازنة متماثلة . فاشبه ذلك الترجيع .

وأما في الاصطلاح، فقال في "مواد البيان": هو تقفية مقاطع الكلام من غير وزن، وذكر نحوه في "المثل السائر" فقال: هو تواطؤ الفواصل من الكلام المنثور على حرف واحد، ويقال للجزء الواحد منه سبعة، وتجمع على سبعمات، وفقرة بكسر الفاء أخذاً من فقرة الظهر وهي إحدى عظام الصلب، وتجمع على فقر وفقرات بكسر الفاء وسكون القاف وفتحها. وربما فتحت الفاء والقاف جميعاً، ويقال لها أيضاً: قرينة لمقارنة أختها وتجمع على قرائن، ويقال للحرف الأخير منها: حرف الروى والفاصلة.

وأما بيان حكمه في الوقف والدرج فاعلم أن موضوع حكم السجع أن تكون كلمات الأبيحاج ساكنة الأعجاز، موقوفاً عليها بالسكون في حالتي الوقف والدرج، لأن الغرض منها المناسبة بين القرائن، أو المزوجة بين الفقر، وذلك لا يتم إلا بالوقف ألا ترى أن قولهم: ما أبعد ما فات، وما أقرب ما هو آت، لو ذهبت نصل فيه لم يكن بد من إعطاء أواخر القرائن ما يعطيه حكم الإعراب فتختلف أواخر القرائن ويفوت الساجع غرضه.

الغرض الثاني

في بيان حسن موقعه من الكلام

قال في "الصناعتين": لا يحسن منثور الكلام، ولا يحلو حتى يكون مُزْدَوِجاً، ولا تجد لبلغ كلاماً محلولاً من الأزدواج، وناهيك أن القرآن الكريم الذي هو عنصر البلاغة ومناط الإعجاز مشحون به، لا تخلو منه سورة من سورته وإن قصرت. بل ربما وقع السجع في فواصل جميع السورة، كما في سورة النجم، وأقربت، والرحمن وغيرها من السور. بل ربما وقع في أوساط الآيات، كقوله تعالى: (الَّذِي خَلَقَ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ) وقوله : ﴿لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاكُمْ بِذُنُوبِكُمْ وَنَطَّعُ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ وقوله : ﴿وَلَسْتُمْ بِأَخَذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ وما أشبه ذلك .
وكذلك وقع في الكثير من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله عليه السلام عند قدومه المدينة الشريفة : "أَفْشُوا السَّلَامَ ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ ، وَصَلُّوا الأَرْحَامَ ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسَ نِيَامَ ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ" . بل ربما صرف صلى الله عليه وسلم الكلمة عن موضوعها في تصريف اللغة طلبا للزوجة كقوله في تعويذه لابن ابنته : "أَعِيدُهُ مِنَ الهَامَّةِ وَالسَّامَّةِ ، وَالْعَيْنِ اللَّامَّةِ" وأصلها في اللغة الملمة لأنها من ألم ، فعبر عنها باللامه لموافقة الهامة والسامة ؛ وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم للنساء : "انصرفن مآزورات غير مأجورات" والأصل في اللغة أن يقال موزورات أخذا من الوزر ، فعبر بمآزورات لموافقة مأجورات ؛ وعلى ذلك كان يجري كلام العرب في مهم كلامهم من الدعاء وغيره كقول بعض الأعراب وقد ذهب السيل بابنه : اللهم إن كنت قد أبلت ، فطالما عافيت . وقول الآخر : اللهم هب لنا حبك ؛ وأرض عنا خلقك ، ونحو ذلك . أما ما ورد من أنه صلى الله عليه وسلم حين قضى على رجل في الجنين بغرة عبد أو أمة ، فقال الرجل : أأدى من لا شرب ولا أكل ؛ ولا نطق ولا استهل ، ومثل ذلك يُطل . فقال النبي صلى الله عليه وسلم "أَسْجَعَا كَسَجْعِ الكُهَّانِ" فليس فيه دلالة على كراهة السجع في الكلام وإن تمسك به بعض من نبا عن السجع طبعه ، ونفرت منه قريحته . إذ يحتمل أنه صلى الله عليه وسلم إنما كره السجع من ذلك الرجل لمشابهة سجعه حينئذ سجع الكُهَّانِ ، لما في سجعهم من التكلف والتعسف كما وجهه أبو هلال العسكري ، وإما بحر يانه على عادتهم في الجواب في الأحكام وغيرها بالكلام المسجوع كما وجهه غيره ؛ أو أنه إنما كره حكم الكاهن الوارد باللفظ المسجوع بانكار إيجاب الدية لانفس السجع الماتى

به كما اختاره صاحب "المثل السائر" ولو كره صلى الله عليه وسلم السجع نفسه ،
لأقتصر على قوله : أسجعا ولم يقيده بسجع الكهّان .

الغرض الثالث

في بيان أقسام السجع ، وهي راجعة الى صنفين

الصنف الأول

أن تكون القرينتان متفقتين في حرف الروي ، ويسميه الرّماني السجع الحاني ،
وعليه عمل أكثر الكتاب من زمن القاضي الفاضل ، وهلمّ جرّاً
إلى زماننا ، وفيه ثلاث مراتب

المرتبة الأولى — أن تكون ألفاظ القرينتين مستوية الأوزان متعادلة الأجزاء
ويسمى التصريح ، وهو أحسن أنواع السجع وأعلاها . ومنه في النثر قوله تعالى :
(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ) وقوله : (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ
لَفِي جَحِيمٍ) . وقول النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه : "اللَّهُمَّ اقْبَلْ تَوْبَتِي ،
وَأَغْسِلْ حَوْبَتِي" . وقوله للأَنْصار : "إِنَّكُمْ لَتَكْثُرُونَ عِنْدَ النَّزْعِ ، وَتَقْلُونَ عِنْدَ الطَّمَعِ"
وقول بعض الأعراب في وصف سنةٍ جذبة : سنة جردت ، وحالٌ جهدت ، وأيد
جمدت ، ونحو ذلك . ومثاله في النظم قول الخنساء :

حَامِي الْحَقِيقَةِ مَحْمُودُ الْخَلِيقَةِ ، مَهْدِي الطَّرِيقَةِ نَفَّاعٌ وَضَرَّارُ !
جَوَابُ قَاصِيَةِ جَرَّازٍ نَاصِيَةِ عَدَادِ أَلْرِيَةِ لِثَغِيلِ جَرَّارُ !

المرتبة الثانية — أن يختص التوازن بالكلمتين الأخيرتين من الفقرتين فقط دون
ما عداهما من سائر الألفاظ ، كقوله تعالى : (فِيهَا سُرُورٌ مَرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ)
ثم قال : (رَأَوْنَمَارِقٌ مَصْنُوفَةٌ وَزَرَائِبٌ مَبْثُوثَةٌ) . وكقول الحريري في مقاماته : الْجَمَّانِي

حُكْمٌ دَهْرٍ قَاسِطٌ ، الى أن اُسْتَجْعَ اَرْضَ وَاِسِط . وقوله : وَأَوْدَى النَّاظِقُ وَالصَّامِتُ ،
وَرَتَى لَنَا الحَاسِدُ وَالشَّامِتُ ، وما أشبه ذلك .

المرتبة الثالثة — أن يقع الاتفاق في حرف الروي مع قطع النظر عن التوازن
في شيء من أجزاء الفقرة في آخر ولا غيره ، ويسمى المطرف . كقوله تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ
لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ وقولهم : جَنَابَهُ مَحَطُّ الرَّحَالِ ، وَمُحِيْمٌ الْآمَالِ .
وما يجري هذا المجرى .

الصف الثاني .

أن يختلف حرف الروي في آخر الفقرتين ، وهو الذي يعبرون عنه
بالأزدواج . والرمانى يسميه السجع العاطل ، وعليه كان عمل السلف
من الصحابة ومن قارب زمانهم ، وهو على ضربين

الضرب الأول

أن يقع ذلك في النثر ، وفيه مرتبتان

المرتبة الأولى — أن يراعى الوزن في جميع كلمات القرينتين أو في أكثرها مع
مقابلة الكلمة بما يعادلها وزناً ، ويسمى التوازن وهو أحسنها وأعلاها ، كقوله
تعالى : ﴿ وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ وكقول الحريري :
اسودَّ يومى الأبيض ، وأبيض فودى الأسود .

المرتبة الثانية — ألا يراعى التوازن إلا في الكلمتين الأخيرتين من القرينتين
فقط ، ويسمى التوازن أيضاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَسَارِقٌ مَّصْفُوفَةٌ وَزَرَائِبٌ
مَبْثُوثَةٌ ﴾ وقولهم : اصبر على حر القتال ، ومضض النزال ، وشدة النضاع ، ومدأومة
البراز ، وما أشبه ذلك .

الضرب الثاني

السجع الواقع في الشعر

ويسمى التصريح في البيت الأول، ومحل الكلام عليه علم البديع، وقد ذكره في "المثل السائر" في أعتاب الكلام على السجع في الكلام المشور، وجعله على سبع مراتب: المرتبة الأولى - وهي أعلاها درجة - أن يكون كل مصراع من البيت مستقلاً بنفسه، غير محتاج إلى ما يليه، ويسمى التصريح الكامل: كقول امرئ القيس:

أَفَاطِمٌ مَّهَلًا بَعْضُ هَذَا التَّدْلِيلِ * وَإِنْ كُنْتِ قَدْ أَرَمَعْتِ هَجْرِي فَأَجْمَلِي

فإن كل مصراع من البيت مفهوم المعنى بنفسه، غير محتاج إلى ما يليه في الفهم، وليس له به ارتباط يتوقف عليه.

المرتبة الثانية - أن يكون المصراع الأول مستقلاً بنفسه، غير محتاج إلى الذي يليه إلا أنه مرتبط به، كقول امرئ القيس أيضاً:

قِفَا نَبِكِ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ * بِسِقِطِ اللَّوِيِّ بَيْنَ الدُّخُولِ فَحَوْمَلِ

فإن المصراع الأول منه غير محتاج إلى الثاني في فهم معناه، ولكنه لما جاء الثاني صار مرتبطاً به.

المرتبة الثالثة - أن يكون الشاعر مخيراً في وضع كل مصراع موضع الآخر، ويسمى التصريح الموجه، كقول ابن حجاج:

مِنْ شُرُوطِ الصَّبُوحِ فِي الْمَهْرَجَانِ * خِفَّةُ الشَّرْبِ مَعَ خُلُوءِ الْمَكَانِ

فإنه لو جعل المصراع الثاني أولاً والآخر ثانياً، لساغ له ذلك.

المرتبة الرابعة - أن يكون المصراع الأول غير مستقل بنفسه، ولا يفهم معناه إلا بالثاني، ويسمى التصريح الناقص، وليس بمستحسن، كقول المتنبي:

مَغَانِي الشَّعْبِ طِبْيَانِي الْمَغَانِي * بَمَثَلَةِ الرَّبِيعِ مِنْ الزَّمَانِ

فإن المِصْرَاعَ الأوَّلَ لا يَسْتَقِلُّ بِنَفْسِهِ فِي فَهْمٍ مَعْنَاهُ دُونَ الْمِصْرَاعِ الثَّانِي .

المرتبة الخامسة — أن يكون التصريحُ في البيت بلفظة واحدة في الوسط والقافية ، ويسمى التصريحُ المكرراً ، ثم اللفظة التي يَتَّعُ بها التصريحُ قد تكون حقيقةً لا مجازاً فيها كقول عبيد بن الأبرص :

وَكُلُّ ذِي غَيْبَةٍ يُوُوبُ * وَغَائِبُ الْمَوْتِ لَا يُوُوبُ

وقد تكون اللفظة التي يَتَّعُ بها التصريحُ مجازيةً كقول أبي تمام الطائي :

فَتِّي كَانَ شَرِبًا لِلْعُقَاةِ وَمَرَّتَعًا * فَأَصْبَحَ لِلْهِنْدِيَّةِ الْبَيْصَ مَرَّتَعًا

المرتبة السادسة — أن يكون المِصْرَاعُ الأوَّلُ مَعْلَقًا عَلَى صِفَةٍ يَأْتِي ذِكْرُهَا فِي أَوَّلِ الْمِصْرَاعِ الثَّانِي ، وَيَسْمَى التَّصْرِيحُ الْمَعْلَقُ . كقول امرئ القيس :

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا انْجَلِي * بِصُبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ فَيْكَ بِأَمْتَلِ

فإن المِصْرَاعَ الأوَّلَ مَعْلَقٌ عَلَى قَوْلِهِ بِصُبْحٍ ، وَهُوَ مُسْتَقْبَعٌ فِي الصَّنْعَةِ .

المرتبة السابعة — أن يكون التصريحُ في البيت مَخَالِفًا لِقَافِيَتِهِ ، وَيَسْمَى التَّصْرِيحُ الْمَشْطُورَ ، وَهُوَ أُنْزِلُ دَرَجَاتِ التَّصْرِيحِ وَأَقْبَحُهَا . كقول أبي نُوَاسٍ :

أَقْلَنِي قَدْ نَدِمْتُ عَلَى الذُّنُوبِ * وَبِالْإِقْرَارِ عُدْتُ مِنَ الْجُحُودِ

فإنه قد صرَّع في وسط البيت بالباء ثم في آخره بالذال .

قلت وإنما أوردت هذا الصنف مع السجع وإن كان من خصوصيات الشعر لأنه قد يقع مثله في النثر إذ الفقرة من النثر كالبيت من الشعر ، فالفقرتان كالبيتين ، وأيضاً فإن الشعر من وظيفة الكاتب :

الغرض الرابع

في معرفة مقادير السجعات في الطول والقصر، وهي على ضربين

الضرب الأول

السجعات القصار

وهي ما صيغ من عشرة ألفاظ في دونها . قال في "حسن التوسل" : وهي تدل على قوة التمكن وإحكام الصنعة ، لا سيما القصير منها للغاية ، وأقل ما يكون من لنظتين كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبُّكَ فَكَبِيرٌ وَثِيَابُكَ فَطَهِّرْ ﴾ . وقوله : ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا فَأَلْعَافِيَاتِ غَصَفًا ﴾ وما أشبه ذلك وأمثاله في القرآن الكريم كثير إلا أن الزائد على ذلك أكثر . كقوله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ . وقوله : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْتَشَقَّ الْقَمَرُ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكَلَّأْنَا أَمْرِي مُسْتَمِرًّا ﴾ . وقوله : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴾ ونحو ذلك .

الضرب الثاني

السجعات الطوال

قال في "حسن التوسل" : وهي ألد في السمع ، بتشويق السامع الى ما يرد متزايدا على سمعه . وأقل ما تتركب من إحدى عشرة كلمة فما فوقها ، وغالب ما تكون من خمس عشرة لفظة فما حولها . كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ وَلَئِن أَدَقْنَا نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مِّنْهُ لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ فالأولى من إحدى عشرة لفظة ، والثانية من ثلاث

عشرة لفظة ، وقوله : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ فالأولى من أربع عشرة لفظة ، والثانية من خمس عشرة ، وقوله : ﴿ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَىٰ أَكْثَرَهُمْ كَثِيرًا لَفِشَلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ وَإِنَّا لَنَسْلَمُ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ وَإِذْ يُرِيكُوهُمْ إِذِ التَّيْمِيمِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَالُ لَكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ فالأولى عشرون لفظة ، والثانية تسع عشرة ، وهذا غاية ما انتهى إليه الطول في القرآن الكريم . وينبغي أن يكون ذلك نهاية الطول في السجع وقوفاً مع ما ورد به القرآن الكريم الذي هو أفصح كلام ، وأقوم نظام ، وإن كان الوزير ضياء الدين بن الأثير ، والشيخ شهاب الدين محمود الحلبي وغيرهما ، قد صرحوا بأنه لا ضابط لأكثره .
واعلم أنه قد جرت عادة كتاب الزمان ومصطلحهم أن تكون السجعة الأولى من افتتاح الولاية من تقليد أو توقيع أو غير ذلك قصيرة بحيث لا يتعدى آخرها السطر الثاني في الكتابة ليقع العلم بها بمجرد وقوع النظر على أول المكتوب . وعلى هذا فيختلف التصرف فيها باختلاف ضيق الورق وسعته في العرض .

الفرض الخامس

(في ترتيب السجعات بعضها على بعض في التقديم والتأخير

باعتبار الطول والقصر وله حالتان

الحالة الأولى

ألا يزيد السجع على سجتين ؛ وله ثلاث مراتب

المرتبة الأولى — أن تكون القرينتان متساويتين لا تزيد إحداهما على الأخرى

كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ وقوله : ﴿ وَالْعَادِيَاتِ

صَبْحًا فَالْمُورِيَّاتِ قَدْحًا فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا فَوْسَطَانَ بِهٖ جَمْعًا ۝ وَأَمْثَالَ
ذَلِكَ .

المرتبة الثانية – أن تكون القرينة الثانية أطول من الأولى بقدر يسير كقوله
تعالى : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ
بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ۝﴾ فالأولى ثمان كلمات ، والثانية تسع ونحو ذلك ،
أما إذا طالت الثانية عن الأولى طولا يخرج عن الاعتدال ، فإنه يستقبح حينئذ ،
ووجهه في ” حسن التوسل “ بأنه يُبعد دخول القافية على السامع فيقل الالتذاذ
بسماعها . والمرجع في قدر الزيادة والقصر إلى الذوق .

المرتبة الثالثة – أن تكون القرينة الثانية أقصر من الأولى . قال في ” المثل السائر “ :
وهو عندي عيب فاحش ، لأن السمع يكون قد استوفى أمده من الفصل الأول
بحكم طوله ، ثم يحىء الفصل الثاني قصيرا فيكون كالشيء المبتور ، فيبقى الانسان عند
سماعه كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها ، وفيما قاله نظر ، فقد تقدم في قوله
تعالى : ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ الآيتين أن الأولى عشرون كلمة والثانية
تسع عشرة ، بل قد اختار تحسين ذلك أبو هلال العسكري في ” الصناعتين “ محتجاً له
بكثرة وروده في كلام النبوة كقوله صلى الله عليه وسلم للأَنْصَارِ : ” إِنَّكُمْ لَتَكْثُرُونَ
عِنْدَ الْفَزَعِ ، وَتَقْلُونَ عِنْدَ الطَّمَعِ “ وقوله : ” الْمُؤْمِنُونَ لَتَكْفُرُوا دِمَاؤُهُمْ ، وَهُمْ يَدُّ عَلَى
مَنْ سِوَاهُمْ “ وقوله : ” رَحِمَ اللَّهُ مَنْ قَالَ خَيْرًا فَنَعِمَ أَوْ سَكَتَ فَسَلِمَ “

الحالة الثانية

أن يزيد السجع على سجتين ، ولها أربع مراتب

المرتبة الأولى – أن يقع على حد واحد في التساوي وهو مستحسن ، وقد ورد
في القرآن الكريم بعض ذلك كقوله تعالى : ﴿رِوَاصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ

في سِدْرٍ مَحْضُودٍ وَطَلْحٍ مَنضُودٍ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴿ فهذه السجعات الثلاث مركبة من لفظتين لفظتين .

المرتبة الثانية - أن تكون الأولى أقصر والثانية والثالثة متساويتين كقوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضِيقًا مُّقْرِنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ فالأولى من ثمان كلمات ، والثانية والثالثة من تسع تسع .

المرتبة الثالثة - أن تكون الأولى والثانية متساويتين ، والثالثة زائدة عليهما ، وقد أشار إلى هذه المرتبة في "حسن التوسل" حيث قال : فإن زادت القرأتان على اثنتين فلا يضر تساوي القرينتين الأوليين وزيادة الثالثة ، ولم يمثل لها .

المرتبة الرابعة - أن تكون الثانية زائدة على الأولى ، والثالثة زائدة على الثانية . قال في "المثل السائر" : وينبغي أن تكون في هذه الحالة زيادة الثالثة متميزة في الطول على الأولى والثانية أكثر من تميز الثانية على الأولى . ثم قال : فإذا كانت الأولى والثانية أربع لفظات أربع لفظات تكون الثالثة عشر لفظات أو إحدى عشرة لفظة ، ومثل له في "حسن التوسل" بقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَّجِنَّةٌ لَّيْسَ لَهَا شَيْئًا إِذَا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتُسْفَرُ الْجِبَالُ لَدَىٰ دَعْوِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ فالأولى من ثمان كلمات ، والثانية من تسع ، والثالثة من عشر ، ومثل له في "المثل السائر" بقوله في وصف صديق : فقلت : الصديق من لم يعتض عنك بخالف ، ولم يعابك معاملة الخالف ، وإذا بلغته أذنه وشاية أقام عليها حد السارق أو القاذف ، فالأولى : وهي لم يعتض عنك بخالف والثانية بعدها أربع كلمات ، والثالثة عشر كلمات . ثم قال : وينبغي أن يكون ما يستعمل من هذا القبيل ، فإن زادت الأولى والثانية على هذه العدة زادت

الثالثة بالحساب، وإن نقصت الأولى والثانية، فكذلك. لكن قد ضبط في "حسن التوسل" الزيادة في الثالثة بألا تجاوز المثل، والأمر فيما بين الضابطين قريب، ولا يخفى حكم الرابعة في الزيادة مع الثالثة. قال في "حسن التوسل": ولا بد من الزيادة في آخر التمران.

الغرض السادس

فما يكون فيه حسن السجع وقبحه

أما حسنه، فيعتبر فيه بعد ما يقع فيكون به تحسين الكلام من أصناف البديع ونحوها بأمور أخرى.

منها أن يكون السجع بريئا من التكلف، خاليا من التعسف، محمولا على ما يأتي به الطبع وتبديده الغريزة، ويكون اللفظ فيه تابعا للمعنى، بأن يقتصر من اللفظ على ما يحتاج إليه في المعنى دون الإتيان بزيادة أو نقص تدعو إليه ضرورة السجع، حتى لو حصلت زيادة أو نقص بسبب السجع دون المعنى، نخرج السجع عن حيز المدح إلى سائر الذم.

ومنها أن تكون الألفاظ المسجوعة حادة حادة، لا غنة ولا باردة، مؤنقة المعنى حسنة التركيب، غير قاصرة على صورة السجع الذي هو نواطئ الفقر، فيكون كمن نقش أبوابا من الكرسيف، أو نظم عقدا من الحز الملقون. قال في "المثل السائر": وهذا مقام تزل عن الأقدام، ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب هذا الفن بعد الواحد. قال: ومن أجل ذلك كان أربابه قليلا، ولولا ذلك كان كل أديب سجعانا إذا ما منهم من أحد إلا وقد يتيسر عليه تأليف ألفاظ مسجوعة في الجملة.

ومنها أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذي دلت عليه أختها، لأن اشتغال السجعتين على معنى واحد يمكن أن يكون

في إحداهما بمفردها هو عين التطويل المذموم في الكلام، وهو الدلالة على المعنى
بألفاظ يمكن الدلالة عليه بدونها على ما هو مقرر في علم البيان . قال في "المثل السائر" :
فلا يكون مثل قول الصابي في وصف مدبر: "يسافر رأيه وهو دان لم ينزح، ويسير
تديره وهو ثاولم يبرح" ولو قال : يسافر رأيه وهو دان لم ينزح، ويثنخن الجراح
في عدوه وسيفه في الغمد لم يجرح، لسلم من هجنة التكرار: فإنه تصير كل سبعة محتوية
على معنى بحالها .

ومنها أن يقع التجسين في نفس الفواصل، كقولهم : إذا قلت الأنصار، كتت
الأبصار، وقولهم : ما وراء الخلق الذميمة، إلا الخلق الذميمة، ونحو ذلك .

ومنها أن يقع في خلال السجعة الطويلة قرائن قصار فتكون سجعا في سجع .
كقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا
الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَلَسْتُ بِأَخِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ
حَمِيدٌ ﴾ فإن قوله : ﴿ على أموالهم ﴾ . وقوله : ﴿ على قلوبهم ﴾ سجتان داخلتان في السجعة
التي آخرها ﴿ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ . وقوله : ﴿ بأخيه ﴾ وقوله : ﴿ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾
سجتان داخلتان في السجعة التي آخرها ﴿ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ وعاد العسكري منه قولهم :
عاد تعريضك تصريحا، وتريضك تصحيحا .

وأما قبحة فيعتبر بأمور :

منها التجميع، وهو أن تكون فاصلة الجزء الأول بعيدة المشاكلة لفاصلة الجزء
الثاني كما حكى قدامة : أن كتبا كتب في جواب كتاب : وصل كتابك فوصل به
ما يستعيد الخبر، وإن كان قديم العبودية، ويستغرى الشكر، وإن كان سالف فضلك
لم يبق شيئا منه، فإن العبودية بعيدة عن مشاكلة منه .

ومنها التطويل ، فيما ذكر قُدَامَةً وغيره : وهو أن يجيء الجزء الأول طويلاً فيحتاج الى إطالة الثاني بالضرورة . كما حكى قُدَامَةُ أن كاتباً كتب في تعزية : اذا كان للحزون في لقاء مثله كبير الراحة في العاجل ، وكان طويلاً الحُزْنَ راتباً اذا رجع الى الحقائق وغير زائل . قال في ”الصناعتين“ : وذلك أنه لما أطال الجزء الأول ، وعلم أن الجزء الثاني ينبغي أن يكون مثله أو أطول ، احتاج الى تطويل الثاني فأتى باستكراه وتكلف . قال في ”موادّ البيان“ والإطالة بقوله وغير زائل .

الأصل الخامس

حسن الاتباع ، والقدرة على الاختراع

وَأَعْلَمُ أَنَّ لِكَاتِبِ الْإِنشَاءِ مَسْلُوكِينَ :

المسلك الأول

طريقة الاتباع

وهي نظر الكاتب في كلام من تقدمه من الكُتَّابِ ، وسلوك منهجهم ، واقتفاء

سبيلهم ، وسماها ابن الأثير التقليد ، وهي على صنفين :

الصنف الأول

الأنباع في الألفاظ

وهو آتباع الكاتب على مارتبه غيره من الكُتَّابِ ، وأنشأه سواه من أهل صناعة

النثر ، بأن يعيد الى ما أنشأه أفاضل الكُتَّابِ ورتبه علماء الصناعة : من نثر أو نظم

فياخذه برُمَّته ، ويأتى عليه بصيغته ، وغايته أن يكون ناسخاً ناقلاً لكلام غيره ، كما

له . ولمثل ذلك توضع الدساتير ، وتُدَوَّنُ الدواوين ، على أنه ربما غير وبدل ،

وحرف وصحف ، وأزال اللفظ عن وضعه ، وأحال المعنى عن حكمه ، وبعضهم

ربما حملته الأتفة والخوف من أن يقال أخذ كلام فلان برمته، فعُدل إلى كلام غيره، فالتقط من كل مكان سجعين أو سجمات، ورتب بعضها على بعض حتى تقوم بمقصوده، وينتهي إلى مراده .

فإن كان لطيف الذوق، حسن الاختيار، رائق الترتيب، فاختر من خلال السجع لطيفه، وأحسن رصفه وتأليفه، جاء بهجاً رائعاً، لأنه أتى من كل كلام بأحسنه، إلا أن فيه إخراج الكلام عن وضعه الذي قصده الناثر، وتفريق مادون من كلام الأفاضل وتبديد شمله، ونروج الكلام عن أن يُعرف قائله، ويعلم منشئه، فيقع من القلوب بمكان صاحبه ويهتدى بهديه، وينسج على منواله .

وإن لم يكن لطيف الذوق، ولا حسن الاختيار، جاء مالفقه من كلام غيره رثاً وكيكاً، نابياً عن الذوق، بعيداً عن الصنعة، يُعاد من النسخ إلى المسخ، وأخرج الكلام عن موضوعه، وأفسده في وضعه وتركيبه، فإن صحبه التصحيف والتحريف فلنك النظامة الكبرى، والمُصيبة العظمى . ثم لا يكتفى بذلك حتى يتبجح به ويعتقد أن ذلك عين الإنشاء وحقيقته، محتجاً في ذلك بقول الحريري: "إن صناعة الحساب موضوعة على التحقيق، وصناعة الإنشاء مبنية على التلفيق". ظاناً أن التلفيق هو ضم سجمات منتظمة، وفقرات مؤلفة بعضها إلى بعض، ولم يعلم أن المراد بالتلفيق ضم لفظة إلى آخرها، وإضافة كلمة إلى مشاكتها . وشتان ما بين التلفيقين، وبعداً ما بين الطريقتين :

وللزنبور والباري جميعاً * لدى الطيران أجنحة وخفق
ولكن بين ما يضطاد بارٍ * وما يضطاده الزنبور فرق

وقد عابوا أخذ المعنى إذا كان ظاهراً مكشوفاً فما ظنك بمن يأخذ الكلام برمته، واللفظ بصورته، فيصير ناسخاً لكلام غيره، وناقلاً له؟ فأى فضيلة في ذلك؟

وفد قيل : من أخذ معنى بلفظه كان سارقا ، ومن أخذ بعض اللفظه كان سانحا ، ومن أخذه فكساه لفظا من عنده كان أولى به ممن تقدمه ، وأين من هو أولى بالشيء ممن سبقه إليه ممن يعد سارقا وسانحا ؟ ويقال إن أبا عذرة الكلام من سبك لفظه على معناه ومن أخذ معنى بلفظه فليس له فيه نصيب . هذا فيمن أخذ سجعاً أو سجعتين في خطبة أو رسالة ، أو بيتاً أو بيتين في قصيدة وما قارب ذلك ، أما من أخذ القصيدة بكلمها ، أو الخطبة أو الرسالة برمتها ، أو لفظها من خطب أو رسائل فذاك إنما يعد ناسخاً إن أحسن النقل ، أو ماسخاً إن أفسده .

وَأَعْلَمُ أَنَّ النَّائِرَ الْمَاهِرَ ، وَالشَّاعِرَ الْمُفْلِقَ قَدْ يَأْتِي بِكَلَامٍ سَبَقَهُ إِلَيْهِ غَيْرُهُ ، فَيَأْتِي بِالْبَيْتِ مِنَ الشُّعْرِ ، أَوِ الْقَرْيِنَةِ مِنَ النَّثْرِ ، أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ بِلَفْظِ الْأَوَّلِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصَانٍ ، أَوْ بِتَغْيِيرِ لَفْظٍ يَسِيرٍ ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يُسَمِّيهِ أَهْلُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَقُوعَ الْحَافِرِ عَلَى الْحَافِرِ . وَقَدْ سَأَلَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ عَنِ الشَّاعِرِينَ يَتَّفِقَانِ عَلَى لَفْظٍ وَاحِدٍ وَمَعْنَى فَقَالَ : عَقُولُ رِجَالٍ تَوَافَتْ عَلَى أَلْسِنَتِهَا .

والواقع من ذلك في كلامهم على قسمين :

القسم الأول

ما وقع الاتفاق فيه في المعنى واللفظ جميعاً

كقول المرزوقي :

وَعُرٌّ قَدْ وَسَّتْ مُشْمَرَاتٍ * طَوَالِغَ لَا تُطِيقُ لَهَا جَوَابًا
كُلُّ نَبِيٍّ وَبِكُلِّ نَقِيرٍ * عَرَائِبُهُنَّ تَنْسِبُ أَنْتَسَابًا
يَلْفَنُ الشَّمْسَ حِينَ تَكُونُ شَرْقًا * وَمَسْقَطُ رَأْسِهَا مِنْ حَيْثُ غَابَا

ووافقه جرير فقال مثل ذلك من غير زيادة ولا نقص .

ويروى أن عمر بن أبي ربيعة أنشد ابن عباس رضي الله عنه :

• تَشَطُّ عَدَا دَارَ جِيرَانِنَا •

فقال ابن عباس رضي الله عنه :

• وَلِلدَّارِ بَعْدَ غَدٍ أَعَدُّ •

فقال عمر : والله ما قلتُ إلا كذلك .

قال أبو هلال العسكري في كتابه "الصواعق" :

وأنشدت الصحاح إسماعيل بن عباد رحمه الله :

• كَانَتْ سَرَاةُ النَّاسِ تَحْتَ أَظْلِهِ •

مسبقني وقال :

• فَغَدَّتْ سَرَاةُ النَّاسِ فَوْقَ سَرَاتِهِ •

وكذلك كنتُ قلتُ : قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله في كتابه "المثل

السائر" : ويحكى أن امرأة من عُقَيْل يقال لها ليلي كان يتحدث إليها الشَّبابُ ،

فدخل الفرزدق إليها وجعل يحادثها ، وأقبل فتى من قومها كانت تألفه فدخل إليها

فاقبلت عليه وتركت الفرزدق ، فغاضه ذلك فقال للفتى : أتصارعني؟ فقال : ذاك

إليك ، فقام إليه فلم يلبث أن أخذ الفرزدق فصرعه وجلس على صدره فصرط ،

فوثب الفتى عنه وقال : يا أبا فراس هذا مقام العائذ بك ، والله ما أردت ما جرى .

قال : ويحك ! والله ما بي أنك صرعتني ولكن كأني بابن الأتان ، (يعني جريرا)

وقد بلغه خبري فقال يهجوني :

جَسَّتْ إِلَى لَيْلِي لِتَحْطَى بِقُرْبِهَا • نَحَاكَ دُبْرٌ لَا يَزَالُ يَنْحُونُ

فَلَوْ كُنْتَ ذَا حَرَمٍ شَدَّدْتَ وَكَاءَهُ • كَمَا شَدَّ جُرْمَانَ الدَّلَاصِ قُبُونُ

فما مضى إلا أيام حتى بلغ جريراً الخبر ، فقال فيه هذين البيتين . قال :
وهذا من أغرب ما يكون في هذا الموضع وأعجبه ! قال في "الصناعتين" : وإذا كان
القوم في قبيلة واحدة ، في أرض واحدة ، فإن خواطرهم تقع متقاربة ، كما أن أخلاقهم
وشاغلهم تكون متضارعة . قال في "المثل السائر" : ويقال إن الفرزدق وجريراً كانا
ينطلقان في بعض الأحوال عن ضمير واحد . قال : وهذا عندي مستبعد ، فإن
تظاهر الأمر يدل على خلافه ، والباطن لا يعلمه إلا الله تعالى ، وإلا فإذا رأينا شاعراً
متقدماً الزمان قد قال قولاً ثم سمعناه من شاعر أتى من بعده ، علمنا بشهادة الحال
أنه أخذ منه ، وهب أن الخواطر تتفق في استخراج الممانى الظاهرة المتداولة ،
فكيف تتفق الألسنة أيضاً في صوغ الألفاظ ؟ وكلام العسكري في "الصناعتين"
يوافقه بالعتب على المتأخر ، وإن ادعى أنه لم يسمع كلام الأول في مثل ذلك .

القسم الثاني

ما وقع الاتفاق فيه في المعنى وبعض اللفظ ، وهو على ضربين

الضرب الأول

ما اتفق فيه المعنى وأكثر اللفظ

كقول امرئ القيس :

وَقَوْفاً بِهَا صَحْبِي عَلَى نَطِيئِهِمْ . يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسَى وَتَجَمَّلِ

وقول طرفة :

وَقَوْفاً بِهَا صَحْبِي عَلَى نَطِيئِهِمْ . يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسَى وَتَجَمَّلِ

ذلك والله بينهما في كلمة الغافية فقط .

وقول البيهقي :

أترجو كليباً أن يجيء حديثها * بخير وقد أعيأ كليباً قديمها؟

وقول الفرزدق :

أترجو ربيعاً أن يجيء صغارها * بخير وقد أعيأ ربيعاً كبارها؟

فالتخالف بينهما في موضعين من البيت ، كلمة التمازية وأسم القبيلة .

وقول بعض المتقدمين يمدح معبداً صاحب الغناء :

أجاد طويس والسريجي بعده * وما قصبات السبق إلا لمعبد

وقول الفرزدق بعده :

محاسن أصناف المغنين جملة * وما قصبات السبق إلا لمعبد

فاتفقا في النصف الثاني وأختلفا في النصف الأول ، الى غير ذلك من الأشعار

التي وقعت خواطر الشعراء عليها ، وتوافقت عقولهم عندها .

الضرب الثاني

ما اتفق فيه المعنى مع يسير اللفظ

فمن ذلك قول البحتري في وصف غلام :

فوق ضعف الصغير إن وكل الأمر إليه ، ودون كيد الكبار

أخذه من قول أبي نؤاس :

لم يحنف من كبير عما يراد به * من الأمور ولا أزرى به الضمير

وقول أبي تمام :

لم امدحك تنخيا بشعري * ولكنتي مدحت بك المدينا

أخذه من قول حسان بن ثابت يمدح النبي صلى الله عليه وسلم :
 ما إني مدحتُ محمداً بمقالتِي . لكنْ مدحتُ مقالتِي بمحمد

وقول أبي الطَّيِّب :

أين أزمعت أيتها الهمام * نحن نبتُ الربا وأنت الغمام

أخذه من قول بشر :

كانَّ النَّاسَ حينَ تَغيبُ عنهم * نباتُ الأرضِ أخطاه القطارُ

الصنف الثاني

التقليد في المعاني

وهذا لما لا يستغنى عنه ناظم ولا ناثر. قال أبو هلال العسكري رحمه الله في كتابه
 "الصناعتين" : ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعاني ممن تقدمهم
 والصب على قوالب من سبقهم ، ولكن عليهم إذا أخذوها أن يكسوها ألفاظا من
 عندهم ، ويرزوها في معارض من تأليفهم ، ويوردوها في غير حليتها الأولى ، ويزيدوا
 عليها في حسن تأليفها وجودة تركيبها ، وكال حليتها ومعرضها ، فإذا فعلوا ذلك فهم
 أولى بها من سبق إليها . قال : ولولا أن القائل يؤدي ما سمع لما كان في طاقته
 أن يقول ، وإنما ينطق الطفل بعد آسماعه من البالغين ، وقد قال أمير المؤمنين
 على كرم الله وجهه : لولا أن الكلام يعاد لنفد . ومن كلام بعضهم : كل شيء
 إذا شئتَه قصر إلا الكلام ، فإنك إذا شئتَه طال ، والمعاني مشتركة بين العقلاء . وربما
 وقع المعنى الجيد للسوقي والنبطي والزنجي . وإنما يتفاضل الناس في الألفاظ
 ورصدها ، وتأليفها ونظمها ، وقد أطبق المتقدمون والمتأخرون على تداول المعاني
 بينهم ، فليس على أحد فيه عيب إلا إذا أخذه بكل لفظه ، أو أفسده في الأخذ

وقصّر فيه عن تقدمه . قال في "الصناعتين" : وما يُعرَفُ للتقدم معنى شريف إلا نازعه فيه المتأخر وطلب الشركة فيه معه ، إلا بيت عنتره :

وخلّا الذبابُ بها فليس يبارح * غيرداً كِفْعَلُ الشاربِ المُتَرَمِّمِ

هَزِجًا يَحْكُ ذِرَاعَهُ يَذِرَاعِهِ * قَدَحَ المِكْبِ عَلَى الزنَادِ الأَجْدَمِ

فإنه ما نُوزِعَ فيه على جَوَدَتِهِ . قال : وقد رآه بعض المحدثين فافتضح مع العلم بأن ابتكار المعنى والسبق إليه ليس فيه فضيلة ترجع إلى المعنى ، وإنما ترجع الفضيلة إليه إلى الذي ابتكره وسبق إليه ، فالمعنى الجيد جيد وإن كان مسبوقة إليه ، والوسط وسط والردى ردىء وإن لم يكن مسبوقة إليهما . على أن بعض علماء الأدب قد ذهب إلى أنه ليس لأحد من المتأخرين معنى مبتدع ، محتجاً لذلك بأن قول الشعر قديم مذ يُنطق باللغة العربية ، وأنه لم يبق معنى من المعاني إلا وقد طُريق مراراً . قال في "المثل السائر" : والصحيح أن باب الابتداع مفتوح إلى يوم القيامة ، ومن الذي يحجر على الخواطر وهي قاذفة بما لا نهاية له ؟ إلا أن من المعاني ما يتساوى فيه الشعراء ولا يُطَاق عليه اسم الابتداع لأقول قبل آخر لأن الخواطر تأتي به من غير حاجة إلى اتباع الآخر الأول ، كقولهم في الغزل :

عَفَّتِ الدِيَارُ وما عَفَّتْ * آثَارُهُنَّ مِنَ القُأُوبِ

وقولهم في المديح : إن عطاءه كالبحر أو كالسحاب ، وإنه لا يمنع عطاء اليوم

عطاء غد ، وإنه يجود بماله من غير مسألة ، وأشبه ذلك .

وقولهم في المراثي : إن هذا الرزء أول حادث ، وإنه آستوى فيه الأبعاد

والأقارب ، وإن الذهاب لم يكن واحدا وإنما كان قبيلةً ، وإن بعد هذا الذهاب

لا يُعَدُّ للنية ذنب ، وما أشبه ذلك . وكذلك سائر المعاني الظاهرة التي تتوارد عليها

الخواطر من غير كلفة ، ويستوى في إيرادها كلُّ بارع . قال : ومثل ذلك لا يُطَاق

على الآخر فيه أسم السرقة من الأول ، وإنما يطلق أسم السرقة في معنى مخصوص
كقول أبي تمام :

لا تُتَكْرَوا صَرَبِي لَه مَن دُونَه * مَثَلًا شَرُودًا فِي النَّدى وَالْبَاسِ
فَاللَّهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلَ لُنُورِهِ * مَثَلًا مِنَ الْمَشْكَاةِ وَالنَّبْرَاسِ

فإن هذا معنى ابتدأه مخصوص بأبي تمام ، وذلك أنه لما أنشد أحمد بن
المعتصم قصيدته السينية التي مطلعها :

« مَا فِي وُقُوفِكَ سَاعَةٌ مِنْ بَاسٍ »

أنهى الى قوله منها

إقدام عمرو في سماحة حاتم * في حلم أحنف في ذكاء إياس

فقال الحكيم الكندي : وأى نخر في تشبيه ابن أمير المؤمنين بأجلاف العرب؟
فأطرق أبو تمام ثم أنشد هذين البيتين معتذرا عن تشبيهه إياه بعمرو وحاتم وإياس .
فالحال يشهد بابتداعه هذا المعنى ، فمن أتى بعده بهذا المعنى أو بجزء منه كان سارقا
له ، وكذلك كل ما جرى هذا المجرى . ولم يزل الشعراء والخطباء يقتبسون من معاني
من قبلهم ، ويبنون على بناء من تقدمهم .

فما وقع للشعراء من ذلك قول أبي تمام :

خُلِقْنَا رِجَالًا لِلتَّجَلُّدِ وَالْأَسَى * وَتِلْكَ الْغَوَايِي لِلْبُكَاءِ وَالْمَاتَمِ

أخذه من قول عبد الله بن الزبير لما قُتل مُصْعَبُ بن الزبير : وإنما التسليم
والسُّلُوُ الحزماء الرجال ، وإن الخزع وأدملع لرَبَّاتِ الحِجَالِ ، وقوله أيضا :

تَدَجَّتْ أَنْ رَأَتْ جِسْمِي نَحِيفًا . كَأَنَّ الْمَجْدَ بَدْرُكَ بِالصَّرَاعِ

أخذه من قول زياد ابن أبيه لأبي الأسود الدؤلى : لولا أنك ضعيف
لاستعملتك ، وقول أبي الأسود له فى جواب ذلك : إن كنت تُريدنى للصراع فإنى
لا أصالح له ، وإلا فغير شديد أن أمر وأنهى ، وقوله من قصيدة البيت المتقدم :

أطال يدي على الأيام حتى • جزيتُ صروفها صاعا بصاع

أخذه من قول أمير المؤمنين على كرم الله وجهه :

فإن تُقتلا أو يُمكن الله منكما • نكل لكما صاعا بصاع المكابيل

وقول أبي الطيب المتنبي :

وإذا كانت النفوس كبارا • تعبت فى مرادها الأجسام

أخذه من قول أرسطوطاليس : إذا كانت الشهوة فوق القدرة كان هلاك

الجسم دون بلوغ الشهوة .

وقول الخاسر .

من راقب الناس مات غمما • وفاز باللذة الجسور

أخذه من قول بسّار :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته . • وفاز بالطيبات الفاتك اللهب

فلما سمع بسّار بيت الخاسر قال : ذهب ابن الفاعلة بيتى . ومثل هذا وأشباهه

مما لا ينحصر كثرة ، ولا يكاد أن يخلو عنه بيت إلا نادرا

ومما وقع للكاتب من ذلك ما كتب به إبراهيم بن العباس من دولابى فصل

من كتاب . إذا كان للحسن من الثواب ما يقنعه ، وللمسيء من العتاب ما يجمعه ،

أزداد المحسن فى الإحسان رغبة ، وأنقاد المسيء للحق رهبة . أخذه من قول على

كرم الله وجهه : يجب على الوالى أن يتعهد أموره ، ويتفقد أعوانه ، حتى

لا يُخْفَى عَلَيْهِ إِحْسَانُ مُحْسِنٍ ، وَلَا إِسَاءَةُ مُسِيءٍ ، ثُمَّ لَا يَتْرُكُ وَاحِدًا مِنْهُمَا بِغَيْرِ جَزَاءٍ ، فَإِنْ تَرَكَ ذَلِكَ تَهَاوَنَ الْمُحْسِنُ وَاجْتَرَأَ الْمُسِيءُ ، وَفَسَدَ الْأَمْرُ ، وَضَاعَ الْعَمَلُ .

وما كتب به بعض الكُتَّابِ فِي فِصْلِ وَهُوَ : لَوْ سَكَتَ لِسَانِي عَنِ شُكْرِكَ ، لَنَطَقَ أَثْرَكَ عَلَيَّ . وَفِي فِصْلِ آخَرَ : وَلَوْ جَمَدَتْكَ إِحْسَانُكَ ، لَا كَذَبْتَنِي آثَارُكَ ، وَتَمَّتْ عَلَيَّ شَوَاهِدُهَا ، أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ نَصِيبٍ :

• وَلَوْ سَكَتُوا أَثَبْتُ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ •

وما كتب به أحمد بن يوسف من فصل وهو : أَحَقُّ مَنْ أَثَبْتُ لَكَ الْعِذْرَ فِي حَالِ شُغْلِكَ ، مَنْ لَمْ يَخُلْ سَاعَةً مِنْ بَرِّكَ فِي وَقْتِ فَرَاغِكَ . أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : لَا تَكُونَنَّ كَمَنْ يُعْجِزُ عَنِ شُكْرٍ مَا أَوْلَى ، وَيَلْتَمِسُ الزِّيَادَةَ فِيمَا بَقِيَ .

وَالْأَقْتِنَاسُ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَالْآثَارِ كَثِيرٌ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ . قَالَ فِي "الصَّنَاعَتَيْنِ" : وَمِنْ أَخْفَى أَسْبَابِ السَّرِقَةِ أَنْ يَأْخُذَ مَعْنَى مَنْ نَظَمَ فَيُورِدُهُ فِي ثَرٍّ ، أَوْ مِنْ ثَرٍّ فَيُورِدُهُ فِي نَظْمٍ ، أَوْ يَنْقُلَ الْمَعْنَى الْمُسْتَعْمَلَةَ فِي صِفَةِ نَجْمٍ فَيَجْعَلُهُ فِي مَدِيحٍ ، أَوْ فِي مَدِيحٍ فَيَنْقُلُهُ إِلَى وَصْفٍ ، إِلَّا أَنَّهُ لَا يَصِلُ لِهَذَا إِلَّا الْمُبَرِّزُ الْكَامِلُ الْمَقْدَمُ .

وَقَالَ فِي "الْمَثَلِ السَّائِرِ" : أَشْكَلُ سَرَقَاتِ الْمَعَانِي ، وَأَدْقُهَا وَأَغْرِبُهَا ، وَأَبْعَدُهَا مَذْهَبًا أَنْ يُؤْخَذَ الْمَعْنَى مَجْتَرِدًا مِنَ اللَّفْظِ . قَالَ : وَذَلِكَ مِمَّا يَصْعَبُ جَدًّا وَلَا يَكَادُ بَأَنِّي إِلَّا قَلِيلًا ، وَلَا يَتَفَطَّنُ لَهُ وَيَسْتَخْرِجُهُ مِنَ الْأَشْعَارِ إِلَّا بَعْضُ الْخَوَاطِرِ دُونَ بَعْضٍ .

فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ فِي الْمَدْحِ :

فَتَى مَاتَ بَيْنَ الضَّرْبِ وَالطَّعْنِ مَيْتَةً ، تَقُومُ مَقَامَ النَّصِيرِ إِذْ فَاتَهُ النَّصِيرُ

أخذه من قول عروة بن الورد من شعراء الحماسة
 وَمَنْ يَكُ مِثْلِي ذَا عِيَالٍ وَمُقْتَرًا * مِنَ الْمَالِ يَطْرَحُ نَفْسَهُ كُلَّ مَطْرَحٍ
 لِيُبْلِغَ عُذْرًا أَوْ يَنْتَالَ رَغِيْبَةً * وَمُبْلِغُ نَفْسٍ عُذْرًا مِثْلُ مَنْجِحِ
 فعروة جعل اجتهاده في طلب الرزق عذرا يقوم مقام النجاح، وأبو تمام جعل
 الموت في الحرب الذي هو غاية اجتهاد المجتهد في لقاء العدو قائما مقام الانتصار
 قال في "المثل السائر": وكلا المعنيين واحد، غير أن اللفظ مختلف، وأظهر من ذلك
 أخذا قول القائل :

وقد عزى ربيعة أن يوماً * عابها مثل يومك لا يعود

أخذه من قول ابن المقفع في باب المراثي من الحماسة :

وقد جرّنا ففقدنا لك أننا * أمنا على كل الرزايا من الجزع

على أنه ربما وقع للتأخر معنى سبقه إليه من تقدمه من غير أن يلم به المتأخر ولم
 يسمعه ، ولا استبعاد في ذلك كما يستبعد اتفاق اللفظ والمعنى جميعا . قال أبو هلال
 العسكري : وهذا أمر قد عرفته من نفسي فلا أمتري فيه . وذلك أني كنت
 عملت شيئا في صفة النساء فقلت :

* سفرن بدورا وانتقبن أهلة *

وطنت أني لم أسبق إلى جمع هذين التشبيهين حتى وجدت ذلك بعينه لبعض
 البغداديين فكثرت تعجبي ، وعزمت على ألا أحكم على المتأخر بالسرقة من المتقدم
 حكما حتما .

إذا تقرر ذلك فسرقة المعنى الجرد عن اللفظ لا تخرج عن اثني عشر ضربا .

الضرب الأول

أن يؤخذ المعنى ويستخرج منه ما يشبهه ولا يكون هو إياه . قال في "المثل السائر" : وهذا من أدق السرقات مذهباً وأحسنها صورة، ولا يأتي إلا قليلاً .
فإن ذلك قول المتنبي :

وإذا أنتك مذمتي من ناقص * فهي الشهادة لي بأني كامل

وهذا المعنى استخرجه المتنبي من قول بعض شعراء الحماسة، وإن لم يكن صريحاً فيه حيث يقول :

لقد زادني حبا لنفسي أنني * بغيض إلى كل امرئ غير طائل

قال في "المثل السائر" : والمعرفة بأن هذا المعنى من ذلك المعنى عسر غامض غير متين إلا لمن أعرق في ممارسة الشعر، وغاص على استخراج المعاني . قال :
وبيان ذلك أن الأول يقول : إن بغض النهي هو غير طائل إياي قد زاد نفسي حبا إلى أي قد جعلها في عيني وحسنها عندي كون الذي هو غير طائل منقصباً ؛
والثاني يقول : إن ذم الناقص إياه بنضله كتجسين بغض الذي هو غير طائل نفس ذلك عنده .

وأظهر من ذلك أخذاً من هذا الضرب قول البحري في قصيدة يذخر فيها بسومه :

شِيخَانٍ قَدْ نَقَلَ الْمَلَّاحُ عَلَيْهِمَا * وَعَدَاهُمَا رَأَى السَّمِيعُ الْمُبْصِرُ
رَكِبَا النَّمَاءَ مِنْ بَعْدِ مَا حَمَلَا التَّنَا * فِي عَسْكَرٍ مُتَحَامِلٍ فِي عَسْكَرِ

أخذه من قول أبي تمام في وصف جملي :

رَعَتْهُ النَّيَافِي بَعْدَ مَا كَانَ حِقْبَةً * رَعَاهَا وَمَاءُ الرَّوْضِ يَنْهَلُ سَاكِبُهُ

فأبو تمام ذكر أن الجمل رعى الأرض، ثم سار فيها فرعته أي أهنزته، فكانها
 فعلت به مثل ما فعل بها؛ والبَحْرِيُّ نقله إلى وصف الرجل بعلو السن والحرم،
 فقال: إنه كان يحمل الرمح في القتال، ثم صار يركب الرمح أي يتوكل منه على عصا
 كما يفعل الشيخ الكبير.

وأوضح من ذلك وأكثر بيانا في الأخذ قول البَحْرِيِّ أيضا:
 أَدَاتِكَ مَا كَانِ الشَّبَابُ مُقَرَّبِي * إِلَيْكَ فَأَمَلِي الشَّيْبُ إِذْ هُوَ مُبِيدِي
 أخذه من قول أبي تمام:
 لَا أَظِلُّ النَّأْيَ قَدْ كَانَتْ خَلَائِقُهَا * مِنْ قَبْلِ وَشِكِّ النَّوَى عِنْدِي نَوَى قَدْ ذَا

الضمير الثاني

أن يؤخذ المعنى فيعكس، قال في "المثل السائر": وذلك حسن يكن يخرجه حسنه
 عن حد السرقة.

فمن ذلك قول أبي نواس

قالوا عَشِقْتَ صَغِيرَةً فَاجْبِتْهُمْ * أَشْهَى الْمَهْلَى إِلَى مَا لَمْ يَرْجَبْ
 كَمْ بَيْنَ حَبَّةِ لَوْلُوٍ مَشْتَوِيَةٍ * نَظَمْتُ وَسَعِيَةَ لَوْلُوٍ لَمْ تَنْجَبْ؟

وقول ابن الوليد في عركه:

إِنَّ الْمَطِيئَةَ لَا يَلِدُّ رُكُوبَهَا * حَتَّى تَنْزَلَّ بِالزَّمَامِ وَتُرْجَا
 وَالذَّرَّ لَيْسَ بِنَسَافِحٍ أَرْبَابُهُ * حَتَّى يَزِينُ بِالنِّظَامِ وَيُثَقِّبَا.

ومنه قول ابن جعفر:

وَلَمَّا بَدَأَ لِي أَنهَا لَا تُرِيدُنِي * وَأَنَّ هَوَاهَا لَيْسَ عَنِّي بِمُنْجِلِي؟
 تَمَنَيْتُ أَنْ تَهْوَى سِوَايَ لَعَلَّهَا * تَذُوقُ صَبَابَاتِ الْمَوِيِّ فَتَرِقَ لِي

وقول غيره في عكسه :

« وَلَقَدْ سَرَّيْ صُدُودُكَ عَنِّي » في طَلَابِيكَ ، وَأَمْتَاعُكَ مِنِّي
حَدْرًا أَنْ أَكُونَ مِفْتَاحَ غَيْرِي » وَإِذَا مَا خَلَوْتُ ، كُنْتُ التَّمَنِّي

أما ابن جعفر فإنه ألقى عن منكببيه رداء الغيرة؛ وأما الآخر فإنه جاء بالضد من ذلك وبالغ غاية المبالغة .

ومنه قول أبي الشَّيْص :

أَجْدُ المَلَامَةِ فِي هَوَاكَ لِذِيْدَةٍ * شَغَفًا بِذِكْرِكَ ، فَلِيْلُمْنِي اللُّؤْمُ

وقول أبي الطيب في عكسه :

أَأَحِبُّهُ وَأَحَبُّ فِيهِ مَلَامَةٌ * إِنَّ المَلَامَةَ فِيهِ مِنْ أَعْدَائِهِ

ومنه قول أبي تَمَّام :

وَلَوْلَا خِلَالُ سَنَبِهَا الشَّعْرُ مَا دَرَى * بُعَاةُ العُلَا مِنْ أَيْنَ تُؤْتَى المَكَارِمُ

وقول الوزير ضياء الدين بن الأثير في عكسه :

لَوْلَا الكِرَامُ وَمَا سَوَّوهُ مِنْ كَرَمٍ * لَمْ يَدْرُ قَائِلُ شَعْرٍ كَيْفَ يَمْتَدِحُ

الضرب الثالث

أن يؤخذ بعض المعنى دون بعض

فمن ذلك قول أمية بن أبي الصمات يمدح عبد الله بن جُدعان :

عَطَاؤُكَ زَيْنٌ لِأَمْرِي إِنْ حَبِوْتَهُ * بِيَدِي ، وَمَا كَلَّ العَطَاءُ يَزِينُ

وقول أبي تَمَّام بعده :

تُدْعَى عَطَايَاهُ وَفِرَاوَهِي إِنْ شَهَرْتِ * كَانَتْ فِخَارًا مِنَ بَعْفُوهِ مُؤْتِفَا

مَا زِلْتُ مَسْطَرًا أَعْجُوبُهُ زَمْنَا * حَتَّى رَأَيْتُ سُؤْلًا يُجْتَنَى شَرَفَا

فامية بن أبي الصلت أتى بمعنىين أحدهما أن عطاءك زين ، والآخر أن عطاء
غيرك ليس زين ، وأبو تمام أتى بالمعنى الأول فقط .

ومنه قول علي بن جبلة

وأئبل ما لم يجود متقدماً * وإن نال منه آخر فهو تابع

وقول أبي الطيب بعده

ترفع عن عون المكارم قدره * فما يفعل الفعلات إلا عذارياً

فإن جبلة أتى بمعنىين ، أحدهما أنه فعل ما لم يضعه أحد ممن تقدمه ، وإن نال
الآخر شيئاً فهو مقتد به وتابع له ، وأبو الطيب أتى بالمعنى الأئبل فقط ، وهو أنه فعل
ما لم يضعه غيره مشيراً إلى ذلك بقوله :

* فما يفعل الفعلات إلا عذارياً .

أى يستبكرها ويُرِبل عذرتها .

ومنه قول الآخر :

أنتج النضل أو تحلل عن الدن * يا فهاتان غاية الهميم

وقول البحتري بعده :

إدفع بأمثال أبي غالب * عادية العدم أو أستعفف

فالبحتري اقتصر على بعض المعنى ولم يستوفه

الضرب الرابع

أن يؤخذ المعنى فيزد عليه معنى آخر . قال في "المثل السائر" : وهذا النوع من

السرفات قليل الوقوع بالنسبة إلى غيره .

فمن ذلك قول الأخنس بن شهاب :

إِذَا قَصَّرْتُ أَسِيفًا كَانَ وَصْلُهَا * خُطَامًا إِلَى أَعْدَائِنَا فَضَارِبُ

وقول مسلم بن الوليد بعده .

إِنْ قَصَّرَ الرَّيْحُ لَمْ تَمِشِ الْخُطَا عَدَا * أَوْ عَزَدَ السَّيْفُ لَمْ نَهْمَمْ بِتَعْرِيدِ

أخذ مسلم المعنى الذى أورده الأخنس وهو وصل السلاح اذا قصر بالخطا

إلى العدو زاد عليه عدم تعريدهم أى وراهم إذا عزد السيف . ومنه قول جرير

فى وصف أبيات من شعره :

غَرَابِيبُ آلَافٍ إِذَا حَانَ وَرْدُهَا * أَخَذْنَ طَرِيقًا لِلْفَصَائِدِ مُعَلِّمًا

وقول أبى تمام بعده :

غَرَابِيبُ لَاقَتْ فِي فِتْنَتِكَ أُنْسَهَا * مِنَ الْمَجْدِ فَبَيَّنَ الْآنَ غَيْرَ غَرَابِيبِ

فزاد أبو تمام على جرير قرآن ذلك بالمدح ومدحه مع الأبيات . ومنه قول

المعدل بن غيلان :

وَلَسْتُ بِنَظَائِرٍ إِلَى جَانِبِ النَّبِيِّ * إِذَا كَانَتِ الْعَلِيَّةُ فِي جَانِبِ الْفَقِيرِ

وقول أبى تمام بعده :

بَسَدٌ عَنِ الدُّنْيَا إِذَا عَنَّ سُوْدُدُ * وَلَوْ بَرَزْتُ فِي زِيٍّ عَذْرَاءَ نَاهِدِ

فزاد عليه قوله :

* وَلَوْ بَرَزْتُ فِي زِيٍّ عَذْرَاءَ نَاهِدِ .

ومما أتتق لى نظمه فى هذا الباب أنه لما عُمرت مدرسة الظاهر برقوق بين

القصرين بالقاهرة المحروسة ، وكان القائم بعبارتها الأمير حركم الخليلى أمير اخور

الظاهرى ، وكان قد أعتمد بناءها بالصخور العظيمة التى لا تُقلتها الجمال حملا ، ولا

تُجَلُّ إلا على العجل الخشب، فأولع الشعراء بالنظم في هذا المعنى، فنظم بعض الشعراء
أبياتا عرض فيها بذكر الخليلي وقيامه في عمارتها، ثم قال في آخرها :

وبعض خدامه طوعاً لخدمته * يدعو الصُّخُور فتأتيه على عجل.

والزمني بعض الإخوان بنظم شيء في المعنى، فوقع لي أبيات من جملتها :

وبالخليلي قد راجت عمارتها * في سرعة بنيت من غير ما مهل

ثم أظهرت نجبا أسواط حكيته * وقد غدت مثلاً ناهيك من مثل

وكم صخور تحال الجن تنقلها * فإنها بالوفا تأتي وبالعجل

فردت عليه ذكر الوفا الذي معناه السرعة أيضاً وصار مطابقاً لما يأتي به المعزومون
في عزائمهم من قولهم : الوفا الوفا العجل العجل مع ما تقدم له من التوطئة بقولي :
تحال الجن تنقلها . على أني لست من فرسان هذا الميدان ، ولا من رجال هذا الوفا

الضرب الخامس

أن يؤخذ المعنى فيكسى عبارة أحسن من العبارة الأولى قال في "المثل السائر" :
وهذا هو المحمود الذي يخرج به حسنه عن باب السرقة ، فمن ذلك قول أبي تمام :

إن الكرام كثير في البلاد وإن * قلوا كما غيرهم قل وإن كثروا

أخذه البحتري فقال :

قل الكرام فصار يكثر فدهم * ولقد يقل الشيء حتى يكثر

ومنه قول أبي نواس :

يدل على ما في الضمير من الفتى * تقلب عينيه إلى شخص من يهوى

وقول أبي الطيب بعده :

وإذا خامر الهوى قلب صب * فعليه لكل عين دليل

ومنه قول أبي العلاء بن سليمان في مرثية :

وما كلفه البدر المنير قديمة * وليكنها في وجهه أثر اللطم

وقول القيسراني بعده :

وأهوى الذي يهوى له البدر ساجدا * ألتت ترى في وجهه أثر الترب

ومنه قول ابن الرومي :

إذا سنأت عين أمري شيب نفسه * فعين سواه بالشناءة أجدر

وقول من بعده :

إذا كان شبي بغضا الي * فكيف يكون إليها حبيبا

الضرب السادس

أن يؤخذ المعنى ويسبك سبكا موجرا، قال في "المثل السائر" وهو من أحسن السرقات : لما فيه من الدلالة على بسطة الناظم في القول وسعة بابه في البلاغة ، فمن ذلك قول أبي تمام :

برزت في طلب المعالي واحدا * فيها تسير مغورا أو منجدا

عجبا بأنك سالم من وحشة * في غاية ما زلت فيها مفردا

وقول ابن الرومي بعده :

غربته الخلائق الزهر في النا * س وما أوحشته بالتغريب

فأخذ معنى البيتين في بيت واحد، ومنه قول أبي العتاهية :

وإني لمعدور على فرط حبا * لأن لها وجهها يدل على عذري

أخذه أبو تمام فقال :

له وجه إذا أبصر * ته نأجلك عن عذري

فأوجز في هذا المعنى غاية الإيجاز ، ومنه قول أبي تمام يمدح أحمد بن سعيد :
 كانت مُسَاءَلَةُ الرَّبَّكَانِ مُجْهِرِي * عَنْ أَحْمَدِ بْنِ سَعِيدِ أَطِيبِ الْخَبْرِ
 حَتَّى التَّقِينَا فَلَا وَاللَّهِ مَا تَمَعْتُ * أَذُنِي بِأَحْسَنَ مِمَّا قَدْ رَأَى بَصْرِي
 أخذه أبو الطيب فأوجز في أخذه فقال :

وَأَسْتَكْبِرُ الْأَخْبَارَ قَبْلَ لِقَائِهِ * فَلَمَّا التَّقِينَا صَغَّرَ الْخَبَرَ الْخُبْرُ

ومن قول بعض الشعراء :

أَمِنَ خَوْفِ فَقِيرٍ تَعَجَّلَتْهُ * وَأَخْرَتَ إِنْفَاقَ مَا تَجْمَعُ؟
 فَصِرْتَ الْفَقِيرَ وَأَنْتَ الْغَنَى * وَمَا كُنْتَ تَعْدُو الَّذِي تَصْنَعُ

أخذه أبو الطيب فقال :

وَمَنْ يُنْفِقِ السَّاعَاتِ فِي جَمْعِ مَالِهِ * مَخَافَةَ فَقِيرٍ فَالَّذِي فَعَلَ الْفَقْرُ

الضرب السابع

زيادة البيان مع المساواة في المعنى ، بأن يؤخذ المعنى فيضرب له مثال يوضحه ،
 فن ذلك قول أبي تمام :

هُوَ الصَّنْعُ إِنْ يُعَجَّلَ فَنَفَعُ وَإِنْ يَرْتِ * فَلَلرَّيْثُ فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ أَنْفَعُ

أخذه أبو الطيب فقال :

وَمِنَ الْخَيْرِ بَطْءٌ سَيْبِكَ عَنِّي * أَسْرَعُ السُّحْبِ فِي الْمَسِيرِ الْجَهَامُ

فزاده وضوحا بضرب المثال له بالجهام وهو السحاب الذي لا مطر فيه .

ومنه قول أبي تمام أيضا :

قَدْ قَلَصَتْ شَفَاتُهُ مِنْ حَفِيفَتِهِ * نَحِيلٌ مِنْ شِدَّةِ التَّعْيِيسِ مُبْتَسِمًا

أخذه أبو الطيب فقال :

وجاهلٌ مدَّةٌ في جهله ضحكي * حتى أتته يدُ فراسةٍ وفمٌ
إذا رأيت نوبَ لئيتِ بارزةً * فلا تظننَّ أن اللئيتِ مبتسمٌ

فصرب له مثالا بظهور أنياب اللئيت فراده وضوحا .

ومنه قول أبي تمام أيضا :

وكذاك لم تُفْرِطْ كآبةً عايطلي * حتى يُحاوِرَها الزمانُ بحالِ

أخذه البحتريُّ فقال :

وقد زادها إفراطٌ حُسينٌ بشوارِها * لأخلاقِ أصفارٍ من المجدِ خيبِ
وحسنِ دراريِّ الكواكبِ أن تُرى * طَوَّالِحَ في داجٍ من الليلِ غيبِ

فصرب له مثالا بالكواكب في ظلام الليل فاوضحه وزاده حسنا .

الضمرب الثامن

اتحاد الطريق واختلاف المتصود، مثل أن يسلك الشاعران طريقا واحدة
فتخرج بهما الى موردين، وهنالك يتبين فضل أحدهما على الآخر .

فإن ذلك قول النابغة :

إذا ما غزَا بالحَيْشِ حَلَقَ فَوْقَهُ * عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ
جَوَانِحٍ قَدْ أَيْقَنَ أَنَّ تَيْبِلَهُ * إذا ما التَقَى الْجَمْعَانِ أَوَّلُ غَالِبِ

وهذا المعنى قد توارده الشعراء قديما وحديثا وأوردوه بصروب من العبارات،

فقال أبو نؤاس :

يَتَوَخَّى الطَّيْرُ غَزْوَتَهُ * تَقْبَةَ بِاللَّحْمِ مِنْ جَزْرِهِ

وقال مسلم بن الوليد :

قَدْ عَوَدَ الطَّيْرَ عَادَاتٍ وَتَنَنَ بِهَا * فَمَنْ يَتَّبِعْنَهُ فِي كُلِّ مَرْتَجَلٍ

وقال أبو تمام :

وَقَدْ ضَلَّتْ عَقْبَانُ أَعْلَامَهُ ضَحَى * يَعْقَبَانِ طَيْرٌ فِي الدَّمَاءِ نَوَاهِلُ

أَقَامَتْ مَعَ الرَّايَاتِ حَتَّى كَانَهَا * مِنَ الْجَيْشِ إِلَّا أَنَهَا لَا تُقَاتِلُ

وكل هؤلاء قد أتوا بمعنى واحد لا تفاضل بينهم فيه إلا من جهة حسن السبك

أو من جهة الإيجاز . قال ولم أر أحدا أغرب في هذا المعنى فسلك هذا الطريق

مع اختلاف مقصده إلا مسلم بن الوليد فقال :

أَشْرَبَتْ أَرْوَاحَ الْعِدَا وَقُلُوبَهَا * خَوْفًا فَأَنْفُسَهَا الْيَسَاكِنَ رَطْبِيرُ

لَوْ حَاكَمْتِكَ فَعَلَّابَتِكَ بِذَحْلِهَا * شَهَدْتُ عَلَيْكَ تَعَالِبٌ وَنُسُورُ

فهذا قد فضل به مسلم غيره في هذا المعنى ، ولما انتهى الأمر إلى أبي الطرب

سلك هذه الطريق التي سلكها من تقدمه إلا أنه خرج فيها إلى غير المسد الذي

قصدوه فأغرب وأبدع ، وحاز الإحسان بجلته ، وصار كأنه مبتدع لهذا المعنى دون

غيره فقال :

سَحَابٌ مِنَ الْعِقْبَانِ يَزْحَفُ تَحْتَهَا * تَعْرَابٌ إِذَا اسْتَسْقَمَتْ سَقَّتْهَا صَوَارِمُهُ

فحوى طرفى الإغراب والإعجاب .

الضرب التاسع

بياض بالأصل^(١) .

(١) اقتصر في الضوء على أحد عشر نونا وجعل العاشر ناسعا الخ وكذلك عدّها صاحب المثل السائر

الضرب العاشر

أن يكون المعنى عاماً فيجعل خاصاً أو خاصاً فيجعل عاماً ، وهو من السرقات التي يُسأخ صاحبها ، فأما جعل العام خاصاً فمن ذلك قول الأخطل^(١) :
 لَاتَنَّهُ عَنِ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلُهُ * عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمٌ
 أخذه أبو تمام فقال :

أَلْوَمٌ مِّنْ بَحَلَّتْ يَدَاهُ وَأَعْتَدِي * لِلْبُخْلِ تَرِبًا سَاءَ ذَاكَ صَنِيعًا

فالأخطل نهى عن الإتيان بما ينهى عنه مطلقاً بجاء بالخلق منكرًا بجعله شائعا في بابه ، وأبو تمام خصص ذلك بالبخل وهو خلق واحد من جملة الأخلاق ، وأما جعل الخاص عاماً ، فمن ذلك قول أبي تمام :
 وَلَوْ حَارَدَتْ شَوْلٌ عَذْرَتْ لِقَاحِهَا * وَلَكِنْ مَعَنَّ الدَّرُّ وَالصَّرْعُ حَافِلُ
 أخذه أبو الطيب بجعله عاماً فقال :
 وَمَا يُؤْلِمُ الْجُرْمَانُ مِنْ كَفِّ حَارِيمٍ * كَمَا يُؤْلِمُ الْجُرْمَانُ مِنْ كَفِّ رَازِقِ

الضرب الحادي عشر

قلب الصورة القبيحة الى صورة حسنة . قال في "المثل السائر" . وهذا لا يسمى سرقة بل يسمى إصلاحاً وتهديباً ، فمن ذلك قول أبي نؤاس في أرجوزة بصف فيها اللعيب بالكرة والصوجلان فقال من جملتها :
 جِنٌّ عَلَى جِنٍّ وَإِنْ كَانُوا بَشَرٌ * كَأَنَّمَا خِيَطُوا عَلَيْهَا بِالْإِبْرِ
 أخذه المتنبى فقال :

وَكَأَنَّمَا تُنَجَّبُ قِيَامًا تَحْتَهُمْ * وَكَأَنَّمَا خُلِقُوا عَلَى حَسَبَاتِمَا

(١) كذا في "المثل السائر" أيضا — وفي ديوان الأخطل صحيفة ٣٣٨ أن ددا البيت للتوكل المتنبى

فهذا في غاية العلو والارتقاء بالنسبة الى قول أبي نُوَاسٍ ، ومنه قول أبي الطيب
لو كان ما تُعْطِيهِمُ من قَبْلِ أن * تُعْطِيَهُمُ لم يَعْرِفُوا التَّامِيلاً
وقول ابن نباتة السعدي :

لم يُبْقِ جُودَكَ لي شَيْئاً أَوْمَلَهُ * تَرَكْتَنِي أَصْحَبُ الدُّنْيَا بلا أَمَلٍ

فكلام ابن نباتة أحسن في الصورة من كلام المتنبي هنا وإن كان مأخوذاً منه .

الضرب الثاني عشر

قلب الصورة الحسنة الى صورة قبيحة ، وهو الذي يعبر عنه أهل هذه الصناعة
بالمسخ ، وهو من أزدل السرقات وأقبحها ، فمن ذلك قول أبي تمام :
فَتَى لا يَرى أن الفَرِيصَةَ مَقْتَلٌ * وَلَكِنْ يَرى أن العُيُوبَ مَقَاتِلُ
أخذه أبو الطيب فمسخه فقال :

يرى أن ما مابان منك لِضارِبٍ * ما قَتَلَ مِمَّا بَانَ مِنْكَ لِعَائِبٍ
ومنه قول عبد السلام بن رغبان :

تَحْمَنُ نُعْزِيكَ وَمِنْكَ الهُدَى * مَسْتَخْرَجٌ وَالصَّمْرُ مَسْتَقْبَلٌ

أخذه أبو الطيب فمسحه فقال من أبيات :

وَبِأَلْفَاظِكَ اهْتَدَى فَإِذَا عَزَّكَ قَالَ الَّذِي لَهُ قُلْتَ قَبْلاً

المسلك الثاني

طريقة الاختراع

قال انور يرضياء الدين بن الأثير في "المثل السائر" ، فهي ألا يتصفح كتابة
المقدمين ولا يطلع على شيء منها ، بل يصرف همته الى حفظ القرآن الكريم وكثير

من الأخبار النبوية وعدة من دواوين ثول الشعراء ممن غلب على شعره الإجابة في المعاني والألفاظ ، ثم يأخذ في الاقتباس من القرآن والأخبار النبوية والأشعار فيقوم ويقع ، ويخطئ ويصيب ، ويضل ويهتدي ، حتى يستقيم الى طريق يمتنعها لنفسه ، وأخلق تلك الطريق أن تكون مبتدعة غريبة لا شركة لأحد من المتقدمين فيها! . قال : وهذه الطريق هي طريق الاجتهاد وصاحبها يعد إماما في الكتابة كما يعد الشافعي وأبو حنيفة ومالك وغيرهم من المجتهدين في علم الفقه ، إلا أنها مسنوعة جدا ، لا يستطيعها إلا من رزقه الله تعالى لسانا هجأما ، وخاطرا رقاما . قال : ولا أريد بهذا الطريق أن يكون الكاتب مرتبطا في كتابته بما يستخرجه من القرآن الكريم والأخبار النبوية والأشعار ، بحيث إنه لا ينشئ كتابا إلا من ذلك ، بل أريد أنه اذا حفظ القرآن الكريم ، وأكثر من حفظ الأخبار النبوية والأشعار ، ثم نقب عن ذلك تنقيب مطّلع على معانيه ، مفتش على دوائنه ، وقلبه ظهرا لبطن ، عرف حينئذ من أين تُركل الكتيف وما ينشئه من ذات نفسه ، وأستعان بالمحفوظ على الحرية الطبيعية . على أنه لا بد للكاتب المرتقي الى درجة الاجتهاد في الكتابة مع حفظ القرآن الكريم ، والأستكثار من حفظ الأخبار النبوية ، والأشعار المختارة ، من المسلم بأدوات الكتابة وآلات البيان : من علم اللغة ، والتصريف ، والنحو ، والمعاني ، والبيان ، والبديع ، ليتمكن من التصرف في اقتباس المعاني وأستخراجها فيرفى الى درجة الاجتهاد في الكتابة ، كما أن المحمّد من الفقهاء اذا عرف أدوات الاجتهاد : من آيات الأحكام ، وأحاديثها ، ونعتها ، وعرف النحو والناسخ والمنسوخ من الكتاب والسنة ، والحساب والفرائض وإجماع الصحابة ، وغير ذلك من آلات الاجتهاد وأدواته ، أستخرج بفكره حينئذ ما يؤذبه اليه آجهاده . فالمجتهد في الكناه يستخرج المعاني من مطنها من القرآن الكريم ، والأخبار النبوية ، والأشعار ،

والأمثال، وغير ذلك بواسطة آلة الاجتهاد، كما أن المجتهد في الفقهيات يستخرج الأحكام من نصوص الكتاب والسنة بواسطة آلة الاجتهاد. فإذا أراد الكاتب المتصف بصفة الاجتهاد في الكتابة إنشاء خطبة أو رسالة أو غيرها مما يتعلق بفن الإنشاء.

بياض بالأصل

الأصل السادس

وجود الطبع السليم، وظلو الفكر عن المشوش

أما وجرد الطبع فقال في "مواد البيان": أول معاون هذه الصناعة الجليلة القريبة الفاضلة، والفريزة الكاملة، التي هي مبدأ الكمال، ومُنشأ التمام، والأساس الذي يبنى عليه، والركن الذي يُستند إليه، فإن المرء قد يجتهد في تحصيل الآداب، ويتوفر على آقتناء العلوم واكتسابها، وهو مع ذلك غير مطبوع على تأليف الكلام فلا يفيد ما اكتسبه، بخلاف المطبوع على ذلك، فإنه وإن قصر في اقتباس المأموم واكتساب المواد فقد يأتحق بأوساط أهل الصناعة، وذلك أن الطبع يخص الله تعالى به المطبوع دون المتطبّع، والمناسب بفريزته للصناعة دون المتصنّع، ولا سبيل إلى اكتساب سهولة الطبع ولا كرازته، بل هو موهبة تُحسب ولا نعم، وتوجد في الواحد وتمقّد في الآخر.

قال ابن أبي الأصعب في "نحرير النحرير": ومن الناس من يكون في البديهة أبداع منه في الرواية، ومن هو مجيد في الرواية وليست له بديهة، وقلما يتساويان.

ومنهم من اذا خاطب ابداع ، واذا كاتب قصر ، ومن هو بضد ذلك ، ومن قوى اثره ضعف نظمه ، ومن قوى نظمه ضعف اثره ، وكلما يتساويان . وقد يبرز الشاعر في معنى من مقاصد الشعر دون غيره من المقاصد ، ولهذا قيل : أشعر الناس امرؤ القيس اذا ركب ، وزهير اذا رغب ، والنايف اذا رهب ، وعنزة اذا كلب ، والأعشى اذا طرب . قال في "المثل السائر" : بل ربما تفد في بعض أنواع الشعر دون بعض فيرى مجيئاً في المدح دون اللجؤ أو بالعكس ، أو ما هرا في المقامات ونحوها دون الرسائل ، أو في بعض الرسائل دون بعض . قال آية الله أبي الأصبغ : ولربما واتاه العمل في وقت دون وقت ، ولذلك قال الفرزدق : إني ليرى على الرمت ولقاع ضرس من أضرابي أيسر على من قول الشعر ، ولذلك عن تأليف الكلام ونظمه على كثير من العلماء باللغة ، والمهرة في معرفة حقائق الألفاظ من حيث تنو طباعهم عن تركيب بسائط الكلام الذي قامت صور معانيه في نفوسهم ، وصعب الأمر عليهم في تأليفه ونظمه ، فقد حكى أن الخليل بن أحمد مع تقدمه في اللغة ، ومهارة في العربية ، وأختراعه علم العروض ، الذي هو ميزان شعر العرب ، لم يكن يتبرأ له تأليف الألفاظ السهلة لديه الحاصلة المعاني في نفسه على صورة النظم إلا بصعوبة ومشقة ، وكان اذا سئل عن سبب إعراضه عن نظم الشعر يقول يا باني بيته وآبي رديته ، مشيراً بذلك الى أن طبعه غير مساعد له على التأليف المرغبي الذي تمسك نسبتته الى مثله . وقيل للفضل الضبي ألا تقول الشعر وأنت أعلم الناس به فقال علمي به يمنعني من قوله وأنشد :

أبو الشعر إلا أن يني رديته علي وبأبي منه ما كان محكما
فيا زاني إن لم أجد حزانوسيه ولم أك من فرسانه كنت مفتحاً

وأُتشد أبو عبيدة خلفاً للأحمر شعرا له فقال أخبأ هذا كما تُخبأ السنورة حاجتها ،
مع ما كان عليه أبو عبيدة من العلم باللغة وشعر العرب وأمثالها وأيام حروبها ، وما
يجرى مجرى ذلك من مواد تأليف الكلام ونظمه ويحكى عن أبي العباس المبرد
أنه قال : لا أحتاج الى وصف نفسي : لأن الناس يعلمون أنه ليس أحد بين
الخافقين تختلج في نفسه مسألة مُشكلة إلا ليقيني بها وأعدني لها ، فأنا عالم ومعلم ،
وحافظ ودارس ، لا يخفى على مشته من الشعر ، والنحو ، والكلام المشهور ،
والخطب ، والرسائل ؛ ولربما أحتجت الى اعتذار من قلته ، أو التماس حاجة ، فأجعل
المعنى الذى أقصد نصب عيني ثم لا أجد سبيلا الى التعبير عنه بيد ولا لسان ؛ ولقد
بلغنى أن عبيد الله بن سليمان ذكرنى بجليل فحاولت أن أكتب اليه رقعة أشكره فيها
وأعرض ببعض أموري ، فأتعبت نفسى يوماً فى ذلك فلم أقدر على ما أرتضيه منها ،
وكنت أحاول الإفصاح عما فى ضميرى فينحرف لسانى الى غيره ، ولذلك قيل : زيادة
المنطق على الأدب خدعة ، وزيادة الأدب على المنطق هُجْدَة .

فقد تبين لك أن العبرة بالطبع وأنه الأصل المرجوع اليه فى ذلك ؛ على أن الطبع
بمفرده لا ينهض بالمقصود من ذلك نهوضه مع اشتماله على المواد المساعدة له على ذلك
من الأنواع السابقة فيما تقدم فى أول هذه المقالة ، من العلم باللغة والنحو والتصريف
والمعاني والبيان والبديع ، وحفظ كتاب الله تعالى ، والإكثار من حفظ الأحاديث
النبوية ، والأمثال والشعر والخطب ، ورسائل المتقدمين وأيام العرب وما يجرى
مجرى ذلك مما يكون مساعداً للطبع ، ومسهلاً طريق التأليف والنظم ، بل يتفاوت
فى العلو والهبوط بحسب التفاوت فى ضعف المساعد من ذلك وقوته ؛ إذ معرفته
هذه الامور قائمة من الإنشاء مقام المادة ، والطبع قائم منه مقام الآلة ، فلا يتم الفعل
وإن قامت الصورة فى نفس الصانع مالم توجد المادة والآلة جميعاً ، ولو كان حصول

المادة كافيًا في التوصل إلى حسن التأليف الذي هو نظم الألفاظ المناسبة وتطبيقها على المعاني المساوية لكانت صناعة الكلام المؤلف من الرسائل والخطب والأشعار سهلةً، والمشاهد بخلاف ذلك، لفُصِّح الأفاضل عن بلوغ هذه الدرجة .
وأما خلق الفكر عن المشوَّش فإنه يرجع إلى أمرين .

الأمر الأول

صفاء الزمان

فقد قال أبو تمام الطائي في وصيته لأبي عبادة البحرى من شداله للوقت المناسب لذلك : تَحْيِرُ الأَوْقَاتِ وَأَنْتِ قَلِيلُ المَعْمُومِ ، يَمُفِرُ مِنَ النُّمُومِ ، وَأَعْلَمُ أَنَّ العَادَةَ فِي الأَوْقَاتِ إِذَا قَصَدَ الإِنْسَانُ تَأْلِيفَ شَيْءٍ أَوْ حَفِظَهُ أَنْ يَخْتَارَ وَقْتَ السَّحَرِ ، فَإِنَّ النَّفْسَ تَكُونُ قَدْ أَخَذَتْ حِفْظَهَا مِنَ الرَّاحَةِ ، وَقَسَطَهَا مِنَ النَّوْمِ ، وَخَفَّتْ عَنْهَا ثِقَلُ النِّدَاءِ ، وَصَفَا الدِّمَاغُ مِنْ أَكْثَرِ الأَبْجُرَةِ والأُدْحِنَةِ ، وَسَكُنَتِ الفِعَالِمُ ، وَرَقَّتِ النَّسَائِمُ ، وَتَنَنَّتِ المَنَائِمُ .

وخالف ابن أبي الأصعب في اختيار وقت السحر، وجنح إلى اختيار وسط الليل أخذًا من قول أبي تمام في قصيدته البائية :

حُدِّثْنَا ابْنَةَ الفِكْرِ المَهْدَبِ فِي الدُّجَى * وَاللَّيْسَلُ أَسْوَدُ رُقْعَةِ الجِلْبَابِ

وفسّر للدُّجَى بوسط الليل ، محتجًا لذلك بأنه حينئذ تكون النفس قد أخذت حِفْظَهَا مِنَ الرَّاحَةِ ، وَنَالَتْ قَسَطَهَا مِنَ النَّوْمِ ، وَخَفَّتْ عَنْهَا ثِقَلُ النِّدَاءِ ، فَيَكُونُ الذِّهْنُ حينئذ حَيًّا وَنَشْرًا ، وَالصَّمِيرُ نَشْرًا ، وَالْبَدَنُ نَشْرًا ، وَالقَلْبُ سَاقًا . بخلاف وقت السحر فإنه وإن كان فيه بريق النسيم وينهضم الغذاء ، إلا أنه يكون قد آتبه فيه أكثر الحيوانات ، النساطق وغيره ، ويرتفع معظم الأصوات ، ويجري الكثير من الحركات ، وينتشر بعض الضلّمة بظلال أوائل الضوء ، وربما أنهضم عن بعض

الناس الغذاء فتحركت الشهوة لإخلاف ما أنهضم منه وخرج من فضلاته ، فكان ذلك داعياً الى شغل الخاطر ، وبعثنا على انصراف الهم الى تدبير الحدّث الحاضر ، فيتقسم الفكر ، ويتذبذب القلب ، ويتفرق جميع الهم ، بخلاف وسط الليل فإنه خال من جميع ذلك .

الأمر الثاني

صفاء المكان

وذلك بأن يكون المكان الذي هو فيه خالياً من الأصوات ، عارياً عن المؤثرات والمهولات والظوارق ، وأن يكون مع ذلك مكاناً رائعاً معجباً ، رقيقاً لطيفاً ، فيسبح الأرجاء ، بسيط الرحاب ، غير غم ولا كدر ، فإن انصم الى ذلك ما فيه ينشط للخاطر : من ماء وخصرة وأشجار وأزهار وطيب رائحة ، كان أبسط للفكر وأصح للخاطر . وقد ذهب بعضهم الى أنه ينبغي خلو المكان من النقوش الفريسة ، والبراق المعجبة ، فإنها وإن كانت مما ينشط الخاطر فإن فيها شغلاً الناظر فيذعه القلب فيتشتت .

المفصل الثاني

من الطرف الثالث في بيان طرق البلاغة ووجوه تحسين الكلام ، وكيفية إنشائه وتأليفه ، وتهذيبه وتأديته ، وبيان ما يستحسن من الكلام المصنوع ، وما يعاب به

أما إنشائه وتأليفه فقد قال ابن أبي الأصعب في "تحرير التحبير" : يجب على كل من كان له ميل الى عمل الشعر وإنشاء النثر أن يتعهد أولاً نفسه ويمتحنها بالنظر في المعاني ، وتدق الفكر في استنباط المخترعات ، فإذا وجد لها فطرة سليمة ، وجيلة

مورونة، وذكاء وقادا، وخاطرا سمحا، وفكرا ثاقبا، وفهما سريعا، وبصيرة مبصرة،
والمعية مهذبة، وقوة حافظه، وقدرة حاكية، وهمة عالية، ولهجة فصيحة، ويطنة
صحيحة، أخذ حينئذ في العمل؛ وإن كان بعض ذلك غير لازم لرب الإنشاء،
ولا يضطر إليه أكثر الشعراء، ولكن اذا كملت هذه الصفات في الكاتب والشاعر،
كان موصوفا في هذه الصناعة بكمال الأوصاف النفيسة .

قال أبو هلال العسكري في "الصناعتين" : اذا أردت أن تصنع كلاما فأخطر
معانيه ببالك، ونق له كرائم اللفظ فاجعلها على ذكر منك ليقرّب عليك تناولها،
ولا يتعبك تطلبها، واعمّاه مادمت في شباب نشاطك، فإذا غشيك الفتور، وتخونك
الملال، فامسك فإن الكثير مع الملال قليل، والنفيس مع الضجر خسيس، والخواطر
كالبنابيع يسقى منها شيء بعد شيء فتجد حاجتك من الرى، وتنال أربك من
المنفعة، فإذا أكرت عليها نضب ماؤها، فقلّ عنك غناؤها . وينبغي أن تخرج مع
الكلام معارضه، فإذا مررت بلفظ حسن أخذت برقبته، أو معنى بديع تعلقت
بذيله . وتحرز أن يسبقك فإنه إن سبقك تعبت في تطلبه، ولعلك لا تلحظه على
طول الطلب، ومواصلة الدأب، وهذا الشاعر يقول :

إذا ضيّعت أول كل شيء * أبت أعجازه إلا النواء

وقد قالوا : ينبغي لصانع الكلام ألا يتقدم الكلام تقدما، ولا يتبع ذنابه
لتبعا، ولا يحمله على لسانه حملا، فإنه إن تقدم الكلام لم يتبعه خفيفه وهزيلة وأعجفه
والشارد منه وإن تبعه فأنه سوابقه ولواحقه، وتباعدت عنه جواده وغرره وإن
حمله على لسانه ثقلت عليه أوساقه وأعبأه، ودخلت مساويه في محاسنه، ولكنه
يجرى معه فلا تبند عنه نادة تعجبه سنا إلا كبجها، ولا تخلف عنه مثقلة هزيلة
إلا أرهقها، وطورا يفرقه ليختار أحسنه، وطورا يجمعه ليقرب عليه خطوة الفكر،

ويتناوله من تحت لسانه ، ولا يسلط الملل على قلبه ، ولا الإكثار على فكره ، فيأخذ عفوّه ، ويستغزر ذره ، ولا يكره آبيا ، ولا يدفع آتيا . وإياك والتعقيد والتوعر ، فإنّ التوعر هو الذى يستهلك معانيك ، ويشين ألفاظك ، ومن أراغ معنى كريما ، فليتمس له لفظا كريما ، فإن حقّ المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن يصونهما عما يدنسهما ، ويفسدهما ويهجنهما ، فتصير بهما الى حدّ تكون فيه أسوأ حالا منك قبل أن تلتبس البلاغة ، وترتهن نفسك فى ملاءستها ؛ وليكن لفظك شريفا عذبا ، نفما سهلا ، ومعناه ظاهرا مكشوفاً ، وقريبا معروفا ؛ فإن وجدت اللفظة لم تقع موقعها ، ولم تصل الى مركزها ، ولم تتصل بشكلها ، وكانت قلقة فى موضعها ، نافرة عن مكانها ، فلا تُكرِّهها على اغتصاب أماكنها ، والنزول فى غير أوطانها ؛ وإن بليت بتكلف القول ، وتعاطى الصناعة ، ولم تسمح لك الطبيعة فى أول وهلة ، وعصت عليك بعد إجابة الفكر ، فلا تعجل ودعه سحابة يومك ، ولا تضجر ، وأمنه سواد ليلتك ، وعاوده عند نشاطك ، فانك لا تعدم الاجابة والمواتاة إن كانت هناك طبيعة ، أو جرّيت من الصناعة على عرف ؛ وينبغى أن تعرف أقدار المعانى فتوازن بينها وبين أوزان المستمعين ، وأقدار الحالات فتجعل لكل طبقة كلاما ، ولكل حال مقاما ، حتى تقسم أقدار المستمعين على أقدار الحالات ، فان المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال .

قال فى "مواد البيان" : ويكون استعمال كل من جزل الألفاظ وسهلها ، وفصيحتها وسلسلها وبهجتها فى موضعه ، وأن يسلك فى تأليف الكلام الطريق الذى يخرج من عن حكم الكلام المنشور العاطل الذى تستعمله العامة فى المخاطبات والمكاتبات الى حكم المؤلف الحالى بجلى البلاغة والبديع ، كالاستعارات ، والتشبيهات ، والامتناع ، والمقابلات ، وغيرها من أنواع البديع .

قال في "الصناعتين" : وإن عملت رسالة أو خطبة فخطّ ألفاظ المتكلمين كالجسم ، والجوهر ، والعرض ، واللون ، والتأليف ، واللاهوت ، والناسوت ، فإن ذلك هُجئة .

قال في "مواد البيان" : وذلك بأن يقصد الكاتب إلى ألفاظ الصناعة فيخرج منها إلى ألفاظ غريبة عن الصناعة غير مجانسة لها . قال وإنما يؤتى الكاتب في هذا الباب من جهة أن يكون له شركة في صناعة غير الكتابة ، كصناعة الفقه والكلام وغيرها ، مثل صناعة أصحاب الإعراب ونحوها ؛ فلكل طبقة من هذه الطبقات ألفاظ خاصة بها ، يستعملونها فيما بينهم عند المحاوراة والخوض في الصناعة ؛ ومن عادة الإنسان إذا تعاطى بابا من هذه الأبواب أن يسبق خاطره إلى الألفاظ المتعلقة به ، فيوقعها في الكتب التي ينشئها لغاية عادة استعماله إيها فيهجئها بإدخاله فيها ما ليس من أنواعها .

قال في "الصناعتين" : وتخيّر الألفاظ وإبدال بعضها من بعض يوجب الثمام الكلام ، وهو من أحسن نعتوته وأزین صفاته ، فإن أمكن مع ذلك انتظامه من حروف سهلة المخارج كان أحسن له ، وأدعى للقلوب إليه ، وإن اتفق له أن يكون موقعه في الإطناب أو الإيجاز أليق بموقعه ، وأحق بالمقام والحال ، كان جامعا للحسن ، بارعا في الفضل ؛ فإن بلغ مع ذلك أن تكون موارده تئيبك عن مصادره ، وأوله يكشف قناع آخره ، كان قد جمع نهاية الحسن ، وبلغ أعلى مراتب التمام .

قال في "مواد البيان" : وإذا سلكت طريقا فمز فيها ، ولا تنازل عنها إن كانت رفيعة ، ولا ترتفع عنها إن كانت وضيعة . وخالف ابن أبي الأصعب ، فقال : ولا تجعل كل الكلام شريفا عاليا . ولا وضيعا نازلا ، بل فصله تفصيل العقود ، فإن العقدة إذا كان كله نفيسا لا يظهر حسن فرائده ، ولا يبين جمال واسطته ، فإن الكلام إذا كان

متنوعاً في البلاغة، أُفِتت الأسماع فيه، ولا يلحق النفوس مللٌ من ألفاظه ومعانيه، ولا يخرج عن عرض إلى غيره حتى يكمل كل ما ينتظم فيه، كما إذا كان ينشئ كتاباً في العذل والتوبيخ، فيشوب ألفاظه بألفاظ أخرى تخرج عن الحشونة إلى اللين، فإن اختلاف رُقعة الكلام من أشد عيوبه .

قال في "الصناعتين": ولا تجعل لفظك حوشياً بدوياً، ولا مبتذلاً سوقياً، ورب الألفاظ ترتيباً صحيحاً، فتقدم منها ما يحسن تقديمه، وتؤخر منها ما يحسن تأخيره، ولا تقدم منها ما يكون التأخير به أحسن، ولا تؤخر ما كان التقديم به أليق، ولا تكرر الكلمة الواحدة في كلام قصير، كما كتبت سعيد بن حميد: "ومثل خادمك بين يديه ما يملك فلم يجد شيئاً ينفي بحقك، ورأى أن تقرظك بما يبلغه اللسان وإن كان مقصراً عن حَقِّك أبلغ في أداء ما يجب لك". فكر ذكر الحق مرتين في مقدار يسير. على أن أبا جعفر النحاس قد ذكر في "صناعة الكتاب" أن ذلك ليس بعيب عند كثير من أهل العربية، وهو الحق فقد وقع مثل ذلك من التكرير في القرآن الذي هو أنصح كلام، وأنق نظام، في قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَنْ لَا تَطْفُوا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ فكر ذكر الميزان ثلاث مرات في مقدار يسير من الكلام، وأمثاله في القرآن الكريم كثير .

قال في "الصناعتين": فإن احتاج إلى إعادة المعاني أعادها بغير اللفظ الذي ابتدأ به كما قال معاوية: "من لم يكن من بني عبد المطلب جواداً فهو دَخِيل، ومن لم يكن من بني الزبير شجاعاً فهو لَزِيق، ومن لم يكن من بني المغيرة تياًها فهو سَنِيد". فقال: دَخِيل، ثم قال: لَزِيق، ثم قال: سَنِيد والمعنى واحد، والكلام على ما ترى حسن، ولو قال لَزِيق ثم أعاد لَسَمُج. على أن الوويز ضياء الدين بن الأثير

في "المثل السائر" قد ذكر ما ينافي ذلك، وتعقب أبا إسحاق الصابي في قوله في تمجيد كتاب: الحمد لله الذي لا تُدركه الأعينُ بالحِفاظِها، ولا تُحَدُّه الألسُنُ بالفاظِها، ولا تُخلِّقه العُصورُ بمرورها، ولا تُهرمه الدهورُ بكَرورها، وقوله بعد ذلك في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم: لم يرَ للكُفْرِ أثرًا إلا طَمَسَه ومَحَاه، ولا رَسَمًا إلا أزاله وعَفَاه؛ فقال لا فرق بين مُرور العصور، وكرور الدهور؛ وكذلك لا فرق بين محو الأثر وإعفاء الرسم؛ ويحتمل أن يقال إنما كره صاحب "المثل السائر" ذلك لتوافق القرينتين في جميع المعنى بخلاف كلام معاوية فإنه متوافق في اللفظة الأخيرة فقط.

قال في "الصناعتين": وتجنّب كل ما يُكسِب الكلام تسمية كما كتب سعيد ابن حميد يذكر مَظْلِمَةً إنسان في كتابه: لفلان - وله بي حُرْمَةٌ - مَظْلِمَةٌ، يريد لفلان مَظْلِمَةً وله بي حرمة، بمعنى أنه راعى حرمة. قال: وأعلم أن الذي يلزمك في تأليف الرسائل والخطب هو أن تجعلها مُرَدَّوَجَةً فقط ولا يلزمك فيها السجع، فإن جعلتها مسجوعةً كان أحسنَ ما لم يكن في سجعك استكراه وتنافر وتعقيد؛ وكثيرا ما يقع ذلك في السجع، وقلما يسلم إذا طال من استكراه وتنافر.

قال ابن أبي الأصبغ: ولا تجعل كلامك كله مبنياً على السجع فتظهر عليه الكثرة، ويتبين فيه أثر المشقة، وتكلف لأجل السجع ارتكاب المعنى الساقط، واللفظ النازل؛ وربما استدعيت كلمة للقطع رغبةً في السجع بخاءت نافرة من أخواتها، قلنته في مكانها. بل أصرف كل النظر إلى تجويد الألفاظ وصحة المعاني، وأجهد في تقويم المباني، فإن جاء الكلام مسجوعاً عفواً من غير قصد، وتشابهت مقاطعه من غير كسب كان، وإن عز ذلك فأتى وإن اختلفت أسجاعه، وتباينت في التقفية مقاطعه، فقد كان المتقدمون لا يحتفلون بالسجع جملة، ولا يقصدونه

إلا ما أتت به الفصاحة في أثناء الكلام ، وأتفق من غير قصد ولا آكتساب ، وإنما كانت كلماتهم متوازية ، وألفاظهم متساوية ، ومعانيهم ناصحة ، وعبارتهم رائعة ، وفصولهم متقابلة ، وجملُ كلامهم متماثلة ؛ وتلك طريقة الإمام على رضى الله عنه ومن أقتفى أثره من فرسان الكلام ، كآبن المقفع ، ويزيد بن هارون ، وإبراهيم بن العباس ، والحسن بن سهل ، وعمرو بن مسعدة ، وأبى عثمان الجاحظ ، وغيرهم من الفصحاء البلغاء .

قال في "مواد البيان" : وأقل ما يكون من الازدواج قرينتان .

قال في "الصناعتين" : وينبغي أن يجتنب إعادة حروف الصلّات والرباطات في موضع واحد إذا كتب ، في مثل قول القائل له منه عليه ، أو عليه منه ، أو به له منه ، وحقه له عليه . قال : وسبيله أن يداويه حتى يزيله ، بأن يفصل ما بين الحرفين مثل أن يقول : أقمتُ به شهداءً عليه كقول المتنبي :

وَتُسْعِدُنِي فِي غَمْرَةٍ بَعْدَ غَمْرَةٍ * سُبُوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدُ

قال ابن أبي الأصبغ : وليراع الإيجاز في موضعه ، والإطناب في موضعه ، بحسب ما يقتضيه المقام ، ويتجنب الإسهاب والتطويل غير المفيد .

قال العسكري : وينبغي أن يأتي في تأليفه الكلامُ بآيات من الكتاب العزيز في الأمور الجليلة للترصيع والتحلية ، والاستشهاد للعاني على ما يقع في موقعه ، ويليق بالمكان الذي يُوقَع فيه ، ولكنه لا يستكثر منه حتى يكون هو الغالب على كلامه ، تنزيهاً لكلام الله تعالى عن الابتدال ، فإنه إنما يستعمله على جهة التبرُّك والزينة ، لا ليُجعل حشواً في الكلام ، وإذا استُعير منه شيء أتى به على صورته ، ولا ينقله عن صيغته ، ليسلم من تحريفه ، ومخالفة اختيار الله تعالى فيه . قال : وكما لا يجوز الإكثار منه لا يجوز

أَنْ يُخَلَّى كَلَامُهُ مِنْ شَيْءٍ مِنْهُ تَحْلِيَةً لَهُ ، فَإِنْ خَلَوِ الْكَلَامُ مِنَ الْقُرْآنِ يَطْمِسُ مَحَاسِنَهُ ، وَيَنْقُصُ بَهْجَتَهُ ، وَلِذَلِكَ كَانُوا يَسْمُونِ الْخُطْبَةَ الْخَالِيَةَ مِنَ الْقُرْآنِ بَرَاءً .

وَيَنْبَغِي أَلَّا يَسْتَعْمَلَ فِي كِتَابَتِهِ مَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ مِنَ الْحَذْفِ وَمَخَاطَبَةِ الْخَاصِّ بِالْعَامِّ ، وَالْعَامِّ بِالْخَاصِّ ، وَالْجَمَاعَةِ بِفِلْظِ الْوَاحِدِ ، وَالْوَاحِدِ بِفِلْظِ الْجَمَاعَةِ ، وَمَا يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى ، لِأَنَّ الْقُرْآنَ قَدْ نَزَلَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ ، وَخُوطِبَ بِهِ فُصْحَاؤُهُمْ بِخِلَافِ الرِّسَالَةِ .

قَالَ فِي "الصَّنَاعَتَيْنِ" : لَا يَجُوزُ أَنْ يَسْتَعْمَلَ فِيهَا مَا يَخْتَصُّ بِالشَّعْرِ مِنْ صَرَفٍ مَا لَا يَنْصَرِفُ ، وَحَذْفٍ مَا لَا يُحْذَفُ ، وَقَصْرٍ الْمُدُودِ ، وَمَدٍّ الْمَقْصُورِ ، وَالْإِخْفَاءِ فِي مَوْضِعِ الْإِنْطِقِ ، وَتَضْمِينِ الْأَسْمِ فِي مَوْضِعِ تَكْبِيرِهِ ، إِلَّا أَنْ يَرِيدَ تَصْفِيرَ التَّعْظِيمِ كَقَوْلِ الْقَائِلِ : «أَنَا جُدَيْلُنَا الْمُحَكَّمُ ، وَعُدْوَيْتُنَا الْمُرَجَّبُ» . وَمِمَّا يَسْتَحْسِنُ مِنْ وَصِيَةِ أَبِي تَمَامٍ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْعُتْرِيِّ فِي الشَّعْرِ مَا لَا يَسْتَعْنِي النَّائِرُ عَنِ الْمَعْرِفَةِ بِهِ ، وَالنَّسْجِ عَلَى مِثَالِهِ : لِأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُنَاسِبَ بَيْنَ الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي فِي تَأْلِيفِ الْكَلَامِ ، وَيَكُونُ كَخِيَّاطٍ يَقْدِرُ الثِّيَابَ عَلَى قَدْرِ الْأَجْسَامِ ، وَأَنْ يَجْعَلَ شَهْوَتَهُ لِتَأْلِيفِ الْكَلَامِ هِيَ الذَّرِيعَةُ إِلَى حُسْنِ نَفْسِهِ ، فَإِنَّ الشَّهْوَةَ نَعْمَ الْمَعِينُ ! وَيَعْتَبِرُ كَلَامَهُ بِمَا سَلَفَ مِنْ كَلَامِ الْمَاضِينَ ، وَمَا اسْتَحْسِنَهُ الْعَامَاءُ فَلْيَقْصِدْهُ ، وَمَا اسْتَقْصَحُوهُ فَلْيَجْتَنِبْهُ ، وَيَنْبَغِي أَنْ يَعْمَلَ السَّجَمَاتِ مَفْرُوقَةً بِحَسَبِ مَا يَجُودُ بِهِ الْخَاطِرُ ، ثُمَّ يَرْتَبِعُهَا فِي الْآخِرِ وَيَحْتَرِزُ عِنْدَ جَمْعِهَا مِنْ سُوءِ التَّرْتِيبِ ، وَيَتَوَقَّى حُسْنَ النِّسْقِ عَنْهُ التَّهْدِيبَ ، لِيَكُونَ كَلَامُهُ بَعْضُهُ آخِذًا بِأَعْنَاقِ بَعْضٍ ، فَإِنَّهُ أَكْبَلُ لِحْسَنِهِ . وَأَمِثْلُ لِرِصْفِهِ ، وَأَنْ يَجِيدَ الْمُبْدَأَ وَالْمَخْلَصَ وَالْمَقْطَعِ ، وَيُمَيِّزُ فِي فِكْرِهِ مَحَلَّ الرِّسَالَةِ قَبْلَ الْعَدْلِ ، فَإِنَّهُ أَسْهَلُ لِلتَّصَدُّقِ ، وَيَجْتَهِدُ فِي تَجْوِيدِ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ وَتَحْسِينِهَا ، وَيُوضِّحُ مَعَانِيَهُ مَا اسْتَطَاعَ .

قلت وقد سبق في أوّل هذه المقالة في بيان ما يحتاج إليه الكاتب من الأدوات
وذكر أنواعها بيان كيفية الاقتباس من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية
والاستشهاد بها، وكيفية حل الشعر الى النثر، وتضمينه في خلال الكلام المشور وما
يجرى هذا المجرى فأغنى عن إعادته هنا .

وأما بيان ما يُستحسن من الكلام المصنوع فقد قال في "الصناعتين" : إن
الكلام يحسن بسلاسته وسهولته ونصاعته، وتخيّر لفظه، وإصابة معناه، وجودة
مطالعه، ولين معاطفه، واستواء تقاسيمه وتعادل أطرافه وتشبهه أعجازه بهواديته،
وموافقة أواخره لمبأديه، مع قلة ضروراته بل عدمها أصلاً، حتى لا يكون لها
في الألفاظ أثر، فتجد المنظوم مثل المشور في سهولة مطالعه، وجودة مقطّعه،
وحسن رصفه وتأليفه، وكمال صوغه وتركيبه؛ فإذا كان الكلام قد جمع العذوبة
والجزالة والسهولة والرصانة مع السلاسة والنصاعة، واشتمل على الرونق والطلاوة،
وسلم من ضعف التأليف، وبعد من سماجة التركيب، صار بالتبول حقيقاً،
وبالتحفظ خليقاً؛ فإذا ورد على السمع المصيب استوعبه ولم يمجّه، والنفس تقبل
اللطيف، وتنبو عن الغليظ، وتتلق عن الجاسي البشع؛ وجميع جوارح البدن وحواسه
تسكن الى ما يوافقها وتنفّر عما يضادّه ويخالفه؛ والعين تألف الحسن، وتنفذ
بالقبيح؛ والأنف يرتاح للطيب ويعاف المُنْتِن؛ والشم يبتدّ بالحلو، ويمحّ المُرّ؛
والسمع يتشوق للصوت الرائع، ويتزوى عن الجهير المائل؛ واليد تنعم باللين،
وتأذى بالخشين؛ والفهم يأنس من الكلام بالمعروف، ويسكن الى المألوف، ويصغى
الى الصواب، ويهرب من المحال، وينقبض عن الوخيم، ويتأخر عن الجافي الغليظ،
ولا يقبل الكلام المضطرب إلا الفهم المضطرب والروية الفاسدة .

قال وليس الشأن في إيراد المعاني لأن المعاني يعرفها العربي والأعجمي، والقروي والبدوي، إنما هو في جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقائه، وكثرة طلاوته ومائه، وصحة السبك والتركيب، والخلو من أود النظم والتأليف، وليس يُطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا، ولا يُقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وُصف من نعوته التي تقدمت. ألا ترى أن الخطب الرائعة، والأشعار الرائقة، لم تُعمل لإفهام المعاني فقط. لأن الرديء من الألفاظ يتوهم مقام الجيد منها في الإفهام، وإنما يدل حسن الكلام، وإحكام صنعته، ورؤق ألفاظه، وجودة مقاطعه، وبديع مبادئه، وغريب مبادئه، على فضل قائله ومنشئه. وأيضا فإن الكلام إذا كان لفظا حلوا عذبا وسطا دخل في جملة الجيد، وجرى مع الرائع النادر. وأحسن الكلام ما تلائم نسجه ولم يسخف، وحسن نظمه ولم يهجن، ولم يستعمل فيه الغليظ من الكلام فيكون خلقا بغيضا، ولا السوقي من الألفاظ فيكون مهلهلا دونا، ولا خيرا في المعاني إذا استكرهت قهرا، والألفاظ إذا أُجبرت قسرا، ولا خير فيما أُجيد لفظه إلا مع وضوح المغزى وطهور المقصد. قال وقد غلب على قوم الجهل فصاروا يستجيدون الكلام إذا لم يقفوا على معناه إلا بكدا، ويستفصحونه إذا وجدوا ألفاظه كزة غليظة، وجاسية غريبة، ويستحقرون الكلام إذا ورد سلسا عذبا، وسهلا حلوا، ولم يعلموا أن السهل أمتع جانبا، وأعز مطلبابا، وهو أحسن موقعا، وأعذب مستمعا، ولهذا قيل أجود الكلام السهل المتنع. وقد وصف الفضل ابن سهل عمرو بن مسعدة فقال: هو أبلغ الناس، ومن بلاغته أن كل أحد يظن أنه يكتب مثل كتبه، فإذا رامها تعدت عليه، وأنشد إبراهيم بن العباس لحاله العباس بن الأحنف:

إن قال لم يفعل وإن سئل لم * يبدل وإن عوتب لم يعيب

صَبَّ بِعِضْيَانِي وَلَوْ قَالَ لِي * لَا تَشْرِبِ الْبَارِدَ لَمْ أَشْرَبِ

ثم قال : هذا والله الشعر الحسن المعنى ، السهل اللفظ ، العذب المستمع ، القليل النظير ، العزيز الشبيه ، المَطْمَعُ الممتنع ، البعيدُ مع قربه ، النَّسْعَبُ مع سهولته ، قال فجعلنا نقول : هذا الكلام والله أحسن من شعره . وقيل لبعضهم : ألا تستعمل الغريب في شعرك ؟ فقال : ذلك عيٌّ في زمانى ، وتكلف منى لو قلتُه ، وقد رزقت طبعاً واتساعاً في الكلام ، فأنا أقول ما يعرفه الصغير والكبير ، ولا يحتاج إلى تفسير .

وقال أبو داود : رأس الخطابة الطبع ، وعمودها الدربة ، وجناحها رواية الكلام ، وحليها الإعراب ، وبهاؤها تخير الألفاظ ، والمحبة مقرونة بقلّة الاستكراه ، وما كان من الكلام لفظه سهلاً ومعناه مكشوفاً بيننا فهو من جملة الردىء المردود ، لا سيما إذا ارتكبت فيه الضرورات ، فأما الجزل المختار من الكلام ، فهو الذى تعرفه العامة إذا سمعته ، ولا تستعمله فى محاوراتها ، وأجود الكلام ما كان سهلاً جزلاً ، لا يتغلق معناه ، ولا يستبهم مغزاه ، ولا يكون مكدوداً مستكراً ، ومتوعراً متقعراً ، ويكون بريئاً من الغثائفة ، عارياً من الرثائفة . فمن الجزل الجيد من الثرقول سعيد بن حميد :
وانا من لا يحاجك عن نفسه ، ولا يُغالطك عن جرمه ، ولا يلتمس رضاك إلا من جهته ، ولا يستدعى برك إلا من طريقته ، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب ، ولا يستميلك إلا بالاعتراف بالجرم ، نبت بي عنك غرة الحداثة وردتني إليك الحنكة ، وواعدتني منك الثقة بالأيام ، وقادتني إليك الضرورة ، فان رأيت أن تستقبل الصنعة بقبول العذر ، وتجدد النعمة باطراح الحقد ، فانّ قديم الحرمة وحديث التوبة يحقتان ما بينهما من الإساءة ، وإن أيام القدرة وإن طالت قصيرة ، والمتعة بها وإن كثرت قليلة ، فعلت إن شاء الله تعالى .

وأجزل منه قول الشعبي للحجاج وقد أراد قتله لخروجه عليه مع ابن الأشعث :
أجذب بنا الجناب ، وأحزن بنا المنزل فاستحلسنا ، الحذر ، واكتحلنا السهر ،
وأصابتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقيا ، ولا بخررة أقويا ، فعفا عنه .

ومن النظم قول المترار :

لا تسألني القوم عن مالي وكثرتي * قد يقتر المرء يوما وهو محمود
أمضى على سنة من والدي سلفت * وفي أرومته ما ينبت العود

فهذا وإن لم يكن من كلام العامة فإنهم يعرفون الغرض منه ويقفون على أكثر
معانيه لحسن ترتيبه وجودة نسجه ،

قال في "الصناعتين" : أما إذا كان لفظ الكلام غثا ، ومعرضه رثا ، فإنه يكون

مردودا ، ولو احتوى على أجل معنى وأنبه ، وأرفعه وأفضله ، كقول القائل :

أرى رجلا بأذني الدين قد قنعوا * ولا أراهم رضوا في العيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما أس * تغني الملوك دنياهم عن الدين

قال : فهو لا يدخل في جملة المختار ، ومعناه كما ترى جميل ، فاضل جليل ، وأما

الجزل الرديء الفج الذي ينبغي ترك استعماله فقد مر في الكلام على الغريب الحوشي .

المقصد الثالث

في بيان مقادير الكلام ومقتضيات إطالته وقصره

إعلم أن الكلام المصنوع من الخطب والمكاتبات ، والولايات وغيرها على

ثلاثة ضروب :

الضرب الأول

الإيجاز

وهو جمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة ، وعليه ورد أكثر آي القرآن الكريم ،

فمن ذلك قوله تعالى في مفتح سورة الفاتحة : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . أنتظم ،

فيه خلق السموات والأرض وسائر المخلوقات لم يشدَّ عنه شيء في أوجز لفظ وأقربه وأسهله ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ استوعب جميع الأشياء على الاستقصاء في كلمتين لم يخرج عنهما شيء ؛ وقوله ﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ ﴾ فدخل تحت الأمن جميع المحبوبات لأنه نفى به أن يخافوا شيئاً من الفقر والموت وزوال النعمة والجور وغير ذلك ؛ وقوله : ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ جمع منافع الدنيا والآخرة ؛ وقوله في صفة نحر أهل الجنة : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزِفُونَ ﴾ انتظم بقوله : ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزِفُونَ ﴾ عدم ذهاب العقل وذهاب المال ونفاد الشراب ، فلم يكن فيها شيء من ذلك ؛ وقوله : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ بجمع فيها مكارم الأخلاق بأسرها ، لأنَّ في العفو صلة القاطعين ، وإعطاء المساعين ؛ وفي الأمر بالمعروف تقوى الله تعالى ، وصلة الرحم ، وصون اللسان عن الكذب ، وغض الطرف عن المحرمات ، والتبرئ من كل قبيح ؛ إذ لا يأمر بالمعروف من هو ملابس شيئاً من المنكر ؛ إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى كثرة .

ومن كلام النبوة قوله صلى الله عليه وسلم : " نِيَّةُ الْمَرْءِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ " وقوله عليه السلام : " حُبُّكَ الشَّيْءَ يَعْمِي وَيَصْمُ " إلى غير ذلك من جوامع الكلم .

الضرب الثاني

الإطناب

وهو الإشباع في القول ، وترديد الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد . وقد وقع منه الكثير في الكتاب العزيز ، مثل قوله تعالى : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وقوله جلَّ وعزَّ : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ كرر اللفظ في الموضوعين توكيداً للأمر وإعلاماً أنه كذلك لا محالة . وقوله : ﴿ تَسْبِرُوا إِلَى اللَّهِ

إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿ فكرر ﴿إني لكم منه نذيرٌ مبين﴾ من حيث إن الكفر وإن تعددت أقسامه لا يخرج عن تعطيل أو شرك، ففي قوله ﴿فَقِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ نفى التَّعْطِيلِ بِإِثْبَاتِ الْإِلَهِ وَفِي قَوْلِهِ : ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ نفى الشُّرْكِ . وقد كرر سبحانه في سورة الرحمن قوله : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ حيثُ عَدَّدَ فِيهَا نِعْمَهُ ، وَأَذَكَرَ عِبَادَةَ آلَاءِهِ ، وَنَبَّهَهُمْ عَلَى قُدْرَتِهَا ، وَقَدْرَتِهِ عَلَيْهَا ، وَأَطْفَفَهُ فِيهَا ، وَجَعَلَهَا فَاصِلَةً بَيْنَ كُلِّ نِعْمَةٍ وَنِعْمَةٍ ، تَنْبِيْهَا عَلَى مَوْضِعِ مَا أَسَدَاهُ إِلَيْهِمْ فِيهَا ، وَكَذَلِكَ كَرَّرَ فِي سُورَةِ الْمُرْسَلَاتِ : ﴿وَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ تَأْكِيدًا لِأَمْرِ الْقِيَامَةِ الْمَذْكُورَةِ فِيهَا . وقد وقع التكرار للتأكيد في كلام العرب كثيرا كما في قول الشاعر :

* أَتَاكَ أَتَاكَ الْأَحِقُونَ أَتَاكَ ^(١)

وقول الآخر :

* كَمْ نِعْمَةٌ كَانَتْ لَكُمْ كَمْ كَمْ وَكَمْ

إلى غير ذلك مما وقع في كلامهم مما لا تأخذه الإحاطة .

الضرب الثالث

المساواة

بأن تكون الألفاظ بإزاء المعاني في القلة والكثرة لا يزيد بعضها على بعض . وقد مثل له العسكري في "الصناعتين" بقوله تعالى : ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ وقوله : ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ وقول النبي صلى الله عليه وسلم "لا تزال أمي بحير ما لم تر الأمانة مغنما، والزكاة مغرما" وقوله "إياك والمشاركة، فإنها تميت الغرة ^(٢)

(١) في الضوء بدله (أحبس أحبس) وهو المشهور في البيت .

(٢) أي العمل الصالح الحسن تشبها له بغرة الفرس . والعرة العمل السيئ تشبها له بالعدرة . انظر اللسان .

وتُحْيِي العُزَّةَ“ . وقول بعض الكُتَّاب : سألت عن خَبْرِي وأنا في عافية لا عَيْبَ فيها
إلا فَقْدُكَ ، وَنِعْمَةٌ لا مَزِيدَ فيها إلا بك . وقول آخر : وقد عَلَّمْتَنِي نَبْوَتَكَ سَلَوَتَكَ ،
وَأَسَلَمَنِي بِأَيْسَى مِنْكَ إلى الصَّبْرِ عَنْكَ . وقول آخر : فتولَّى اللهُ النِّعْمَةَ عَلَيْكَ وَفِيكَ ،
وتولَّى إِصْلَاحَكَ وَالْإِصْلَاحَ بِكَ ، وَأَجْرَلَ مِنْ الخَيْرِ حَظَّكَ وَالْحَظَّ مِنْكَ ، وَمَنْ عَلَيْكَ
وعليْنَا بك . وقول الشاعر :

أَهَابُكَ إِجْلَالًا وَمَا بِكَ قُدْرَةٌ * عَلَى وَلَيْكِنْ مِلءُ عَيْنٍ حَبِيبُهَا
وَمَا هَجَرْتِكَ النَّفْسُ أَنْكَ عِنْدَهَا * قَلِيلٌ وَلَا أَنْ قَلَّ مِنْكَ نَصِيبُهَا

إذا علمت ذلك فقد اختلف البلغاء في أي الثلاثة أبلغ وأولى بالكلام ، فذهب
قوم إلى ترجيح الإيجاز ، محتجين له بأنه صورة البلاغة وأن ما تجاوز مقدار الحاجة
من الكلام فضلة داخلية في حيز اللغو والمُذَرِّ ، وهما من أعظم أدواء الكلام ، وفيهما
دلالة على بلادة صاحب الصناعة وغباوته ، وقد قال الأمين محمد بن الرشيد : عليكم
بالإيجاز فإن له إفهاما ، والإطالة آسئبهما . وقال جعفر بن يحيى لكتابه : إن قدرتم
على أن تجعلوا كُتُبَكُمْ توقيعاتٍ فافعلوا . وقال بعضهم : البلاغة بالإيجاز أنجع من
البيان بالإطناب ، وقيل لبعضهم : ما البلاغة ؟ قال : الإيجاز . وقيل لابن حازم
لم لا تطيل القصائد فأنشد :

أبى لي أن أطيلَ الشَّعْرَ قَصْدِي * إلى المعنى وعلمي بالصَّوابِ
وإيجازي بِمُخْتَصِرٍ قَهْرِي * حَدَفْتُ بِهِ الْفُضُولَ مِنَ الْجَوَابِ

وذهبت طائفة إلى أن الإطناب أرجح ، واحتجوا لذلك بأن المنطق إنما هو
بيان والبيان لا يحصل إلا بإيضاح العبارة ، وإيضاح العبارة لا يتبها إلا بمرادفة
الألفاظ على المعنى حتى يُحِيطَ بِهِ إِحَاطَةً يُؤْمَنُ مَعَهَا مِنَ اللِّبْسِ وَالإِبْهَامِ ، وإن الكلام
الوجيز لا يُؤْمَنُ وَقَوْعُ الإِشْكَالِ فِيهِ . ومن ثم لم يحصل علم معانيه إلا خواص أهل

اللغة العارفين بدلالات الألفاظ ، بخلاف الكلام المشبع الشافي فإنه سالم من الالتباس لتساوي الخاص والعام في جهته ، ويؤيد ذلك ما حكى أنه قيل لقيس بن خزيمة : ما عندك في جمالات ذات حسن ؟ قال : عندي قري كل نازل ، ورضا كل ساخط ، وخطبة من لدن تطلع الشمس الى أن تغرب ، أمر فيها بالتواصل ، وأنهى عن التقاطع . فقيل لأبي يعقوب الجرمي هلا آكتفى بقوله أمر فيها بالتواصل عن قوله وأنهى عن التقاطع ؟ فقال : أو ما علمت أن الكتابة والتعريض لا تعمل عمل الإطناب والتكشيف ؟ ألا ترى أن الله تعالى اذا خاطب العرب والأحزاب أخرج الكلام مُجَرَّجَ الإشارة والوحي واذا خاطب بنى إسرائيل أو حكى عنهم جعل الكلام مبسوطا ، وفما تجد قصة لبي إسرائيل في القرآن إلا مطولة مشروحة ، ومكررة في مواضع مُعَادَةً لِبُعْدِ فَهْمِهِمْ ، وتأخر معرفتهم ، بخلاف الكلام المشبع الشافي فإنه سالم من الالتباس لتساوي الخاص والعام في فهمه .

وذهبت فرقة الى ترجيح مساواة اللفظ المعنى ، واحتجوا لذلك بان منزع الفضيلة من الوسط دون الأطراف ، وأن الحسن إنما يوجد في الشيء المعتدل .

قال في " مواد البيان " : والذي يوجب النظر الصحيح أن الإيجاز والإطناب والمساواة صفات موجودة في الكلام ولكل منها موضع لا يخلفه فيه رديفه ، اذا وضع فيه انتظم في سلك البلاغة ودل على فضل الواضع ، واذا وضع غيره دل على نقص الواضع وجهله برسوم الصناعة .

فأما الكلام الموجز فإنه بصاح لمخاطبة الملوك ، وذوى الأخطار العالبة ، والهم المستقيمة ، والشؤون السنية ، ومن لا يجوز أن يشغل زمانه بما همته مصروفة الى مطامع غيره .

وأما الإطناب فإنه يصلح للمكاتب الصادرة في الفتوحات ونحوها مما يُقرأ في المحافل، والعهود السلطانية، ومخاطبة من لا يصلح المعنى إلى فهمه بأدنى إشارة. وعلى ذلك يحمل ما كتبه المهلب بن أبي صفرة إلى الحجاج في فتح الأزارقة من الخوارج والظهور عليهم على ارتفاع خطر هذا الفتح وطول زمانه وبعده صيته، فإنه كتب فيه: "الحمد لله الذي كفى بالإسلام قصداً ما سواه، وجعل الحمد متصلاً بنهاه، وقضى ألا ينقطع المزيد وحيله، حتى ينقطع الشكر من خلفه. ثم إنا كنا وعدونا على حالتين مختلفتين نرى منهم ما يسرنا أكثر مما يسرهم، ويرون منا ما يسوءهم أكثر مما يسرهم، فلم يزل ذلك دأبنا ودأبهم، ينصرونا الله ويخذلهم، ويخصنا ويحققهم، حتى بلغ الكتاب بناديتهم أجله ﴿ قَطِّعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾". فإن الذي حملاه على الاختصار في هذا الكتاب إنما هو كونه إلى السلطان الذي من شأنه اختصار المكاتب التي تكتب إليه، بخلاف ما لو كتبت به عن السلطان إلى غيره، فإنه يتعين فيه بسط القول وإطالته على ما سيأتي ذكره في أول المكاتب في المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى.

وأما مساواة اللفظ للمعنى فإنه يصلح لمخاطبة الأكفاء والنظر والبطانة الوسطى من الرؤساء. فكما أن هذه المرتبة متوسطة بين طرفي الإيجاز والإطناب، كذلك يجب أن تُخصَّص بها الطبقة الوسطى من الناس. قال أما لو استعمل كاتبٌ ترديد الألفاظ ومرادفتها على المعنى في المكاتب إلى ملك مصروف المهمة إلى أمور كثيرة متى اندرف منها إلى غيرها دخلها الخلل، لرتب كلامه في غير رتبته، ودلَّ على جبنه بالصناعة. وكذا لو وثى على الإيجاز كتاباً يكتبه في فتح جليل الخطر، حسن الأثر، يُقرأ في المحافل والمساجد الجامعة على رؤوس الأشهاد من العامة ومن يراد منه تفخيم شأن السلطان في نفسه، لأوقع كلامه في غير موقعه، ونزله في غير منزلته، لأنه لا أقبح ولا أفسح

من أن يُستنفر الناس لسماع كتاب قد ورد من السلطان في بعض عظام أمور المملكة أو الدين، فإذا حضر الناس كان الذي يمتز على أسماعهم من الألفاظ وارداً مؤرد الإيجاز والاختصار لم يحسن موقعه وخرج من وضع البلاغة لوضعه في غير موضعه .

قلت وما ذكرته من الأصول والقواعد التي تبنى عليها صنعة الكلام هو القدر اللازم الذي لا يسع الكاتب الجهل بشيء منه ، ولا يُسمع بإخلاء كتاب مصنف في هذا الفن منه .

أما المتممات التي يكمل بها الكاتب، من المعرفة بعلوم البلاغة ووجوه تحسين الكلام من المعاني والبيان والبديع فإن فيها كتباً متردة تكاد تخرج عن الحصر والإحصاء ، فاقضى الحال من المتقدمين للتصنيف في هذا الفن أن قد قصرُوا تصانيفهم على علوم البلاغة وتوابعها كالوزير ضياء الدين بن الأثير في "المثل السائر" وأبي هلال العسكري في "الصناعتين" والشيخ شهاب الدين محمود الحلبي في "حسن التوسل" كما تقدمت الإشارة إليه في مقدمة الكتاب ، فليطلب ذلك من مظانه من هذه الكتب وغيرها . إذ هذا الكتاب إنما يذكر فيه ما يشق طلبه من كتب متفرقة ، وأصانيف متعددة، أو يكون في المصنف الواحد منه النبذة غير الكافية، ولا يجتمع منه الدلائل إلا من كشف الكثير من المصنفات المتفرقة في الفنون المختلفة .

الفصل الثالث

من الباب الأول من المقالة الأولى

في معرفة الأزمنة والأوقات من الأيام والشهور والسنين على اختلاف

الأمم فيها . وتفصيل أجزاءها ، والطرق الموصلة إليها ، ومعرفة

أعياد الأمم ، وفيه أربعة أطراف

الطرف الأول

في الأيام وفيه ست جمل

الجملة الأولى

في مداول اليوم ومعناه ، وبيان ابتداء الليل والنهار

وقد اختلف الناس في مداول اليوم على مذهبين :

المذهب الأول (وهو مذهب أهل الهيئة) - أن اليوم عبارة عن زمانٍ جامع لليل والنهار ، مدته ما بين مفارقة الشمس نصف دائرة عظيمة ثابتة الموضع بالحركة الأولى الى عودها الى ذلك النصف بعينه ، وأظهر هذه الدوائر الأفق وفلك نصف النهار . والحذاق من المنجمين يؤثرون فلك نصف النهار على الأفق بسهولة تحصل بذلك في بعض أعمالهم ، لأن اختلاف دوائره في سائر الأوقات اختلاف واحد ، وبعضهم يؤثر استعمال الأفق لأن الطلوع منه والغروب فيه أظهر للعيان ، وهو الموافق لما نحن فيه .

ثم منهم من يقدم الليل فيفتح اليوم بغروب الشمس ويختم بغروبها من اليوم القابل ، وعلى ذلك عمل المسلمين وأهل الكتاب ، وهو مذهب العرب ، لأن شهورهم مبنيّة على مسير النمر ، وأوائلها مقدرة برؤية الهلال .

ومنهم من يقدم النهار على الليل فيفتتح اليوم بطلوع الشمس ويختم بطلوعها من اليوم القابل ، وهو مذهب الروم والفرس .

ويحكى أن الاسكندر سأل بعض الحكماء عن الليل والنهار أيهما قبل صاحبه فقال : هما في دائرة واحدة ، والدائرة لا يُعلم لها أول ولا آخر ، ولا أعلى ولا أسفل .

المذهب الثاني (وهو مذهب الفقهاء) - أن اليوم عبارة عن النهار دون الليل حتى لو قال لزوجته : أنت طالق يوم يقدم فلان فقدم ليلا لم يقع الطلاق على الصحيح . ثم القائلون بذلك نظروا الى الليل والنهار باعتبارين : طبيعي ، وشرعي .

أما الطبيعي فالليل من لَدُنْ غروب الشمس واستارها بحدبة الأرض الى طلوعها وظهورها من الأفق ، والنهار من طلوع نصف قرص الشمس من المشرق الى غيبوبة نصفها في الأفق في المغرب ، وسائر الأمم يستعدون له كذلك .

وأما الشرعي - فالليل من غروب الشمس الى طالع الفجر الثاني ، وهو المراد بالحيط الأبيض من قوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ والنهار من الفجر الثاني الى غروب الشمس ، وبذلك تتعلق الأحكام الشرعية من الصوم والصلاة وغيرها .

واعلم أن الشمس في الليل تكون غائبة تحت الأرض ، فإذا قربت منا في حال غيبتها أحسننا بضيائها المحيط بظل الأرض الذي هو الليل ، وهذا الضياء طليعة أماتها يطلع في السحر بياض مستطيل مستديق الأعلى ، وهو الفجر الكاذب إذ لا حكم له في الشريعة ، ويُشبهه بذنب السرحان لانتصابه واستطالته ودقته ، ويبقى مدة ثم يزداد هذا الضوء الى أن يأخذ طولاً وعرضاً وينبسط في عرض الأفق ، وهو الفجر الثاني ويسمى الصادق ، وعليه ترتب جميع الأحكام الشرعية المتعلقة

(١) نعله المحجوب بظل الأرض كما يفيد المقام

بالفجر، وبعده يحتر الأفق لأقتراب الشمس وسطوع ضيائها على المدورات الغربية من الأرض، ويتبعه الطلوع، وعند غروبها ينعكس الحكم في الترتيب المتقدم فيبقى الأفق محترًا من جهة المغرب بعد الغروب، ثم تزول الحمرة ويبقى البياض الذي هو نظير الفجر الصادق، وبالحمرة حكم صلاة العشاء عند الشافعية، وبالبياض حكمها عند الحنفية، ثم يزداد البياض ضعفًا شيئًا فشيئًا إلى أن يغيب، ثم يتبعه البياض المستطيل المنتصب نظير الفجر الكاذب مدة من الليل ثم يذهب، وهذا لا حكم له في الشرعيات. والهند لا يعدون الفجر ولا الشفق من الليل ولا من النهار، ويجعلونهما قسمًا مستقلًا وهذا في غاية البعد لأن الله تعالى قسم الزمان إلى ليل ونهار ولم يذكر معهما سواهما.

الجملة الثانية

في اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان والاستواء باختلاف الأمكنة واعلم أن البلاد والنواحي على قسمين :

القسم الأول

ما يستوى فيه الليل والنهار أبدًا، لا يختلفان بزيادة ولا نقصان وذلك في البلاد التي لا عرض لها وهي ما أمرت عليه خط الاستواء، والعلة في التساوي هي أن أصحاب الهيئة لما توهموا أن بين قطبي فلك البروج دائرة عظمى تقسم سطح السماء نصفين على السواء وسموها دائرة معدل النهار، وتوهموا أيضًا في موازاتها دائرة أخرى تقسم سطح الأرض نصفين وسموها دائرة الاستواء وخط الاستواء، وكل بلد يمر عليه هذا الخط لا عرض له، وذلك لأنقسام الكرة فيه وطلوع الشمس أبدًا على رؤوس ساكنيه، وميائها في ناحيتي الشمال والجنوب بقدر واحد.

ودوائر الأوقات تقطع جميع الدوائر الموازية لدائرة معتدل النهار بنصفين نصفين ،
فيكون قوس النهار وهو الزمان الذي من طلوع الشمس الى غروبها مساويا لقوس
الليل وهو الزمان الذي من غروب الشمس الى طلوعها فيكون الليل والنهار متساويين
أبدا في هذه المواضع في جميع السنة .

القسم الثاني

ما يختلف فيه الليل والنهار في السنة بالاستواء والزيادة والنقصان .

وهي البلاد ذوات العروض

والعلة في الزيادة والنقصان أن المواضع التي تميل عن خط الاستواء الى الشمال
تميل في كل موضع منها دائرة معتدل النهار الى الجنوب وتنحط الشمس ويرتفع
القطب الشمالي من الأفق ويصير للبلد عرض بحسب ذلك الارتفاع ، وبقدر
بعده عن الخط . واذا مالت الدائرة قطعت الآفاق كل دائرة من الدوائر الموازية
لها بقطعتين مختلفتين ، فيكون ما فوق الأرض من قسميها أعظم من الذي تحتها ،
لأن القطب لما ارتفع ارتفعت الدوائر الشمالية فظهر من كل واحدة أكثر من
بصفها وانحط مدار الشمس عن سمت الرأس الى جهة الجنوب فبعد مشرق
الصيف عن مشرق الشتاء فطال النهار وقصر الليل ، وكلما زاد ارتفاع القطب
في الأقاليم زاد الاختلاف الذي هو بين هذه القطع الى أن تكون نهاية الأطوال
حيث يكون ارتفاع القطب اثنتي عشرة درجة ونصفا وربعا وهو أقل المعمور ،
اثنتي عشرة ساعة ونصفا وربعا ، وحيث يكون ارتفاعه تسعا وعشرين درجة وهو
آخر الإقليم الثاني ، ثلاث عشرة ساعة ونصفا وربعا ، وحيث يكون ارتفاعه ثلاثا
وثلاثين درجة ونصفا وهو آخر الإقليم الثالث أربع عشرة ساعة وربعا ، وحيث

يكون ارتفاعه تسعا وثلاثين درجة وهو آخر الإقليم الرابع أربع عشرة ساعة ونصفا وربعا، وحيث يكون ارتفاعه ثلاثا وأربعين درجة ونصفا وهو آخر الإقليم الخامس خمس عشرة ساعة وربعا، وحيث يكون ارتفاعه سبعا وأربعين درجة وهو آخر الإقليم السادس خمس عشرة ساعة ونصفا وربعا، وحيث يكون ارتفاعه خمسين درجة وهو آخر الإقليم السابع ست عشرة ساعة وربعا .

ولا يزال اختلاف مطالع البروج يزداد بالإمعان في الشمال ويتسع شرقا المنقلبين ويتقاربان مع مغربيهما إلى أن يلتقيا في العرض المساوي لتمام الميل الأعظم، وهو حيث يكون ارتفاع القطب ستا وستين درجة؛ وفي هذا الموضع يكون قطب فلك البروج في دوره يمر على سمت الرئوس، ويكون أول السرطان فقط ظاهرا فوق الأرض أبدا، ومدار أول الجدي فقط غائبا أبدا، فيكون مقدار النهار الأطول أربعا وعشرين ساعة لا ليل فيه . ويعرض في هذه المواضع عند موازاة قطب فلك البروج سمت الرئوس أن دائرة فلك البروج تنطبق حينئذ على دائرة الأفق، فيكون أول الحمل في المشرق، وأول الميزان في المغرب، وأول السرطان في الأفق الشمالي، وأول الجدي في الأفق الجنوبي . فإذا صار قطب فلك البروج والأفق نصفين وارتفع النصف الشرقي من فلك البروج وانخفض النصف الغربي فيطلع حينئذ ستة بروج دفعة واحدة، وهي من أول الجدي إلى آخر الجوزاء، وكذلك تغرب الستة الباقية دفعة واحدة . وحيث يكون ارتفاع القطب سبعا وستين درجة وربما قهرا يكون مدار ما بين النصف من الجوزاء إلى النصف من السرطان ظاهرا فوق الأرض أبدا، وما بين النصف من القوس إلى النصف من الجدي غائبا أبدا، فيكون مقدار شهر من شهور الصيف نهارا كله لا ليل فيه، وشهر من الشتاء ليلا كله لا نهار فيه والعشرة الأشهر الباقية من السنة كل يوم وليلة أربعا وعشرين ساعة . وحيث يكون

ارتفاع القطب تسعا وستين درجة ونصفا وربعا فهناك يكون مدار بُرجي الجوزاء
والسّرطان ظاهرا فوق الأرض ، ومدار برجى القوس والجدى غائبا تحت الأرض
أبدا . ولذلك يكون مقدار شهرين من الصيف نهارا كله ، وشهرين من الشتاء ليلا
كله . وحيث يكون ارتفاع القطب ثلاثا وسبعين درجة يكون ما بين النصف من
الثور الى النصف من الأسد ظاهرا أبدا والأجزاء النظرية لها غائبة أبدا ، فيكون
مقدار ثلاثة أشهر من الصيف نهارا كله ، وثلاثة أشهر من الشتاء ليلا كله . وحيث
يكون ارتفاع القطب ثمانا وسبعين درجة ونصفا فهناك يكون مدار الثور والجوزاء
والسّرطان ظاهرا أبدا والبروج النظرية لها غائبة أبدا ، فيكون أربعة أشهر من الصيف
نهارا كله وأربعة أشهر من الشتاء ليلا كله . وحيث يكون ارتفاع القطب أربعا
وثمانين درجة فهناك يكون مدار ما بين النصف من الحمل إلى النصف من السنبلة
ظاهرا أبدا والبروج النظرية لها غائبة أبدا فيكون خمسة أشهر من الصيف نهارا كله
 وخمسة أشهر من الشتاء ليلا كله .

ومما يعرض في هذه المواضع التي تقدم ذكرها أنه إذا كان قطب فلك البروج
في دائرة نصف النهار مما يلي الجنوب كان أول الحمل في المشرق وأول الميزان
في المغرب ، وتكون البروج الشمالية ظاهرة أبدا فوق الأرض والجنوبية غائبة
تحتها ، وهناك يطالع ماله طلوع من آخر الفلك فيما بين الجدى والسّرطان منكوسا ،
فيطلع الثور قبل الحمل ، والحمل قبل الحوت ، والحوت قبل الدلو . وكذلك تغرب
نظائرها منكوسة ، وحيث يكون ارتفاع القطب تسعين درجة فيصير على سمت الرأس
فهناك تكون دائرة معتدل النهار منطبقة على الأفق أبدا ، ويكون دور النلك
رسويا موازيا للأفق ويكون نصف السماء الشمالي عن معتدل النهار ظاهرا أبدا فوق

(١) المراد بها البروج كما يدل عليه بنية العبارة .

الأرض والنصف الجنوبيُّ غائبا تحتها، فلذلك اذا كانت الشمس في البروج الشماليه كانت طالعة تدور حول الأفق ويكون أكثر ارتفاعها عنه بمقدار ميلها عن معدّل النهار، واذا كانت في البروج الجنوبية كانت غائبة أبدا فتكون السنة هناك يوما واحدا ستة أشهر ليلا وستة أشهر نهارا، ولا يكون لها طلوع ولا غروب . فظهر من هذا أن حركة الفلك بالنسبة للأفاق إما دُولَابِيَّةٌ، وهي في خط الأستواء؛ وإما حَمَائِلِيَّةٌ، وهي في الآفاق المائلة عنه، وإما رَحَوِيَّةٌ! وهي في المواضع التي ينطبق فيها قطب العالم على سمت الرأس فسبحان مَنْ أتقن ما صنع!

الجملة الثالثة

في معرفة زيادة الليل والنهار وتقصانهما بتنقل الشمس في البروج

اعلم أن للشمس حركتين : سريعةً وبطيئةً .

أما السريعة فحركة فلك الكلِّ بها في اليوم والليلة من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق، وتسمى الحركة اليومية .

وأما الحركة البطيئة فقطعها فلك البروج في سنة شمسية من الجنوب الى الشمال ومن الشمال الى الجنوب، ولتعلّم أن جهة المشرق وجهة المغرب لا لتغيران في أنفسهما بل جهة المشرق واحدةٌ وكذلك جهة المغرب، وان اختلفت مطالعتهما . قال تعالى ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أي جهة الشروق وجهة الغروب في الجملة، إلا أن الشمس لها غاية ترتفع اليها في الشمال وتلك الغاية مَشْرِقٌ وَمَغْرِبٌ وهو مَشْرِقُ السَّيْفِ وَمَغْرِبُهُ، ومطلعها حينئذٍ بالقرب من مَطْلَعِ السَّيْفِ الرَّاحِ، ولها غاية تنحطُّ اليها في الجنوب، وتلك الغاية أيضا مَشْرِقٌ وَمَغْرِبٌ : وهو مَشْرِقُ الشِّتَاءِ وَمَغْرِبُهُ، ومطلعها حينئذٍ بالقرب من مَطْلَعِ بَطْنِ الْعَرَبِ، وهذان المَشْرِقانِ وَالْمَغْرِبَانِ هما المراد بقوله تعالى:

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ وبين هاتين الغابتين مائة وثمانون مشرقاً ويقابلها مائة وثمانون مغرباً ، ففي كل يوم تَطَّلُعُ في مَطَّلَعٍ من المشرق غير الذي تَطَّلُعُ فيه بالأمس ، وتَغْرُبُ في مغرب غير الذي تغرب فيه بالأمس . وذلك قوله تعالى :
 ﴿ رَبُّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ ونقطة الوسط بين هاتين الغابتين وهي التي يعتدل فيها الليل والنهار يُسَمَّى مَطَّلَعُ الشَّمْسِ فيها مَشْرِقُ الاستواء ، ومَغْرِبُ الاستواء ، ومطلعاها حينئذ بالقرب من مَطَّلَعِ السَّمَاءِ الْأَعَزَلِ :

وقد قَسَمَ علماء الهيئة ما بين غاية الارتفاع وغاية الهبوط اثني عشر قسماً ، قالوا :
 والمعنى في ذلك أن الشمس في المبدأ الأول لما سارت مسيرها الذي جعله الله خاصاً بها قطعت دَوْرَ الفلك التاسع في ثمانمائة وستين يوماً ، وسميت جملة هذه الأيام سنة شمسية ورسمت بتحركتها هذه في هذا الفلك دائرة عظمى على ما توهمه أصحاب الهيئة ، وقسمت هذه الدائرة الى ثمانمائة وستين جزءاً وسموا كل جزء درجةً ، ثم قسمت هذه الدرجة الى اثني عشر قسماً على عدد شهور السنة ، وسموا كل قسم منها برجاً ، وجعلوا ابتداء الأقسام من نقطة الاعتدال الربيعي : لاعتدال الليل والنهار عند مرور الشمس بهذه النقطة ، ووجدوا في كل من قسم هذه الأقسام نجوماً تتشكل منها صورة من الصور فسموا كل قسم باسم الصورة التي وجدوها عليه ، وكان القسم الأول الذي ابتداءوا به نجوماً اذا جمع متتابعها تشكلت صورة حمل ، فسموها بالحمل ، وكذلك البواقي .

قال صاحب "مناجج الفكر" : وذلك في أول ما رصّدوا ، وقد انتقلت الصور عن أمكنتها على ما زعموا فصار مكان الحمل الثور ، وهي تنتقل على رأى بطليموس في ثلاثة آلاف سنة ، وعلى رأى المتأخرين في ألفي سنة .

اذا علمت ذلك فاعلم أن الدّورة الفلكية في العُرُوض الشّالية تنقسم الى ثمانمائة وستين درجة ، كما تقدمت الإشارة إليه ، والسنة ثمانمائة وستون يوماً منقسمة على

الاثنى عشر برجاً المتقدم ذكرها ، لكل برج منها ثلاثون يوماً ، وتوزع عليها الخمسة أيام والربع يوم ، والليل والنهار يتعاقبان بالزيادة والنقصان بحسب سير الشمس في تلك البروج ، فمما نقص من أحدهما زيد في الآخر . وذلك أنها إذا حانت في رأس الحمل وهي آخذة في الارتفاع الى جهة الشمال ، وذلك في السابع عشر من برمها من شهور القبط . ويوافقها الحادى والعشرون من آذار من شهور الشريان ، وهو مارس من شهور الروم ، والرابع والعشرون من حردادماه من شهور الفرس ، اعتدل الليل والنهار ، فكان كل واحد منهما مائة وثمانين درجة ، وهو أحد الاعتدالين في السنة ، ويسمى الاعتدال الربيعى لوقوعه أول زمن الربيع فيزيد النهار فيه في كل يوم نصف درجة ، وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً خمس عشرة درجة ، ونقص الليل كذلك . وبصير النهار بآخره على مائة وخمس وتسعين درجة . والليل على مائة وخمس وستين درجة .

ثم تنقل الى الثور فيزيد النهار فيه كل يوم ثلث درجة ، وينقص الليل كذلك . فتكون زيادة النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً عشر درجات ونقص الليل كذلك . وبصير النهار بآخره على مائتين وخمس درجات ، والليل على مائة وخمس وخمسين درجة . ثم تنقل الى الجوزاء فيزيد النهار فيها كل يوم سدس درجة وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيها لمدة ثلاثين يوماً خمس درجات ، ونقص الليل كذلك ، وبصير النهار آخرها على مائتين وعشر درجات والليل على مائة وخمسين درجة . وذلك غاية ارتفاعها في جهة الشمال . وهذا أطول يوم في السنة وأقصر ليلة في السنة . ويسمى سير الشمس في هذه البروج الثلاثة شمالياً صاعداً لصعودها في جهة الشمال .

ثم تنقل الشمس الى السرطان وتكثر راجعة الى جهة الجنوب ، ويسمى ذلك المُتقلَّب الصيفى ، وذلك في العشرين من بؤنة من شهور القبط ، ويبقى من حزيران

من شهور السَّريان ويونيه من شهور الروم خمسة أيام، وحينئذ يأخذ الليل في الزيادة والنهار في النقصان، فينقص النهار فيه في كل يوم سدس درجة، ويزيد الليل كذلك، فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً خمس درجات، وزيادة الليل كذلك، ويصير النهار بآخره على مائتين وخمس درجات، والليل على مائة وخمس وخمسين درجة .

ثم تنقل الى الأسد فينقص النهار فيه كل يوم ثلث درجة، فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً عشر درجات، وزيادة الليل كذلك، ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وتسعين درجة، والليل على مائة وخمس وستين درجة .

ثم تنقل الى السنبلة فينقص النهار فيها كل يوم نصف درجة، ويزيد الليل كذلك، فيكون نقص النهار فيها لمدة ثلاثين يوماً خمس عشرة درجة، وزيادة الليل كذلك، ويصير النهار بآخرها على مائة وثمانين درجة والليل كذلك، فيستوى الليل والنهار . ويسمى الاعتدال الخريفي : لوقوعه في أول الخريف . ويسمى سير الشمس في هذه البروج الثلاثة شمالياً هابطاً لهبوطها في الجهة الشمالية .

ثم تنقل الى الميزان في الثامن عشر من توت من شهور القبط، وهي آخذة في الهبوط، والنهار في النقص والليل في الزيادة، فينقص النهار فيه كل يوم نصف درجة، ويزيد الليل كذلك، فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً خمس عشرة درجة، وزيادة الليل كذلك، ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وستين درجة والليل على مائة وخمس وتسعين درجة .

ثم تنقل الى العقرب، فينقص النهار في كل يوم ثلث درجة، ويزيد الليل كذلك، فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً عشر درجات، وزيادة الليل

كذلك ؛ وبصير النهار بآخره على مائة ونحس وخمسين درجة ، والليل على مائتين ونحس درجات .

ثم تنقل الى القوس ، فينقص النهار فيه كل يوم سدس درجة ، ويزيد الليل كذلك ؛ فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً نحس درجات ؛ وزيادة الليل كذلك ، وبصير النهار بآخره على مائة وخمسين درجة ، والليل على مائتين وعشر درجات ، وهو أقصر يوم في السنة وأطول ليلة في السنة ؛ وذلك غاية هبوطها في الجهة الجنوبية . ويسمى سير الشمس في هذه البروج جنوبياً هابطاً ، لهُبوطها في الجهة الجنوبية .

ثم تنقل الى الجدى في السابع عشر من كيهك وتكرُّ راجعة ، فتأخذ في الارتفاع وتأخذ النهار في الزيادة والليل في النقصان ، فيزيد النهار فيه كل يوم سدس درجة ؛ وينقص الليل كذلك ؛ فتكون زيادة النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً نحس درجات ونقص الليل كذلك ، وبصير النهار بآخره على مائة ونحس وخمسين درجة ، والليل على مائتين ونحس درجات .

ثم تنقل الى الدلو ، فيزيد النهار فيه كل يوم ثلث درجة ؛ وينقص الليل كذلك ؛ فتكون زيادة النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً عشر درجات ونقص الليل كذلك ، وبصير النهار بآخره على مائة ونحس وستين درجة والليل على مائة ونحس وتسعين درجة . ثم تنقل الى الحوت فيزيد النهار فيه كل يوم نصف درجة وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً نحس عشرة درجة ونقص الليل كذلك ، وبصير النهار بآخره على مائة وثمانين درجة والليل كذلك ، فيستوى الليل والنهار وهو رأس الحمل وقد تقدم . ويسمى سير الشمس في هذه البروج الثلاثة جنوبياً

صاعدا لصعودها في الجهة الجنوبية، وهذا شأنها الى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

وهذا العمل إنما هو في مصر وأعمالها، فإذا اختلفت العروض كان الأمر في الزيادة والنقصان بخلاف ذلك والله أعلم .

تنبيه - إذا أردت أن تعرف الشمس في أي برج من البروج وكم قطعت منه في أي وقت شئت فأقرب الطرق في ذلك أن تعرف الشهر الذي أنت فيه من شهور القبط وتعرف أمسه ^(١) .

الجملة الرابعة

في بيان ما يعرف به ابتداء الليل والنهار

وقد تقدم أن النهار الطبيعي أنزه طلوع الشمس وآخره غروبها، والمهار الشرعي أنزه طلوع الفجر الثاني وآخره غروب الشمس، فيخالفه في الابتداء ويوافقه في الانتهاء، وطلوع الشمس وغروبها ظاهر يعرفه الخاص والعام أما الفجر فإن أسر، حتى لا يعرفه كل أحد، وقد تقدم أنقسامه الى كاذب : وهو الأول، وصادق وهو الثاني، وعليه التعويل في الشرعيات، فيحتاج الى توضيح يوضحه ويظهره للعيان، وقد جعل المنجمون وعلماء الميقات له نجوما تدل عليه بالطلوع والغروب والتوسط، وهي منازل القمر، وعدتها ثمان وعشرون منزلة وهي الشرطان، والبطين، والثريا، والدبران، والمقعدة، والمهنعة، والذراع، والنثرة، والطرف، والجهة، والحرتان، والصرفة، والعواء، والسماك، والغفر، والزبانان، والإكيل، والقلب، والشولة، والنعام، والبلدة، وسعد الذابح، وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد الأخبية، والفرع المقدم، والفرع المؤخر، وبطن الحوت،

(١) بيان في الأصل .

والمعنى في ذلك أن الشمس إذا قُرِبَتْ من كوكب من الكواكب الثابتة أو المتحركة سترته وأخفته عن العيون، فصار يظهر^(١) نهاراً ويختفي ليلاً ويكون خفاؤه غيبَةً له، ولا يزال كذلك خافياً إلى أن تبعد عنه الشمس بعداً يمكن أن يظهر معه للابصار وهو عند أول طلوع، الفجر فإن ضوء الشمس يكون ضعيفاً حينئذ فلا يغلب نور الكوكب فيرى الكوكب في الأفق الشرقي ظاهراً، وحصّة كل منزلة من هذه المنازل من السنة ثلاثة عشر يوماً وربع سبع يوم ونصف ثمن سبع يوم على التقريب كما سيأتى^(٢) على المنازل الثمانية والعشرين خص كل منزلة ما ذكر من العدد والكسور، ولما كان الأمر كذلك جعل لكل منزلة ثلاثة عشر يوماً، وهي ثلاث عشرة درجة من درج الفلك وجمع ما فضل من الكسور على كل ثلاثة عشر يوماً بعد اقتضاء أيام المنازل الثمانية والعشرين، فكان يوماً وربعاً بفعل يوماً في المنزلة التي توافق آخر السنة وهي الجبهة فكان حصتها أربعة عشر يوماً، وبقى ربع يوم ونسباً أربع سنين حتى صار يوماً فزيد على الجبهة أيضاً، فكانت كوكب المنازل المذكورة تطلع مع الفجر منها أربعة عشر يوماً ثلاث سنين وفي السنة الرابعة تطلع بالفجر خمسة عشر يوماً، فأما الشُّرطان وهما المنزلة الأولى، فأول طلوعهما بالفجر في الثالث والعشرين من برمودة من شهور القبط، وهو الثامن عشر من نيسان من شهور السريان .

وأما البطين وهو المنزلة الثانية فأول طلوعه بالفجر في السادس من نيسان من شهور القبط، وهو أول يوم من أيار من شهور السريان .

وأما الثُّرَيَّا وهي المنزلة الثالثة فأول طلوعها بالفجر في التاسع عشر من نيسان من شهور القبط، وهو الرابع عشر من أيار من شهور السريان .

(١) لعله يختفي نهاراً ويظهر ليلاً . ومع ذلك بقية العبارة غير واضحة

(٢) كما في الأصل وامله فان أيام السنة اذا قسمت على الخ .

وأما الدبران وهو المنزلة الرابعة فطلوعها بالفجر في الثاني من بؤنه من تمهور القبط ، وهو السادس والعشرون من أيار من شهر السريان .

وأما المنقعة وهي المنزلة الخامسة ، فأول طلوعها بالفجر في الخامس عشر من بؤته من شهر القبط ، وهو التاسع من حزيران من شهر السريان .

وأما المنعة وهي المنزلة السادسة ، فأول طلوعها بالفجر في الثامن والعشرين من بؤنه من شهر القبط ، وهو الثاني والعشرون من حزيران من شهر السريان .

وأما الذراع وهو المنزلة السابعة ، فأول طلوعه بالفجر في الحادي عشر من أبيب من شهر القبط ، وهو الخامس من تموز من شهر السريان .

وأما النثرة وهي المنزلة الثامنة ، فأول طلوعها بالفجر في الرابع والعشرين من أبيب من شهر القبط ، وهو الثامن عشر من تموز من شهر السريان .

وأما الطرف وهو المنزلة التاسعة ، فأول طلوعه بالفجر في السابع من مسرى من شهر القبط : وهو اليوم الآخر من تموز من شهر السريان .

وأما الجبهة وهي المنزلة العاشرة ، فأول طلوعها بالفجر في العشرين من مسرى من شهر القبط ، وهو الثالث عشر من آب من شهر السريان .

وأما الخرتان وهو المنزلة الحادية عشرة ، فأول طلوعه بالفجر في الرابع من أيام النسيء القبطي ، وفي السنة الكبيسة في الخامس منه ، وهو السابع والعشرون من آب من شهر السريان .

وأما الصرفة وهي المنزلة الثانية عشرة ، فأول طلوعها بالفجر في الثاني عشر من توت من شهر القبط ، وهو التاسع من أيلول من شهر السريان .

وأما العواء، وهي المنزلة الثالثة عشرة، فأول طلوعها بالفجر في الخامس والعشرين

من توت من شهور القبط، وفي الثاني والعشرين من أيلول من شهور السريان .

وأما السماك وهي المنزلة الرابعة عشرة فأول طلوعها بالفجر في الثامن من بابه

من شهور القبط، وهو الخامس من تشرين الأول من شهور السريان .

وأما الغفر وهي المنزلة الخامسة عشرة فأول طلوعها بالفجر في الحادي والعشرين

من بابه من شهور القبط، وهو الثامن عشر من تشرين الأول من شهور السريان .

وأما الزبانان وهما المنزلة السادسة عشرة فأول طلوعهما بالفجر في الرابع من

هاتور من شهور القبط، وهو آخر يوم من تشرين الأول من شهور السريان .

وأما الإكليل وهو المنزلة السابعة عشرة، فأول طلوعه بالفجر في السابع عشر

من هاتور من شهور القبط، وهو الثالث عشر من تشرين الثاني من شهور السريان .

وأما القلب وهو المنزلة الثامنة عشرة فأول طلوعه بالفجر في آخر يوم من هاتور

من شهور القبط وهو السادس والعشرون من تشرين الثاني من شهور السريان .

وأما الشولة وهي المنزلة التاسعة عشرة، فأول طلوعها بالفجر في الثالث عشر

من كيهك من شهور القبط، وهو التاسع من كانون الأول من شهور السريان .

وأما النعائم وهي المنزلة العشرون، فأول طلوعها بالفجر في السادس والعشرين

من كيهك من شهور القبط، وهو الثاني والعشرون من كانون الأول من شهور

السريان .

وأما البلدة وهي المنزلة الحادية والعشرون، فأول طلوعها بالفجر في التاسع من

طوبه من شهور القبط، وهو الرابع من كانون الثاني من شهور السريان .

وأما سَعْدُ الذابِحُ وهو المنزلة الثانية والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر في الثاني والعشرين من طوبه من شهور القبط ، وهو السابع عشر من كانون الثاني من شهور السريان .

وأما سَعْدُ بَلْعُ وهو المنزلة الثالثة والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر في الخامس من أمشير من شهور القبط ، وهو الثلاثون من كانون الآخر من شهور السريان .

وأما سَعْدُ السُّعُود وهو المنزلة الرابعة والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر في الثامن عشر من أمشير من شهور القبط ، وهو الثاني عشر من شباط من شهور السريان .

وأما سَعْدُ الأَخِيَّة وهو المنزلة الخامسة والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر أول يوم من برمهاث من شهور القبط ، وهو الخامس والعشرون من شباط من شهور السريان .

وأما الفَرَّغُ المُقَدِّم وهو المنزلة السادسة والعشرون فأول طلوعها بالفجر في الرابع عشر من برمهاث من شهور القبط ، وهو السابع من آذار من شهور السريان .

وأما الفَرَّغُ المؤخَّر وهو المنزلة السابعة والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر في السابع والعشرين من برمهاث من شهور القبط ، وهو الثاني والعشرون من آذار من شهور السريان .

وأما بَطْنُ الحوت وهو المنزلة الثامنة والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر في العاشر من برموده من شهور القبط ، وهو الخامس من نيسان من شهور السريان .

وقد نظم الشيخ كمال الدين حفيدُ الشيخ أبي عبد الله محمد القرطبي أبياتا ، يعلم منها مَطَالع هذه المنازل بالفجر بحروف رمزها للشهور والأعداد والكواكب ، وربما

تَلَفَط بعض الناس فنسبها الى الشيخ عبد العزيز الديريني رحمه الله ، وهي هذه

تدبص نكاح بحس نكاح هذز * هبزا هلق كيجش ككون بز

ططب طكبذ أهب أيحس باخ * بیدم بکزم بیت بکجش رمز^(١)
 ولبس فيها من الحشوات قط سوى * أوأخر النظم فافهم شرحها لتعز
 وبيان ذلك أن الحرف الأول من كل كلمة أسم للشهر الذي تطلع فيه تلك المنزلة
 والحرف الآخر منها أسم المنزلة، وما بين الآخر والأول عدد ما مضى من الشهر بحساب
 الجمل، مثال ذلك التاء من تبيص كناية عن توت، والصاد منها كناية عن الصرفة،
 والياء والباء اللذان، بينهما عددهما بالجمل اثنا عشر، إذ الياء بعشرة والباء باثنين فكانه
 قال في الثاني عشر من توت تطلع منزلة الصرفة بالفجر، وكذلك البواقي، إلا أنه
 لا عبرة بأواخر البيتين وهي برز في البيت الأول ورمز في البيت الثاني.

ونظم الإمام محب الدين جار الله الطبري أبياناً كذلك على شهور السريان
 وهي هذه :

تهس تحيغ تلز تجي * توكق كطش كبكن نزول
 كدب كويذ كلب شيس * شهكح أزم أبكم أول
 نهب نهيش آآب * أوكد حطت حبكه صجول

والحال في هذه الكلمات من أوائل الأبيات وأواخرها وأواسطها كالحال في الأبيات
 المقدمة، فالتاء من تهس إشارة لتشرين الأول، والسين إشارة للسمك، والهاء بينهما
 بخمسة ففي الخامس من تشرين الأول يطلع السمك، وعلى هذا الترتيب في البواقي.
 وأعلم أن هذه المنازل لا تزال أربع عشرة منزلة منها ظاهرة فوق الأرض في نصف
 الفلك، وأربع عشر منزلة منها خافية تحت الأرض في نصف الفلك، وهي مراقبة
 بعضها لبعض لأستواء مقادير أبعادها، فإذا طلعت واحدة في الأفق الشرقى غربت
 واحدة في الأفق الغربى، وكانت أخرى متوسطة في وسط الفلك فهي كذلك أبداً.

(١) بعاءه بيت ناقص غير موجود بالأصل وبه نكل الشهور والمنازل.

والتقاعدة في معرفة ذلك أنك تبتدىء بأية منزلة شئت، وتعد منها ثمانية من الطالع
فالثامنة هي المتوسطة والخامسة عشرة هي الغاربة؛ فإذا كان الطالع الشرطين فالمتوسط
النثرة والغارب الغفر؛ وكذلك في جميع المنازل؛ وفي مراقبة الطالع منها للغارب يقول
بعض الشعراء مقيدا لها على الترتيب بادئا بطلوع النطح وهو الشيطان وغروب
الغفر حينئذ :

كَمْ أَمْالُوا مِنْ نَاطِحٍ بَاغْتِفَارٍ * وَأَحَالُوا عَلَى الْبُطَيْنِ الزُّبَانِ
وَالثَّرِيًّا تَكَلَّتْ فَرَأَيْنَا الـ * قَلْبَ مِنْهَا يُشَعِّرُ الدَّبْرَانَ
هَقَعُوا شَوْلَةً وَهَنَعُوا نَعَامًا * بَعْدَ مَا ذَرَعُوا الْبِلَادَ زَمَانًا
نَثَرُوا ذَبْحَهُمْ بِطَرْفِ بُلَيْعٍ * جِبْهَةَ السَّعْدِ فِي نَحْرَاتِ خَبَانَا
فَانصَرَفْنَا وَفِي الْمَقْدَمِ عَوَا * آخِرًا وَالسَّمَاءَ مَدَّ رِشَانَا
وقال آخر :

النَّطْحُ يَغْفِرُ وَالْبُطَيْنُ مُزَايِنٌ * ثُمَّ الثَّرِيًّا تَبْتَغِي إِكْلِيلًا
وَالْقَلْبَ لِلدَّبْرَانِ خِلٌّ عَاذِرٌ * مِنْ أَجْلِ هَقْعَةِ شَوْلَةٍ مَاقِيلًا
تَهْوِي الْهَنْيَعَةُ لِلنَّعَائِمِ مِثْلَ مَا * يَنْوِي الذَّرَاعَ لِبَلْدَةِ تَرْجِيلًا
وَالنَّثْرُ يَذْبَحُ عِنْدَ طَرْفِ بُلُوْعِهِ * وَجِبْهَةَ سَعْدٍ غَدَا مَنقُولًا
وَلزُبْرَةٌ وَسَطَ الْخِبَاءِ إِقَامَةٌ * فَاصْرِفْ مَقْدَمَ ذِكْرَهَا تَعْجِيلًا
يَهْوِي الْمُؤَخَّرَانَ سَمَّاكَ مَرَّةً * مَدَّ الرِّشَاءَ لِجَيْدِهِ تَنْجِيلًا

وقد نظم صاحبنا الشيخ إبراهيم الدهشوري الشهير بالسهر وردى أرجوزة، ذكر
فيها الطالع، ثم الغارب في بيت وبعده المتوسط، ثم الوتد وهو الذي يقابله تحت
الأرض في بيت ثان - قال :

إن طلع الشرطان^(١)

بُطِينُهَا نُورَ الزُّبَانِ خَلَعُ * فَنَاعِسُ الطَّرْفِ رَمَى سَعْدَ بُلْعِ
 تُرِيًّا مَعَ الْإِكْلِيلِ بِالْوُقُودِ * تُبَوِّرُ الْجِهَةَ فِي السُّعُودِ
 وَالذَّبْرَانُ الْقَلْبَ مِنْهُ يَخْفِقُ * فَالْحَرَتَانُ لِلْحِبَاءِ يَطْرُقُ
 وَهَقْعَةُ شَوْلَتِهَا مُنْهَزِمَةٌ * وَصَرْفَةُ بَفَرِغِهَا مَقْدَمَةٌ
 وَهَنْعَةٌ مِنْهَا النَّعَائِمُ نَفَرَتْ * بَعْوَةٌ بِالْفَرُغِ قَدْ تَأَخَّرَتْ
 رَمَى الذَّرَاعُ بَلْدَةً أَصَابَهَا * سَمَّاكَ بَطْنِ الْحَوْتِ مَا أَصَابَهَا
 فَهَذِهِ جَمَلُهَا مَكْمَلَةٌ * لِلشَّمْسِ فِي ثَلَاثِ عَشْرٍ مَنَزِلَةٍ

الجملة الخامسة

في ساعات الليل والنهار

قال أصحاب الهيئة : لما كان الفلك متحركاً حركاتٍ متعددةً يتلو بعضها بعضاً
 جعل مقدار كل حركة منها يوماً ، ولما كانت الشمس في حركة من هذه الحركات تارةً
 تكون ظاهرة لأهل الربع المعمور ، وتارة مستترة عنهم بحدبة الأرض ، انقسم لذلك
 مقدار تلك الحركة الى الليل والنهار ، فالنهار عبارة عن الوقت الذي تظهر فيه الشمس
 على ساكن ذلك الموضع من المعمور ، والليل عبارة عن الوقت الذي تخفى عنهم فيه ،
 فإنه يوجد وقت الصبح في موضع وقت طلوع الشمس في موضع آخر ، وفي موضع
 آخر وقت الظهر ، وفي موضع آخر وقت المغرب ، وفي موضع آخر وقت نصف الليل .
 ولما كانت منطقة البروج مقسومةً الى اثني عشر برجاً ، وكل برج الى ثلاثين
 درجة ، وكانت الشمس تنقطع هذه المنطقة بحركة فلك الكل طاً في زمان اليوم

(١) بياض بالأصل .

الجامع لليل والنهار، قُسم كل واحد منهما الى اثني عشر جزءاً، وجعل قسماً كل جزء منها خمس عشرة درجةً وسمي ساعة . ثم لما كان الليل والنهار يزيد أحدهما على الآخر ويتساويان في الاعتدالين على ما مرّ، اضطرّ الى أن تكون الساعات نوعين مستوية وتسمى المعتدلة، وزمانيّة وتسمى المعوجة . فالمستوية تختلف أعدادها في الليل والنهار، وتتفق مقاديرها بحسب طول النهار وقصره . فإنه إن طال كانت ساعاته أكثر، وإن قصر كانت ساعاته أقل، مقدار كل ساعة منه خمس عشرة درجة لا تزيد ولا تنقص، والمعوجة لتتفق أعدادها وتختلف مقاديرها، فإن زمان النهار طال أو قصر ينقسم أبداً الى اثنتي عشرة ساعة مقدار كل واحدة منها نصف سُدس الليل والنهار، وهي في النهار الطويل أطول منها في القصير . والذي كانت العرب تعرفه من ذلك الزمانيّة دون المستوية، فكانوا يقسمون كلا من الليل والنهار الى اثنتي عشرة ساعة، ووضعوا لكل ساعة من ساعات الليل والنهار أسماءً تخصّها .

فأما ساعات الليل فسمّوا الأولى منها الشاهد، والثانية الغسق، والثالثة العتمة، والرابعة الفحمة، والخامسة الموهين، والسادسة القطع، والسابعة الجوشن، والثامنة المتكة، والتاسعة التباشير^(١)، والحادية عشرة الفجر الأول، والثانية عشرة الفجر المعترض .

وأما النهار فسمّوا الساعة الأولى منه الذرور، والثانية البروغ، والثالثة الضحى، والرابعة الغزالة، والخامسة المهاجرة، والسادسة الزوال، والسابعة الدلوك، والثامنة العصر، والتاسعة الأصيل، والعاشره الصبوب، والحادية عشرة الحدود^(٢)، والثانية عشرة الغروب .

(١) العاشرة غير موجودة في الأصل . وعدّ في نهاية الأرب بعد التباشير الفجر الأول ثم الفجر الثاني ثم

المعترض وبه تعلم . هنا (٢) لعل صوابه الحدود .

وتروى عنهم على وجه آخر، فيقال فيها : البُكُور، ثم الشروق، ثم الإِشراق، ثم الرُّاد، ثم الضُّحى، ثم المُتَوَع، ثم المَهِجَّة، ثم الأَصِيل، ثم العَصْر، ثم الظَّنْسَل (بتحرك الفاء)، ثم العِشَى، ثم الغُروب، ذكرهما ابن النحاس في "صناعة الكتاب". قال في "مناهج الفكر": ويقال إن أول من قسم النهار إلى اثنتي عشرة ساعة آدم عليه السلام، وضمن ذلك وصية لابنه شيث عليه السلام، وعرفه ما وظف عليه كل ساعة من عمل وعبادة والله أعلم.

الجملة السادسة

في أيام الأسبوع، وفيها أربعة مدارك

المُدْرَكُ الأوَّل

في ابتداء خلقها وأصل وجودها

وقد نطق القرآن الكريم بذكر ستة أيام منها على الإجمال والتفصيل.

أما الإجمال فقال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

وأما التفصيل فقوله تعالى : ﴿قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ

وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ

فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ مَتَا

وَلِلْأَرْضِ أَنْتِبَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ

والمراد بالأربعة الأولى بما فيها من اليومين المتقدمين. ومثله في كلام العرب كثير،

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم "إذا نام أحدكم جاء الشيطان فعقد تحت رأسه ثلاث

عقد، فإذا استيقظ فذكر الله تعالى انحلت عقدة، فإذا توضأ انحلت عقدتان، فإذا

صلى انحلت الثالثة" فالمراد بقوله عقدتان عقدة والعقدة الأولى. وقد ظهر بذلك أن

المراد من الآية ستة أيام فقط ، وهو ما ورد به صريحُ الآيات في غير هذه الآية أن خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، وقد ورد ذلك مبينا فيما رواه ابن جرير من رواية ابن عباس رضى الله عنهما : أن اليهود أتت النبي صلى الله عليه وسلم ، تسأله عن خلق السموات والأرض ، فقال : ”خلق الله الأرض يوم الأحد ويوم الاثنين ، وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيها من منافع ، وخلق يوم الأربعاء المدائن والشجر والعمران والحراب ، بهذه أربعة أيام ، وخلق يوم الخميس السماء ، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقيت منه ، وفي الثانية ألقى الآفة على كل شيء مما ينتفع به الناس ، وفي الثالثة خلق آدم وأسكنه الجنة وأمر إبليس بالسجود له ، وأخرجه منها في آخر ساعة“ قالت اليهود : ثم ماذا ؟ قال : ”ثم استوى على العرش“ قالوا : أصبت لو أتممت ، قالوا : ثم استراح فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم غضبا شديدا فنزل ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ قال الشيخ عماد الدين بن كثير في تفسيره : وفيه غرابة ، ولا ذكر في هذا الحديث ليوم السبت في أول الخلق ولا في آخره ، نعم ثبت في صحيح مسلم من رواية أبي هريرة رضى الله عنه ، أنه قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بيدي فقال : ”خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروود يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل“ قال ابن كثير : وهو من غرائب الصحيح ، وعاله البخاري في تاريخه فقال : رواه بعضهم عن أبي هريرة عن كعب الأحبار وهو أصح ، فقد ورد التصريح في هذا الحديث بذكر الأيام السبعة ووقوع الخلق فيها . قال أبو جعفر النحاس : زعم محمد بن إسحاق أن هذا

الحديث أولى من الحديث الذى قبله ، واستدل بأن الفراغ كان يوم الجمعة ، وخالفه غيره من العلماء الحذاق النظار . وقالوا : دليله دليل على خطئه ، لأن الخلق فى ستة أيام يوم الجمعة منها كما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم برواية الجماعة ، فلم يدخل فى الأيام لكان الخلق فى سبعة وهو خلاف ما جاء به التنزيل ؛ على أن أكثر أهل العلم على حديث ابن عباس ، فتبين أن الابتداء يوم الأحد إذ كان الآخر يوم الجمعة . وذلك ستة أيام كما فى التنزيل . قال أبو جعفر : على أن الحديثين ليسا بمتناقضين ، لأننا إن عملنا على الابتداء بالأحد فالخلق فى ستة أيام وليس فى التنزيل أنه لا يخلق بعدها شيئاً ، وإن عملنا على الابتداء بالسبت فليس فى التنزيل أنه لم يخلق قبلها شيئاً .

إذا علمت ذلك فقد حكى أبو جعفر النحاس أن مقدار كل يوم من أيام خالق السموات والأرض ألف سنة من أيام الدنيا ، وأنه كان بين آبدائه عز وجل فى خلق ذلك وخلق القلم الذى أمره بكتابة كل ما هو كائن إلى قيام الساعة يوم وهو ألف عام ، فصار من ابتداء الخلق إلى انتهائه سبعة آلاف عام ، وعليه يدل قول ابن عباس : إن مدة إقامة الخلق إلى قيام الساعة سبعة أيام كما كان الخلق فى سبعة أيام .

قال أبو جعفر : وهذا باب مداره على النقل دون الآراء .

المذكر الثانى

فى أسمائها ، وقد اختلف فى ذلك على ثلاث روايات

الرواية الأولى — ما نطقت به العرب المستعربة من ولد إسماعيل عليه السلام وجرى عليه الاستعمال إلى الآن : وهو الأحد والاثنان والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت .

والأصل في ذلك ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: "إن الله عز وجل خلق يوماً واحداً فسماه الأحد، ثم خلق ثانياً فسماه الاثنين، ثم خلق ثالثاً فسماه الثلاثاء، ثم خلق رابعاً فسماه الأربعاء، ثم خلق خامساً فسماه الخميس" ولا ذكر في هذه الرواية للجمعة والسبت. وقد ذكرهما الله تعالى في كتابه العزيز. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ وقال جل وعز ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيَتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾. وسياطيان في غير هذه الرواية عند ذكر الاختلاف فيما ابتدئ به الخلق منها.

والأحد بمعنى واحد ويقال بمعنى أول ورجحه النحاس، وهو المطابق لتسمية الذي بالاثنتين. والثالث بالثلاثاء. وقيل أصله وحده بفتح الواو والحاء كما أن أناة أصلها وناة، ويجمع في القسمة على آحادٍ وأحداثٍ، وفي الكثرة على أحوادٍ وأوحادٍ ويعكس في جمعه أحد أيضاً قال النحاس: كأنه جمع الجمع.

والاثنتان بمعنى الثاني. قال النحاس: وسببه الأيتني، وأن يقال فيه: مضت أيام الاثنين إلا أن تقول ذوات، قال: وقد حكى البصريون الأثن والجمع الثني. وقال ابن فتيبة في أدب الكاتب: إن شئت أن تجعه فكأنه مبنى للواحد قلت الاثنين. وعكس النحاس مثله عن كتاب الفراء في الأيام وقال: إنما يوزع على حيلة بديهة وقد أن قال: اليوم الاثنان فتضم النون فتصير مائل عمران فتثنيه وتجمعه على هذا. وعكس عن الفراء أيضاً في جمع الكثرة أثنان فتقول مضت أثنان مثل أسماء وأسنان قال: وقرأت على أبي إسحاق في كتاب سيبويه فيما حكاه أبو يوم الثني فتقول على هذا في الجمع الأثناء.

(١) لعله إحد بدليل عبارة النحاس.

والثلاثاء بمعنى الثالث ، ويجمع على ثلاثاوات ، وحكى الفراء أثالث . قال النحاس :
ويجوز أثالث ، وكذا ثلاثٌ مثل جمع ثلاثة لأن ألفى التانيث كالهاء . وتقول فيه :
مضت الثلاثاءُ على تانيث اللفظ ومضى على تذكير اليوم ، وكذا في الجمع تقول
مضت ثلاثٌ ثلاثاوات ، وثلاثةٌ ثلاثاوات .

والأربعاء بمعنى الرابع ، ويجمع على أربعاوات وكذا أربعاء والياء فيه عوض
ما حذف ، فإن لم تعوض قلت أربع . وأجاز الفراء أربعاءات مثل ثلاثاوات ومنعه
البصريون للفرق بين ألف التانيث وغيرها .

والخميس بمعنى الخامس ، ويجمع في القلة على أخمسة . وفي الكثرة على خمس
وخمسان كُرُغف ورُغفان ، ويقال أخمساء كأنصباء ، وحكى عن الفراء في الكثرة أخامس .

والجمعة (بضم الميم وإسكانها) ومعناها الجمع . واختلف في سبب تسميته بذلك
فقال النحاس : لاجتماع الخلق فيه ، وهذا ظاهر في أن الاسم كان بها قديماً ، وقيل
لاجتماع الناس للصلاة فيه . ثم اختلف فقيل سميت بذلك في الجاهلية واحتج له
بما حكاه أبو هلال العسكري في كتابه الأوائل : أن أول من سمي الجمعة جمعة كعب
ابن لؤي جد النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنه جمع قريشاً وخطبهم فسميت جمعة
وكانوا لا يعرفون قبل ذلك إلا العروبة . وقيل إنما سميت بذلك في الإسلام وذلك
أن الأنصار قالوا : إن اليهود يوماً يجتمعون فيه بعد كل ستة أيام ، وللنصارى
كذلك فهأتموا نجعل لنا يوماً نجتمع فيه نذكر الله تعالى ونصلي ، فقالوا يوم السبت
للإهود ويوم الأحد للنصارى فاجعلوا يوم العروبة لنا ، فاجتمعوا إلى سعيد بن زُرارة
الأنصارى فصلّى بهم يومئذ ركعتين وذكّرهم فسموه يوم الجمعة لاجتماعهم فيه فأزل
الله تعالى سورة الجمعة . على أن السهيلي قد قال في الروض الأنف : إن يوم الجمعة
كان يسمى بهذا الاسم قبل أني يصلّي الأنصار الجمعة .

أما أول جمعة جمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما حكاه صاحب الأوائل فإنه لما قدم المدينة مهاجرا نزل على بنى عمرو بن عوف وأقام عندهم أياما ثم خرج يوم الجمعة عائدا الى المدينة فأدركته الصلاة في بيتي سالم بن عوف في بطن واد لهم فخطب وصلى بهم الجمعة . وتجمع على جمع وجمعات بالفتح والتسكين .^(١)

والسبت ومعناه القطع بمعنى أنه قُطِع فيه الخلق على رأى من يرى أن السبت آخر أيام الجمعة ، وأنه لا خلق فيه على ما سياتى ذكره . وقول النحاس إنه مشتق من الراحة أيضا لا عبرة به لمضاهاة قول اليهود فيه على ما سياتى إن شاء الله تعالى . ويجمع في القلة على أسبت وسبتات بالتحريك ، وفي الكثرة على سبوت بضم السين مثل قرح وقرح .

الرواية الثانية - ما يروى عن العرب العاربة من بنى قحطان وجرهم الأولى : وهو أنهم كانوا يُسمون الأحد أول لأنه أول أعداد الأيام ويسمون الاثنين أهون أخذا من الهون والهويني ، وأوهد أيضا أخذا من الوهدة وهي المكان المنخفض من الأرض لانخفاضه عن اليوم الأول في العدد . ويسمون الثلاثاء جبارا (بضم الجيم) لأنه جبر به العدد . ويسمون الأربعاء دبارا (بضم الدال المهملة) لأنه دبر ماجبر به العدد بمعنى أنه جاء دبره . ويسمون الخميس مؤنسا لأنه يؤنس به ليركته . قال النحاس : ولم يزل ذلك أيضا في الإسلام ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتبرك به ولا يسافر إلا فيه وقال : "اللهم بارك لأمتي في بكورها يوم خميسها" . ويسمون الجمعة العروبة (بفتح العين مع الألف واللام) وفي لغة شاذة عروبة بغير ألف ولام مع عدم الصرف ، ومعناه اليوم البين أخذا من قولهم : أعرب إذا بان ، والمراد أنه بين العظمة والشرف ، إذ لم يزل معظما عند أهل كل ملة وجاء الإسلام فزاده

(١) وجمعات أيضا بضمين . قال في المنصاح كغرفات في وجوهها .

تعظيماً؛ وقد ثبت في صحيح مسلم من رواية أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا". ويسمونه أيضاً حَرْبَةً بمعنى أنه مرتفع عالٍ كالْحَرْبَةِ التي هي كالرَّمْحِ، كما يقال مِحْرَابٌ لارتفاعه وعلو مكانته، ويسمونه السبتِ شِبَارًا (بفتح الشين المعجمة وكسرها مع الباء المثناة تحت) أخذاً من شُرْتِ الشَّيْءِ إذا أُسْتَخْرِجَتْ وأظهرته من مكانه إما بمعنى أنه استخرج من الأيام التي وقع فيها الخلق على مذهب من يرى أنه آخر أيام الأسبوع وأن ابتداء الخلق الأحد وانتهاؤه الجمعة، وإما بمعنى أنه ظهر أول أيام الجمعة على مذهب من يرى أنه أول الجمعة وكان ابتداء الخلق فيه، وإلى هذه الأسماء يشير النابغة بقوله:

أَوَّلُ أَنْ أَعِيشَ وَأَنْ يَوْمِي * لِأَوَّلِ أَوْ لِأَهْوَنِ أَوْ جُبَارِ
أَوْ التَّالِي دُبَارِ فَاثِ أَفْتِهِ * فَمُؤَيِّسِ أَوْ عَرُوبَةٍ أَوْ شِبَارِ

الرواية الثالثة — ما حكاه النحاس عن الضعَّانك: أن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام، ليس منها يوم إلا له اسمٌ أيجد هَوَزٌ حُطَّى كلن سَعَفَصِ قرشت. وقد حكى السهيلي رحمه الله أن الأسماء المتداولة بين الناس الآن مروية عن أهل الكتاب، وأن العرب المستعربة لما جاورتهم أخذتها عنهم، وأن الناس قبل ذلك لم يكونوا يعرفون إلا الأسماء التي وضعتها العرب العاربية وهي أيجد هَوَزٌ حُطَّى كلن سَعَفَصِ قرشت التي خلق الله تعالى فيها سائر المخلوقات: عُلُوبِيهَا وَسَفَلِيهَا. وهذا يخالف ما تقدم في الرواية الثانية عن العرب العاربية. وعلى أنها أسماءٌ للأيام التي وقع فيها الخلق يحتمل أن يكون أيجد أسماً للأحد على مذهب من يرى أن ابتداء الخلق يوم الأحد ويكون السبت لا ذكره في هذه الرواية.

(١) أسقط النابغ الاحتمال الثاني وقد ذكره في الضوء بقوله: (ويحتمل أن أيجد اسم السبب على رأى من يرى أنه ابتدئ فيه الخلق وتكون الجمعة لا ذكرها).

المُدْرَكُ الثَّالِثُ

في بيان أول أيام الأسبوع، وما كان فيه ابتداء الخلق منها .

وقد اختلف الناس في ذلك على ثلاثة مذاهب

المذهب الأول — أن أول أيام الأسبوع وابتداء الخلق الأحد . واحتج لذلك بما تقدم من حديث ابن عباس أن اليهود أتت النبي صلى الله عليه وسلم فسألته عن خلق السموات والأرض فقال : ”خلق الله عز وجل الأرض يوم الأحد“ الحديث وبحديثه الآخر : ”خلق الله يوماً واحداً فسماه الأحد“ وإذا كان ابتداء الخلق الأحد لزم أن يكون أول الأسبوع الأحد .

المذهب الثاني — أن أول أيام الأسبوع وابتداء الخلق السبت . واحتج له بحديث أبي هريرة المتقدم ”أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال : خلق الله التربة يوم السبت“ الحديث ، وإذا كان ابتداء الخلق السبت لزم أن يكون أول الأسبوع السبت .

المذهب الثالث — أن أول أيام الأسبوع الأحد ، لحديث ”خلق الله يوماً واحداً فسماه الأحد ثم خلق ثانياً فسماه الاثنين“ الحديث . وابتداء الخلق يوم السبت لحديث أبي هريرة المتقدم . قال النحاس : وهذا أحسنها .

المُدْرَكُ الرَّابِعُ

في التفاؤلِ بأيام الأسبوع والتطيرِ بها وما يُعزى لكلِّ منها

من خير أو شرٍّ، على ما هو متداول بين الناس

وأعلم أنه لأصل لذلك من الشريعة، ولم يرد فيه نص من كتاب ولا سنة . وقد وردت القرعة عن جعفر الصادق رضي الله عنه في توزيع الأعمال على الأيام : أنه

قال : السبت يوم مَكْرٍ وَخَدِيعةٍ ؛ ويوم الأحد يوم غَرَسٍ وَعِمارةٍ ؛ ويوم الاثنين يوم سفر وتجارة ؛ ويوم الثلاثاء يوم إراقة دَمٍ وَحربٍ وَمُكافَحةٍ ؛ ويوم الأربعاء يوم أخذٍ وَعطاءٍ ؛ ويقال : يوم نحيسٍ مستمترٌ ؛ ويوم الخميس يوم دخولٍ على الأمراء وطلب الحاجات ؛ ويوم الجمعة يوم خلوةٍ ونكاحٍ . ووجهوا هذه الدعوى بأن قريشا مَكَرَتْ في دار الندوة يوم السبت ، وأن الله آبتداً الخلق يوم الأحد ، وأن شعيباً سافر للتجارة يوم الاثنين ، وأن حواءَ حاضت يوم الثلاثاء ، وفيه قَتَلَ قابيلُ هابيلَ أخاهُ ، وأن فرعونَ غَرِقَ هو وقومه يوم الأربعاء ، وفيه أهلك اللهُ عاداً وثموداً ، وأن إبراهيمَ دخل على النمرود يوم الخميس ، وأن الأنبياءَ عليهم السلام كانت تَنكحُ وتخطب يوم الجمعة . وقد نظم بعض الشعراء هذه الاختيارات في أبياتٍ وإن كان قد خالف الواضع في مواضع فقال :

لِنِعْمِ اليَوْمِ يَوْمِ السَّبْتِ حَقًّا * لَصِيدِ إِنْ أَرَدْتَ بِلا امْتِراءِ
وَفِي الأَحَدِ البِناءِ فَإِنَّ فِيهِ * تَبَدَّى اللهُ فِي خَلْقِ السَّماءِ
وَفِي الإِثْنَيْنِ إِنْ سافَرْتَ فِيهِ * سَتَرِجِعُ بالنِجاحِ وبالغناءِ
وَإِنْ تُرِدِ الجِمامَةَ فِي الثَلَاثاءِ * فَفِي سَاعانِهِ هَرَقَ الدَّماءِ
وَإِنْ شَرِبَ أَمْرُؤُكُمْ دَواءً * فَنِعْمَ اليَوْمِ يَوْمِ الأَرِبِعاءِ
وَفِي يَوْمِ الخَميسِ قَضاءُ حَاجٍ * فَإِنَّ اللهُ يَأْذُنُ بالقَضاءِ
وَيَوْمَ الجُمُعَةِ التَّزْويجُ حَقًّا * وَلِذَواتِ الرِّجالِ مَعَ النِّساءِ

وسياتى الكلام على ما يتعلق من ذلك بأيام الشهر في الكلام على الشهور

في الفصل السابع من الكتاب إن شاء الله تعالى .

(١) ثمود بصرف ولا بصرف .

الطرف الثاني

في الشهور، وهي على قسمين : طبيعي واصطلاحية

القسم الأول

الطبيعي والمراد به التمرية

وهو مدة مسير القمر من حين ينفارق الشمس الى حين يفارقها مرة أخرى ،
وهي على ضربين :

الضرب الأول

شهور العرب

والشهر العربي عبارة عما بين رؤية الهلال الى رؤيته ثانيا ، وعدد أيامه تسعة
وعشرون يوما ونصف يوم على التقريب ، ولما كان هذا الكسر في العدد غيرا
عدوا بحملة الشهرين تسعة وخمسين يوما ، أحدهما ثلاثون وهو التام ، والآخر تسعة
وعشرون وهو الناقص . وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث أم سلمة رضي الله عنها :
” أن النبي صلى الله عليه وسلم حلف لا يدخل على بعض نسائه شهرا فلما مضى تسعة
وعشرون غدا عليهم أو راح فقيل : يا رسول الله ، حافظت لا تدخل عليهن شهرا فقال :
الشهر يكون تسعة وعشرين “ . وذلك بحسب مسير النيرين : الشمس والقمر بالمسير
الأوسط ، أما بالمسير المقوم فإنه يتفق اذا استكمل الشهر برؤية الهلال عيانا أن
يتوالى شهران وثلاثة تامة ، وتتوالى كذلك ناقصة ، وعلى ذلك عمل العرب واليهود .
ولهم في استعماله طريقتان :

الطريقة الأولى

طريقة العرب

ومدة الشهر عندهم من رؤية الهلال الى رؤية الهلال ، وهي أسهل الطرق وأقربها ، وعليها جاء الشرع ، وبها نطق التنزيل قال تعالى : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَيَّامِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ) . وفيها جملتان :

الجملة الأولى

في أحوال الأيَّام التي عليها مدار الشهور في ابتدائها وانتهائها .

واعلم أن مسير القمر مقدرٌ بمعرفة الشهور والسنين قال تعالى : (فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ) والشمس تُعْطِيهِ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مَا يَنْتَضِيءُ بِهِ نَصْفُ سُبُحِ قُرْصِهِ حَتَّى يَكْمَلَ ثُمَّ تَسَابُهُ مِنَ اللَّيْلَةِ الْخَامِسَةِ عَشْرَةَ كُلَّ لَيْلَةٍ نَصْفَ سُبُحِ قُرْصِهِ حَتَّى لَا يَبْقَى فِيهِ نُورٌ فَيَسْتَمْتِرُ . ويروى عن جعفر الصادق رضي الله عنه أنه سُئِلَ عَنِ الْقَمَرِ فَقَالَ : يُخْفَى كُلُّ لَيْلَةٍ وَيُولَدُ جَدِيدًا ، وَيَبْعَدُ مِثْلَ هَذَا عَنِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ .

إذا علمت ذلك فللقمر حركتان : سريعة وبطيئة كما تقدم في الشمس .

أما الحركة السريعة فحركة ذلك الكلِّ به من المشرق الى المغرب ، ومن المغرب الى المشرق في اليوم واللييلة .

واعلم أن الهلال إذا طلع مع غروب الشمس كان مغيبه على مضي ستة أسابيع ساعة من الليل ، ولا يزال مغيبه يتأخر عن مغيبه في كل ليلة ماضية هذا المقدار حتى يكون مغيبه في اللييلة السابعة نصف الليل ، وفي اللييلة الرابعة عشرة طلوع الشمس ،

ثم يكون طلوعه في الليلة الخامسة عشرة على مضي ستة أسابيع ساعة منها، ولا يزال طلوعه يتأخر عن طلوعه في كل ليلة ماضية بعد الإبدار هذا المقدار حتى يكون طلوعه ليلة إحدى وعشرين نصف الليل، وطلوعه ليلة ثمان وعشرين مع الزدانة.

وإذا أردت أن تعلم على مضي كم من الساعات يغيب أو يطلع من الليل، فإن أردت المغيب وكان قد مضى من الشهر خمس ليل تقديراً فأخبرها في ستة تكون ثلاثين فأسقطها سبعة سبعة يبقى اثنان فيكون مغيبه على مضي أربع ساعات وثلاثة (١) أسابيع ساعة، وكذلك العمل في أي ليلة شئت، وإن أردت الطلوع وكان قد مضى من الإبدار ست ليل مثلاً فاضرب ستة في ستة يكون ستة وثلاثين فأسقطها سبعة سبعة يبقى واحد، فيكون طلوعه على خمس ساعات وسبع، وكذلك العمل في أي ليلة شئت.

وقد قسمت العرب ليل الشهر بعد استهلاله كل ثلاثة أيام قسمًا وثميتها باسم فالثلاث الأول منها هلال، والثلاث الثانية قمر، والثلاث الثالثة بهر، والثلاث الرابعة زهر (والزهر البياض)، والثلاث الخامسة بيض، لأن الليالي تبيض بطلوع القمر فيها من أولها إلى آخرها، والثلاث السادسة دوع، لأن أوائلها تكون سودا وسائرها بيض، والثلاث السابعة ظلم، والثلاث الثامنة حنادس، والثلاث التاسعة دآدي (الواحدة منها دأداة على وزن فعلة)، والثلاث العاشرة ليلتان منها محاق وإيلة سرار لإمحاق الشمس القمر فيها.

ومنهم من يقول: ثلاث غرد (وغرة كل شيء أوله)، وثلاث شهب، وثلاث دوع، وثلاث تسع، لأن آخر يوم منها اليوم التاسع، وثلاث مهر، مهر فيها ظلم الليالي، وثلاث بيض، وثلاث دوع، وثلاث دهم وحنادس، وثلاث دآدي.

(١) لعل الصواب وسيمان كما هو واضح . (٢) لعل هذه الثلاثة قبل التي قبلها بدليل التعليل

ويروى عنهم أنهم يسمون ليلة ثمان وعشرين الدَّعْجَاء ، وليلة تسع وعشرين الدَّهْمَاء ، وليلة ثلاثين اللَّيْلَاء ، وهم يتولون في أسباجهم : القمر ابن ليلة ، رضاعُ سُخْيَلَةٌ ، حلُّ أهلها برُمَيْلَةٌ ، وابن ليلتين حديثُ أَمَّتَيْن ، كَذِبٌ وَمَيْنٌ ، وابن ثلاث ، قليل اللَّبَّائِثُ ، وابن أربع ، عَمَّةُ أُمِّ رُبَّعٍ ، لاجائع ولا مُرَضَّعٍ ، وابن خمس ، حديثُ وَأُنْسٍ ، وَعَشَاءُ خَلْفَاتِ قُعْسٍ ، وابن ست ، سِرُّوَيْتٌ ، وابن سبع ، دُبْلَجَةٌ ضَبْعٌ ، وحديثٌ وَبَجَعٌ ، وابن ثمان ، قَمْرٌ إِضْحِيَانٌ ، وابن تسع ، مَحْدُو النَّسْعِ ، ويقال الشَّسْعُ ، وابن عَشْرًا ، مُنْحَقُ الفَجْرِ ، وتُلُثُ الشَّهْرِ .

هذا هو المحفوظ عن العرب في كثير من الكتب .

قال صاحب مناهج الفكر : وعثرت في بعض المجاميع على زيادة الى آخر الشهر ، وكأنها والله أعلم مصنوعة ، وهي على السنة العرب موضوعة ، وهي : وابن إحدى عشرة ، يُرَى عِشَاءً وَيُرَى بُكْرَةً ، وابن اثنتي عشرة ، مَرْهَقُ البَشْرِ ، بِالْبَدْوِ وَالْحَضَرِ ، وابن ثلاث عشرة ، قَمْرٌ بَاهِرٌ ، يَعِشِي النَّاظِرُ ، وابن أربع عشرة مُقْبِلُ الشَّبَابِ ، مَضِيءُ دُجَانَاتِ السَّحَابِ ، وابن خمس عشرة تَمَّ التَّمَامُ ، وَنَفِدَتِ الأَيَّامُ ، وابن ست عشرة نَقَصَ الخَلْقُ ، فِي الغَرْبِ وَالشَّرْقِ ، وابن سبع عشرة ، أَمَكْنِتِ المُقْتَفِرِ القَفْرَةَ ، وابن ثمان عشرة قَلِيلُ البَقَاءِ ، سَرِيعُ الفَنَاءِ ، وابن تسع عشرة بَطِيءُ الطَّلُوعِ ، سَرِيعُ الخُشُوعِ ، وابن عشرين يَطَّاعُ سِحْرَهُ ، وَيَغِيبُ بُكْرَةً ، وابن إحدى وعشرين كَالقَبَسِ ، يَطَّاعُ فِي الغَلَسِ ، وابن اثنتين وعشرين يُطِيلُ السُّرَى ، رَيْثَمَا يُرَى ، وابن ثلاث وعشرين يُرَى فِي ظُلْمَةِ اللَّيَالِ ، لا قَمْرٌ وَلَا هِلَالٌ ، وابن خمس وعشرين دَنَا الأَجَلَ ، وَانْتَطَعَ الأَمَلُ ، وابن ست وعشرين دَنَا مَا دَنَا ، فَمَا يُرَى إِلَّا سَنَا ، وابن

(١) في بعض الروايات . الشمس . . . والحضرة .

سبع وعشرين يُسَقُّ الشمس ، ولا يرى له حس ، وابن ثمانٍ وعشرين ضئيل صغير لا يراه إلا البصير .

وأما حركته البطيئة ، فحركته من جهة الشمال الى جهة الجنوب ، ومن جهة الجنوب الى جهة الشمال ، وتنقله في المنازل الثمانية وعشرين في ثمانية وعشرين يوماً بلياليها كالشمس في البروج قال تعالى : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ آدَاءَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ فما تقطعه الشمس من الشمال الى الجنوب وبالعكس في جميع السنة يقطعه القمر في ثمانية وعشرين يوماً . والمنازل للقمر كالبروج للشمس ، وذلك أنه لما اتصل الى العرب ما حققه القدماء برصيدهم من الكواكب الثابتة ، وكان لا غنى لهم عن معرفة كواكب تُرشدُهم الى العلم بفصول السنة وأزمنتها ، رصدوا كواكب وامتحنوها ، ولم يستعملوا صور البروج على حقيقتها ، لانهم قَسَمُوا فلك الكواكب على مقدار الأيام التي يقطعه القمر فيها ، وهي ثمانية وعشرون يوماً ، وطلبوا في كل قسم منها علامة تكون أبعاد ما بينها وبين العلامة الأخرى مقدار مسير القمر في يوم وليلة ، وسموها منزلة الى أن تحقق لهم ثمانية وعشرون على ما تقدم ذكره في الكلام على طلوعها بالفجر ، لأن القمر اذا سار سيره الوسط انتهى في اليوم التاسع والعشرين الى المحاق الذي بدأ منه ، فحذفت المتكرر فبقى ثمانية وعشرون ويزاد بالشرطين ، لأن كواكبه من جملة كواكب الحمل الذي هو أول البروج .

ثم هذه المنازل على قسمين : شمالي وجنوبي كما في البروج ، وكل قسم منها أربع عشرة منزلة . فالشمالي منها ما كان طلوعه من ناحية الشام ، وتسمى الشامية وهو ما كان منها من نقطة الاعتدال ، التي هي رأس الحمل والميزان صاعدا الى جهة الشمال ؛ وهي الشَّرطان ، والبُطَيْن ، والثُرَيَّا ، والدَّبَّانُ ، والمَلَقَعَةُ ، والمُهْنَعَةُ ، والذَّرَاعُ ، والنَّزْرَةُ ، والطَّرْفُ ، والجَبْهَةُ ، والخَرَتَانُ ، والصَّرْفَةُ ، والعَوَاءُ ، والسَّمَاكُ . وبطلوعها

يطول الليل ويقصر النهار . والجنوبيّ منها ما كان طُلُوعه من ناحية اليمن وتسمى
اليمانية وهو ما كان منها من نقطة الاعتدال المذكور هابطاً الى جهة الجنوب .
وهي الغفر، والزبانان، والإكليل، والقلب، والشولة، والنعائم، والبلدة، وسعد
الذابح، وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد الأخبية، والفرغ المقدم، والفرغ المؤخر،
وبطن الحوت، وبطلوعها يقصر الليل ويطول النهار .

ثم المنزلة عند المحققين قطعة من الفلك مقدارها ربع سبع الدور، وهو جزء من
ثمانية وعشرين جزءاً من الفلك عبارة عن^(١) لا عن الكواكب وإنما
الكواكب حدود تفرق بين كل منزلة وأخرى فعدل بالتسمية اليها وغلبت عليها .

ونزول القمر في هذه المنازل على ثلاثة أحوال إما في المنزلة نفسها وإما فيما
بينها وبين التي تليها، وإما محاذياً لها خارجاً عن السمات شمالاً أو جنوباً. وقد تقدم
الكلام على عدول القمر عن بعض المنازل ونزوله في غيرها .

ولتعلم أن المنازل مقسومة على البروج الأثني عشر موزعة عليها، فالشيطان
والبطين وثلث الثريا للحمل، وثلث الثريا والدبران وثلث الهقعة للثور، وثلث الهقعة
والهنعة والذراع للجوزاء، والنثرة والطرف وثلث الجبهة للشيطان، وثلث الجبهة
والخرتان وثلث الصرفة للأسد، وثلث الصرفة والعواء والسمك للسنبلة، والغفر
والزبانان وثلث الإكليل لليزان، وثلث الإكليل والقلب وثلث الشولة للعقرب، وثلث
الشولة والنعائم والبلدة للقوس، وسعد الذابح وسعد بلع وثلث سعد السعود للجدي^(٢)،
وثلث الفرغ المقدم والفرغ المؤخر وبطن الحوت للحوت .

(١) ياص بالأصل .

(٢) يظهر أن فيه سقطاً هو [وثلث سعد السعود وسعد الأخبية وثلث الفرغ المقدم للدلو] .

إذا علمت ذلك فإذا أردت أن تعرف القمر في أي منزلة هو أو كم مضى له فيها من الأيام، نخذ ما مضى من سنة القبط شهورا كانت أو أياما أو شهورا وأياما وبسطها أياما، وأضف إلى ما حصل من ذلك يومين، ثم اطرح المجموع ثلاثة عشر ثلاثة عشر، وهو عدد لبث القمر في كل منزلة من الأيام، واجعل أول كل منزلة من العدد الخرتان، فما بقي من الأيام دون الثلاثة عشر فهو عدد ما مضى من المنزلة التي انتهى العدد إليها .

مثال ذلك أن يمضي من سنة القبط شهر توت وأربعة أيام من بابه فتبسطها أياما تكون أربعة وثلاثين يوما فتضيف إليها يومين تصير ستة وثلاثين يوما فاطرح منها ثلاثة عشر مرتين ستة وعشرين للخرتان منها ثلاثة عشر وللصرفة ثلاثة عشر تبقى عشرة، وهي ما مضى من المنزلة الثالثة وهي العواء .

وإن أردت أن تعرف في أي برج هو فاحسب كم مضى من الشهر العربي يوما وزد عليه مثله ثم زد على الجملة خمسة وأعط لكل برج خمسة وأبدأ من البرج الذي فيه الشمس فأعط لكل برج خمسة فأينما نفذ حسابك فالقمر في ذلك البرج والاعتماد في ذلك على كم مضى من الشهر العربي بالحساب دون الرؤية والله أعلم .

الجملة الثانية

في أسمائها، وفيها روايتان

الرواية الأولى - ما نطقت به العرب المستعربة وجرى عليه الاستعمال إلى الآن وقد نطق القرآن الكريم بصدقها قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ والمراد شهور العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، ومدارها الأهلة سواء جاء الشهر ثلاثين أو تسعة وعشرين . الشهر الأول

منها المحرم، سُمِّيَ بذلك لأنهم كانوا يحرمون فيه القتال، ويجمع على مُحْرَمَاتٍ وَمَحَارِمٍ
 ومَحَارِمٍ. الشهر الثاني صَفَرٌ، سُمِّيَ بذلك لأنهم كانوا يُغَيِّرُونَ فِيهِ عَلَى بِلَادٍ يُنَالُ لَهَا
 الصَّفَرِيَّةَ، ويجمع على صَفَرَاتٍ وَأَصْفَارٍ وَصُفُورٍ وَصَفَارٍ. الشهر الثالث ربيع الأول
 سُمِّيَ بذلك لأنهم كانوا يُحْصِلُونَ فِيهِ مَا أَصَادُوهُ فِي صَفَرٍ، وَالرَّبِيعُ فِي لُغَةِ إِخْتِصَابٍ،
 وَقِيلَ لِأَرْتِبَاعِهِمْ فِيهِ. قَالَ النُّحَاسُ: وَالْأَوَّلُ أَوَّلُ الْبُصُوبِ، وَيُنَالُ فِي تَثْبِيهِ رَّبِيعَانَ
 الْأَوَّلَانَ فِي الْجَمْعِ رَّبِيعَاتِ الْأَوَّلَاتِ، وَمِنْ شَرْطٍ فِيهِ إِضَافَةُ شَهْرٍ قَوْلٌ فِي تَثْبِيهِ شَهْرًا
 رَّبِيعَ الْأَوَّلَانَ فِي الْجَمْعِ شَهْرَاتِ رَّبِيعِ الْأَوَّلَاتِ وَالْأَوَّلُ. وَوَسَّيْتُ قَسْتًا فِي التَّسْبِيحِ
 أَشْهُرٌ فِي الْكَثِيرِ شَهْرٌ. وَحَكَى عَنِ قَطْرِبِ الْأَرْبَعَةِ الْأَوَّلِ، وَعَنِ غَيْرِهِ رُبْعَ الْأَوَّلِ،
 أَشْهُرٌ رَّبِيعَ الْآخِرِ، وَكَلَامٌ فِي تَسْبِيحِهِ وَتَثْبِيهِ وَحَمْفٍ كَانِ كَلَامٌ فِي رَّبِيعِ
 الْأَوَّلِ. الشَّهْرُ خَمْسُ جُمَادِي الْأَوَّلِ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِجُودِ الْمَاءِ فِيهِ، لِأَنَّ نَوْفَتَ
 الَّذِي سُمِّيَ فِيهِ بِذَلِكَ كَانَ فِيهِ جَمَدًا نَسَبًا يُؤَدُّ، وَيُنَالُ فِي التَّثْبِيهِ جُمَادِيَّ
 الْأَوَّلِيَّ وَفِي الْجَمْعِ جُمَادِيَّاتِ الْأَوَّلِيَّاتِ، الشَّهْرُ سَدَسُ جُمَادِي الْآخِرَةِ، وَكَلَامٌ فِيهِ
 تَسْبِيحٌ وَتَثْبِيحٌ وَجَمْعًا كَانِ كَلَامٌ فِي جُمَادِي الْأَوَّلِ. الشَّهْرُ سَابِعُ رَجَبٍ، سُمِّيَ بِذَلِكَ
 لِتَعْظِيمِهِمْ لَهُ أَخْذًا مِنْ التَّوَجُّبِ وَهُوَ التَّعْظِيمُ، وَيَجْمَعُ عَلَى رَجَبَاتٍ وَرَجَبٍ،
 وَفِي نَكْرَةِ عَلَى رَجَبٍ وَرَجُوبٍ، الشَّهْرُ ثَمَانُونَ شَعْبَانَ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِتَشْفِيهِمْ فِيهِ نَكْرَةُ
 الْغَارَاتِ عَنَبَ رَجَبٍ، وَقِيلَ لِشَعْبِ الْعُودِ فِي نَوْفَتِ الَّذِي سُمِّيَ فِيهِ، وَقِيلَ لِأَنَّهُ
 شَعْبٌ بَيْنَ شَهْرَيْ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ وَيَجْمَعُ عَلَى شَعْبَانِيَّاتٍ وَشَعْبَانِيَّةٍ عَلَى حَدِّ تَرْوِيْدِهِ،
 وَحَكَى الْكُوفِيُّونَ شَعْبَانِيَّ، قَالَ النُّحَاسُ: وَذَلِكَ حِطٌّ عَلَى قَوْلِ سَبْيَوِيَّةٍ كَمَا لَا يَجُوزُ
 فِي جَمْعِ عَدْنٍ عَدْمِيَّ، الشَّهْرُ تِسْعُ رَمَضَانَ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّ مِنْ أَرْمِضِهِ لِأَنَّهُ
 وَافِقٌ وَقْتُ تَسْمِيَتِهِ زَمَنَ الْحَزَنِ، وَيَجْمَعُ عَلَى رَمَضَانَاتٍ، وَحَكَى الْكُوفِيُّونَ رَمَضِيَّ،

(١) ولغته وشعاب، بدون الهاء.

والقول فيه كالقول في شعابين، ومن شرط فيه لفظ شهر قال في التثنية: شهر رمضان وفي الجمع شَهْرَاتُ رَمَضَانَ وأشهرُ رمضان وشهور رمضان. الشهر العاشر شَوَّالٌ، سُمِّيَ بذلك أخذًا من شَالَتِ الإبلُ بأذنانها إذا حملت لكونه أول شهر الحج، وقيل من شال يَسْوُلُ إذا ارتفع، ولذلك كانت الجاهلية تَكْرَهُ الترويح فيه لما فيه من معنى الإشالة والرفع إلى أن جاء الإسلامُ بهدم ذلك. قالت عائشة رضي الله عنها فيما ثبت في صحيح مسلم: "تَزَوَّجَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي شَوَّالٍ وَبَنَى بِي فِي شَوَّالٍ فَأَيُّ نِسَائِهِ كَانَ أَحْظَى عِنْدَهُ مِنِّي" ويجمع على شَوَّالَاتٍ وشَوَّالِيٍّ وشَوَّالٍ. الشهر الحادى عشر ذُو الْقَعْدَةِ، ويقال بالفتح والكسر، سُمِّيَ بذلك لأنهم كانوا يَتَعَدُّونَ فِيهِ عَنِ الْقِتَالِ لكونه من الأشهر الحرم، ويجمع على ذَوَاتِ الْقَعْدَةِ، وحكى الكوفيون أولاتُ الْقَعْدَةِ، وربما قالوا في الجمع: ذَاتِ الْقَعْدَةِ أَيضًا. الشهر الثانى عشر ذُو الْحِجَّةِ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَن الْجَمْعَ فِيهِ، وَالْكَلَامُ فِي جَمْعِهِ كَالْكَلَامِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ. ثم من الأشهر المذكورة أربعة أشهر حُرْمٌ كما قال تعالى: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ﴾ وقد أجمعت العلماء على أن الأربعة المذكورة هي رَجَبٌ وَذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمَحْرَمُ. وقد اختلف في الابتداء بعددها فذهب أهل المدينة إلى أنه يُبْتَدَأُ بِذِي الْقَعْدَةِ فيقال: ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمَحْرَمُ وَرَجَبٌ، وَيَحْتَجُّونَ عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَدَّهَا فِي خُطْبَةِ حِجَّةِ الْوَدَاعِ كَذَلِكَ فَقَالَ: "السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ، ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ وَوَاحِدَةٌ فَرْدٌ: ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمَحْرَمُ وَرَجَبٌ" واختاره أبو جعفر النحاس. وذهب أهل الكوفة إلى أنه يُبْتَدَأُ بِالْمَحْرَمِ فيقال: الْمَحْرَمُ وَرَجَبٌ وَذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ لِأَتُوا بِهَا مِنْ سَنَةٍ وَاحِدَةٍ وَإِلَيْهِ مِيلُ الْكُتَابِ. قال النحاس: وَلَا حِجَّةَ لَهُمْ فِيهِ لِأَنَّهُ إِذَا عَلِمَ أَنَّ الْمَقْصُودَ ذِكْرُهَا فِي كُلِّ سَنَةٍ فَكَيْفَ يَتَوَهَّمُ أَنَّهَا مِنْ سَنَتَيْنِ. وكانت العربُ في الجاهلية مع ما هم عليه من الضلال والكفر يعظمون هذه الأشهر ويحترمون القتال فيها حتى

لولتي الرجل فيها قاتل أبيه لم يبيحها، الى أن حذت فيهم النسيء فكانوا ينسئون المحرم فيؤخرونه الى صفر فيحترمون مكانه وينسئون رجباً فيؤخرونه الى شعبان فيحترمون مكانه ليستبيحوا القتال في الأشهر الحرم .

واعلم أنه يجوز أن يضاف لفظ شهر الى جميع الأشهر فيقال: شهر المحرم، وشهر صفر، وشهر ربيع الأول وكذا في البواقي، على أن منها ثلاثة أشهر لم تكده العرب تنطق بها إلا مضافة إليها، وهي شهر ربيع وشهر رمضان؛ ويؤيد ذلك في رمضان ما ورد به القرآن من إضافته، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ وقد روى عثمان بن الأسود عن مجاهد أنه قال: "لا تقل رمضان ولكن قل كما قال الله عز وجل: شهر رمضان، فإنك لا تدري ما رمضان" وعن عطاء نحوه وأنه قال لعلى رمضان اسم من أسماء الله تعالى، لكن قد ثبت في الصحيحين من رواية أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: "إذا جاء رمضان أغلقت النيران وصفدت الشياطين" الحديث . وهذا صريح في جواز تعريته عن الإضافة .

وقد اختلف الناس في ذلك على ثلاثة مذاهب أصحها أنه يجوز تعريته عن لفظ شهر مطلقاً، سواء قامت قرينة أم لا، فيقال جاء رمضان وصمت رمضان، وما أشبه ذلك وهو ما رجحه النووي في شرح مسلم . والثاني المنع مطلقاً، والثالث إن حفت قرينة تدل على الشهر كما في قوله: صمت رمضان فقد جازت التعرية، وإن لم تحف قرينة لم تجز، وزاد بعضهم فيما يضاف إليه لفظ شهر رجب أيضاً . وقال كل شهر في أوله حرف راء فلا يقال إلا بالإضافة . ويقال في المحرم أيضاً شهر الله المحرم ويقال في الربيعين: ربيع الأول وربيع الآخر؛ وفي الجماديين: جمادى الأولى وجمادى الآخرة . قال ابن مكي: ولا يقال جمادى الأول بالتذكير وجوزته في كلامه على "تثقيف اللسان" .

قال النحاس : وإنما قالوا ربيع الآخر وجمادى الآخرة ولم يقولوا ربيع الثاني وجمادى الثانية كما قالوا : السنة الأولى والسنة الثانية لأنه إنما يقال الثاني والثانية لما له ثالث وثالثة، ولما لم يكن لهذين ثالثٌ ولا ثالثةٌ قيل فيهما الآخر والآخرة كما قيل : الدنيا والآخرة؛ على أن أكثر استعمال أهل الغرب على ربيع الثاني وجمادى الثانية . ويقال في رجب الفرد : لانفراده عن بقية الأشهر الحرم، ويقال فيه أيضا : رجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، ويقال في شعبان المكرم لتكريمته وعلو قدره، وفي رمضان : المعظم والمُعظم قدره لعظمته وشرفه، وفي شوال المبارك للفرق بينه وبين شعبان خشية الالتباس في الكتابة، ويقال في كلٍّ من ذى القعدة وذى الحجة الحرام . قال النحاس : وقد جاء في ذى الحجة أيضا الأصم، وروى فيه حديثا بسنده من رواية مرة الهمداني عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً على ناقه حمراء مخضرة^(١)، فقال : أتدرون أي يوم يومكم هذا؟ قلنا : يوم النحر قال : صدقتم يوم الحج الأكبر، أتدرون أي شهر شهركم هذا؟ قلنا : ذو الحجة قال : صدقتم شهر الله الأصم ."

الرواية الثانية - .أروى عن العرب العاربة، وهو أنهم كانوا يقولون في المحزم : المُرْمِر أخذنا من أمر القوم إذا كثروا بمعنى أنهم يحزمون فيه القتال فيكثرون . وقيل أخذنا من الأثمار بمعنى أنه يؤتمر فيه بترك الحرب، ويجمع على مؤتمرات ومأمير ومأمير . ويقولون في صفر : ناجر إما من النجر والنجار (بفتح النون وكسرهما) الأصل، بمعنى أنه أصل للعرب لأنه يتبدأ فيه بعد المحرم، وإما من النجر وهو السوق الشديد . لشدة سوقهم الخيل إلى الحرب فيه، وإما من النجر، وهو شدة الحر لشدة حرارة الحرب فيه، ويجمع على نواجر . ويقولون في شهر ربيع الأول : خوان (بالحاء المعجمة)

(١) أي قطع طرف أذنها . قاموس .

لأن الحرب تشتد فيه فتخونهم فتقصمهم، ويجمع على خَوَّانات وخَوَّارين وخَوَّاون .
ويقولون في ربيع الآخر: وَبُصَان ، أخذاً من الوَبِص وهو البريق : لبريق
الحديد فيه : ويجمع على وَبْصانات ، وحكى قطرب فيه بَصَان فيجمع على أَبْصِنَة
وفي الكثرة بَصْنَان . ويقولون لجمادى الأولى : حَين لأنهم يحنُّون فيه الى أوطانهم
لكونه كان يقع في زمن الربيع ، ويجمع على أَحِنَّة وَحُنُّن كَرغيف وَرُغْف . ويقولون
لجمادى الآخرة : رُبِّي وَرُبَّةً لأنه يجتمع به لجماعة من الشهور التي ليست بحُرْم
وهي ما بعد صفر . قال أبو عبيد : رُبَّان كل شيء جماعته ، ويجمع على رُبَّيات ورَبَّايًا مثل
حَبَّالِي . ومن قال رُبَّةً جمعه على مَآرِب . ويقولون في رجب : الأَصْم لما تقدم
من أنه لا يُسمع صوتُ السلاح ولا الاستغاثات فيه ، ويجمع على أَصَام . قال النحاس :
ولا تقل صَمَّ لأنه ليس بنعت كما أنك لو سميت رجلاً أحمراً جمعته على أَحْمَامٍ ولم
تجمعه على حُمْر . ويقولون في شعبان : عَادِلٌ ، بمعنى أنهم يعدلون فيه عن الإقامة لتشميمهم
في القبائل ويجمع على عَوَادِل . ويقولون في رمضان : نَاتِقٌ لكثرة المال عندهم فيه
لإغارتهم على الأموال في الذي قبله ، ويجمع على نَوَاتِق . ويقولون في شَرَّال : وَعَلٌ
أخذاً من قولهم : وَعَلَّ الى كذا اذا بلأ اليه لأنهم يهربون فيه من الغارات لأن بعده
الأشهر الحُرْم فيلجئون فيه الى أمكنة يتحصنون فيها ، ويجمع على أوعال ككتيف
وأكتاف ، وفي الكثرة وُعُول . ويقولون في ذى القعدة : وَرَنَة وَالواو فيه متحركة عن
همزة أخذاً من أرن اذا تحرك لأنه الوقت الذي يتحركون فيه الى الحج ، أو الى مكة
وهو الدنو لقربه من الحج ويجمع على وَرَنَاتٍ وَوِرَانٍ كخنان . ويقولون في ذى الحجة :
بُرْكٌ ، غير مصروف لأنه معدول عن برك ، أو على التكثير كما يقال : رجل حَكَم وهو

(١) لذا في الضوء أيضاً ولعله مصحف عن رباب أو ريب تأمل .

أخوذ من البركة لأن الحج فيه، أو من برك الحمل لأنه الوقت الذي تبرك فيه الإبل للرسم، ويجمع على بركان مثل نغير ونيران .

وفي هذه الأسماء خلاف عند أهل اللغة والمشهور ما تقدم ذكره .

وقد نظم بعضهم ذلك في أبيات على الترتيب فقال :

بمؤتمير وناجر ابتدأنا * وبالخوان يتبعه البصان
وربي ثم أيده تليه * تعود أصم صم به السنان
[وعادلة وناطلة جميعا * وواغلة فهم غرر حسان^(١)
وورنه بعدها برك فتمت * شهور الحول يعربها البيان

ثم للناس في إخراج أول الشهر العربي طرق، أسهلها أن تعرف أول يوم من المحرم، ثم تعددكم مضي من السنة من الشهور بالشهر الذي تريد أن تعرف أوله وتقسّمها نصفين، فإن كان النصف صحيحاً أضفت على الجملة مثل نصفه، وإن كان مكسوراً ككلمته وأضفته على الجملة، ثم تبتدىء من أول يوم من السنة وتعد منه أياماً على توالي أسماء الأيام بعدد ما حصل معك من الأصل والمضاف، فحيث انتهى عدّدك فذلك اليوم هو أول الشهر .

مثال ذلك في الصحيح النصف : إن أردت أن تعرف أول يوم من شعبان وكان أول المحرم يوم الأحد مثلاً فتعدّ من أول المحرم إلى شعبان وتدخل شعبان في العدد فيكون ثمانية أشهر فتقسّمها نصفين يكون نصفها أربعة فتضيف الأربعة إلى الثمانية تكون اثني عشر، ثم تبتدىء من يوم الأحد الذي هو أول المحرم فتعدّ الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت، ثم الأحد والاثنين والثلاثاء

(١) سقط هذا البيت من نسخة الأصل وقد وجدناه في "نهاية الأرب" للثوري فابتنناه كما ترى وبه

تمت عدّة الشهور .

والأربعاء والخميس فيكون انتهاء الاثنى عشر في يوم الخميس فيكون أول شعبان
يوم الخميس .

ومثاله في المكسور النصف اذا أردت أن تعرف أول رمضان أيضا وكان أول
المحرم الأحد كما تقدم فتعد ما مضى من شهور السنة وتعد منها رمضان يكون تسعة
أشهر فتسمها نصفين يكون نصفها أربعة ونصفا فتكلمها بنصف تصير خمسة
فتضيفها الى الأصل المحفوظ وهو تسعة يكون المجموع أربعة عشر، ثم تبدئ عدد
الأيام من أول المحرم، وهو الأحد كما تقدم فيكون انتهاء الرابع عشر في يوم السبت
فيكون أول رمضان يوم السبت .

ومن الطُّرق المعتمدة في ذلك أن تنظر في الثالث من أيام النسيء من شهور القبط
كم يوما مضى من الشهر العربي فما كان جعته أصلا لتلك السنة، فإذا أردت
أن تعرف أول شهر من الشهور العربية أو كم مضى من الشهر الذي أنت فيه نخذ
الأصل المحفوظ معك لتلك السنة، وانظر كم مضى من السنة القبطية شهرا نخذ لكل
شهرين يوما، فإن انكسرت الأشهر وجاءت فردا فاجبرها بيوم زيادة حتى تصير
زوجا، وزد على ذلك يومين أصلا أبدا، ثم انظر كم يوما مضى من الشهر القبطي الذي
أنت فيه فأضفه على ما اجتمع معك، وأسقط ذلك ثلاثين ثلاثين فما بقى فهو عدد
ما مضى من الشهر العربي، ومنه يعرف أوله .

ومثال ذلك نظرت في الثالث من أيام النسيء فوجدت الماضي من الشهر العربي
ثلاثة أيام فكانت أصلا لتلك السنة، ثم نظرت في الشهور القبطية فوجدت الشهر
الذي أنت فيه أمشير مثلا فتعد من أول شهور السنة القبطية (وهو توت) الى أمشير
يكون ستة أشهر فتأخذ لكل شهرين يوما تكون ثلاثة أيام فتضيفها على الأصل
الذي معك من أيام النسيء وهو ثلاثة تصير ستة فزد عليها اثنين يصير المجموع

ثمانية، ثم تنظر في الشهر القبطي الذي أنت فيه (وهو أمشير) تجده قد مضى منه يومان فتضيفهما على المجموع يكون عشرة، وهو الماضي من الشهر العربي الذي أنت فيه ومنه يُعرف أوله .

الضرب الثاني

شهور اليهود

والشهر عندهم من الاجتماع الى الاجتماع، وهو اقتران الشمس والقمر في آخر الشهر ولذلك تُوافق شهورهم في التقدير شهور العرب، ولا تخالف أوائلها إلا بيوم واحد في بعض الأحيان لأسباب في ملتهم ولكنها لا تطابق شهرا لشهر، فإن شهور العرب غير مكبوسة، وشهور اليهود مكبوسة، وهذه الطريقة لا تعرف إلا بتقويم الكواكب ومعرفة سير الشمس والقمر؛ ولذلك لا يعرف شهور اليهود منهم إلا الآحاد، وشهورهم وهي اثنا عشر شهرا بعضها ثلاثون، وبعضها تسعة وعشرون على ما يقتضيه مسير الشمس والتمرب؛ وفي السنة الكبيسة تكون شهورهم ثلاثة عشر شهرا كما سيأتي؛ وشهورهم توافق شهور السريان في بعض أسمائها دون بعض، الأول تشرى، الشهر الثاني مרחشوان، الشهر الثالث كسلا، الشهر الرابع طابات، الشهر الخامس شباط، الشهر السادس آذار، الشهر السابع نيسان، الشهر الثامن أيار، الشهر التاسع سيوان، الشهر العاشر تموز، الشهر الحادي عشر آب، الشهر الثاني عشر أيلول؛ وفي السنة التي يكبسون فيها بعد كل سنة أو بعد كل سنتين على ما سيأتي بيانه يكبسون شهرا كاملا بعد آذار وهو الشهر السادس من شهورهم ويسمونه آذار الثاني، وسيأتي ذلك مفصلا في الكلام على السنين إن شاء الله تعالى. وقد تقدم أنها توافق شهور العرب إلا في القليل إلا أنها يدخلها الكبس لأموور في ملتهم، وسيأتي الكلام على كبسهم عند ذكر السنين إن شاء الله تعالى .

القسم الثاني

من الشهور الاصطلاحية والمراد به الشمسية

وهي مدة قطع الشمس مدار برج من بروج الفلك الاثني عشر، وذلك ثلاثون

يوماً وثلاثة عشر يوماً تقريباً، وعليه عمل القبط، والفرس، والسريان، والروم.

وهي على صنفين :

الصنف الأول

ما يكون كل شهر من شهور السنة ثلاثين يوماً، وما فضل عن ذلك

جعل نسيئاً بين الشهور وهو الشهور القبط، والفرس

فأما شهور القبط (وتنسب لدقطنانوس الملك) فكل شهر منها ثلاثون يوماً وأيام

النسيء في آخر الثاني عشر منها وهي خمسة أيام .

الشهر الأول منها توت، ودخويه في العشرين من آب من شهور السريان، وآخره

السادس والعشرون من أيلول منها، فيه يدرك الرطب، ويكثر السفرجل والعنب

الشتوي، وتبتدئ المحمضات . وأول يوم منه يوم النيروز وهو رأس سنة القبط،

وفي سابعه يتدئ لقط الزيتون، وفي سابع عشره عيد الصليب، عيسه تنقح أكثر

الترع بمصر، وفي ثامن عشره أثل فصل الخريف، وفي تاسع عشره يتدئ قحط

السوداء في البدن، وفي العشرين منه يقصد البلسان، وفي الحادي والعشرين منه

يتدئ بيض النعام، وفي الرابع والعشرين منه أثل دى ماه من شهور السريان

وفي الثامن والعشرين منه يذهب الحرب، وفي التاسع والعشرين منه أثل ربيعي

الكرأكي، وفي الثلاثين منه وهو آخره يزرع الحليون .

(١) لعله وثلاثة أعشار يوم

الشهر الثاني بابه ، ودخوله في السابع والعشرين من أيلول من شهر السريان ،
 وآخره السادس والعشرون من تشرين الأول منها ، فيه يُبَدَّرُ كُلُّ مالا تُسَقُّ له الأرضُ
 كالبرسيم وغيره ؛ وفي آخره تُسَقُّ الأرض بالصعيد ؛ وفيه يُحصَدُ الأرز ، ويطيب
 الرَّمَانُ ، وتضع الضأن والمعز والبقر الحليسيّة ؛ ويُستخرج دهن الآس واللينوفر ،
 ويُدْرِكُ الثمر والزبيب وبعض المحمضات ؛ وفي ثلثه رأس سنة السريان ؛ وفي رابعه
 أول تشرين الأول من شهرهم ؛ وفي خامسه عرس النيل ؛ وفي سادسه يطيب
 شرب الدواء ؛ وفي سابعه نهاية زيادة النيل ؛ وفي ثامنه يكره خروج الدم ؛ وفي حادي
 عشره يتبدئ النيل في التقص ؛ وفي ثالث عشره بداية الوحم ؛ وفي رابع عشره
 يكثر الناموس ؛ وفي خامس عشره يتبدئ زرع القرط ؛ وفي سادس عشره تبتدئ
 كثرة السعال ؛ وفي تاسع عشره يتبدئ زرع السلجم ، وفي الثاني والعشرين منه
 يتبدئ صلاح المواشي ، وفي الثالث والعشرين منه تبتدئ كثرة الغيوم ، وفي الرابع
 والعشرين منه تبتدئ أهل مصر الزرع ، وفي السابع والعشرين منه يتبدئ سمن
 الحيتان ، وفي الثامن والعشرين منه أول المتد ، وفي التاسع والعشرين منه أول
 الليالي البلق .

الشهر الثالث هتور ؛ ودخوله في السابع والعشرين من تشرين الأول ؛ وآخره
 الخامس والعشرون من تشرين الثاني . فيه يُزرَعُ القمح ويطلع البنفسج والمنثور ،
 وأكثر البقول ، ويجمع ما بقى من الباذنجان وما يجرى مجراه ، ويُحْمَلُ العنب من
 قوص ، وفي ثانيه يتبدئ حصاد الأرز ، وفي خامسه أول تشرين الثاني من شهر
 السريان ، وفيه يتبدئ برد المياه ، وفي سادسه أول المطر الوسمى ، وفي سابعه يتبدئ
 أهل الشام الزرع ، وفي ثامنه يتبدئ هبوب الرياح الجنوبية ، وفي تاسعه يتبدئ
 زرع الخشخاش ، وفي حادي عشره يتبدئ اختفاء الهوام ، وفي ثالث عشره يتبدئ

غلبان البحر ، وفي رابع عشره تسمى الحيات ، وفي سادس عشره يجع الزعفران ،
وفي ثامن عشره تكثر الوحوش ، وفي الثامن والعشرين منه يغلق البحر الملح وتمنع
السفن من السفر فيه لشدة الرياح ، وفي الثالث والعشرين منه يتبدى سخونة بطن
الأرض ، وفي الرابع والعشرين منه أول اسفیدار ماه من شهر الفرس .

الشهر الرابع كيهك ، ودخوله في السادس والعشرين من تشرين الثاني من شهر
السريان ، وآخره الخامس والعشرون من كانون الأول منها ، فيه تدرك الباقلاء ، وتزرع
الحلبة وأكثر الحبوب ، ويدرك النرجس والبنفسج ، وتلاحق الحمضات ، وفي أوله
ابتداء أربعينيات مصر ، وفي ثلثه يتبدى موت الذباب ، وفي خامسه أول كانون
الأول من شهر السريان ، وفي سابعه آخر الليالي الباق وأول الليالي السود ،
وفي حادى عشره يتبدى الشجر في رمى أوراقه ، وفي ثانى عشره تظهر البراغيث ،
وفي سابع عشره أول فصل الشتاء وهو أول أربعينيات الشام ، وفي ثامن عشره يتنفس
النهار ، وفي الحادى والعشرين منه يكثر الطير الغريب بمصر ، وفي الثالث والعشرين
منه أول مردوماه من شهر الفرس ، وهو نوروزهم وأول سنتهم ، وفي الخامس
والعشرين منه يهيج البلغم ، وفي السادس والعشرين منه تلقح الإبل ، وفي السابع
والعشرين منه يكثر شرب الماء في الليل ، وفي الثلاثين منه يتبدى تقليم الكروم .

الشهر الخامس طوبه ، ودخوله في السادس والعشرين من كانون الأول من شهر
السريان ، وآخره الرابع والعشرون من كانون الثانى منها ، في زرع القمح فيه تغريبه
وفيه تُشق الأرض للقصب والقلقاس ، ويتكامل النرجس ، وفي أوله تبيت الرياح
الشديدة ، وفي ثانيه يدرك القرط ، وفي سادسه أول كانون الثانى من شهر السريان ،

(١) سياتى قريبا أن نورد الفرس وأول سنتهم أمرودين ماه ونقله الصواب لأنه الذى رزد في مروج
الذهب وغيره ومع ذلك لم يذكر هذا الشهر في أسماء الشهور الآتية .

وفي عاشره آخر أربعمائة مصر ، وفي حادي عشره أول نصب الكروم ، وفي ثاني عشره يشتد البرد ، وفي ثالث عشره يتبدى زرع المقات ، وفي سابع عشره يتبدى غرس الأشجار ، وفي ثامن عشره تتبدى كثرة الندى ، وهو آخر الليالي السود ، وفي تاسع عشره يتبدى وقوع الثلج بالشام وغيره ، وفي الرابع والعشرين منه يتبدى صفو ماء النيل ، وفي التاسع والعشرين منه يتبدى اختلاف الرياح

الشهر السادس أمشير ، ودخوله في الخامس والعشرين من كانون الثاني من شهر السريان وآخره الثالث والعشرون من شباط منها . فيه نغرس الأشجار ، وتقلم الكروم ، ويُدرك النبق واللوز الأخضر ، ويكثر البنفسج والمنثور ، وفي رابعه يتبدى إفراخ النخل ، وفي سادسه أول شباط من شهر السريان ، وفي حادي عشره يتبدى إنتاج الطيور وزرع بقول الصيف ، وفي ثاني عشره يتبدى تحرك دواب البحر ، وفي الثاني والعشرين منه ثاني جمرة فاترة ، ويتبدى مرض الأطفال ، ويتبدى خروج ورق الشجر ، وفي الثالث والعشرين منه يتبدى خروج الدواب للرعى ، وفي الرابع والعشرين منه أول حراد من شهر القوس ، وفي الخامس والعشرين منه يتبدى هيجان الرياح ، وفي السابع والعشرين منه يتبدى ثالث جمرة حامية ، وفي الثامن والعشرين منه أول المخرطات ، وفي التاسع والعشرين منه آخره من أبقراط .

الشهر السابع برمات ، ودخوله في الرابع والعشرين من شباط من شهر السريان ، وآخره الخامس والعشرون من آذار ، فيه تزهر الأشجار ، ويعقد أكثر الثمار ، ويؤرع أوائل السمسم ، ويقلع الكنان ، ويُدرك القبول والعدس ، وفي ثانيه يحمّد خروج الدم ، وهو أول الأعجاز ، وفي ثالث عشره تفتح الحيات أعينها ، وفي خامس عشره تطيب الإلبان ، وفي سادس عشره يتبدى خروج دود القز ، وفي ثامن عشره يخرج الدم ، وفي تاسع عشره تظهر الموام ، وفي العشرين منه يُزرع السمسم .

الرابع والعشرين منه أول تيرماه من شهور الفرس، وفي السادس والعشرين منه
 بتدى شرب المسهل، وفي السابع والعشرين منه خروج الذباب الأزرق .
 الشهر الثامن برموده، ودخوله في السادس والعشرين من آذار من شهور السريان،
 وآخره الرابع والعشرون من نيسان منها، فيه تقطف أوائل عسل النحل، وفيه تكثر
 الباقلاء، وينفض جوز الكنان، ويكثر الورد الأحمر، والبطن الأول من الجميز، ويقلع
 بعض الشعير، ويدرك الخيار شبر . وفي أوله يؤكل الفريك، وفي رابعه يعصر دهن
 اللسان، وفي خامسه بتدى كثرة الزهور، وفي سادسه أول نيسان من شهور
 السريان، وفي ثاني عشرة يخاف على بعض الزرع، وفي ثامن عشره آخر قلع
 الكنان، وفي العشرين منه ينهى عن أكل البقول، وفي الثاني والعشرين منه ظهور
 الكماة، وفي الثالث والعشرين منه الحتام الكبير للزرع، وفي الرابع والعشرين منه أول
 ترمماه من شهور الفرس، وفي الخامس والعشرين منه نهاية مد الفرات، وفي الثامن
 والعشرين منه يبيض النعام .

الشهر التاسع بشنس، ودخوله في الخامس والعشرين من نيسان من شهور
 السريان، وآخره التاسع والعشرون من أيار منها . فيه يكثر التفاح القاسمى، وبتدى
 التفاح المسكى، والبطيخ العبدلى والحوفى، والمشمش، والخوخ الزهرى، والورد
 الأبيض . وفي نصفه يئدر الأرز، ويخصد التمح، وفي سادسه أول أيار من شهور
 السريان، وفي رابع عشره يجمع الخشخاش، وفي ثامن عشره يجمع العصفر، وفي
 الحادى والعشرين منه بتدى برودة الأرض، وفي الرابع والعشرين منه أول شهر
 برماه من شهور الفرس

الشهر العاشر بئونه، ودخوله في الخامس والعشرين من أيار من شهور السريان .
 وآخره الثالث والعشرون من حزيران منها، فيه يكثر الحصرم ويطيب بعض السنب

والتين البونى وهو الديفور، والخوخ الزهرى والمشعر، والكثرى البوهى، والقراصيا،
والثوت، ويطلع البلح، ويقطف جمبور العسل، وفي ثلثه يتدى توحم النيل،
وفي سادسه يكمل الدرّياتى، وفي سابعه أول حزيران من شهر السريان، وفي تاسعه
يتدى مهبّ الريح الشمالية، وفي عاشره يتدى تنفس النيل، وفي خامس عشره
تتحرك شهوة الجماع، وفي ثانى عشره عيد ميكائيل، فى ليلته يؤزن من الطين زنة ستة
عشر درهما عند غروب الشمس ويرفع فى مكان ويوزن عند طلوع الشمس فما
زاد كان بكل خروبة زادت على الستة عشر ذراعاً، وفي ثالث عشره يتدى نقص
الفرات، وفي رابع عشره تهبّ الرياح السائم، وفي تاسع عشره تذهب البراغيث،
وفي العشرين منه تهبّ الصفراء، وفي الثانى والعشرين منه يعقد الجوز، ويقوى
اندفاع النيل، وفي الرابع والعشرين منه يثور وجع العين وهو أول مهرماه من شهر
الفرس، وفي السابع والعشرين منه يؤخذ قاع النيل، وفي الثامن والعشرين منه
ينادى عليه، وفي التاسع والعشرين منه يدرك البطيخ .

الشهر الحادى عشر أبيب، ودخوله فى الرابع والعشرين من حزيران من شهر
السريان، وآخره الثالث والعشرون من تموز منها، فيه يكثر العنب والتين ويقل
البطيخ العبدلى ويطيب البلح وتقطف بقايا العسل وتقوى زيادة النيل، وفي رابعه
أول نهى أبقراط، وفيه يموت الجراد، وفي سابعه أول تموز من شهر السريان،
وفي ثامنه يتدى وقع الطاعون، وفي ثانى عشره تبتدى قوة السائم، وفي ثالث
عشره تدرك الفاكهة، وفي سابع عشره تغور العيون، وفي ثامن عشره يجع الساق،
وفي الثانى والعشرين منه يدرك التستق . وفي الرابع والعشرين منه أول أبان ماه من
شهر الفرس، وفي السادس والعشرين منه طلوع الشعري الممانية، وفي التاسع
والعشرين منه يدرك نخل الحجاز .

الشهر الثاني عشر مسرى ، ودخوله في الرابع والعشرين من تموز من شهور
السريان ، وآخره السابع والعشرون من آب منها . فيه يُعمل الخَلُّ ، ويُدرِك البُسْر
والمَوْزُ ، ويُتغير طَعُومُ الفاكهة لغلبة الماء على الأرض ، ويُدرِك اللِّيمُونُ التَّفَاحُ ،
ويبتدئ إدراك الرُّمَّانِ ، وفي رابعه نُقْصَانُ الدَّجَلَةِ ، وفي خامسه أولُ العَصِيرِ ، وفي ثامنه
أولُ آب من شهور السَّريَانِ ، وفي ثاني عشره فَصَالُ المَوَاشِي . وفي رابع عشره تَقَلُّ
الألبانُ ، وفي خامس عشره تَسْخُنُ المِيَاهُ ، وفي سابع عشره تَخْتَلِفُ الرِّيحُ . وفي ثامن
عشره يُحْدَرُ لَسْعُ الهَوَامِّ ، وفي الثاني والعشرين منه آخرُ العَصِيرِ ، وفي الرابع والعشرين
منه يَبِيجُ النَّعَامُ ، وفي الخامس والعشرين منه تَكْثُرُ الغُيُومُ ، وفي الثامن والعشرين منه
آخرُ السَّمَائِمِ ، وفي التاسع والعشرين منه أولُ آذرماه من شهور الفرس

أيام النسيء - ودخولها في الثامن والعشرين من آب من شهور السريان ويختلف
آخرها باختلاف السنة الكبيسة وغيرها .

وقد وضع الناس طُرُقًا لإخراج أول الشهر القبطي بالحساب أقربها أن تعرف
يوم النيروز ثم تعدّ ماضى من الشهور القبطية بالشهر الذى تريد أن تعرف أوله فما
كان فأضعفه فما تحصل فاسقط منه واحداً أبداً ، ثم أسقط الباقى سبعة سبعة فما
فضل فعدّ من يوم النيروز الى آخر الباقى بعد الإسقاط على توالى الأيام فأينما أنتهى
العدّد فذلك اليوم هو أول الشهر المطلوب .

مثال ذلك ، كان يوم النيروز الأحد ، وأردنا أن نعرف أول أمشير ، عددنا كم
مضى من أول الشهور القبطية وعددنا منها أمشير ، وجدنا ذلك ستة ، أضعفناها
صارت اثني عشر ، أسقطنا منها واحداً بقى أحد عشر ، أسقطنا منها سبعة بقى أربعة ،
عددنا من يوم النيروز وهو الأحد أربعة فكان آخرها يوم الأربعاء فعلمنا أن أول
أمشير الأربعاء .

وأما شهور الفرس، فهي اثنا عشر شهراً كل شهر منها ثلاثون يوماً، وأيام النسيء خمسة أيام في آخر الشهر الثامن منها وهو أبان ماه. الشهر الأقل منها افرودين ماه، ودخوله في الرابع والعشرين من كيهك من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من طوبه منها، وأول يوم منه نيروز الفرس ورأس سنتهم. الشهر الثاني اريهشتاه ودخوله في الرابع والعشرين من طوبه من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من أمشير منها، الشهر الثالث حرداماه، ودخوله في الرابع والعشرين من أمشير من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من برمهاث منها. الشهر الرابع تيرماه، ودخوله في الرابع والعشرين من برمهاث من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من برموده منها. الشهر الخامس تردماه، ودخوله في الرابع والعشرين من برموده من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من بشنس منها. الشهر السادس شهر برمها، ودخوله في الرابع والعشرين من بشنس من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من بؤنه منها. الشهر السابع مهرماه، ودخوله في الرابع والعشرين من بؤنه من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من أبيب منها. الثامن أبان ماه، ودخوله في الرابع والعشرين من أبيب من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من مسرى، منها أيام النسيء، وتسمى بالفارسية الاندركاه، ودخولها في الرابع والعشرين من مسرى وآخرها الثامن والعشرون منها. الشهر التاسع ادرماه، ودخوله في التاسع والعشرين من مسرى من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من توت. الشهر العاشر دي ماه. ودخوله في الرابع والعشرين من توت من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من بابه منها. الشهر الحادي عشر بهمن ماه، ودخوله في الرابع والعشرين من بابه من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من هاتور منها. الشهر

(١) وقع في الأصل شيء من السقط والتحرير وقد صححناها من نهاية الأرب ومن الضوء وبمعونة ترتيب الشهور التبعية فتنبه.

الثاني عشر [اسفندارماه ، ودخوله في الرابع والعشرين من هاتور من شهور القبط ،
وآخره الثالث والعشرون من كيهك منها] .

ولكل يوم من أيام الشهر عندهم اسم خاص يزعمون أنه اسم ملك من الملائكة

موكل به .

وقد علم مما تقدم من شهور القبط ما يقع في هذه الشهور من والفواكه

وغيرها .

الصف الثاني

من الشهور الاصطلاحية ما يختلف عدده بالزيادة والنقصان ،

فيكون بعض الشهور فيه ثلاثين ، وبعضها أقل ، وبعضها أكثر ،

وهو شهور السريان والروم

فأما شهور السريان وتنسب للإسكندر فأثنا عشر شهرا ، منها أربعة كل شهر

منها ثلاثون يوما ، وشهر واحد ناقص عن الثلاثين ، وسبعة زائدة عليها . الشهر الأول

منها تسعين الأول ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله في الرابع من بابه من شهور

القبط ، وآخره الرابع من هاتور منها ، ويوافقه أكتوبر من شهور الروم ، وهو الشهر

العاشر منها . الشهر الثاني تسعين الثاني ، وهو ثلاثون يوما ، ودخوله في الخامس من

هاتور من شهور القبط ، وآخره الرابع من كيهك منها ، ويوافقه نوفمبر من شهور الروم ،

وهو الشهر الحادي عشر منها . الشهر الثالث كانون الأول وهو أحد وثلاثون يوما ،

ودخوله في الخامس من كيهك من شهور القبط ، وآخره الخامس من طوبه منها ،

ويوافقه ديسمبر من شهور الروم ، وهو الشهر الثاني عشر منها . الشهر الرابع كانون

الثاني ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله في السادس من طوبه من شهور القبط ،

وآخره السادس من أمشير منها ، و يوافقته ينير من شهر الروم ، وهو الشهر الأول منها . الشهر الخامس أشباط ، ويقال شياط ، وهو ثمانية وعشرون يوما ، ودخوله في السابع من أمشير ، وآخره الرابع من برمهاث ، و يوافقته فبراير من شهر الروم ، وهو الثاني من شهرهم . الشهر السادس آذار ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله في الخامس من برمهاث من شهر القبط ، وآخره الخامس من برمودة منها ، و يوافقته مارس من شهر الروم ، وهو الثالث من شهرهم . الشهر السابع نيسان ، وهو ثلاثون يوما ، ودخوله في السادس من برمودة من شهر القبط ، وآخره الخامس من بشنس منها ، و يوافقته ابريل من شهر الروم ، وهو الرابع من شهرهم . الشهر الثامن أيار ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله في السادس من بشنس من شهر القبط ، وآخره السادس من بؤنه منها ، و يوافقته مايو من شهر الروم ، وهو الخامس من شهرهم . الشهر التاسع حزيران ، وهو ثلاثون يوما ، ودخوله في السابع من بؤنه من شهر القبط ، وآخره السادس من أبيب منها ، و يوافقته يونيه من شهر الروم ، وهو السادس من شهرهم . الشهر العاشر تموز ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله في السابع من أبيب من شهر القبط ، وآخره السابع من مسرى منها ، و يوافقته يوليه من شهر الروم ، وهو السابع من شهرهم . الشهر الحادي عشر آب ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله في الثامن من مسرى من شهر القبط ، وآخره الثالث من توت منها ، و يوافقته اغشت من شهر الروم ، وهو الثامن من شهرهم . الشهر الثاني عشر أيلول ، وهو ثلاثون يوما ، ودخوله في الرابع من توت من شهر القبط ، وآخره الثالث من بابه منها ، و يوافقته ستمبر من شهر الروم ، وهو التاسع من شهرهم ، وبذهابه يذهب الحر جملة ، وفي ذلك يقول أبو نواس :

مَصَى أَيْلُولُ وَارْتَفَعَ الْحَرُّورُ * وَأَخْبِتْ نَارَهَا الشَّعْرَى الْعَبُورُ

وقد نظمها صاحبنا الشيخ إبراهيم الدهشوري في أبيات ابتدأ فيها بأيلول فقال :
 وأبدأ بأيلول من السرياني * تشرين الأول يتبعه الثاني
 كانون كانون شباط يطلع * آذار نيسان أيار يتبع
 ثم حزيران وتموز وأب * تبارك الرحمن يهدي من أحب

وقد نظم الشيخ أبو عبد الله الكيزاني رحمه الله أبياتا ذكر فيها الأشهر التي منها
 ثلاثون يوما والناقصة عن الثلاثين ولم يتعرض للزائدة على الثلاثين وليست بالطائل ،
 وهي هذه :

شهور الروم ألوان * زيادات ونقصات
 فتشرينهم الثاني * وأيلول ونيسان
 ثلاثون ثلاثون * سواء وحزيران
 شباط خص بالنقص * وقدر النقص يومان

ونظم صاحب "مناجح الفكر" تداخلها مع شهور القبط في أرجوزة فجاءت في غاية
 الحسن والوضوح إلا أن فيها طويلا ، وهي هذه :

متى تشأ معرفة التداخل * من أول الشهور في المنازل
 فعد من نوت بلا تطويل * أربعة فهي ابتدا أيلول
 وبأية كذاك مع تشرين * الأول السابق في السنين
 والخامس المعدود من هاتور * أول تشرينيم الأخير
 أول كانون بعير دلسه * اذا نقصت من كيهك حسه
 وطوبه إن مر منه ستة * أذاك كانون الأخير بعته
 ومر شباط أول يوافق * سابع أمشير حساب صادق
 أول آذار اذا جعلته * لبرمهاث خامسا وجدته

أول نيسانٍ لدى التجريد * السادس المعدود من برمود
ومثله أيارٌ مع بئس * واحدة مقرونة بخس
أما حزيبانٌ فيحسبونه * أوله السابع من بونه
كذلك السابع من أيب * أول تموز بلا تكذيب
أول آب عند من يحصل * ثامن مسرى ذلك مالا يحهل

وبالغ بعض المتأخرين فنظم معنى هذه الأرجوزة في بيت واحد، الحرف الأول
من الكلمة منه للشهر السرياني والحرف الأخير للشهر القبطي وما بينهما لعدد الأيام
التي اذا مضت من ذلك الشهر القبطي دخل ذلك الشهر السرياني وهو :

أدت تدب ته كهك كوط أزا * أهب نوب أوب حزب ترا أحم
فالألف من أدت إشارة لأيلول من شهور السريان، وهو آخر شهورهم، والتاء
إشارة لتوت من شهور القبط، وهو أول شهورهم، والذال من أدت بأربعة، ففي
الرابع من نوت يدخل أيلول، والتاء من تدب إشارة لتشرين الأول، والباء إشارة
لبابه، والذال بينهما بأربعة، ففي الرابع من بابه يدخل تشرين الأول، والتاء من ته
إشارة لتشرين الثاني، والهاء الأخيرة إشارة لمتور، والهاء المتوسطة بينهما بخمسة ففي
الخامس من متور يدخل تشرين الثاني، والكاف الأولى من كهك إشارة لكانون
الأول والكاف الأخيرة إشارة لكهك والهاء بينهما بخمسة، ففي الخامس من كهك
يدخل كانون الأول، والكاف من كوط إشارة لكانون الثاني، والطاء إشارة لطوبة،
والواو بينهما بستة، ففي السادس من طوبه يدخل كانون الثاني، والألف الأولى
من أزا إشارة لأشباط، والألف الأخيرة إشارة لأمشير، والزاي بينهما بسبعة،
ففي السابع من أمشير يدخل أشباط، والألف من أهب إشارة لآذار، والباء إشارة
لبرمهات، والهاء بينهما بخمسة، ففي الخامس من برمهات يدخل آذار، والنون من

نوب إشارة لنيسان ، والباء إشارة لبرموده ، والواو بينهما بستة ، ففي السادس من برموده يدخل نيسان ، والألف من أوب إشارة لأيار ، والباء إشارة لبشنس ، والواو بينهما بستة ، ففي السادس من بشنس يدخل أيار ، والحاء من حزب إشارة لحزيران ، والباء إشارة لبؤنه ، والزاي بينهما بسبعة ، ففي السابع من بؤنه يدخل حزيران ، والتاء من تزأ إشارة لتموز ، والألف إشارة لأيب ، والزاي بينهما بسبعة ، ففي السابع من أيب يدخل تموز ، والألف من احم إشارة لآب ، والميم إشارة لمسرى ، والحاء بينهما بثمانية ، ففي الثامن من مسرى يدخل آب .

وأما شهور الروم : (وتنسب لأغسطس ملك الروم) وهو قيصر الأول ، فاثنا عشر شهرا ، بعضها ثلاثون يوما ، وبعضها زائد على الثلاثين ، وبعضها ناقص عنها كما في شهور السريان ، وهي مطابقة لشهور السريان في العدد ، مخالفة لها في الأسماء والترتيب . الشهر الأول ينير ، ويوافق كانون الثاني من شهور السريان ، وهو الرابع من شهورهم ، وفي أول يوم منه يكون القلداس ، ويوقد أهل الشام في ليلته يرائنا عظيمة ، لاسيما مدينة أنطاكية ، وكذلك سائر بلاد الشام وأرض الروم ، وسائر بلاد النصارى . الشهر الثاني فبراير ، ويوافق شباط من شهور السريان ، وهو الخامس من شهورهم . الشهر الثالث مارس ، ويوافق آذار من شهور السريان ، وهو السادس من شهورهم . الشهر الرابع ابريل ، ويوافق نيسان من شهور السريان ، وهو السابع من شهورهم . الشهر الخامس مايو ، ويوافق أيار من شهور السريان ، وهو الثامن من شهورهم . الشهر السادس يونيو ، ويوافق حزيران من شهور السريان ، وهو التاسع من شهورهم . الشهر السابع يوليو ، ويوافق تموز من شهور السريان ، وهو العاشر من شهورهم . الشهر الثامن أغسطس ، ويوافق آب من شهور السريان ، وهو الحادي عشر من شهورهم . الشهر التاسع ستنبر ، ويوافق أيلول من شهور

السريان، وهو الثاني عشر من شهورهم . الشهر العاشر أكتوبر، و يوافق تشرين الأول من شهور السريان، وهو الأول من شهورهم . الشهر الحادي عشر نوفمبر، و يوافق تشرين الثاني من شهور السريان، وهو الثاني من شهورهم . الشهر الثاني عشر دجنبر، و يوافق كانون الأول من شهور السريان، وهو الثالث من شهورهم ، وقد نظمها الشيخ ابراهيم الدهشوري فقال :

يُنِيرُ فَبِرِّ مَارَسٌ لِلرُّومِ • أْبْرِيْلُ مَائَةٌ خَامِسُ الْمَعْلُومِ
بِنِيهِ وَيَلِيهِ ثُمَّ أَغْشَتْ شَنْبَرُ • أُكْتُوبَرُ نُونَمْبَرُ دَجْنَبَرُ

الطرف الثالث

في السنين، وفيه ثلاث جمل

الجملة الأولى

في مدلول السنة والعام

يقال : السنة، والعام، والحول، وقد نطق القرآن بالأسماء الثلاثة قال تعالى : ﴿ فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا نَحْمِسِينَ عَامًا ﴾ فاتى بذكر السنة والعام في آية واحدة ، وقال جل وعز : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ وقد تختص السنة بالحطب والعام بالحِصْب . وبذلك ورد القرآن الكريم في بعض الآيات قال تعالى : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يُعْضِرُونَ ﴾ فعبر بالعام عن الحِصْب وقال جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَّصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ فعبر بالسنين عن الحِطْب . على أنه قد وقع التعبير بالسنين عن الحِصْب أيضا في قوله تعالى : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُّوهُ فِي سُنْبُلِهِ ﴾ . أما الحول فإنه يقع على الحِصْب والحِطْب جميعا .

الجملة الثانية

في حقيقة السنة، وهي على قسمين : طبيعية وأصطلاحية كما تقدم في الشهور

القسم الأول

السنة الطبيعية وهي القمرية

وأولها استهلال القمر في غرة المحرم، وآخرها سلخ ذي الحجة من تلك السنة، وهي اثنا عشر شهرا هلالياً قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ . وعدد أيامها ثلاثمائة يوم وأربعة وخمسون يوماً وخمس وسدس يوم تقريباً، ويجتمع من هذا الخمس والسادس يوم في كل ثلاث سنين فتصير السنة ثلاثمائة وخمسة وخمسين يوماً، ويبقى من ذلك بعد اليوم الذي اجتمع شيء، فيجتمع منه ومن خمس اليوم وسدسه في السنة السادسة يوم واحد، وكذلك إلى أن يبقى الكسر أصلاً بأحد عشر يوماً عند تمام ثلاثين سنة، وتسمى تلك السنين بكأس العرب .

قال السهيلي : كانوا يؤخرون في كل عام أحد عشر يوماً حتى يدور الدور إلى ثلاث وثلاثين سنة فيعود إلى وقته، فلما كانت سنة حجة الوداع وهي سنة تسع من الهجرة عاد الحج إلى وقته اتفاقاً في ذي الحجة كما وضع أولاً، فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه الحج، ثم قال في خطبته التي خطبها يومئذ : "إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض" بمعنى أن الحج قد عاد في ذي الحجة . وفي بعض التعاليق أن سبى العرب كانت موافقة لسبى الفرس في الدخول والأنسلاخ فحدث في أحوالهم انتقالات فسد عليهم بها الكبس في أول السنة السادسة من ملك أغبطش، وذلك بعد ملك ذي القرنين بمائتين وثمانين سنة وأربعين يوماً فسبوا كبس

الربع من ذلك اليوم في كل سنة فصارت سنينهم بعد ذلك الوقت محفوظة المواقيت .
وقيل لم تزل العرب في جاهليتها على رسم ابراهيم واسماعيل عليهما السلام لا تنسأ
سنيها الى أن جاورتهم اليهود في يثرب ، فأرادت العرب أن يكون حجهم في أخصب
وقت من السنة ، وأسهل زمان للتردد بالتجارة فعلموا الكبس من اليهود والله أعلم
أى ذلك كان .

القسم الثاني

الاصطلاحية وهي الشمسية

ومهورها اثنا عشر شهراً كما في السنة الطبيعية إلا أن كل طائفة راعت عدم
دوران سنيها جعلت في أشهرها زيادة في الأيام إما جملة واحدة وإما متفرقة وسمتها
سنيًا بحسب ما اصطاحوا عليه كما ستقف عليه في مصطلح كل قوم إن شاء الله تعالى .
وعدد أيامها عند جميع الطوائف من القبط ، والفرس ، والسريان ، والروم ، وغيرهم
الثانية يوم وخمسة وستون يوماً وربع يوم ، فتكون زيادتها على العربية عشرة أيام
وثمانية أعشار يوم وخمسة أسداس يوم . وقد قال بعض حذاق المفسرين في قوله
تعالى : **رَبُّوْاْ لِيَوْمِ نَلْتَمِثُهُمْ ثَلَاثِمِائَةَ سِنِينَ دَارِدُواْ تِسْعًا** : إنه إن حمل على السنين
القمرية فهو على ظاهره من العدد ، وإن حمل على السنين الشمسية فالتسع الزائدة
هي تفاوت زيادة الشمسية على القمرية ، لأن في كل ثلثمائة سنة تسع سنين لا تحل
بالحساب أصلاً .

قال صاحب "مناجح الفكر" ولذلك كانوا في صدر الإسلام يُسقطون عند رأس
كل ثلاث وثلاثين سنة عربية سنة ويسمونها سنة الأزدلاف ، لأن كل ثلاث
وثلاثين سنة عربية اثنتان وثلاثون سنة شمسية تقريباً . قال وإنما حملهم على ذلك
الفرار من اسم النسيء الذي أخبر الله تعالى أنه زيادة في الكفر

ثم المعتبرون السنة الشمسية اختلفت مصطلحاتهم فيها بحسب اختلاف مقاصدهم .
المصطلح الأول - مصطلح القبط ، وقد اُصطلحوا على أن جعلوا شهرهم ثلاثين يوماً كما تقدم ، فإذا انقضت الأثنا عشر شهراً أضافوا إليها خمسة أيام يسمونها أيام النسيء ، يفعلون ذلك ثلاث سنين متوالية ، فإذا كانت السنة الرابعة أضافوا إلى خمسة النسيء المذكورة ما اجتمع من الربع يوم الزائد على الخمسة أيام في السنة الشمسية فتصير ستة أيام ، ويجعلونها كبسة في تلك السنة ، وبعض ظرفائهم يسمي الخمسة المزيدة السنة الصغيرة .

قال أصحاب الزيجات : وأول استدائهم ذلك في زمن أغشطش . وكانوا من قبل يتركون الربع إلى أن تجتمع أيام سنة كاملة وذلك في ألف سنة وأربعمائة وإحدى وستين سنة ويسقطونها من سنينهم ؛ وعلى هذا المصطلح استقر عمائم بالديار المصرية في الإقطاعات ، والزرع ، والحراج ، وما شاكل ذلك .

المصطلح الثاني - مصطلح الفرس ، وشهورهم كشهور القبط في عدد الأيام على ما تقدم ، فإذا كان آخر شهر أبان ماه ، وهو الشهر السابع^(١) من شهورهم أضافوا إليه الخمسة الأيام الباقية وجعلوه خمسة وثلاثين يوماً ، وتسمى الفرس هذه الأيام الخمسة : الاندركاه ؛ ولكل يوم منها عندهم اسم خاص كما في أيام الشهر ؛ ولما لم يميز في معتقدتهم كبس السنة بيوم واحد بعد ثلاث سنين كما فعل القبط كانوا يؤثرون^(٢) إلى أن يتم منه في مائة وعشرين سنة شهراً كامل فيلقونه ، وتسمى السنة التي يثرون بها بهرك ، قال المسعودي في "مروج الذهب" : وإنما أخرجوا ذلك إلى مائة وعشرين سنة لأن أيامهم كانت سعوداً ونحوساً فكريهوا أن يكبسوا في كل أربع سنين يوماً فنقل بذلك أيام السعود إلى أيام النحوس ، ولا يكون النيروز أول يوم من الشهر

(١) سعود - الثامن كما يعلم مما تقدم . (٢) في مروج الذهب - الحارك ، وفي النور - بهرك

وعلى هذا المصطلح كان يُجى الخراج للخلفاء، وتمشى الأحوال الديوانية في بداية الأمر، وعليه العمل في العراق وبلاد فارس الى الآن .

المصطلح الثالث - مصطلح السريان ، وشهورهم على ما تقدم من كونها تارة ثلاثين يوما وتارة زائدة عليها، وتارة ناقصة عنها، وإنما فعلوا ذلك حتى لا يلحقهم النسيء في شهورهم إذ الأيام الخمسة المذكورة الزائدة على شهور القبط والفريس موزعة على رؤوس الزوائد من شهورهم ، وذلك أن من شهورهم سبعة أشهر يزيد كل شهر منها يوما على الثلاثين وهي تشرين الأول، وكانون الأول، وكانون الثاني، وآذار، وأيار، وتموز، وآب، فتكون الزيادة سبعة أيام يكمل منها شباط وهو ثمانية وعشرون يوما بيومين يبقى خمسة أيام ، وهي نظير النسيء في سنة القبط والفريس ، ويبقى بعد ذلك الربع يوم الزائد على الخمسة أيام في السنة الشمسية ، فإذا انقضت ثلاث سنين متواليات جمعوا الأرباع الثلاثة الملقاة الى الربع الرابع فيجتمع منها يوم فيجملونه نظير اليوم الذي كبسه القبط ويضيفونه الى شباط ، فيصير تسعة وعشرين يوما .

المصطلح الرابع - مصطلح اليهود ، وشهورهم وإن كانت قمرية كالعربية كما تقدم فقد اضطروا الى أن تكون سنهم شمسية لأنهم أمروا في التوراة أن يكون عيد الفطر في زمان الفريك فلم يأت لهم ذلك حتى جعلوا سنهم قسمين : الأول بشيطا ومعناه بسيطة وهي القمرية ، والثاني معبارة ، ومعناه كيسة وهم يكبسون شهرا كاملا ، ومعبارة اسم موضوع عندهم على الكامل ، فانه لما كان في بطنها زيادة عليها كانت هذه السنة مثلها باضافة الشهر المكبوس اليها ، وكل واحدة من السنين ثلاثة أرباع أحدها حسارين ومعناه ناقصة ، وهي التي يكون الشهر الثاني والثالث منها (وهما مرحشوان وكسلا) ناقصين ، وكل واحد منهما تسعة وعشرون

يوما ، والنوع الثانى شلاميم ومعناه تاممة ، وهى التى يكون فيها كل شهر من الشهرين المذكورين تاما ، والنوع الثالث كسدران . معناه معتدلة ، وهى التى تكون أشهرها ناقص يتلوه تام ، وهذا يلزم من جهة أنهم لا يميزون أن يكون رأس سنتهم يوم أحد ولا يوم أربعاء ولا يوم خميس .

وأما معبارت فانها تكون فى كل تسع عشرة سنة سبع مرات ، وبسمون الجملة مخزورا ومعناه الدور ، وهذه السبعة لا تكون على التوالى ، وإنما تكون تارة سنتان بشيطان يتلوهما معبارت ، وتارة سنة بشيطا يتلوهما معبارت ، كل ذلك حتى لا تخرم عليهم قاعدة الثلاثة أيام التى لا يختارونها أن تكون أول سنتهم ، فاذا انقضى آذار من هذه السنة كبسوا شهرا وسموه آذار الثانى ، فإذا انقضت التسع عشرة سنة أعادوا دورا ثانيا وعمِلوا فيه كذلك وعلى هذا أبدا .

أما مصطلح المنجّمين فالسنة عندهم من حُلُول الشمس فى أول نقطة من رأس الحمل الى حلولها فى آخر نقطة من الحوت ، ومنهم من يجعلها من حلول الشمس فى أول نقطة من رأس الميزان الى حلولها فى آخر نقطة من السُّنْبِلَة ، والأقول هو المعروف . وتساهل بعضهم فقال : هى من كون الشمس فى نقطة ما من فلّك البروج الى عودها الى تلك النقطة ، ويقال إن سنة الجند والمرزقة بالديار المصرية كانت أولا على هذا المصطلح ، وبه يعملون فى الإقطاعات ونحوها .

الجملة الثالثة

في فصول السنة الأربعة وفيه ثلاثة مَنَاهِج

المَهْيَعُ الأول

في الحكمة في تغيير الفصول الأربعة في السنة

وأعلم أن النُصُولَ تختلف بحسب اختلاف طبائع السنة لتباين مصاح أوقاتها
حكمة من الله تعالى . قال بطليموس : تحتاج الأبدان الى تغيير الفصول ، فالشَّاء
للتجميد ، والصفى للتَّحليل . والخريف للتَّدرِج ، والربيع للتَّعْدِيل . وعلى ذلك
يُبدل : إن أصل وَضْع الحَمَام أربعة بيوت بعضها دون بعض على التدرِج ترتيبها
على الفصول الأربعة .

المَهْيَعُ الثاني

في كيفية انقسام السنة الشمسية الى الفصول

وأعلم أن دائرة مسطرة البروج لما قاطعت دائرة معدل النهار على نقطتين متقابلتين
مالَ عنهما في جهتي الشمال والجنوب بقدر واحد ، فالنقطة التي تجوزُ عليها الشمس
من ناحية الجنوب الى الشمال عن معدل النهار تسمى نقطة الاعتدال الربيعي ،
وهي أول الحَمَام ، والنقطة التي تجوزُ عليها من الشمال الى الجنوب تسمى نقطة الاعتدال
الخريفي وهي أول المِيزَان . ويتوهم في الفلك دائرة ثالثة معترضة من الشمال الى
الجنوب تمر على أقطاب تقابل الدائرة المخطوطة على التلكين تنقطع كل واحد من
فلك معدل النهار وفلك البروج بنصين ، فوجب أن يكون قطعها لشك البروج على

(١) لغة من منها في جهة الشمال والآخر في جهة الجنوب كما يستند من الشريرى .

النقطتين اللتين هما في غاية الميل والبعد عن معدّل النهار في جهتي الشمال والجنوب فتسمى النقطة الشمالية نُقْطَةُ الْمُنْتَلَبِ الصَّيفِيِّ وهي أول السرطان؛ وتسمى النقطة الجنوبية نُقْطَةُ الْمُنْتَلَبِ الشِّتَوِيِّ، وهي أول الجدي. واختلاف طبائع النصول عن حركة الشمس وتقلُّها في هذه النقط، فانها اذا تحركت من الحمل، وهو أول البروج الشمالية أخذ الهواء في السخونة لقرينها من سمت الرؤوس وتواتر الإسخان الى أن تصل الى أول السرطان، وحينئذ يشتد الحر في السرطان والأسد الى أن تصل الى الميزان، فحينئذ يطيب الهواء ويعتدل؛ ثم يأخذ الهواء في البرودة ويتواتر الى أول الجدي، وحينئذ يشتد البرد في الجدي والدلو لبعد الشمس من سمت الرؤوس الى أن تصل الى الحمل فتعود الشمس الى أول حركتها.

المهيع الثالث

في ذكر الفصول، وأزمنتها، وطبائعها، وما حصة كل فصل منها

من البروج والمنازل؛ وهي أربعة فصول

الأول - فصل الربيع - وابتدأه عند حلول الشمس برأس الحمل. وقد تقدم ومدته أحد وتسعون يوماً وربع يوم ونصف ثمن يوم. وأوله حلول الشمس رأس الحمل، وآخره عند قطعها بربيع الجوزاء؛ وله من الكواكب القمر، والزهرة، ومن المنازل السرطان، والبطين، والثريا، والدبران، والمتعة، والمنعة، والأراع بما في ذلك من التداخل كما صر؛ ومن الساعات الأولى والثانية والثالثة؛ ومن الرياح الجنوب؛ وطبعه حار رطب؛ وله من السن الطقويانية والحدائث؛ ومن الأغلاط الدم، ومن القوى الماضمة. وفيه تتحرك الطبائع، وتظهر المواد المتولدة في الشتاء، فيطلع النبات، وتزهّر الأشجار وتورق، ويهيج الحيوان للسفاد، وتدوب الثلوج،

وَتَتَّبِعُ الْعُيُونُ ، وَتَسِيلُ الْأُودِيَةُ ، وَأَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرَفَهَا وَأَزْيَنْتُ فَتَصِيرُ كَأَنَّهَا
عَرُوسٌ تَبَدَّتْ لِحُطَّابِهَا ، فِي مُصَيَّبَاتِ ثِيَابِهَا ، وَيُقَالُ : إِذَا نَزَلَتِ الشَّمْسُ رَأْسَ
الْحَمَلِ نَصَرَمَ الشِّتَاءُ ، وَتَنَفَّسَ الرَّبِيعُ ، وَاجْتَالَتِ الْأَرْضُ فِي وَشْيِهَا الْبَدِيعُ ، وَتَبَرَّجَتْ
لِلنَّظَارَةِ فِي مَعْرِضِ الْحُسْنِ وَالنَّضَارَةِ .

وَمِنْ كَلَامِ الْوَزِيرِ الْمَغْرِبِيِّ : لَوْ كَانَ زَمَنُ الرَّبِيعِ شَخْصًا لَكَانَ مُقْبَلًا ، وَلَوْ أَنَّ
الْأَيَّامَ حَيَوَانَ لَكَانَ لَهَا حَلِيًا وَمُجَلَّلًا ، لِأَنَّ الشَّمْسَ تَخْلُصُ فِيهِ مِنْ ظُلُمَاتِ حُوتِ
السَّمَاءِ ، حَلَاصٌ يُوَسِّسُ مِنْ ظُلُمَاتِ حُوتِ الْمَاءِ ، فَإِذَا وَرَدَتِ الْحَمَلُ وَافَتْ أَحَبَّ
الْأَوْطَانَ إِلَيْهَا وَأَعَزَّ أَمَا كُنْهَا عَلَيْهَا .

وَكَانَ عَبْدُوسُ الْخَزَاعِيُّ يَقُولُ : مَنْ لَمْ يَبْتَهِجْ بِالرَّبِيعِ ، وَلَمْ يَسْتَمْتِعْ بِأَنْوَارِهِ
وَلَا اسْتَرَوَحَ بِسِيمِ أَزْهَارِهِ ، فَهُوَ فَاسِدُ الْمِرْزَاجِ ، مُحْتَاجٌ إِلَى الْعِلَاجِ .

وَيُرْوَى عَنْ بَقْرَاطِ الْحَكِيمِ مِثْلَهُ ، وَفِيهِ بَدَلُ قَوْلِهِ : "فَهُوَ فَاسِدُ الْمِرْزَاجِ" فَهُوَ عَدِيمٌ
حَسَنٌ ، أَوْ سَقِيمٌ نَفْسٌ . وَجَلَّالَةَ مَحَلِّ هَذَا الْفَصْلِ فِي الْقُلُوبِ ، وَلِنَزْوَلِهِ مِنَ النُّفُوسِ
مَنْزِلَةَ الْكَاعِبِ الْخَلُوبِ ، كَانَتْ الْمَلُوكُ إِذَا عَدِمْتَهُ اسْتَعْمَلَتْ مَا يُضَاهِي زَهْرَهُ مِنْ
الْبُسُطِ الْمَصُورَةِ الْمُنْقَشَةِ ، وَالنَّمَارِقِ الْمُنْقُوشَةِ الْمَرْقُوشَةِ . وَفَدَّ كَانَ لِأَنَّهُ شَرُوانَ بَسَاطِ
يُسَمِّيهِ بَسَاطَ الشِّتَاءِ ، مَرَّصَعٌ بِأَزْرَقِ الْبَيَاقُوتِ وَالْجُوهَاوِرِ ، وَأَصْفَرُهُ وَأَبْيَضُهُ وَأَحْمَرُهُ ،
وَفَدَّ جَعَلَ أَحْضَرُهُ مَكَانَ أَغْصَانِ الْأَشْجَارِ ، وَالْوَانِيَهُ بِمَوْضِعِ الزَّهْرِ وَالنَّوَارِ ، وَلَمَّا أُخِذَ
هَذَا الْبَسَاطُ فِي مَخْلَافَةِ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي وَاقِعَةِ الْقَادِسِيَّةِ ، حُمِلَ إِلَيْهِ
فِي أَوَّلِهِ قَوْلُهُ لِي السَّلَامِينَ بِ قَلَمًا آه قَالَ : "إِنَّ أُمَّةً آذَتْ هَذَا النَّبِيَّ أَمِيرَهَا لِأَمِينَةٍ"
فِي رَفِيعِ مَنَّةٍ نَعَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قِطْعَةً فِي قِسْمِهِ مَفْدَارَهَا شَبْرًا فِي شَبْرٍ فَبَاعَهَا بِخَمْسَةِ
عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ .

وقد أظن الناس في وصف هذا الفصل ومدحه ، وأتوا بما يقصر عن شرحه ،
وتغالى الشعراء فيه غاية التغالى ، وفضلوا أيامه ولياليه على الأيام والليالي ، وما أحلى
قول البحري :

أناك الربيعُ الطلقُ يَحْتالُ ضاحكًا * من الحُسنِ حتى كاد أن يتكلمًا
وقد نبه النوروزُ في غسقِ الدجى * أوائلَ وردٍ كُنَّ بالأمسِ نومًا
يفتحها بردُ الندى فكأما * يثُ حديثًا ينهزُ مكنًا
ومن شجرِ ردِّ الربيعِ رداءه * كما نَشَرَتْ ثوبًا عليه مُنمًا
أحلَّ فأبدى للعيونِ بشاشةً * وكان قَدَى للعينِ إذ كان محرمًا
ورقٌ نسيمِ الجوّ حتى كأما * يجيءُ بأنفاسِ الأحياءِ نعامًا

وأحلى منه قول أحمد بن محمد العلوي :

أو ما ترى الأيامَ كيف تَبَرَّجتُ * وربيعها والِ عليها قَمِيمُ
لَيْسَتْ بِـ الأَرْضِ الجمالِ حُسْنِها * متأزرٍ ببرودِهِ متعممِ
أنظرِ الى وُشَى الرِّياضِ كأنه * وشى تنشره الأُكفُ يَمِمْ
والنورِ يهوى كالعتودِ تبددتُ * والوردُ يَجَلُّ والأواحي تَسِمْ
والطلُّ يَنْظُمُ فوقهنَّ لآئِنًا * قد زانَ منهنَّ الفَرادى التوَمِ
ويكاد يذرى الدَمعَ نرجسها اذا * أضْحى وَيَقْطُرُ مِنْ شَتَائِقِهَا الدَمِ

ومنها :

أَرْضٌ تُباهيها السماءُ اذا دَجَا * ليلٌ ولاحتُ في دجَاهِها الأَنجمِ
فإخضرةِ الجوّ أخضرارُ رِياضِها * ولزهرِ زَهَرٍ ونورِ نَجْمِ
وكا يُسَقُّ سَنَا المَجَرَّةِ جَرَهُ * وادٍ يُسَقُّ الأَرْضَ طامِ مَنْعَمِ
لم يبقِ إلا الدهرُ إذ باهتَ به * رَحِيًا يَجُودُ بِهِ مِلثُ عَرْمِمْ

وقول الآخر :

طَرَقَ الحَيَاءُ بِبِرِّهِ المَشْكُورِ * أَهْلًا بِهِ مِنْ زَائِرٍ وَمُزُورِ
 وَحَبَابِ الرِّيَاضِ غَالِيَةً مِنْ وَشِيهِ * بَغَائِبِ التَّفْوِيفِ وَالتَّجْبِيرِ
 وَأَعَارَهَا حَلِيًا تَأْتِي الغَيْثُ فِي * تَرِصِيعِهِ بِجَوَاهِرِ المَنْشُورِ
 بِمُورِدِ كُورِدِ اليَاقُوتِ قَا * رَبِّ أَيْضًا كَمَصَاعِدِ الكَافُورِ
 وَمُعْصَفِ شَرِيقِ وَأَصْفَرِ فَاقِعِ * فِي أَخْضَرِ كَالسُّنْدِيسِ المَنْشُورِ
 فَكَأَنَّ أَرْزَقَهُ بَقَايَا إِمِيدِ * فِي أَعْيُنِ مَكْحُولَةٍ بِمَنْشُورِ
 كَلَّمَتْ صِفَاتُ الزَّهْرِ فِيهِ فَنَابَ عَمَّ * مَا غَابَ مِنْ أَنْوَاعِهِ بِمُحْضُورِ

وقول الآخر :

أَشْرَبَ حَنِينًا قَدْ أَتَاكَ زَمَانُ * مَتَعَطَّرَ مَتَهَلَّلَ نِسْوَانُ
 فَالْأَرْضُ وَشَى والنَّسِيمُ مَعْتَبِرُ * وَالْمَاءُ رَاحُ وَالطَّيُورُ قِيَانُ

الثاني - فصل الصيف : وهو أحد وتسعون يوماً وربع يوم ونصف يوم
 وابتداءه إذا حلت الشمس رأس السرطان ، وانتهائه إذا أتت على آخر درجة من
 السنبلية ، فيكون له من البروج السرطان ، والأسد ، والسنبلية . وهذه البروج تدل
 على السكون ، وله من الكواكب المريخ والشمس ، ومن المنازل النثرة ، والطرف ،
 والحيبة ، والزبرة ، والصرفة ، والعماء ، والسمك يتداخل فيه ، وله من الساعات
 الابعة والخامسة والسادسة ، ومن الرياح الضياء ، وطبعه حار يابس ، وله من السن
 الشبابة ، ومن الأخلاط المرة الصفراء ، ومن القوى القوة النفسية والحيوانية .
 والمعرب في هذا الفصل وغمرات : وهي الحور ، ومنها وغرة الشعرى ، وغرة
 الجوزاء ، وغرة السيل . أيضا قوامها حرا ، يقال إن الرجل في هذه الوغرة يعطش
 بين الحوض والحدود ، ما طلع سمبل سميت الوغرات ، وتسمى الرياح التي في هذه

الوَعْرَاتِ الْبَوَارِحَ ، سُمِّتَ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَأْتِي مِنْ يَسَارِ الْكَعْبَةِ كَمَا بَرَحَ الظُّبِيُّ إِذَا أَتَاكَ مِنْ يَسَارِكَ ، وَقَدْ أُولِعَ النَّاسُ بَيْنَ لَفَحَاتِ الْحَرِّ وَسُمُومِهِ ، وَأَتُوا فِيهِ بِيَدَائِعَ تَقْلَعُ مِنْ قَلْبِ الصَّبِّ غَمَامَ غُمُومِهِ . وَفِي ذَلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ : أَوْقَدْتَ الظَّهِيرَةَ نَارَهَا ، وَأَذَكْتَ أَوَارَهَا ، فَأَذَابَتْ دِمَاعَ الصَّبِّ ، وَأَلْهَبَتْ قَلْبَ الصَّبِّ ؛ هَاجِرَةٌ كَأَنَّهَا مِنْ قُلُوبِ العُشَّاقِ ، إِذَا اشْتَعَلَتْ فِيهَا نَارُ الْفِرَاقِ ؛ حَرَّتْهُرْبُ لَهُ الحِرْبَاءُ مِنَ الشَّمْسِ ، وَتَسْتَجِيرُ بِمَتْرَاكِمِ الرَّمْسِ ؛ لَا يُطِيبُ مَعَهُ عَيْشٌ ، وَلَا يَنْفَعُ مَعَهُ تَلْجٌ وَلَا خَيْشٌ ؛ فَهُوَ كَالْقَلْبِ الْمَهْجُورِ ، أَوْ كَالنُّورِ الْمَسْجُورِ . وَوَصَفَ بَعْضُهُمْ ، وَهُوَ ذُو الرِّمَّةِ ، حَرَّ هَاجِرَةَ فَقَالَ :

وَهَاجِرَةٌ حَرَّتْهَا وَاقِدٌ * نَصَبْتُ لِحَاجِبِهَا حَاجِبِي

تَلَوُّدٌ مِنَ الشَّمْسِ أَطْلَاؤُهَا * لِيَأْذَ الْغَرِيمِ مِنَ الطَّالِبِ

وَتَسْجُدُ لِلشَّمْسِ حِرْبَاءُهَا * كَمَا يَسْجُدُ الْقَسُّ لِلرَّاهِبِ

وَقَالَ سَوَّارُ بْنُ الْمُضَرِّسِ :

وَهَاجِرَةٌ تُسْتَوَى بِالسَّمُومِ * جَنَانِهَا فِي رُؤُوسِ الْأَكْمِ

إِذَا المَوْتُ أَخْطَأَ حِرْبَاءَهَا * رَمَى نَفْسَهُ بِالْعَمَى وَالصَّمَمِ

وَقَالَ أَبُو العَلَاءِ المَعْرِي :

وَهَجِيرَةٌ كَالْمَجْرِمِ مَوْجِ سَرَابِهَا * كَالْبَحْرِ لَيْسَ لِمَائِهَا مِنْ طُحْلِبِ

وَإِنِّي بِهِ الحِرْبَاءُ عُوْدِي مَنِيرٌ * لِلظُّهْرِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَخْطُبِ

وَقَالَ آخَرُ :

وَرَبُّ يَوْمٍ حَرَّهُ مَنِيضِجٌ * كَأَنَّهُ أَحْشَاءُ ظَمَانِ

كَأَنَّهَا الأَرْضُ عَلَى رَضْفَةٍ * وَالجَوْ مَحْشُوٌّ بِسِيرَانِ

وَبَالِغُ الأَمِيرِ نَاصِرُ الدِّينِ بْنِ الفَقَيْسِيِّ فَقَالَ مِنْ أَيْيَاتِ :

فِي زَمَانٍ يَسُومِي الوُجُوهَ بِمَسْرٍ * وَيُذَيِّبُ الجُسُومَ لَوْ كُنَّ صَخْرًا

لَا تَطِيرُ النَّسُورُ فِيهِ إِذَا مَا * وَقَفَتْ شَمْسُهُ وَقَارَبَ ظُهُرًا
يَسْتَكِي الضَّبُّ مَا اشْتَكَى الصَّبُّ فِيهِ * وَلِحَرْبَانِهِ إِلَى الظِّلِّ حَرًّا
وَيَبُودُ الغُصْنُ الرَطِيبُ بِهِ لَوْ * أَنَّهُ مِنْ لِحَائِهِ يَتَعَرَّى
وقال أيضا يصف ليلة شديدة الحر :

يَا لَيْلَةً بَتَّ بِهَا سَاهِرًا * مِنْ شِدَّةِ الحَرِّ وَفَرَطِ الأَوَارِ
كَأَنِّي فِي جُنْحِهَا مُحْرِمٌ * لَوْ أَنَّ لِلْعَوْرَةِ مِنِّي أَسْتِنَارُ
وَكَيْفَ لَا أَحْرِمُ فِي لَيْلَةٍ * سَمَاؤُهَا بِالشَّهْبِ تَرْمِي الجِمَارُ

على أن أبا علي بن رشيح قد فضله على فصل الشتاء فقال :

فَصَلُّ الشِّتَاءِ مُبِينٌ لَا خَفَاءَ بِهِ * وَالصَّيْفُ أَفْضَلُ مِنْهُ حِينَ يَغْشَاكَ
فِيهِ الَّذِي وَعَدَ اللهُ العِبَادَ بِهِ * فِي جَنَّةِ الخُلْدِ إِنْ جَاءُوه نَسَاكَ
أَنْهَارُ نَحْرِ وَأَطْيَارٌ وَفَاكِهَةٌ * مَا شِئْتَ مِنْ ذَا وَمِنْ هَذَا وَمِنْ ذَاكَ
فَقُلْ لِمَنْ قَالَ لَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَكُ ذَا * إِذَا تَهَضَّضْتَ عَلَى أَنْحَاكَ دُنْيَاكَ
سَمَّ الشِّتَاءَ بَعْبَاسٍ يُصَبُّ غَرَضًا * مِنَ الصَّوَابِ وَسَمَّ الصَّيْفَ ضَحَاكَ

الثالث - فصل الحريف ، وهو أحد وتسعون يوما وربع يوم ونصف ثمن

يوم . وأقله عند حلول الشمس رأس الميزان ، وذلك في الثامن عشر من توت وإذا
بقي من أيلول ثمانية أيام ، وانحدرت إذا أتت الشمس على آخر درجة من القوس ،
فيكون له من البروج الميزان والعنبر والقوس ، وهذه البروج تدل على الحركة ،
وله من الكواكب زحل ، ومن الساعات السابعة والثامنة . والطالع فيه مع النجم
من المنزل العنبر والزبان والإكيل والتلب والشولة والنعام والبلدة يتداخل فيه .
وهو بارد يابس ، له من السن الكهنوتية ، تهب فيه المرة السوداء ، وتقوى فيه القوة
المسكنة ، وتهب فيه الرياح الشمالية ، وفيه يبرد الهواء ، ويتغير الزمان ، وتصرم

الثَّارُ، ويتغير وجهُ الأرض، وتهزل البهائم، وتموت الهوام، وتجحر الحشرات، ويطلب الطير المواضع الدفينة، وتصير الأرض كأنها كهلةٌ مذبذبة. ويقال: فصل الخريف ربيعُ النفس كما أن الربيع ربيعُ العين، فإنه ميقاتُ الأقوات، وموسمُ الثَّار، وأوانُ شَبَابِ الأشجار، وللنفوس في آثاره مَرَبَعٌ، وللبُحُوم بمواقع خيراته مستمتع. وقد وصفه الصَّابي فقال الخريف أصحُّ فصول السنة زماناً، وأسهلها أواناً، وهو أحد الاعتدالين المتوسطين بين الانقلابين، حين أبدت الأرض عن ثمرتها، وصرحت عن زبدتها، وأطلقت السماء حوافل أنوائها، وآذنت بانسكاب مائها، وصارت المَوارِدُ، كمتون المَبارِدِ، صفاءً من كدرها، وتهذباً من عكرها، وأطراداً مع نفحات الهواء، وحركات الرياح الشَّجْواءِ، وأكنت الماشية وبرها القشيب، والطارر ريشه العجيب.

ومن كلام ابن سبيل: كلُّ ما يظهر في الربيع نُوارُهُ ففي الخريف تُجتنى ثمارُهُ.
وقال أبو بكر الصنوبري:

ما قضى في الربيع حقَّ المسرِّ * ت مضيقٌ لحقها في الخريف
نحن منه على تلقى شتاءٍ * يوجب القصف أو وداع مصيف
في قميص من الزمان رقيقٍ * ورداء من الهواء خفيف
يرعد المساء فيه خوفاً إذا ما * لمسته يد النسيم الضميف

وقال ابن الرومي يصفه:

لولا فواكه أيلول إذا اجتمعت * من كل فن ريق الهوى والند
إذا لما حفلت نفسي إذا اشتملت * على هائل الحالين غبراء
ياحبذا ليل أيلول إذا بردت * فيه مضاجعنا والريح شجواء
وحش القرفيد الجلد والتأمت * من السجيمين أجسام وأحشاء

وَأَسْفَرَ الْقَمْرَ السَّارِيَ بَصْفَحْتِهِ * يُرَى لَهَا فِي صَفَاءِ الْمَاءِ لَأْلَاءُ
بَلْ حَيْدًا نَفْحَةً مِنْ رِيحِهِ سَحْرًا * يَا تُبَيْكُ فِيهَا مِنَ الرَّيْحَانِ أَنْبَاءُ
قُلْ فِيهِ مَا شِئْتُمْ مِنْ فَضْلِ تَعَهْدُهُ * فِي كُلِّ يَوْمٍ يَدُّ لِي بِرَبِّهِ بَيْضَاءُ

وقال عبد الله بن المعتز يصفه ويفضله على الصيف من أبيات :

طَابَ شُرْبُ الصَّبُوحِ فِي أَيْلُولٍ * بَرَدَ الظِّلُّ فِي الضُّحَى وَالْأَصِيلِ
وَحَبَّتْ لَفْحَةُ الهَوَاجِرِ عَنَّا * وَأَسْتَرَحْنَا مِنَ النَّهَارِ الطَّوِيلِ
وَنَحْرَجْنَا مِنَ السَّدُومِ إِلَى بَرٍّ * دِ نَسِيمٍ وَطَيْبِ ظِلِّ ظَلِيلِ
فَكَأَنَّا نَزْدَادُ قَرِيبًا مِنَ الْخَيْدِ * فِي كُلِّ شَارِقٍ وَأَصِيلِ
وَرُجُوهُ الْبِقَاعِ تَنْظُرُ الْغَيْدِ * مَتَّ أَنْظَارَ النَّجَبِ رَدَّ الرَّسُولِ

ومثرب منه قول الأعرابي :

أَشْرَبْتُ عَلَى طَيْبِ الزُّوَالِ فَقَدْ حَدَا * بِالصَّيْفِ لِلنَّدْمَانِ أَطْيَبُ حَادِ
وَأَشْمَنَا بِالْأَيْسِلِ بَرَدَ نَسِيمِهِ * فَارْتَأَسَتِ الْأَرْوَاحُ فِي الْأَجْسَادِ
وَأَفَاكَ بِالْأَنْدَاءِ قَبْلَ أَمِّ الْحَيَا * فَالْأَرْضُ لِلْأَمْطَارِ فِي اسْتِعْدَادِ
كَمْ فِي عُنَائِرِ تَرْبِهَا مِنْ رَوْضَةٍ * بِمَسِيلِ مَاءٍ أَوْ قَرَارَةٍ وَادِ
نَدُّوا إِذَا جَاءَ السَّحَابُ بِقَطْرِهِ * فَكَأَنَّمَا كُنَّا عَلَى مِعَادِ

ومما يقرب منه قول جحظة البرمكي :

لَا تَصْغَعِ لِلْوَمِّ إِنْ اللَّوْمُ تَضَلِيلُ * وَأَشْرَبْتُ فَنِي الشُّرْبِ لِلْأَحْزَانِ تَحْلِيلُ
فَقَدْ مَضَى الْقَيْظُ وَأَجْتَنَّتْ رَوَاحِلُهُ * وَطَابَتْ الرِّيحُ لِمَا آلَ أَيْلُولُ
وَأَيْسُ فِي الْأَرْضِ بَيْتٌ يُشْتَكَى مَرَّهَا * إِلَّا وَنَاظِرُهُ بِالطَّلِّ مَكْحُولُ

وراجع في وصفه في بينه وبين فصل الربيع فقال في ضمن تهنية لبعض إخوانه

هَبَّتْ أَهْبَالُ الْحَسْرِه * فَوَفَّزَتْ بِالْوَجْهِ الْوَدْنِي

تَمَّ اعْتِدَالًا فِي النِّكَاحِ * لِي بقاء فِي خَلْقِ سَوِيٍّ
فَكَرَى الرَّبِيعَ بِحُسْنِهِ * وَتَسِيمَ رِيَاءَ الذِّكْرِ
وَيَنْبُوبُ وَرَدَ الرَّعْفَرَا * لِي لَهُ عَنِ الْوَرْدِ الْحَسَنِ

وأبلغ منه قول الآخر يفضله على فصل الربيع الذي هو سيد الفصول ورئسها:

مَحَاسِنُ لِلْحَرِيفِ هُنَّ فَخْرٌ * عَلَى زَمَنِ الرَّبِيعِ وَأَيُّ نَحْرٍ
بِهِ صَارَ الزَّمَانُ أَمَامَ بَرْدٍ * يَرَأَقِبُ نَزْحَهُ وَعَقِيبَ حَرِّ

ومع ذلك فالأطباء تدمه لأستبلاء المِزَّةِ السُّودَاءِ فِيهِ، ويقولون: إِنَّ هَوَاءَهُ

رَدِيءٌ مَتَى تَشَبَّثَ بِالْجَسْمِ لَا يُمْكِنُ تَلَافِيهِ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

خُذْ فِي التَّدَثُّرِ فِي الْحَرِيفِ فَإِنَّهُ * مُسْتَوْبِلٌ وَتَسِيمُهُ خَطَأٌ

يَجْرِي مَعَ الْأَيَّامِ جَرَى نِفَاقِهَا * لِصَدِيقِهَا وَمِنَ الصَّدِيقِ يُخَافُ

الرابع - فصل الشتاء وهو أحد وتسعون يوما وربع يوم ويصف من يومه،

ودخوله عند حلول الشمس رأس الجدى، وذلك في الثامن عشر من كيناك وإذا

بقي من كانون الأول ثمانية أيام، وآخره إذا أتت الشمس على آخر درجة من الحوت

فيكون له من البروج الجدى والدلو والحوت، وهذه البروج تدل على السكون،

والطالع فيه مع الفجر سعد الذابح، وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد الأخبية،

والفرع المقدم والفرع المؤخر، والرشاء، فيه تهب رياح الدبور، وهو بارد رطب، فيه

يربيح البلغم، وتضعف قوى الأبدان، له من السن الشيخوخة، ومن القوى البدنية

القوة الدافعة، وفيه يشتد البرد، ويخشى الهواء، ويتساقط ريش الشجر، وتكسر

الحبات، وتكثر الأنواء، ويظلم الجو، وتصير الأرض كأنها تحوي حرمه قد دنا منها

الموت، وله من الكواكب المشتري وعطارد، ومن السمات العاتية والسفادية

عشرة، ويقال إذا حلت الشمس الجدى منذ الشتاء رواقه، وحل بطائه، ودبت

عقاربُ البردِ لايسبة ، وتقع مدخرُ الكسبِ كاسبه . وللبلغاء في وصف حال من أظله ، ملح تدفع عن المقرور متى استعدت بها طأله ووبأه .

فمن ذلك قول بعضهم يصف شدة البرد : برد يغير الألوان ، وينشف الأبدان ، ويحمد الريق في الأشداق ، والدمع في الآماق ؛ بردٌ حال بين الكلب وهريره ، والأسد وزئيره ، والطير وصفيره ، والماء وحريره .

ومن كلام الفاضل : في ليلة جمد نحرها ، ونجمد جمرها ؛ الى يوم تود البصلة لو ازدادت قمتا الى قمصها ، والشمس لو جرت النار الى قرصها ؛ أخذه بعضهم فقال :

ويومنا أرياحه قرة * تخش الأبدان من قرصها
يوم تود الشمس من برده * لو جرت النار الى قرصها

ولابن حكيم بغدادى :

البس اذا قديم الشتاء برودا * وافرش على رغم الحصير لبودا
الريق في الأهوات أصبح جامدا * والدمع في الآماق صار برودا
واذا رميت بفضل كأسك فى الهوا * عادت اليك من العقيق عتودا
وترى على برد المياه طيورها * تختار حر النار والسفودا
يا صاحب العودين لا تهملهما * حرق لنا عودا وحرك عودا

ولبعضهم :

شتاء تبيض الأشداق منه * وبرد يجعل الشبان شيبا
وأرض تولق الأقدام فيها * فما تمشى بها إلا ديبا

ومن كلام الزمخشري :

أقبلت يبرد ببرد أجود * تفعل بالأوجه فعل المبرد

(١) لعله «من» بدليل الى .

أَظَلَّ فِي الْبَيْتِ كَيْثَلُ الْمُقَعِدِ * مُنْقَبِضًا تَحْتَ الْكِسَاءِ الْأَسْوَدِ
لَوْ قِيلَ لِي أَنْتَ أَمِيرُ الْبَلَدِ * فَهَاتِ لِلْبَيْعَةِ كَفًّا يُعْقَدِ

ومن كلام أبي عبد الله بن أبي الحِصَالِ يصف ليلةً باردةً من رسالة: والكلبُ
قد صافحَ خيشومه ذنبه، وأنكر البيتَ وطنبه، والتوى التواءَ الجباب، واستدار
استدارةَ الجباب، وجلده الجليد، وصربه الصَّريب، وصعد أنفاسه الصَّعيد، فحمَاهُ
مُبَاح، ولا هَرِيرٌ ولا نُبَاح.

ومن شعر الحماسة في وصف ليلة شديدة البرد:

فِي لَيْلَةٍ مِنْ جُمَادَى ذَاتِ أُنْدِيَةِ * لَا يُبْصِرُ الْكَلْبُ مِنْ أُنْدَائِهَا الطُّنْبَا
لَا يَنْبَحُ الْكَلْبُ فِيهَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ * حَتَّى يَلْفَ عَلَى خَيْشُومِهِ الذَّنْبَا

ولأبي القاسم التنوخي:

وَلَيْلَةٌ تَرَكَ الْبَرْدُ الْبِلَادَ بِهَا * كَالْقَلْبِ أُسْعِرَ نَارًا فَهُوَ مَثْلُوجُ
فَإِنْ بَسَطْتَ يَدًا لَمْ تَنْبَسِطْ خَصْرًا * وَإِنْ تَقُلْ فَيَقُولُ فِيهِ تَتَّبِجُ
فَنَحْنُ مِنْهُ وَلَمْ نُحْرَسْ ذُو وَنَحْرِسِ * وَنَحْنُ فِيهِ وَلَمْ نُفْلَجْ مَفَالِجُ

وقال بعضهم يصف يوماً بارداً كثير الضباب:

يَوْمٌ مِنَ الزَّمْهِرِيرِ مَقْرُورٍ * عَلَيْهِ جَيْبُ السَّحَابِ مَزْرُورِ
وَشَسُّهُ حَرَّةٌ مُخَدَّرَةٌ * لَيْسَ لَهَا مِنْ ضَبَابِهِ نُورُ
كَأَنَّ الْجِسْمَ حَشُوهُ إِبْرُ * وَالْأَرْضُ مِنْ تَحْتِهِ قَوَارِيرُ

وحكى أن أعربياً اشتد به البرد فأضاءت نار فدنا منها ليصير له وهو يقول:

اللهم لا تحرمنيها في الدنيا ولا في الآخرة: أخذه بعضهم فقال وهو في غاية النبالة:

أَيَّارَبِّ إِنْ الْبَرْدَ أَصْبَحَ كَالِحًا * وَأَنْتَ بِحَالِي عَالِمٌ لَا تَسْلَمُ
فَإِنْ كُنْتَ يَوْمًا مَدْخِلٌ فِي جَهَنَّمَ * ففِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ طَابَتْ جَهَنَّمُ

وقد اعتنى الناس بمدحه فقال بعضهم : لو لم يكن من فضله إلا أنه نيب فيه
الهوام ، وتنجح الحشرات ، ويموت الدباب ، ويبك العوض ، ويرد الماء ، ويسخن
الحرى ، ويطيب العناق ، ويظهر الفرش ، ويكثر الدخن ، وتلذ جمره البيت لكفى .
وتأمله بعض الشعراء فقال :

تركت مقدمة الخريف حميده * وبدا الشتاء جديده لا ينكر
مطر يروق الصحو منه وبعده * صحو يكاد من الغضارة ينطر
غيثان والأنواء غيث ظاهر * لك وجهه والصحو غيث مضممر

يقال أبو الفتح كشافم :

أذن الشتاء بلهيه المستقبل * فذنت أوائله غيث مسبل
مكائيف الأنواء منغديق الحيا * هطل الندى هزج الرعود يججل
حانت نزل الجذب فيه فبشرت * بانحصب أنواء السماء الأعزل

وقد ولع الناس بذكر الاعتداد لها قديما وحديثا .

قيل لأعرابي : ما أعددت للبرد؟ فقال : طول الرعدة ، وتقرفص القعدة ، وذوب^(١)

المعدة . أخذه ابن سكرة ، فقال :

قيل ما أعددت للبر * د وقد جاء بشدة
قلت ذراعاً عري * تحتها جبة رعدة

وأعلم أن ما تقدم من أزمان الفصول الأربعة هو المصطلح المعروف ، والطريق
المشهور . وقد ذكر الأبي في كتاب الدر : أن العرب فسمت السنة أربعة أجزاء ففعلوا
الجزء الأول الصيفية ، وسموا مطره الوسمى ، وأوله عندهم سقوط عرقوة الدلو
السفي ، وآخره سقوط الحقة ، وجعلوا الجزء الثاني الشتاء ، وأوله سقوط الحقة ،

(١) فعل سواب ، وذوب ، بالراء بدل الواو .

وآخره سقوط الصرفة . وجعلوا الجزء الثالث الصيف ، وأوله سقوط العواء وآخره سقوط الشولة . وجعلوا الجزء الرابع القيظ ، وسموا مطره الخريف ، وأوله سقوط النعائم ، وآخره سقوط عرقوة الدلو العليا .

وذکر ابن قتیبہ فی "أدب الكاتب" طريقاً آخر فقال :

الربيع يذهب الناس الى أنه الفصل الذي يتبع الشتاء ويأتي فيه الورد والكفاة والنور ، ولا يعرفون الربيع غيره . والعرب تختلف في ذلك فمنهم من يحصل الربيع الفصل الذي تدرك فيه الثمار وهو الخريف ، وبعد فصل الشتاء ، ثم فصل الصيف وهو الوقت الذي تسميه العامة الربيع ، ثم فصل القيظ وهو الذي تسميه العامة الصيف ، ومنهم من يسمي الفصل الذي تدرك فيه الثمار وهو الخريف الربيع الأول ، ويسمى الفصل الذي يلي الشتاء وتأتي فيه الكفاة والنور الربيع الثاني ، وكلهم مجمعون على أن الخريف هو الربيع

وفي بعض التعليقات أن من العرب من جعل السنة ستة أزمنة . الأول الوسمي وحصته من السنة شهران ، ومن المنازل أربع منازل وثلاثا منزلة وهي العواء ، والسمك والغفر ، والزبانان ، وثلاثا الإكليل . الثاني الشتاء ، وحصته من السنة شهران ، ومن المنازل أربع منازل وثلاثا منزلة وهي ثلث الإكليل ، والقلب ، والشولة ، والنعائم ، والبلدة ، وثلاث الذابح . الثالث الربيع ، وحصته من السنة شهران ، ومن المنازل أربع منازل وثلاثا منزلة ، وهي ثلاث الذابح ، وبلع ، والسعود ، والأخبيسة ، والفرع المقدم . الرابع الصيف ، وحصته من السنة شهران ، ومن المنازل أربع منازل وثلاثا منزلة ، وهي الفرع المؤخر ، وبطن الحوت ، والشيطان ، والبطين ، وثلاث الثريا . الخامس الحميم ، وحصته من السنة شهران ، ومن المنازل أربع منازل وثلاثا منزلة وهي ثلث الثريا ، والدبران ، والحقعة ، والهنعة ، والذراع وثلاث الثرة . السادس

الخریف، وحصته من السنة شهران، ومن المنازل أربع منازل وثلاثاً منزلة وهي
ثلاث النثرة، والطرف، والجبهة، والخرتان، والصفرة .

والأوائل من علماء الطب يقسمون السنة الى الفصول الأربعة إلا أنهم يجعلون
الشتاء والصيف أطول زماناً وأزيد مدة من الربيع والخريف، فيجعلون الشتاء
أربعة أشهر، والصيف أربعة أشهر، والربيع شهرين، والخريف شهرين، إذ كانا
متوسطين بين الحر والبرد وليس في مديتهما طول ولا في زمانهما اتساع .

واعلم أن ما تقدم من تفضيل بعض الفصول على بعض إنما هو أقاويل الشعراء
وأقانيب الأدباء، تفنناً في البلاغة، وإلا فالواضع حكيم جعل هذه الفصول مشتملة
على الحر تارة وعلى البرد أخرى لمصالح العباد، ورتبها ترتيباً خاصاً على التدرج، يفهم
ذلك أهل العقول وأرباب الحكمة، جلت صنعة أن تكون عريّة عن الحكمة،
أو موضوعة في غير موضعها ﴿ ما ترى في خلق الرحمن من تفاوتٍ فارجع البصر هل
ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾ :

الطرف الرابع

في أعياد الأمم ومواسمها . وفيه خمس جمل

الجملة الأولى

في أعياد المسلمين

واعلم أن الذي وردت به الشريعة وجاءت به السنة عيدان : عيد الفطر،
وعيد الأضحى . والسبب في اتخاذهما ما رواد أبو داود في سننه عن أنس بن مالك
رضي الله عنه، "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وإيها يومان يعبون
فيهما، فقال : ما هذان اليومان؟ فقالوا : نكنا نلعب فيهما في الجاهلية، فقال رسول الله

صلى الله عليه وسلم إن الله عز وجل قد بدلكم خيراً منهما يوم الأضحى ، ويوم المطر“
 فأقول ما بدئى به من العيدين عيد المطر ، وذلك فى سنة اثنتين من الهجرة . وروى
 ابن باطيش فى كتاب الأوائىل أن أول عيد ضحى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة
 اثنتين من الهجرة وخرج الى المصلى للصلاة . وحينئذ فىكون العيدان قد شرعا فى سنة
 واحدة ، نعم قد ابتدعت الشيعة عيداً ثالثاً وسموه عيد الغدير . وسبب اتخاذهم له
 مؤاخاة النبي صلى الله عليه وسلم لعلى كرم الله وجهه يوم غدير خم وهو غدير على ثلاثة
 أميال من الجحفة يسرة الطريق تصب فيه عينٌ وحوله شجرٌ كثير ، وهى الغيضة التى
 تسمى حجاباً وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من حجة الوداع نزل
 بالغدير وأخى بين الصحابة ولم يؤاخ بين على وبين أحدٍ منهم فرأى النبي صلى الله عليه
 وسلم منه أنكساراً فضمه إليه وقال ”أما ترى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى
 إلا أنه لا نبي بعدي والتفت الى أصحابه وقال من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم
 وال من والآه ، وعاد من عاداه“ وكان ذلك فى اليوم الثامن عشر من دى الحجة سنة
 عشر من الهجرة . والشيعة يحيون ليلة هذا العيد بالصلاة ويصلون فى صبحتها ركعتين
 قبل الزوال وشعارهم فيه لبس الحديد ، وعتق العبيد ، وذبح الأغنام ، وإحراق الأجانب
 بالأهل فى الإكرام . والشعراء والمترسلون يهتئون الكبراء منهم بهذا العيد .

الجملة الثانية

فى أعياد الفرس

وكان دينهم المجوسية ، وأعيادهم كثيرة جداً حتى إن على بن حمزة الأصبهاني
 عمل فيها كتاباً ذكر فيه أسباب اتخاذهم لها ، وسبب سلوكهم فيها ، وقد اقتصرنا منها
 على المشهور الذى ولىع الشعراء بذكره ، وأعتنى الأمراء بأمره ، وهى سبعة أعياد .

العید الأول النُّروز - وهو تعریب نُروز، ویقال إن أول من آتخذ جم شاد أحد ملوک الطبقة الثانية من الفُرس، ومعنی شاد الشُعاع والضیاء، وإن سبب آتخاذهم لهذا یوم عیدا أن الدین کان قد فسد قبله، فلما ملک جده وأظهره فسمی الیوم الذی ملک فیه نوروز أى الیوم الحدید. وفى بعض التعالیق أن جم شاد ملک الأقالیم السبعة والجن والإنس، فاتخذ له تجلّة رکبها، وكان أول یوم رکبها فیه أول یوم من شهر افرودين ماه، وكان مدّة ملکه لا یریبهم وجهه، فلما رکبها أبرز لهم وجهه، وكان له حظ من الجمال وافر، بفعلوا یوم رؤیتهم له عیدا، وسموه نوروزا. ومن الفرس من یزعم أنه الیوم الذی خالق الله فیه النور، وأنه کان معظما قبل جم شاد. وبعضهم یزعم أنه أول الزمان الذی ابتداء النک فیه بالدوران. ومدته عندهم ستة آیام أولها الیوم الأول من شهر افرودين ماه الذی هو أول شهر سنتهم. ویسمون الیوم السادس النوروز الکبیر، لأن الأکسرة کانوا یقضون فی الأيام الخمسة حوائج الناس علی طبقاتهم، ثم ینتقلون إلى مجالس أنبهم مع ظرفاء خواصهم.

وحكى ابن المقفع أنه کان من عاداتهم فیه أن یأتى الملك رجل من اللیل قد أرصد لما یفعله، ملیح الوجه، فیتقف علی الباب حتى یصبح، فإذا أصبح دخل علی الملك من غیر استئذان، ویقف حیث یراه، فیتقول له: من أنت؟ ومن أين أقبلت؟ وأین تُرید؟ وما آتمک؟ ولأی شیء وردت؟ وما معک؟ فیتقول: أنا المنصور، وأسمى المبارک، ومن قبل الله أقبلت، والملك السعید أردت، وبالهناء والسلامة وردت، ومعى السنّة الحدیدة، ثم یجلس، ویدخل بعده رجل معه طبق من فضة وعلیه حنطة، وشعیر، وجلبان، وحمص، وسمسم، وأرز من کل واحد سبع سنبلات، وسبع حبات، وقطعة سُکر، ودينار ودرهم جدیدان، فیضع الطبق بین

يدى الملك، ثم تُدخَل عليه الهدايا، ويكون أول من يدخل عليه بها وزيره، ثم صاحب الخراج، ثم صاحب المعونة، ثم الناس على طبقاتهم؛ ثم يقدم للملك رغيف كبير من تلك الحبوب مصنوع موضع في سلة، فيأكل منه ويطعم من حضره؛ ثم يقول: هذا يوم جديد، من شهر جديد، من عام جديد، يحتاج أن يجدد فيه ما أخلق من الزمان؛ وأحق الناس بالفضل والإحسان الرأس لتفضله على سائر الأعضاء. ثم يخلع على وجود دولته. ويصلحهم، ويفترق عامهم ما وصل إليه من الهدايا.

وأما عوام الفرس فكانت عاداتهم فيه رفع النار في ليلته، ورش الماء في صبيحته؛ ويزعمون أن إيقاد النيران فيه لتحليل العفونات التي أبقاها الشتاء في الهواء. ويقال إنما فعلوا ذلك تنويها بذكره، وإشهارا لأمره. وقالوا في رش الماء: إنما هو بمنزلة الشهرة لتطهير الأبدان مما انضاف إليها من دخان النار الموقدة في ليلته.

وقال آخرون: إن سبب رش الماء فيه أن فيروز بن يزيد جرد لما استتم سورجى، وهى أصفهان القديمة لم تمطر سبع سنين فى ملكه؛ ثم مطرت فى هذا اليوم ففرح الناس بالمطر وصبوا من مائه على أبدانهم من شدة فرحهم به؛ فصار ذلك سنة عندهم فى ذلك اليوم من كل عام، وما أحلى قول بعضهم يخاطب من يهواه، ويذكر ما يعتمد فى النيروز من شب النيران وصب الأمواه:

كَيْفَ ابْتَهَاجُكَ بِالنِّيْرُوزِ يَا سَكْنِي * وَكُلُّ مَا فِيهِ يَمْحِكُنِي وَأَحْكِيهِ
فِتَارَةَ كَلْهَيْبِ النَّارِ فِي كَيْدِي * وَتَارَةَ كَسْوَالِي عَبْرَتِي فِيهِ
أَسَلَّمْتَنِي فِيهِ يَا سُؤْلِي إِلَى وَصِي * فَكَيْفَ تُهْدِي إِلَى مَنْ أَنْتَ تُهْدِيهِ

وأقول من رسم هدايا النيروز والمهرجان فى الإسلام الحجاج بن يوسف الثقفى، ثم رفع ذلك عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه، واستمر المنع فيه إلى أن فتح باب

المديّة فيه أحمد بن يوسف الكاتب فانه أهدي فيه للامون سنمط ذهب فيه قطعة
عود هندي في طوله وعرضه ، وكتب معه : هذا يوم جرت فيه العادة ، بإتحاف
العبيد السادة ، وقد قلت

على العبد حق وهو لاشك فاعله * وإن عظم المولى وجلت فواضله
ألم ترنا نهدي الى الله ماله * وإن كان عنه ذا غنى فهو قابله
فلو كان يهدي للجليل بقدره * لقصر عنه البحر يوماً وساحله
ولكننا نهدي الى من نجهه * وإن لم يكن في وسعنا ما يسأله

وكتب سعيد بن حميد الى صديق له يوم نيروز : هذا يوم سهلت فيه السنة
للعبيد الإهداء للملوك ، فتعلقت كل طائفة من البر بحسب القدرة والهمة ، ولم أجد
فيما أملك ما ينفي بحقك ، ووجدت تقرضك أبلغ في أداء ما يجب لك ، ومن لم
يؤت في هديته ، إلا من جهة قدرته فلا طعن عليه .

هذا ما يتعلق بنيروز الفرس من ذكر الهدايا فيه ، وإيقاد النار ، ورش الماء ،
وأزل من سنه . وأما تعلقه بالخراج فسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى عند
الكلام على جباية الخراج في فنّ الديونة .

العيد الثاني من أعياد الفرس المهرجان — وهو في السادس والعشرين من
تشرين الأول من شهور السريان ، وفي السادس عشر من مهرماه من شهور الفرس ،
وفي التاسع من أبيب من شهور القبط ، وبينه وبين النيروز مائة وسبعة وستون يوماً ،
وهذا الأوان في وسط زمان الخريف ، وفي ذلك يقول الشاعر :

أحب المهرجان لأن فيه * سروراً للملوك ذوى السناء
وباباً للّصير الى أوان * تفتح فيه أبواب السماء

ومدته ستة أيام، ويُسمى اليوم السادس منه المَهْرَجَانُ الأكبر، كما يُسمى اليوم السادس من أيام النيروز عندهم النيروز الأكبر.

قال المسعودي: وسبب تسميتهم لهذا اليوم بهذا الاسم أنهم كانوا يُسمون شهورهم بأسماء ملوكهم، وكان لهم ملك يسمى مهر يسير فيهم بالعنف والعسف فمات في النصف من هذا الشهر، وهو مهْرماه، فسمى ذلك اليوم مهرجان، وتفسيره نفس مهر ذهب، والفرس تقدم في لغتها ما تؤخره العرب في كلامها وهذه اللغة الفهلوية وهي الفارسية الأولى وزعم آخرون أن مهر بالفارسية حفاظ وجان الروح، وفي ذلك يقول عبيد الله بن عبد الله بن طاهر:

إذا ما تحقّق بالمهْرَجَا * ن من ليس يعرف معناه غاظا

ومعناه أن غلب الفرس فيه * فسّموه للروح فيه حفاظا

ويقال: إنما ظهر في عهد افريدون الملك، ومعنى هذا الاسم إدراك النار؛ وذلك أن افريدون أخذ بثار جده جم شاد من الضحّاك، فانه كان أفسد دين المجوسية وخرج على جم شاد فأخذ منه الملك وقتله؛ فلما غاب افريدون قتله بجبل دُنباوند، وأعاد المجوسية الى ما كانت، فأتخذ الفرس يوم قتله عيداً، وسمّوه مهرجان، والمهر الوفاء، وجان سلطان، وكان معناه سلطان الوفاء.

وزعم بعض الفرس أن الضحّاك هو الثمّود وافریدون هو إبراهيم عليه السلام، بلغتهم.

ويقال إن المَهْرَجَان هو اليوم الذي عُقد فيه التاج على رأس اردشير بن بابك، أول ملوك الفرس الساسانية. وكان مذهب الفرس في المَهْرَجَان أن يدهن ملكهم بدهن البان تبركا، وكذلك العوام، وأن يلبس القصب والوشى، ويتّوج بتاج عليه صورة الشمس وحجلتها الدائرة عليها، ويكون أول من يدخل اليه الموبدان يطبق فيه

أُتْرَجَّةٌ ، وَقِطْعَةٌ سَكَّرٌ ، وَنَبِقٌ ، وَسَفْرَجُلٌ ، وَعُنَابٌ ، وَتُفَّاحٌ ، وَعَنْقُودٌ عِنَبٌ أبيضٌ ،
وسبع طاقات آيس ، قد زمزم عليها ، ثم تدخل الناس على طبقاتهم بمثل ذلك ، وربما
كانوا يذهبون الى تفضيله على النيروز ، وفيه يقول عبيد الله بن عبد الله بن طاهر .

أخا الفرس إن الفرس تعلم أنه * لأطيب من نيروزها مهرجانيها

لإدبار أيام يغم هواؤها * وإقبال أيام يسر زمانها

قال المسعودي : وأهل المروءات بالعراق وغيرها من مدن العجم يجعلون هذا

اليوم أول يوم من الشتاء فيغيرون فيه الفرس والالات ، وكثيرا من الملابس .

العيد الثالث السّدق - ويسمى أبان روز ، ويسمى في ليلة الحادي عشر من شهر

بهمن ماه من شهور الفرس ، وسنتهم فيه إيقاد النيران بسائر الأدهان والولوع بها حتى

إنهم يلقون فيها سائر الحبوب ، ويقال إن سبب اتخاذهم لهذا العيد أن الأب الأول ،

وهو عندهم كيوم صرت لما كل له من ولده مائة ولد زوج الذكور بالإناث ، وصنع لهم

عرسا أكثر فيه وقود النيران ، ووافق ذلك الليلة المذكورة فاستسنت ذلك الفرس

بعده . وقد وليت الشعراء بوصف هذه الليلة فقال أبو القاسم المطرزي يصف سَدَقًا

عماه السلطان ملكشاه بدجة ، أشعل فيه النيران والشموع في الساريات من أبيات :

وكلُّ نارٍ على العُشاق مُضِرَّةٌ * من نارِ قلبي أو من ليلةِ السّدقِ

نارٌ تجلّت بها الظلماءُ واشتبهت * بسُدفةِ الليلِ فيها غرّةُ الفلقِ

وزارت الشمسُ فيها البدرَ واصطالحا * على الكواكبِ بعدَ الغيظِ والحنقِ

مدّت على الأرضِ بسُطّانٍ جواهرها * ما بينَ مُجتمِعِ وارٍ ومُفترِقِ

مثل المصاييحِ إلا أنها نزلت * من السماءِ بلا رَجيمٍ ولا حرقِ

(١) كذا في نهاية الأرب أيضا والأظهر الساريات وهو اسم لنوع من السفن .

أعجب بنار ورضوان يسعها * ومالك قائم منها على فرق
في مجلس ضحك روض الحنان له * لما جلا نغره عن واضح يقق

وقال ابن حجاج من أبيات، يمدح بها عضد الدولة :

ليتنا حسنها عجيب * بالقصف والتيه قد تحقق
لنارها في السما لسان * عن نور ضوء الصباح ينطق
والجو منها قد صار جمرًا * والنجم منها قد كاد يحرق
ودجلة أضرمت حريقًا * بألف نار وألف زورق
فأؤها كله حميم * قد فارما غلى وبقبق

وقال عبد العزيز بن نباتة من أبيات يمدح بها عضد الدولة أيضا :

لعمري لقد أذكى الهمام بأرضه * شهرة يتأبها الفخر صالبا
تغيب النجوم الزهر عند طلوعها * وتحسد أيام الشهور اللباليبا
قلادة مجد أغفل الدهر نظمها * عليه وقد السنين الخواليبا
هي الليلة الفراء في كل شتوة * تغادر جيد الدهر أبلج حالبا

العيد الرابع الشركان - وهو في الثالث عشر من تيرماه من شهور الفرس، زعموا
أن أرس رمى سهمه لما وقعت المصالحة بين منوجهر وقراسياب التركي من المملكة
على رمية سهم، فامتد السهم من جبال طبرستان الى أعلى طخارستان .

العيد الخامس أيام الفروديجان - وهي خمسة أيام، أولها السادس والعشرون من
أبان ماه من شهور الفرس، ومعناه تربية الروح، لأنهم كانوا يعملون فيها ألعمة
وأشربة لأرواح دوتاهم، ويزعمون أنها تغذي بها .

(١) كذا في الأصل . ولعله وقد بذ الخ .

العيد السادس ركوب الكوثج - ويعمل في أول يوم من ادرماه من شهر
الفرس، وسنتهم فيه أن يركب في كل بلد من بلادهم رجل كوثج، قد أعد لما يصنع
به بأكل الأطعمة الحارة كالجوز، والثوم، واللحم السمين ونحوها، وبشرب الشراب
الصرف أياما قبل حلول الشهر، فإذا حل الشهر لبس غلالة سابوية، وركب بقرة
وأخذ على يده عمرا، ويتبعه الناس يصبون عليه الماء، ويضربونه بالثأج،
ويروحون عليه بالمرآوح، وهو يصيح بالفارسية: بكرم كرم أى الحز الحز، يفعل
ذلك سبعة أيام، ومعه أو باش الناس ينهبون ما يجدون من الأمتعة في الحيوانات،
وللسلطان عليهم مال، فإذا وجدوا بعد عصر اليوم السابع ضربوا وحبسوا.

قال المسعودي: ولا يعرف ذلك إلا بالعراق، وأرض العجم، وأهل الشام
والجزيرة ومصر واليمن لا يعرفون ذلك. ويقال إن هذا الفعل كان يتداوله أهل
كل بيت منهم كوثج، وحكى الزمخشري في كتابه "ربيع الأبرار" أن سبب ذلك
أن كوثجا كان يشرب في هذه الأيام الدواء ويطلبي بدنه فيها فغلب عليها، وفي ذلك
يقول الشاعر:

قَدْ رَكِبَ الْكُوثَجُ يَصَاحُ ۖ فَانزِلْ عَلَى الزَّهْرَةِ وَالرَّاحِ
وَأَنْعَمْ بِأَدْرَمَاهُ عَيْشًا وَخُذْ ۖ مِنْ لَذَّةِ الْعَيْشِ بِأَفْيَاحِ

والسنة عندهم منقسمة على أقسام، في أول كل قسم منها خمسة أيام تسمى
الكنبهارات، زعم زرادشت أن في كل يوم خلق الله تعالى نوعا من الخليقة فهم
يتخذونها أعيادا لذلك.

العيد السابع عيد بهمنجة - ويتخذونه في يوم بهمن من شهر بهمن ماه، وسنتهم
فيه أنهم يأكلون فيه البهمن الأبيض باللبن الحامض على أنه ينفع الحفظ، ورؤسا،

نُحْرَاسَانٍ يَعْمَلُونَ فِيهِ الدَّعَوَاتِ عَلَى طَعَامٍ يَطْبُخُونَ فِيهِ كُلَّ حَبِّ مَا كَوَّلَ وَلَحْمِ حَيَوَانَ
يُؤْكَلُ ، وَيَحْضُرُ مَا يُوْحَدُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مِنْ بَقْلِ أَوْ نَبَاتٍ .
فهذه أعياد الفُرس المشهورة الدائرة بين عاقبتهم وخاصتهم .

الجملة الثالثة

في أعياد القبط

وَأَعْلَمُ أَنَّ أَعْيَادَ الْقِبْطِ كَثِيرَةٌ ، وَقَدْ أَتَيْنَا عَلَى ذِكْرِ تَفْصِيلِهَا سَرْدًا فِي خِلَالِ شَهْرٍ
الْقِبْطِ مَعَ ذِكْرِ غَيْرِهَا ، وَأُورِدْنَا كُلَّ عِيدٍ مَتَّهَا فِي يَوْمِهِ مِنْ شَهْرِ الْقِبْطِ ، وَرَبَّمَا ذَكَرْنَا
بَعْضَهَا أَيْضًا فِي شَهْرِ السُّرْيَانِ وَالرُّومِ ، عَلَى أَنَّ مِنْهَا مَا لَا يَتَعَلَّقُ بِوَقْتٍ مُقَيَّدٍ كَالْفِصْحِ
الْأَكْبَرِ عِنْدَهُمْ ، فَإِنَّهُ مَتَعَلَّقٌ بِفِطْرِهِمْ مِنْ صَوْمِهِمُ الْأَكْبَرِ ، وَهُوَ غَيْرُ مُؤَقَّتٍ بِرَقِيقَةٍ
مَعِيْنٍ ، بَلْ يَتَغَيَّرُ بِالتَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ قَلِيلًا عَلَى مَا سَيَأْتِي بَيَانُ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ،
وَنَحْنُ نَقْتَصِرُ فِي هَذَا الْفَصْلِ عَلَى الْمَشْهُورِ مِنْ أَعْيَادِهِمْ دُونَ غَيْرِهِ ، وَنَبِينُ أَوْقَاتِهَا ،
وَنُشْرِحُ أَسْبَابَهَا . وَهِيَ أَرْبَعَةٌ عَشْرَ عِيدًا . وَهِيَ عَلَى ضَرْبَيْنِ . كَبَارٍ وَصَغَارٍ .

الضرب الأول

الكبار، وهي سبعة

العِيدُ الْأَوَّلُ الْبِشَارَةُ ، وَيَعْنُونَ بِهِ بِشَارَةَ غِبْرِيَالِ ، (وَهُوَ جِبْرِيَالٌ عَلَى زَعْمِهِمْ) الْمُرِيمِ
عَلَيْهَا السَّلَامُ بِمِيلَادِ عَيْسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، يَعْمَلُونَهُ فِي التَّاسِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ
بَرْمَهَاتٍ مِنْ شَهْرِ الْقِبْطِ .

الثَّانِي الرَّيْتُونَةُ ، وَهُوَ عِيدُ الشَّعَّانِينَ ، وَتَفْسِيرُهُ بِالْعَرَبِيَّةِ التَّسْبِيحُ ، يَعْمَلُونَهُ فِي سَابِعِ
أَحَدٍ مِنْ صَوْمِهِمْ ، وَسَنَّتُهُمْ فِيهِ أَنْ يَخْرُجُوا بِسَعْفِ النَّخْلِ مِنَ الْكَنِيسَةِ ، وَهُوَ يَوْمٌ
رَكُوبِ الْمَسِيحِ لِلْيَعْقُورِ ، (وَهُوَ الْحِمَارُ) فِي الْقُدْسِ وَدُخُولِهِ صَهِيُونَ وَهُوَ رَاكِبٌ وَالنَّاسُ
يَسْبُحُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ

الثالث الفصح، وهو العيد الكبير عندهم، يعملونه يوم الفطر من صومهم الأكبر، يزعمون أن المسيح قام فيه بعد الصلبوت بثلاثة أيام، وخلص آدم من الجحيم، وأقام في الأرض أربعين يوماً آخرها يوم الخميس، ثم صعد إلى السماء .
(قاتلهم الله أنى يؤفكون)

الرابع خميس الأربعين، ويسميه الشاميون السلاق، وهو الثاني والأربعون من الفطر، يقولون إن المسيح عليه السلام تساق فيه من تلاميذه إلى السماء بعد القيام، ووعدهم بارسال الفارقليط، وهو روح القدس عندهم .

الخامس عيد الخميس، وهو عيد العنصرة يعملونه بعد خمسين يوماً من القيام، وهو في السادس والعشرين من بشنس، ويقولون إن روح القدس حلت في التلاميذ وتفرقت عليهم السنة الناس فتكلموا بجميع الألسنة، وذهب كل واحد منهم إلى بلاد لسانه الذي تكلم به يدعوهم إلى دين المسيح .

السادس الميلاد، وهو اليوم الذي يقولون إن المسيح ولد فيه بيت لحم (قرية من أعمال فلسطين) ويعملونه في التاسع والعشرين من كيهك من شهور القبط، وهم يقولون إنه ولد يوم الاثنين، فيجعلون عشية الأحد ليلة الميلاد، فيوقدون فيها المصابيح بالكنايس ويزينونها .

السابع الغطاس، يعملونه في الحادى عشر من طوبه، من شهور القبط. يقولون إن يحيى بن زكريا عليه السلام وينعتونه بالمعمدان غسل عيسى عليه السلام ببحيرة الأردن، وأن عيسى لما خرج من الماء اتصل به روح القدس على هيئة حمامة، والنصارى يغمسون أولادهم فيه في الماء على أنه يقع في شدة البرد، إلا أن عقبه يسمى الوقت، يقول المصريون: غطستم صيفتم، ونورزتم شتيم .

الضرب الثاني

من أعياد القبط الأعياد الصغار ، وهي سبعة أيام

الأول انحنان ، ويعملونه في سادس بئونة من شهور القبط . ويقولون : إن المسيح خُتِنَ في هذا اليوم وهو الثامن من الميلاد .

الثاني الأربعون ، يعملونه في الثامن من شهر أمشير من شهور القبط ، ويقولون : إن سمعان الكاهن دخل بعيسى عليه السلام مع أمه بعد أربعين يوماً من ميلاده الهيكل وبارك عليه ، تلك عقول أضلها باريها ، وإلا فأين مقام الكاهن من مقام عيسى عليه السلام ، وهو روح الله وكلمته .

الثالث خميس العهد ، يعملونه قبل الفصح بثلاثة أيام ، وشأنهم أن يأخذوا إناء ويملئوه ماءً ويزمزموا عليه ، ثم يغسل البطريك به أرجل جميع النصارى الحاضرين ، ويزعمون أن المسيح عليه السلام فعل هذا بتلاميذه في هذا اليوم يعلمهم التواضع . وأخذ عليهم العهد ألا يتفرقوا وأن يتواضع بعضهم لبعض ، والعامّة من النصارى يُسمّون هذا الخميس خميس العَدَس ، وهم يطبخون فيه العَدَس على ألوان .

الرابع سبت النور ، وهو قبل الفصح بيوم . يقولون : إن النور يظهر على مقبرة المسيح في هذا اليوم فاشتعل منه مصابيح كنيسة القمامة بالقدس . قال صاحب "مناهج الفكر" وغيره : وما ذاك إلا من تخيلاتهم البرنجية التي يفعلها القسيسون منهم ليستميلوا بها عقول عوامهم الضعيفة . وذلك أنهم يعلقون القناديل في بيت المذبح ويتحیلون في إيصال النار إليها بأن يمدوا على جميعها شريطاً من حديد في غاية الدقة مدهونا بدهن البلسان ودهن الزنبق ، فإذا صلوا وجاء وقت الزوال فتحوا المذبح فتدخل الناس إليه ، وقد اشتعلت فيه الشموع ويتوصل بعض القوم إلى أن يعلق

النار بطرف الشريط الحديد فتسرى عليه فتتد القناديل واحدا بعد واحد ، إذ من طبيعة دهن اللسان عُلوق النار فيه بسرعة مع أدنى ملامسة ، فيظن من حضر من ذوى العقول الناقصة أن النار نزلت من السماء فأوقدت القناديل ، فالحمد لله على الإسلام .

الخامس حدّ الحُدود ، وهو بعد الفِصح بثمانية أيام ، يعملونه أول أحد بعد الفطر ، لأن الآحاد قبله مشغولة بالصوم ، وفيه يجتدون الآلات وأثاث البيوت ، ومنه يأخذون في الاستعداد للمعاملات والأمر الدنيوية .

السادس التجلي ، ويعملونه في الثالث عشر من مسرى من شهور القبط ، وآخره السابع والعشرون منها . يقولون : إن المسيح عليه السلام تجلى لتلاميذه بعد أن رفع في هذا اليوم ، وتمنوا عليه أن يُحضّر لهم إيليا وموسى عليهما السلام ، فأحضرهما لهم بمصلى بيت المقدس ثم صعد وصعدا .

السابع عيد الصليب ، وهو في السابع عشر من توت من شهور القبط ، والنصارى يقولون ، إن قسطنطين بن هيلاني انتقل عن اعتقاد اليونان الى اعتقاد النصرانية ، وبني كنيسة قسطنطينية العظمى وسائر كنائس الشام ، ويزعمون أن سبب ذلك أنه كان مجاورا للبرجان فضاق بهم ذرعا من كثرة غاراتهم على بلاده فهم أن يصانعهم ويفرض لهم عليه إتاوة في كل عام ليكفوا عنه ، فرأى ليلة في المنام أن ملائكة نزلت من السماء ، ومعها أعلام عليها صلبان فخربت البرجان فانهزموا ، فلما أصبح عمل أعلاما وصور فيها صلبانا ثم قاتل بها البرجان فهزمهم ، فسأل من كان في بلده من التجار هل يعرفون فيما طافوه من البلاد دينا هذا زيّه ؟ فقالوا له : دين النصرانية ، وإنه في بلد القدس والخليل من أرض الشام . فأمر أهل مملكته بالرجوع عن دينهم اليه ، وأن يقصوا شعورهم ويحلقوا لحاهم . وإنما فعل ذلك لأنهم يزعمون

(١) البرجان : جنس من الروم (قاموس) .

أن رُسُل عيسى عليه السلام كانوا قد وَرَدُوا على اليونان قبلُ يأمرُونهم بالتعبُد بدين النصرانية فأعرضوا عنهم ومَثَلُوا بهم هذه المِثْلَةُ نَكَالاً لهم ففعلوا ذلك تأسياً بهم .
ولما تنصَّر قسطنطين خرجت أمه هيلاني إلى الشام فبنت به الكنائس ، وسارت إلى بيت المقدس وطلبت الخشبة التي زعمت النصارى أن المسيح صُلب عليها فحملت إليها ففشتها بالذهب ، واتخذت ذلك اليوم عيداً .

وسياتى الكلام على ذلك مفصلاً في ترجمة قسطنطين في خاتمة الكتاب عند ذكر الملوك الذين استولوا على الديار المصرية ، وفيما ذكرنا هنا مَنَع والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقد صار من أعيادهم المشهورة بالديار المصرية النيروز ، وهو أول يوم من سنتهم ، وإن لفظة النيروز فارسية معربة ، وكان القبط والله أعلم اتخذوا ذلك على طريقة الفرس واستعاروا اسمه منهم فسموا اليوم الأول من سنتهم أيضاً نيروزاً وجعلوه عيداً .

قال في "مناجج الفكر" وهم يظهرون فيه من الفرح والسرور ، وإيقاد النيران ، وصَبَّ الأمواه أضعاف ما يفعله الفرس ، ويشاركهم فيه العوام من المسلمين .

قال المسعودى : وأهل الشام يعملون مثل ذلك في أول سنتهم أيضاً ، وهو أول يوم من ينير من شهور الروم ويوافقه كانون الثانى ، وهو الشهر الرابع من شهور السريان ، وذلك فى السادس من طوبة من شهور القبط ، ويسمونه الفانسانس ، إلا أن أهل مصر يزيدون فيه التصافع بالأنطاع ، وربما حملهم ترك الاحتشام على أن يتجرؤوا على الرجل المطاع ، ولولا أن ولاة الأمر يردعونهم ويمنعونهم من ذلك ، لمنعوا الطريق من السالك ، وهم مع ذلك من ظفروا به لا يتركونه إلا بما يرضيهم .
والذى استقر عليه الحال بالديار المصرية إلى آخر سنة إحدى وتسعين وسبعائة أنهم

يقتصرون على رَشِّ الأمواه والتَّصافُع ، وتركِ الاحتشامِ دون إيقاد النيران ، إلا من يفعل ذلك من النصارى في بيته أو خاصَّته .

ولهم أعياد ومواسمُ سوى ما تقدّم ، ذكرها صاحب التذكرة ونحن نذكرها على ترتيب شهور القبط ، وهي :

عيد سيفورس ، وعيد متى الإنجيلي ، وهما في النائي من توت . عيد سمعان الحبيس ، وهو في الرابع من توت . عيد ماما ، وهو في الخامس من توت . عيد شميا ، وهو في السادس من توت . عيد ساويرس ، وهو في السابع من توت . عيد موسى النبي عليه السلام ، وهو في الثامن من توت . عيد توما التلميذ ، وهو في التاسع من توت . وخروج نُوح عليه السلام من السفينة ، وموَلِدِ مَرْيَمَ عليها السلام ، وهما في العاشر من توت . عيد باسيلوس ، وهو في الحادي عشر من توت . عيد ميخائيل ، وصوم جدليا ، وهما في الثالث عشر من توت . عيد سمعان الحبيس ، وعيد تادرس الشهيد ، وهما في الرابع عشر من توت . عيد اسفانوس ، وهو في السادس عشر من توت . وصوم كبور ، وهو في العشرين من توت . ونياحة أبي جرج ، وهي في الثاني والعشرين من توت . عيد أولاد الفرس ، وهو في الثالث والعشرين من توت . عيد أليصابات ، وهو في السادس والعشرين من توت . عيد اسطاثوا ، وانتقال يوحنا ، وهما في السابع والعشرين من توت . عيد اجرويفون ، وهو في أول بابيه . عيد سوسنان ، وهو في الثاني من بابيه . عيد يعقوب بن حلفا ، وهو في الخامس من بابيه . عيد أبو بولا ، وهو في السابع من بابيه . عيد توما ، وهو في الثامن من بابيه . عيد أبي مسرجة ، وهو في العاشر من بابيه . عيد يعقوب ، وهو في الحادي عشر من بابيه . وشهادة متى ، وهي في الثاني عشر من بابيه . عيد القرات ، وهو في الثالث عشر من بابيه .

وشهادة يُوحنا؛ وهي في العشرين من بابه. وتذكار السيدة؛ وهو في الحادي والعشرين من بابه. عيد لوقا؛ وهو في الثاني والعشرين من بابه. عيد أبي جرج؛ وهو في الثالث والعشرين من بابه. ودخول السيدة الهيكل؛ وهو في الحادي والعشرين من بابه. عيد يعقوب ويوسف؛ وهو في السادس والعشرين من بابه. عيد أبي مقار؛ وهو في السابع والعشرين من بابه. عيد مرقص؛ وهو في آخريوم من بابه. عيد بطرس البطريرك؛ وهو في أول يوم من هاتور. عيد زكريا؛ وهو في الرابع من هاتور. واجتماع التلاميذ؛ وهو في السادس من هاتور. وتكريز أبي جرج؛ وهو في السابع من هاتور. وعيد الأربع حيوانات؛ وهو في الثامن من هاتور. وتذكار الثلاثة وثمانية عشر؛ وهو في التاسع من هاتور. ونياحة إسحاق؛ وهو في العاشر من هاتور. عيد ميكائيل؛ وهو في الثاني عشر من هاتور. وشهادة أبي مينا؛ وهو في الخامس عشر من هاتور. عيد فيلبس الرسول؛ وهو في التاسع عشر من هاتور. عيد أساسياس؛ وهو في العشرين من هاتور. عيد شمعون؛ وهو في الحادي والعشرين من هاتور. تذكار الشهداء؛ وهو في الثاني والعشرين من هاتور. عيد مركور يوس؛ وهو في الرابع والعشرين من هاتور. عيد أبي مقورة؛ وهو في الخامس والعشرين من هاتور. عيد ادفيانيوس؛ وهو في السادس والعشرين من هاتور. عيد يعقوب المقطع؛ وهو في السابع والعشرين من هاتور. عيد ياهوربا؛ وهو في الثاني من كيهك. عيد اندراس؛ وهو في الرابع من كيهك. عيد سيورس؛ وهو في الخامس من كيهك. عيد بزباره؛ وهو في السابع من كيهك. عيد أيامين؛ وهو في الثامن من كيهك. عيد ماري نقولا؛ وهو في العاشر من كيهك. عيد سمعان؛ وهو في الرابع عشر من كيهك ونياحة يوحنا؛ وهي في السادس عشر من كيهك؛ وصوم الميسلاد؛ وهو

في الثالث والعشرين من كيهك . وقتل الأطفال ؛ وهو في الثالث من طوبه . عيد
 يُوحنا الإنجيلي ؛ وهو في الرابع من طوبه . وعيد توما ؛ وهو في السابع من طوبه .
 عيد الختان ؛ وهو في الثامن من طوبه . عيد إبراهيم ؛ وهو في التاسع من طوبه .
 وصوم الغطاس ؛ وأوله العاشر من طوبه . وصوم العذارى ؛ وهو في الثالث عشر
 من طوبه . عيد ملسوس ؛ وهو في الرابع عشر من طوبه . عيد غاريوس ، وهو
 في الخامس عشر من طوبه . عيد قيلانوس ؛ وهو في السادس عشر من طوبه .
 عيد يوحنا ؛ وهو في التاسع عشر من طوبه . ونزول الإنجيل ، وتذكار السيدة ؛ وهما
 في العشرين من طوبه . وصوم نينوى ؛ وهو في الحادي والعشرين من طوبه . ووقت
 يحيى ؛ وهو في الرابع والعشرين من طوبه . عيد أبي بشارة ؛ وهو في الخامس والعشرين
 من طوبه . عيد الشهداء ؛ وهو في السادس والعشرين من طوبه . عيد
 طيمارس الرسول ؛ وهو في السابع والعشرين من طوبه ؛ وآخر نياحة نقولا ؛
 وهو في اليوم الآخر من طوبه . عيد العذارى ، وعيد يهوذا ؛ وهما في الأول من
 أمشير . عيد مقار ؛ وهو في الثاني من أمشير . ونيحة تيادرس ؛ وهو في السادس
 من أمشير . ونيحة برصوما ، وهو في التاسع من أمشير . عيد بيطن ، وشهادة
 يعقوب ؛ وهما في العاشر من أمشير . عيد أبي مسرجة ؛ وهو في الرابع عشر من أمشير .
 عيد قلانوس ؛ وهو في السادس عشر من أمشير . عيد يعقوب الرسول ؛ وهو
 في السابع عشر من أمشير ، عيد بطرس الشهيد ؛ وهو في التاسع عشر من أمشير .
 ونزول السيدة من الجبل ؛ وهو في الحادي والعشرين من أمشير . وشهادة سدرس ؛
 وهو في السادس والعشرين من أمشير . ووجود رأس يوحنا ؛ وهو في اليوم الآخر من
 أمشير . عيد الجلبانة ؛ وهو في الثالث من شهر برمهاث . عيد أرمانوس ، وهو
 في السابع من برمهاث . عيد الممودة ؛ وهو في التاسع من برمهاث . وظهور

الصليب ؛ وهو في العاشر من برمهات . عيد أبي مينا ؛ وهو في الحادى عشر من
 برمهات . عيد ميلانحى ؛ وهو في الثانى عشر من برمهات . عيد إلياس الشهيد ؛
 وهو في السابع عشر من برمهات . ونياحة بولص ؛ وهى في الثانى والعشرين من
 برمهات . عيد العازر ؛ وهو في الثالث والعشرين من برمهات . عيد الشعانين ؛
 وهو في الرابع والعشرين من برمهات . عيد الرسونة ؛ وهو في الخامس والعشرين
 من برمهات . وغسل الأرجل ؛ وهو في الثامن والعشرين من برمهات . وجمعة
 الصلبوت ؛ وهو في التاسع والعشرين من برمهات . عيد مرقص الإنجيلى ؛ وهو
 في اليوم الآخر من برمهات . عيد توما البطارك ؛ وهو في الثانى من برمودة . عيد
 حزقيال النجيب ؛ وهو في الخامس من برمودة . عيد مرقص ؛ وهو في السابع من
 برمودة . والأخذ بالحديد ؛ وهو في الثامن من برمودة . عيد يوحنا الأسقف ؛ وهو
 في الحادى عشر من برمودة . عيد جرجس ؛ وهو في الثالث عشر من برمودة . عيد
 أبى متى ؛ وهو في السادس عشر من برمودة . عيد يعقوب ، عيد سنوطه ، وهما
 في التاسع عشر من برمودة . وذكوان الشمراء ؛ وهو في الحادى والعشرين من
 برمودة . عيد ساويرس ؛ وهو في السادس والعشرين من برمودة . عيد أبى نيطرس ؛
 وهو في السابع والعشرين من برمودة . عيد أصحاب الكرف ؛ وهو في التاسع والعشرين
 من برمودة . عيد مرقص الإنجيلى ؛ وهو في اليوم الآخر من برمودة . عيد تيادرس ؛
 وهو في الثانى من بشنس . عيد شمعون ؛ وهو في الثالث من بشنس . عيد اساف ؛
 وهو في الرابع من بشنس . ونياحة يعقوب ؛ وهو في السابع من بشنس . عيد
 دفرى سوه ؛ وهو في السادس من بشنس . عيد أسامياس ؛ وهو في السابع من
 بشنس . وصعود المسيح عليهم السلام من بشنس . عيد دير التعمير ؛ وهو
 في الحادى والعشرين من بشنس . وتروا السيد الى مصر ؛ وهو في الرابع والعشرين

من بشنس . عيد سوس با وهو في الخامس والعشرين من بشنس . عيد توما التلميذ با وهو في السادس والعشرين من بشنس . عيد سمعون العجاس با وهو في السابع والعشرين من بشنس . عيد طيارس با وهو في التاسع والعشرين من بشنس . عيد الورد بالشا با وهو في اليوم الآخر من بشنس . عيد أبي مقار با وهو في الثاني من بشونه . ووجود عظام لوقا با وهو في الثالث من بشونه . عيد توما ، وعيد مامور با وهما في الرابع من بشونه . عيد يوحنا ، ونزول صحف ابراهيم (عليه السلام) با وهما في التاسع من بشونه . عيد أبي مينا با وهو في الخامس عشر من بشونه . عيد أبي مقار ، وهو في السادس عشر من بشونه . عيد السيدة با وهو في الحادي والعشرين من بشونه . عيد اتريب وهو في الثالث والعشرين من بشونه . عيد أبي مينا ، وهو في ... (١) ... والعشرين من بشونه با وتذكار تيا درس با وهو في أول أيب . ونياحة بولس با وهو في الثاني من أيب والثالث منه أيضا . وعيد المرقية ، وعيد القيسرية ، وهما في الخامس من أيب . وعيد أبي سنوبة با وهو في السابع من أيب . وعيد اسنباط با وهو في الثامن من أيب . وشهادة هارون ، وعيد سمعان با وهما في التاسع من أيب . وعيد تادرس نظيره با وهو في العاشر من أيب . وعيد أبي هور با وهو في الثاني عشر من أيب . وعيد أبي مقار با وهو في الرابع عشر من أيب . وعيد اقدام السرياني با وهو في الخامس عشر من أيب . وعيد يوحنا وذكريا با وهو في السادس عشر من أيب . وعيد يعقوب التلميذ ، وهو في السابع عشر من أيب . وعيد بولاقي ، وهو في التاسع عشر من أيب . وعيد تادرس الشهيد ، وهو في العشرين من أيب . وعيد السيدة ، وعيد ميخائيل با وهما في الحادي والعشرين من أيب . وعيد سمعان البطرك ، وعيد شنوده ، وهما

(١) يباغض بالأصل .

في الثالث والعشرين من أبيب . وعيد سمند ، وهو في الرابع والعشرين من أبيب .
 وعيد مرقوريوس ، وهو في الخامس والعشرين من أبيب . وعيد حزقييل النبي
 عليه السلام ، وهو في السابع والعشرين من أبيب . ورفع إدريس عليه السلام ،
 وعيد مريم ، وهما في الثامن والعشرين من أبيب . وحرم السيد ، وهو في اليوم
 الآخر من أبيب . وعيد الخندق ، وهو في اليوم الأول من مسرى . وعيد أبي مينا ،
 وهو في اليوم الثاني من مسرى . وعيد سمعان المعمودي ، وهو في الثالث من
 مسرى . ودخول نوح السفينة ، وهو في الثامن من مسرى . وعيد طورسينا ، وعيد
 السيدة ، وهما في التاسع من مسرى . وعيد اللباس ، وهو في العاشر من مسرى .
 وشهادة أنطونيوس ، وعيد العدوية ، وهو في الخامس عشر من مسرى . وعيد
 يعقوب الشهيد ، وهو في السابع عشر من مسرى . وعيد أبي مقار ، وهو في الثامن عشر
 من مسرى . وعيد اليسع ، وهو في التاسع عشر من مسرى . وعيد أنطاب الكهنوت ،
 وهو في العشرين من مسرى . وصوم الأربعين ، وهو في الحادي والعشرين من
 مسرى . وعيد الحوزة بدمشق ، وهو في الثالث والعشرين من مسرى . وعيد
 صوفيل ، وهو في السادس والعشرين من مسرى . وعيد إبراهيم وإسحاق ، وهو
 في الثامن والعشرين من مسرى . وعيد موسى الشهيد ، وشهادة يوحنا ، وهو
 في اليوم الآخر من مسرى .

الجملة الرابعة

في أعياد اليهود، وهي على ضربين

الضرب الأول

ما نطقت به التوراة بزعمهم ، وهي خمسة أعياد

العيد الأول - رأس السنة ، يعاملونه عند رأس سنتهم ويسمونه عيد رأس هيشا أي عيد رأس الشهر وهو أول يوم من تشرى يتنزل عندهم منزلة عيد الأضحى عندنا ، ويقولون : إن الله تعالى أمر إبراهيم عليه السلام بذبح إسماعيل ابنه فيه وفداه بذبح عظيم .

العيد الثاني - عيد صوماريا ويسمونه الكبور ، وهو عندهم الصوم العظيم الذي يقولون : إن الله تعالى فرض عليهم صومه ، ومن لم يضمه قُتل عندهم . ومدة هذا الصوم خمس وعشرون ساعة يُبدأ فيها قبل غروب الشمس في اليوم التاسع من شهر تشرى ، وتختتم بمضى ساعة بعد غروبها في اليوم العاشر ، وربما سمّوه الكبور ، ويُستترط فيه بلعاز الإفطار عندهم رؤية ثلاثة كواكب عند الإفطار وهي عندهم تمام الأربعين الثالثة التي صامها موسى عليه السلام . ولا يجوز أن يقع هذا الصوم عندهم في يوم الأحد ، ولا في يوم الثلاثاء ، ولا في يوم الجمعة ، ويؤمنون أن الله يفتخر لهم فيه جميع ذنوبهم ، وأخلا الزنا بالمحصنة ، وظلم الرجل أخاه ، ويؤمنون بربوبية الله تعالى .

العيد الثالث - عيد المنالاة ، وهو سبعة أيام أو ثمانية انطامس عشر من تشرى وكلها أعياد عندهم ، واليوم الآخر منها يسمى حرايا أو شهر الخلاف ، وهو أيضا من الأعياد ، يجلسون في هذا الأيام تحت ظلال من جريد النخل وأغصان الزيتون

والخلاف، وسائر الشجر الذي لا ينتشر ورقه على الأرض، ويزعمون أن ذلك تذكّار منهم لإفلال الله إياهم في التيه بالغمام .

العيد الرابع - عيد الفطير ويسمونه الفصح، ويكون في الخامس عشر من نيسان، وهو سبعة أيام أيضا، يأكلون فيها الفطير، وينظفون بيوتهم فيها من خبز الخبز لأن هذه الأيام عندهم هي الأيام التي خلاص الله فيها بني إسرائيل من يد فرعون وأغرقه، فخرجوا إلى التيه، فجعلوا يأكلون اللحم والخبز الفطير وهم بذلك فرحون، وفي أحد هذه الأيام غرق فرعون

العيد الخامس - عيد الأسابيع، ويسمى عيد العنصرة وعيد الخطاب، ويكون بعد عيد الفطير بسبعة أسابيع، وأتخذهم لهذا العيد في السادس من سيوان من شهور اليهود، وهو الثالث والعشرون من نيسان من شهور القبط . يقولون : إنه اليوم الذي خاطب الله فيه بني إسرائيل من طور سيناء، وفي جملة هذا الخطاب العشر كلمات، وهي وصايا تضمنت أمرا ونهيا، وضمنت التوفيق لمن حصلها حفظا ورعا، وهو حج من حجوجهم، وحجوجهم ثلاثة : الأسابيع، والفطير، والمظلة، وهم يعظمونه، ويأكلون فيه القطائف، ويتفننون في عملها، ويجعلونها بدلا عن المن الذي أنزل الله عليهم في هذا اليوم، ويسمى هذا العيد أيضا عشرتا، ومعناه الاجتماع .

الضرب الثاني

ما أحدثه اليهود زيادة على ما زعموا أن التوراة نطقت به، وهو عيدان العيد الأول - الفوز، وهو عندهم عيد سرور وهو وخلاعة يهدى فيه بعضهم إلى بعض، وهم يقولون : إن سبب آتخاذهم له أن بنجتصر لما أجلى من كان بيت المقدس من اليهود إلى عراق العجم أسكنهم بحى، وهي إحدى مدينتي أصفهان

ثم ذهبت أيام الكلدانيين وملكّت الفرس الأولى والأخيرة، فلما ملك أردشير بن بابك وتسميه اليهود بالعبرانية أجشادوس، وكان له وزير يسمونه بلغتهم هيمون، ولليهود يومئذ حبرٌ يسمّى بلغتهم مردوخاي، فبلغ أردشير أن له ابنة عمّ من أحسن أهل زمانها وأكملهم عقلاً، فطلب تزويجها منه فأجابته لذلك، فخطبت عنده حُظوة صار بها مردوخاي قريباً منه، فأراد هيمون إصغاره وأحتقاره حسداً له، وعزم على إهلاك طائفة اليهود التي في جميع مملكة أردشير، فرتب مع تواب الملك في جميع الأعمال أن يقتل كلُّ أحد منهم من يعلمه من اليهود، وعين له يوماً وهو النصف من آذار، وإنما خصّ هذا اليوم دون سائر الأيام لأن اليهود يزعمون أن موسى ولد فيه وتوفّي فيه، وأراد بذلك المبالغة في نكائتهم ليتضاعف الحزن عليهم بهلاكهم وبموت موسى، فاتضح لمردوخاي ذلك من بعض بطانة هيمون، فأرسل إلى ابنة عمه يُعابها بما عزم عليه هيمون في أمر اليهود، وسألها إعلام الملك بذلك، وحضها على أعمال الحيلة في خلاص نفسها وخلاص قومها، فأعلمت الملك بالحال وذكرت له: إنما حمّله على ذلك الحسد على قُرْبنا منك ونصيحتنا لك، فأمر بقتل هيمون وقتل أهله، وأن يكتب لليهود بالأمان والبرّ والإحسان في ذلك اليوم، فاتخذوه عيداً. واليهود يصومون قبله ثلاثة أيام، وفي هذا العيد يصوّرون من الورق صورة هيمون ويمكّون بطنها نخالة ومِلْحًا ويلقونها في النار حتى تحترق، يخذعون بذلك صبيانهم.

العيد الثاني، عيد الحنكة، وهو ثمانية أيام، يوقدون في الليلة الأولى من لياليه على كل باب من أبوابهم سراجاً، وفي الليلة الثانية سراجين، وهكذا إلى أن يكون في الليلة الثامنة ثمانية سُرُج. وهم يذكرون أن سبب اتخاذهم لهذا العيد أن بعض الجبارة تغلب على بيت المقدس وفتك باليهود وأقتل أبكارهم، فوشب عليه

أولا كهانهم وكانوا ثمانية فقتله أصغرهم ، وطلب اليهود زيتا لوقود الهيكل فلم يجدوا إلا يسيرا وزعوه على عدد ما يؤقدونه من الشرج على أبوابهم في كل ليلة الى تمام ثمان ليال فاتخذوا هذه الايام عيدا وسموه الحنكة ، ومعناه التنظيف لأنهم نظفوا فيه الهيكل من أقذار شيعة الجبار ، وبعضهم يسميه الرباني .

الجملة الخامسة

في أعياد الصابئين

ومدار أعيادهم على الكواكب ؛ وأعيادهم عند نزول الكواكب الخمسة المتحيرة وهي زحل ، والمشتري ، والمريخ ، والزهرة ، وعطارد في بيوت شرفها . وذلك أن من البروج ما يقوم لهذه الكواكب مقام قصر العز للملك ، يشهر فيه ويملأ ويشرف ، وفيها درجات معلومة ينسب الشرف إليها ؛ ومنها ما يجمل فيه ويفسد حاله ، ويكون ذلك أيضا في درجات معلومة ، تقابل درجات الشرف به من البرج المقابل . ويسمى ذلك هبوطا ؛ فزحل شرفه في إحدى وعشرين درجة من الميزان ، ويهبط في مثلها من الحمل ، والمشتري يشرف في خمس عشرة درجة من السرطان ، ويهبط في مثلها من الجدي ؛ والمريخ يشرف في ثمان عشرة درجة من الجدي ، ويهبط في مثلها من السرطان ؛ والزهرة تشرف في تسع وعشرين درجة من الحوت ، وتهبط في مثلها من السنبله ؛ وعطارد شرفه في خمس عشرة درجة من السنبله ، ويهبط في مثلها من الحوت ؛ وكذلك الشمس تشرف في تسع عشرة درجة من الحمل ، وتهبط في مثلها من الميزان ؛ والقمر يشرف في ثلاث درجات من السنبله ؛ ويهبط في مثلها من الحوت . وهم يعظمون اليوم الذي تنزل الشمس فيه الحمل ، ويلبسون فيه أنفخ ثيابهم . وهو عندهم من أعظم الأعياد . وكانت ماركهم تبنى الهياكل وتجعل لها أعيادا بحسب الكواكب التي بنيت على اسمها فيه .

الباب الثاني

من المقالة الأولى

فيما يحتاج إليه الكاتب من الأمور العملية وهو الخط وتوابعه ولواحقه ؛
وفيه فصلان

الفصل الأول

في ذكر آلات الخط ، ومبادئه وصوره ، وأشكاله ، وما ينخرط في سلك ذلك ؛
وفيه ثلاثة أطراف

الطرف الأول

في الذوات والآلات ؛ وفيه مقصدان

المقصد الأول

في نفس الذوات ، وفيه أربع جمل

الجملة الأولى

في فضلها

قد أخرج ابن أبي حاتم من رواية أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "خَلَقَ اللهُ النَّوْنَ وَهِيَ الدَّوَاةُ" وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : "لَمَّا خَلَقَ اللهُ النَّوْنَ وَهِيَ الدَّوَاةُ وَخَلَقَ الْقَلَمَ فَقَالَ أَكْتُبْ فَقَالَ وَمَا أَكْتُبُ قَالَ أَكْتُبُ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ" . وهذا الخبر والأثر دالان على أن المراد بالنون في الآية هو الدواة ، وإن فسره بعضهم بغير ذلك . إذ الدواة هي المناسبة في الذكر لذكر القلم وتسطير الكتابة في قوله تعالى :

﴿بِ الْقَلَمِ وَمَا يَسْتُرُونَ﴾ . وبالجملة فإن الدواة هي أم آلات الكتابة، وسمّطها الجامع لها . ولا يخفى ما يجب من الاهتمام بأمرها، والاحتفال بشأنها، فقد قال عبد الله بن المبارك : مَنْ نَخَرَجَ مَنْ بَيْتِهِ بِغَيْرِ مَحْبَرَةٍ وَأَدَاةٍ فَقَدْ عَزَمَ عَلَى الصَّدَقَةِ . قال المدائني : يعنى بالأداة مثل السكين والمِقلَمة، وأشباههما . قال محمد بن شعيب ابن سَابُور : مَثَلُ الْكَاتِبِ بِغَيْرِ دَوَاةٍ كَمَثَلِ مَنْ يَسِيرُ إِلَى الْهَيْجَاءِ بِغَيْرِ سِلَاحٍ .

الجملة الثانية

في أصلها في اللغة

قال أبو القاسم بن عبد العزيز : تقول العرب : دَوَاةٌ وَدَوَايَاتٌ فِي أَدْنَى الْعَدَدِ، وَفِي الْكَثِيرِ دَوِيٌّ وَدِيوِيٌّ (بضم الدال وكسرهما) وَيُقَالُ أَيْضًا دَوَاءٌ، وَدِيوَاءٌ (بضم الدال وكسرهما) وَدَوَايَا مِثْلَ حَوَايَا، وَأَدْوَيْتَ دَوَاةً أَيْ اتَّخَذْتَ دَوَاةً، وَرَجُلٌ دَوَاءٌ (بفتح الدال وتشديد الواو) إِذَا كَانَ يَبِيعُهَا، كَقَوْلِكَ عَطَّارٌ وَبَزَّازٌ .

الجملة الثالثة

فَمَا يَنْبَغِي أَنْ تُتَّخَذَ مِنْهُ، وَمَا تَحْتَلِي بِهِ

أَمَا مَا تُتَّخَذُ مِنْهُ فَيَنْبَغِي أَنْ تُتَّخَذَ مِنْ أَجُودِ الْعِيدَانِ وَأَرْفَعَهَا ثَمَنًا كَالْأَبْنُوسِ، وَالسَّاسِمِ، وَالصَّنْدَلِ، وَهَذَا اعْتِمَادٌ مِنْهُ عَلَى مَا كَانَ يُعْتَادُهُ أَهْلُ زَمَانِهِ، وَيَتَعَانَاهُ أَهْلُ عَصْرِهِ .

قلت : وقد غلب على الكُتَّابِ فِي زَمَانِنَا مِنْ أَهْلِ الْإِنْشَاءِ وَكُتَّابِ الْأَمْوَالِ اتِّخَاذُ الدُّوِيِّ مِنَ النُّحَاسِ الْأَصْفَرِ، وَالْفُؤْلَادِ، وَتَغَالَوْا فِي أَثْمَانِهَا وَبِالْعَوَا فِي تَحْسِينِهَا . وَالنُّحَاسُ أَكْثَرُ اسْتِعْمَالًا، وَالْفُؤْلَادُ أَقْلُ لِعِزَّتِهِ وَنَفَاسَتِهِ، وَاخْتِصَاصِهِ بِأَعْلَى دَرَجَاتِ الرِّبَاسَةِ كَالْوِزَارَةِ وَمِثْلِهَا .

وأما دوى الخشب فقد رُفضت وتركت إلا الآبنوس والصندل الأحمر، فإنه يتعانه في زماننا قضاة الحكم وموقعوهم وبعض شهود الدواوين .

وأما التحلية ، فقال الحسن بن وهب : سبيل الدواة أن يكون عليها من الحلية أخف ما يكون ويمكن أن تحلّ به الدوى ، في وثاقه ولطف ، ليأمن من أن تنكسر أو تنقص في مجلسه ، قال : وحق الحلية أن تكون ساذجةً بغير حفرٍ ولا ثنيات فيها ليأمن من مسارعة القذى والدنس إليها ، ولا يكون عليها نقشٌ ولا صورة . وحق هذه الحلية مع ما ذكره ابن وهب أن تكون من النحاس ونحوه دون النضة والذهب . على أن بعض الكُتّاب في زماننا قد اعتاد التحلية بالفضة ، ولا يحفى أن يحكم ذلك حكم الضربة في الإناء فتحرم مع الكبر والزينة ، وتكره مع الصغر والزينة والكبر والحاجة ، وتباح مع الصغر والحاجة من كسرٍ ونحوه ، كما قرره أصحابنا الشافعية رحمهم الله ، نعم يحرم التكفيت بالذهب والفضة ، وكذلك التمويه إذا كان يحصل منه بالعرض على النار شيء والله أعلم .

الجملة الرابعة

في قدرها وصفها

قال الحسن بن وهب : سبيل الدواة أن تكون متوسطة في قدرها ، لا بالقصيرة فتقصر أقلامها وتقبح ، ولا بالكثيفة فيثقل حملها وتجعف . فلا بد لصاحبها أن يحملها ويضعها بين يدي ملكه أو أميره في أوقات مخصوصة ، ولا يحسن أن يتولى ذلك غيره . قال الفضل : ويكون طولها بمقدار عظم الذراع أو فويق ذلك قليلا لتكون مناسبة لمقدار القلم . قلت : وقد اختلفت مقاصد أهل الزمان في هيئة الدواة : من التدوير والتربيع . فأما كُتّاب الإنشاء فأنهم يتخذونها مستطيلة ملتوية

الرأسين ، لطيفة القد ، طلبا للخفة ، ولأنهم إنما يتعانون في كتابتهم الدرّج ، وهو غير لائق بالدواة في الجملة . على أن الصغير من الدرّج لا يابى جعله في الدواة المدوّرة .
وأما كُتّاب الأموال ، فإنهم يتخذونها مستطيلةً مربعة الزوايا ، ليجعلوا في باطن غطاؤها ما استخفوه مما يحتاجون إليه من ورق الحسّاب الديوانى المناسب لهذه الدواة في القطع . وعلى هذا الأتمودج يتخذ قضاة الحكم وموقّعوهم دويهم ، إلا أنها في الغالب تكون من الخشب كما تقدم .

واعلم أنه ينبغي للكاتب أن يجتهد في تحسّير الدواة وتجويدها وصونها . والله المدائنى حيث يقول :

جود دوائك واجتهد في صونها * إن الدوى خزان الآداب

وأهدى أبو الطيّب عبد الرحمن بن أحمد بن زيد بن الفرج الكاتب الى صديق له دواة أنوس مُحلّاة وكتب معها .

لم أرَ سوداءَ قبلها ملكت * نواظر الخلق والقارب معاً
لا الطولُ أزرى بها ولا قصرٌ * لكن أتت للوصول مجتمعا
فوقك جنح من الظلام بها * وبارق بإتلافها لَمَعَا
خُذَهَا لِدُرِّهَا تُنظَّمُهُ * يروق في الحُسن كلٌّ من سَمِعَا

أما المحبرة المضرّدة عن الدواة فقد اختلف الناس فيها ، فمنهم من رجّحها ومالوا الى اتخاذها لخفة حملها ، وقالوا : بها يكتب القرآن والحديث والعلم . وكتبها بعضهم واستقبحها من حيث إنها آلة النسخ الذى هو من أشدّ الحرف وأنعيبها ، وأقلها مكسبا .

ويروى أن شعبة رأى فى يد رجلٍ محبرة ، فقال : أرم بها فانها مشربة لا يبق معنا أهل ولا ولد ، ولا أم ولا أب .

الطرف الثاني

في الآلات التي تشتمل عليها الدواة، وهي سبع عشرة آلة،

أول كل آلة منها ميم

الآلة الأولى - المِزْبَرُ (بكسر الميم)، وهو القلم أخذاً له من قولهم زَبَرْتُ الكتاب إذا اتقنت كتابته، ومنه سميت الكُتُبُ زُبْرًا كما في قوله تعالى: مِزْرًا وَإِنَّهُ لَفِي زُبْرِ الْأَوَّلِينَ) وفي حديث أبي بكر أنه دعا في مرضه بدواة ومِزْبَرٍ أي قلم. وفيه جملتان.

الجملة الأولى

في فضله

عن الوليد بن عباد بن الصامت رضى الله عنه قال: دعاني أبي حين حضره الموت فقال: إني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ: اكْتُبْ، قَالَ: يَا رَبِّ وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ الْقَدَرَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الْأَبَدِ" رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وقال: حسن غريب، وابن أبي حاتم واللفظ له. وعن ابن عباس رضى الله عنهما يرفعه "إِنْ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ وَالْحَوْتَ، فَقَالَ لَهُ اكْتُبْ، فَقَالَ: يَا رَبِّ وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ كُلَّ شَيْءٍ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ" ثم قرأ: إِنْ وَالْقَلَمِ رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ وَوَقَفَهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ. وفي رواية قال ابن عباس: "أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، قَالَ: اكْتُبْ، قَالَ: وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ الْقَدَرَ، بِمَ يَكُونُ مِنْ ذَلِكَ الرَّومَ إِلَى يَوْمِ قِيَامِ السَّاعَةِ، ثُمَّ خَلَقَ النَّوْنَ وَرَفَعَ بُخَارَ الْمَاءِ، فَتَفَتَّتْ مِنْهُ السَّمَاءُ وَبَسِطَتْ الْأَرْضَ عَلَى ظَهْرِ النَّوْنِ، فَاضْطَرَبَ النَّوْنُ، فَمَنَادَتِ الْأَرْضُ، فَأُثْبِتْ بِالْجِبَالِ. فَانْهَارَتْ عَلَى الْأَرْضِ لِأَنَّهَا أُثْبِتَتْ عَلَيْهَا" رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وروى محمد بن عمر المدائني بسنده الى مجاهد " إن أول ما خلق الله اليراع ، ثم خلق من اليراع القلم ، فقال له : أكتب ، قال : ما أكتب ؟ قال : ما هو كائن ، قال : فزبر القلم بما هو كائن الى يوم القيامة " . وأخرج بسنده الى ابن عباس ، قال : " أول ما خلق الله اليراع : وهو القصب المثقّب ، فقال : اكتب فضائي في خلقي الى يوم القيامة " . ويروى أنه لما خلقه الله تعالى نظر اليه فانشق بنصهين ، ثم قال : اجز قال : يارب بما أجرى ؟ قال : بما هو كائن الى يوم القيامة ، جري على اللوح المحفوظ بذلك ، وكان منه ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ . ويروى أن خلقه قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة .

واعلم أن القلم أشرف آلات الكتابة وأعلها رتبة ، إذ هو المباشر للكتابة دون غيره ، وغيره من آلات الكتابة كالأعوان ، وقد قال الله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ فافهم به ، وذلك في غاية الشرف . والله أبو الفتح البستي حيث يقول :

إذا أقسم الأبطال يوماً بسيفهم * وعدوه مما يكسب الجند والكرم
كفى قلم الكتاب عزاً ورفعة * مدى الدهر أن الله أقسم بالقلم

وقال تعالى : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ فأضاف التعليم بالقلم الى نفسه . قال ابن الهيثم : من جلالة القلم أن الله عز وجل لم يكتب كتاباً إلا به ، لذلك أقسم به . قال المدائني : وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من قلم قلماً يكتب به علما أعطاه الله شجرة في الجنة خير من الدنيا وما فيها . وقد قيل : الأعلام مطايا الفطن ، ورسل الكرم . وقال عبد الحميد : القلم شجرة ثمرها الإنهاض ، والفكر بحر لؤلؤه الحكمة ، وفيه ريش العنبر الكامنة . وقال جميل بن يزيد : القلم لسان البصري تاجه بما ستر عن الأسماع . وقال ابن المقفع : القلم بريد العلم يمد

(١) على البحر، ويبحث عن خفي النظر؛ وقال أحمد بن يوسف: ما عبرت الغواني في حدودهن بأحسن من عبرات الأقلام. وقيل: القلم الطلمس الأكبر. وقيل: البيان اثنان: بيان لسان، وبيان بنان؛ ومن فضل بيان البنان أن ما تثبته الأقلام باق على الأبد، وما ينسسه اللسان تدرسه الأيام. ويقال: عقول الرجال تحت أسنة أقلامها، بنوء الأقلام يصوب غيب الحكمة. وقال جعفر بن يحيى: لم أراك بأكثر أحسن تبسماً من القلم.

قال ابن المعتز: القلم مجهز بحبوش الكلام، تخدمه الإرادة، ولا يعمل من الاستزادة، كأنه يقبل بساط سلطان، أو يفتح نور بستان.

ومن إنشاء الوزير ضياء الدين بن الأثير الجزري، من جواب كتبه للبراد الأصمغاني: وكيف لا يكون ذلك، وقامتها هو اليراع الذي نفتت الفصاحة في روعه، ونفتت الشهامة بين ضلوعه، فإذا قال أراك كيف تنسق الفرائد في الأبياد.

ومن كلام أبي حفص بن برد الأندلسي: ما أعجب شأن القلم! يشرب طلمة، ويلفظ نورا؛ قد يكون قلم الكاتب، أمضى من شعبة الحارث، والقلم سهم ينفذ المقاتل، وشفرة تطيح بها المناصل. ومن كلام العميد: عمر بن عثمان الكاتب: قلم بطاني الآجال والأرزاق، وينفت السّم والدرياق؛ قلم تدق عن الإدراك حركته، وتحل بالنفاس فتكاته؛ يسرع ولا انحذار السيل إلى قراره، وانقذاح الضوء من شراره، معطوفة الغايات على المبادئ، مصروفة الأعجاز إلى الموادي؛ وإذا صال أراك كيف اختلاف الرماح بين الآساد. وله خصائص أخرى يبدعها إبداعاً، وإذا

(١) كذا بالأصل ولعلها الخبر

لم يأت بها غيره تطبعاً أتى بها هو طبعاً ، فَطَوْرًا يُرَى إماماً يُلقَى درسا ، وَطَوْرًا يَرَى
 ماشطة تجلو عرساً ، وَطَوْرًا يَرَى وَرَقَاءَ تصدحُ في الأوراق ، وَطَوْرًا يَرَى جواداً
 مخلقاً مخلوق السباق ، وَطَوْرًا أُفْعُوْنَا مطرقاً ، والعجب أنه لا يزهو إلا عند الإطراق !
 ولطالما نَفَثَ سِحْرًا ، وَجَلَبَ عِطْرًا ، وَأَدَارَ في الفِرطاسِ نَمْرًا ، وَتَصَرَّفَ في صنوف
 الغناء فكان في الفتح عُمرًا ، وَفي المَهْدِي عَمَارًا ، وَفي الكيد عَمْرًا ، فلا تَحْظِي به دولة
 إلا نَحَرْتَ على الدول ، وَاسْتَعْنَتْ عن الخيل وَالْحَوْل .

وقال الإسكندر : لولا القلم ما قامت الدنيا ، ولا استقامت المملكة . وكلُّ
 شيءٍ تحت العقل واللسان لأنهما الحاكمان على كل شيء ، والتعلم يريكنهما صورتين ،
 وَبِوَجْدُ كُهُمَا شَكْلَيْن .

وقال بعض حكماء اليونان : أمور الدنيا تحت شيئين : السيف والقلم ، والسيف
 تحت القلم . وقال آخر : فاقته صنعة القلم عند سائر الأمم جمع الحكماء في
 الكتب . وقال العنابي : بيضاء القلم نديم الكتب . وقال البُحْثَرِيُّ : أن القلم
 مطايا الفطن . وقال أبو دُلف العجلي : القلم صانع الكلام ، يفرغ ما يجمعه الفكر ،
 وَيَصُوغ ما يسبكه اللب . وقال سهل بن هارون : القلم أنف الضمير ، إذا رُحِمَتْ
 أعلن أسراره ، وَأَبَانَ آثاره . وقال ثمامة : ما أثرت الأفلام لم تطمع في درسه الأيام ،
 وقال هشام بن الحكم : أحسن الصنيع صنيع القلم والخَطُّ الذي هو جنى العقول .
 وقال علي بن منصور : بنور القلم تُضيء الحكمة . وقال الجاحظ : من عرف القلم
 في بيان اللسان كان بفضل النعمة في بيان القلم أعرف . وقال غيره : القلم يُرَفِّقُ
 بنات العقول إلى خُدُور الكُتُب . وقال المأمون : لله در القلم كيف يبرك وشي
 المملكة . وقال بعض الأعراب : القلم ينهض بما يظلم بجاه اللسان ، وَيَبْلُغ ما لا
 يبلغه البيان . وقال بعضهم : القلم يجعل للكتب ألسنا ناطقة ، وَأَسِينًا مَلَامَةً

ورما صمنا من ودائع التمازج مالا تبوح به الإخوان عد المشاهدة . وقال أوميرس
 الحكيم : انخط شيء أظهره العقل بواسطة من القلم ، فلما قابل النفس شِسْفَتَه
 بالعنصر . وقال مرطس الحكيم : انخط ^(١) بالقلم يسمى الحكمة . وقال حالبوس : القلم
 الطلمس الأكبر . وقال بقراط : القلم على إيقاع الوتر ، والمهنة المعطفية مقدمة على
 المهنة الطبيعية . وقال بليناس : القلم طبيب المِطْطِ . قال أرسطاطاليس : القلم
 العساة الفاعلة ، والمداد العلة السيولانية ، وانخط العلة الصورية ، والبلاعة العلة
 التمازية . وقد أكثر الشعراء القول في شرف القلم وفصله .

فمن ذلك قول أبي تمام البطائي :

إن يخدم القلم السيف الذي خضعت * له الرقاب وذات خروفسه الأئم

فالموت والموت لا شيء يغالبه * ما زال يتبع بما يحرى به التسلم

كذا قضى الله للأقلام مذبريت * أن السيوف لها مذ أهدفت حدم

وقوله :

لك القلم الأعلى الذي يشابهه * نصاب من الأمر الكلي والمفاصل

لما الأفاعي القاتلات لعابه * وأرى الجنى اشتارته أيد عواسل

له ريفة ظل وكنى ونعها * يآثاره في الشرق والغرب وأبل

فصيح إذا استنطقته وهو راكب * وأعجم إن شاءتته وهو راجل

إذا امتطى الخمس اللطاف وأفرغت * عليه شعاب الفكر وهي حوافل

أطاعته أطراف النما وتقوضت * لتجواه تقويض الحيام الجناقل

إذا استفزر الذهن الجلي وأقلت * أعاليه في القمطاس وهي أمائل

(١) ولعله ، نخدم على أو نحو ذلك .

وقد رَفَدَتْهُ الحُنْصِرَانِ وسَدَّدت * ثلاث نواحيه الثلاثُ الأَنَامِلُ
رَأيتَ جليلاً شأنُهُ وهو مُرْهَف * ضَنًّا وَسَمِينًا خَطْبُهُ وهو نَاحِلُ

وقول أبي هلال العسكري :

أَنظُرْ الى قَلِمٍ يَنْكُسُ رَأْسَهُ * لِيَضُمَّ بَيْنَ مُوَصَّلٍ وَمِفْصَلِ
تَنظُرْ الى مُضَلَّابٍ لَيْثٍ ضَيِّفِمْ * وَيَغْرَارِ مَسْنُونِ المَضَارِبِ مِفْصَلِ
يَبْدُو لِنَاطِرِهِ بِأُورِينِ أَضْيَفِ * وَمَدَائِعِ سُورِ وَجْهِهِ مُنْحَلِ
فَالدَّرَجُ أبيضٌ مِثْلُ خَدِّ وَاضِحِ * يَتَنَبَّهُ أَسودٌ مِثْلُ طَرْفِ أَحَلِ
قَسَمِ العَطَايا وَالْمَنَايا في الوري * فإذا نظرتَ إليه فاحذِرْ وَأَمِلِ
طَعْمَانِ شَوْبٍ حلاوةً بِمَرارةٍ * كالتَهرِ يَخْلِطُ شَهْدَهُ بِالخَنْظَلِ
فإذا تَصَرَّفَ في يَدِيكَ عِناهُ * أَلحقتَ فيه موقِلاً بِمَوْثَلِ
وَمُدَلِّلاً بِمَعَزَزٍ وَلرَبِّمَا * أَلحقتَ فيه مَعَزَزاً بِمُدَلِّ

وقوله :

لَكَ القَلَمُ الجارى بِبُؤْسٍ وَأَنعِيمِ * فَمِنها بَوادٍ تُرْتَجى وَعِوائِدُ
إِذا مَلَأَ القُرطاسَ سَودُ سَطورِهِ * فَتَمَلِكُ أَسودُ نُتقى وَأَساودُ
وَتَمَلِكُ جِئانُ تُجْتَنى ثَمراتِها * وَيَلقاكَ مِنَ أنفاسِهِنَّ بَوادِ
وَهنَّ بِرودٌ ما لهنَّ مَناسِجُ * وَهنَّ عَقودٌ ما لهنَّ مَعاقِدُ
وَهنَّ حِياةٌ لِلوَلِيِّ رَضِيَّةٌ * وَهنَّ حُتوفٌ لِلعدوِّ رِواصدُ

الجملة الثانية

في اشتقاقه

وقد اختلف في ذلك ، فقيل : سمي قلمًا لاستقامته كما سميت القِدَاحُ أقلامًا في قوله تعالى : ﴿ إِذْ يُلقُونَ أَقلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرِيماً ﴾ قال بعض المفسرين تساحوا في كفالتها فضربوا عليها بالقداح ، والقداح مما يصرّب بها المثل في الاستقامة ، وقيل : هو ماخوذ من القَلَامِ وهو شجر رَحْوٌ فلما ضارعه القلم في الضعف سمي قلمًا ، وقيل : سمي قلمًا لقَم رأسه ، فقد قيل إنه لا يسمى قلمًا حتى يُبْرَى ، أما قبل ذلك فهو قَصَبَةٌ . كما لا يسمى الرُحْمُ رُحْمًا إلا إذا كان عليه سِنَانٌ وإلا فهو قَنَاةٌ . ومنه قَلَامَةُ الظفر ، والى ذلك بشير أبو الطَّيِّبِ الأزدي بقوله :

قَلَمٌ قَلَمٌ أَظْفَارَ العِدا * وهو كالإصبع مقصوص الظفر

أشبهَ الحَيَّةَ حتى إنه * كَلَمًا عَمَرَى الأيدي قَصْر

وقيل لأعرابي : ما القلم ؟ ففكر ساعة وقلب بده ، ثم قال : لا أدري ، فقيل

له : توهمه ، قال : هو عود قَلَمٌ من جوانبه كتقليم الظفر ، فسمى قلمًا .

الجملة الثالثة

في صفته

قال ابراهيم بن العباس لغلام بين يديه يعلمه الخطَّ ليكن قلمك صلبًا بين الدقة والنعاط ، ولا تهره عند عُقْدَةٍ فإن فيه تعقيد الأمور ، ولا تكتب نلام ملتوى ، ولا ذى شقٍّ غير مستوى ، وإن أعوزك البحرى والفارسي ، واضطرت إلى الأفلام النبطية فاختر منها ما يميل إلى السُمرة .

وقال إبراهيم بن محمد الشيباني : ينبغي للكاتب أن يتخير من أنابيب القصب أقله عُقْدًا، وأكثفه لحماً، وأصلبه قشراً، وأعدله آستواء . وقال العتابي : سألني الأَصْمَعِيُّ يوماً بدار الرشيد : أيّ الأنابيب للكتابة أصلح وعليها أصبر؟ فقلت : مانسيف بالهجير مأؤه، وستره من تلويحه غشاؤه؛ من التبرية القشور، الدرية الظهور، الفضية الكسور .

وكتب علي بن الأزهر الى صديق له يستدعي منه أقلاما :

أما بعد، فإننا على طول الممارسة لهذه الكتابة التي غلبت على الأسم، ولزمت لزوم الوسم، فحلت محل الأنساب، وجرت مجرى الألقاب، وجدنا الأقلام الصخرية أجري في الكواغد، وأمرت في الجلود؛ كما أن البحرية منها أسلس في القراطيس، وألين في المعاطف، وأشد لتصرف الخط فيها؛ ونحن في بلد قليل القصب رديئه، وقد أحببت أن نتقدم في اختيار أقلام صخرية، وننتوق في اقتنائها قبلك، وتطلبها من مظانها ومنابتها، من شطوط الأنهار، وأرجاء الكروم؛ وأن نتمن باختيارك منها الشديدة الصلبة، النقية الجلود، القليلة الشحوم، الكثيرة اللحوم، الضيقة الأجواف، الرزينة المحمل، فإنها أبقى على الكتابة، وأبعد من الحفاء . وأن تقصد بانتقائك الرقاق القُضبان، المقومات المتون، الملس المعاهد، الصافية القشور، الطويلة الأنابيب، البعيدة ما بين الكموب، الكريمة الجواهر، المعتدلة القوام، المستحكمة يساً، وهي قائمة على أصولها لم تعجل عن إبّان ينعمها، ولم تؤخر الى الأوقات المخوفة عليها من خصر الشتاء، وعفن الأنداء، فإذا استجمعت عندك، أمرت بقطعها

(١) في العقد الفريد : نثائق وهو بمعناه . قال ذو الرمة .

كان عليها سحق لئلا تتوقت * به حضرميات الأكف الحوائك

(٢) في العقد الفريد : تديم .

ذراعا [ذراعا] ^(١) قَطْعًا رَفِيقًا ، ثم عَبَّاتٌ مِنْهَا حُرْمًا فِيمَا يَصُونُهَا مِنَ الْأَوْعِيَةِ ، وَتَكْتُبُ ^(٢) مَعَهُ بَعْدَتَهَا وَأَصْنَافَهَا مِنْ غَيْرِ تَأْخِيرٍ وَلَا تَوَانٍ .

وأهدى ابن الحرون الى رجل من إخوانه الكُتَّابِ أَقْلَامًا ، وَكُتِبَ إِلَيْهِ :

إِنَّهُ لَمَّا كَانَتْ الْكِتَابَةُ (أَبْقَاكَ اللَّهُ) أَعْظَمَ الْأُمُورَ ، وَقِيَامَ الْخِلَافَةِ ، وَعَمُودَ الْمَمْلَكَةِ ، أَتَحْفَتِكَ مِنْ آتِهَا بِمَا يَنْخَفِ مَحْمَلُهُ ، وَتَثْقُلُ قِيَمَتُهُ ، وَيَعْظُمُ نَفْعُهُ ، وَيَجِلُّ خَطَرُهُ ؛ وَهِيَ أَقْلَامٌ مِنَ الْقَصَبِ النَّابِتِ فِي الصَّخْرِ ، الَّذِي تُسِفُّ بِحَزْرِ الْمَجِيرِ فِي قَشْرِهِ مِائَةٌ ؛ وَسْتَرُهُ مِنْ تَلْوِيحِهِ غِشَاؤُهُ ، وَهِيَ كَاللَّاتِي الْمَكْنُونَةِ فِي الصَّدْفِ ، وَالْأَنْوَارِ الْمَحْجُوبَةِ فِي السَّدْفِ ؛ تَبْرِيَّةٌ الْقَشُورِ ، دَرِيَّةٌ الظُّهُورِ ، فَضِيَّةٌ الْكُسُورِ ؛ قَدْ كَسَتْهَا الطَّبِيعَةُ جَوْهَرَ كَالْوَشِيِّ الْمُخْبَرِ ، وَرَوْنَقًا كَالدِّيْبَاجِ الْمُنِيرِ .

وَمِنْ كِتَابِ لَأَبِي الْخَطَّابِ الصَّبَّابِيِّ يَصِفُ فِيهِ أَقْلَامًا أَهْدَاهَا فِي جَمَلَةٍ أَصْنَافٍ : وَأَضْفَتُ إِلَيْهَا أَقْلَامًا سَلِيمَةً مِنَ الْمَعَايِبِ ، مُبْرَأَةً مِنَ الْمَثَالِبِ ؛ جَمَّةَ الْمَحَاسِنِ ؛ بَعِيدَةً عَنِ الْمَطَاعِنِ ؛ لَمْ يَرِبْهَا طُولٌ وَلَا قِصْرٌ ، وَلَا يَنْقُصُهَا ضَعْفٌ خَوْرٌ ؛ وَلَا يَشِينُهَا لِينٌ وَلَا رِخَاوَةٌ ، وَلَمْ يَعْبُهَا كَرَّازَةٌ وَلَا قِساوَةٌ ؛ وَهِيَ آخِذَةٌ بِالْفَضَائِلِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا ، مُسْتَوِيَّةٌ لِلْمَمَادِحِ بِسَائِرِ صِفَاتِهَا ؛ صُلْبَةٌ الْمَعَاجِمِ ، لَدَّةُ الْمَقَاطِعِ ؛ مَوْفِيَةٌ الْقُدُودِ ^(٣) وَالْأَلْوَانِ ، مَحْمُودَةٌ الْمُخْبَرِ وَالْعِيَانِ ؛ وَقَدْ اسْتَوَى فِي الْمَلَّاسَةِ خَارِجُهَا وَدَاخِلُهَا ، وَتَنَاسَبَ فِي السَّلَاسَةِ عَالِيهَا وَسَافِلُهَا ؛ نَبَتَتْ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالظَّلِّ ؛ وَاخْتَلَفَ عَلَيْهَا الْحَرُّ وَالْقَرُّ ؛ فَلَفَحَهَا وَقَدَّانُ الْهَوَاجِرِ ، وَلَفَعَهَا سَمَائِمُ شَهْرِ نَاجِرٍ ؛ وَوَقَدَّهَا الشَّفَّانُ بِصَرْدِهِ ، وَقَدَفَهَا الْغَمَامُ بِبَرْدِهِ ، وَصَابَتْهَا الْأَنْوَاءُ بِصَيِّبِهَا ، وَاسْتَهَلَّتْ عَلَيْهَا السَّحَابُ بِشَائِبِهَا ؛ فَاسْتَمَرَّتْ

(١) الزيادة عن العقد الفريد .

(٢) في العقد : ووجهها مع من يؤدى الأمانة في حراستها وحفظها وإيصالها وكنيت الخ .

(٣) لعله واقية القدود ، أى تامة كاملة .

مراثرها على إحكام ، واستحصد ^(١) سَجَلُهَا بالإبرام ؛ جاءت شتَّى الشَّيَات ، متغايرة
الهيئات ، متباينة المحالِّ والبُلدان ؛ تختلفُ بتباعد ديارها ، وتأتلف بكرم نجارها .
فمن أنابيبٍ قنًا ناسبتُ رماحَ الخطِّ في أجناسها وشاكتِ الذهب في ألوانها
وضاهت الحرير في ألعانها ؛ مضابطة الحفاء ، نمرَّة القوي ؛ لا يسيطها القط ،
ولا يُسَعَّبُ بها الخط .

ومن مضرية بيض كأنها قباطيٌ ^(٢) مضر نقاء ، وغرقى ^(٣) البيض صفاء ؛ غذاها
الصعيد من ثراه بلبه ، وسقاها النيل من نَميره وعذبه ؛ بجاءت ملتئمة الأجزاء ، سليمة
من الألتواء ؛ تستقيم شقوقُها في أطوالها ، ولا تنكب عن يمينها ولا شمالها ، مقترن بها
صفراءُ كأنها معها عقيانٌ قرنٌ بلجين ، أو ورقٌ خطٌّ بعين ؛ تختال في صُفر ملاحفها ،
وتميس في مُذهب مطارفها ؛ بلون غياب الشمس ، وصنغ ثياب الورس .

ومن منقوشة تروق العين ، وتونق النفس ؛ ويهدي حسنُها الأريحية إلى القلوب ،
ويجلى الطرف لها حبة الحلیم اللبيب ؛ كأنها اختلاف الزهر اللامع ، وأصناف
التمر البانع .

ومن بحرية موشية الليط ، رائقة التخطيط ؛ كأن داخلها قطرة دم ، أو حاشية
رداء معلّم ؛ وكأن خارجها أرقم ، أو متنٍ وإيدٍ مُفعم ؛ نشرت ألوانا تُزري بورد
الحدود ، وأبدت قامات تفضح تاود القُدود .

ومن كلام ابن الزيات : حير الأقلام ما استحکم نُضجُه ، وخف بزره ؛ قد
تساعدت عليه السعود في فلك البروج حولا كاملا ، تؤلفه بمختلف أركانها وطباعها ،
ومتباين أنوائها وأنحاءها ؛ حتى إذا بلغ أشده واستوى ، وشقت بوازله ، ورقت

(١) لعله حبيلها وحرر .

(٢) القباطي : ثياب بيض من تكان كانت تعمل بمصر .

(٣) غرقى البيض : القشرة المازقة ببياضه .

شمائله ، وابتسم من غشائه ، وتآدى من لحائه ، وتعزى عنه ثوب المصيف ، بانقضاء
الخريف ، وكشف عن لون البيض المكنون ، والصدف المحزون ، قطع ولم يعجل
عن تمام مصلحته ، ولم يؤخر الى الأوقات المخوفة عاهاتها عليه من خصر الشتاء ،
وعفن الأنداء ، بجاء مستوي الأنايب معتد لها ، منق الكعوب مقومها .

وقد حرر الوزير أبو علي بن مقله رحمه الله مناط الحاجة من هذه الأوصاف ،
واقنصر على الضروري منها في الفاظ قلائل فقال :

خير الأقلام ما استحكم نضجه في جرمه ، ونسف ماؤه في فشره ، وقطع بعد
إلقاء بزره ، وبعد أن اصفر لجأؤه ورق شجره ، وصلب شحمه ، وثقل حجمه .

الجملة الرابعة

في مساحة الأقلام في طولها وغلظها

قال ابن مقله ، خير الأقلام ما كان طولُه من ستة عشر إصبعاً الى اثني عشر ،
وامتلاؤه ما بين غلظ السبابة الى الخنصر . وهذا وصف جامع لسائر أنواع الأقلام
على اختلافها .

وقال في موضع آخر : أحسن قُدود القلم ألا يتجاوز به الشرباكثر من جلفته
ويشهد له قول الشاعر :

فتى لو حوى الدنيا لأصبح غارياً • من المال معنضاً ثياماً من الشكر
له ترجمان أحرس اللفظ صامت • على قاب سبر بل يزيد على الشر

وقال الشيخ عماد الدين الشيرازي . أحمد الأقلام ما توسطت حالته في الطول
والقصر ، والغلظ والدقة ، فإن الدقيق الصنبل تجتمع عليه الأنامل فيبقى ماثلاً الى
ما بين الثالث ، والغليظ المفرط لا تحماه الأنامل

وقال في الحلية : اذا كانت الصحيفة لينة ينبغي أن يكون القلم لين الأنبوب ،
وفي لحمه فضل ، وفي قشره صلابة ، وإن كانت صلبة ، كان يابس الأنبوب صلبه ،
ناقص الشحم ، لأن حاجته الى كثرة المداد في الصحيفة الرخوة أكثر من حاجته اليه
في الصحيفة الصلبة . فرطوبته ولحمه يحفظان عليه غزارة الاستمداد ، ويكفي
في الصحيفة الصلبة ما وصل اليها في القلم الصلب الخالي من المداد ، والله جل
ذكره أعلم .

الجملة الخامسة

في برى القلم ، وفيه حسنة أنظار

النظر الاوّل

في اشتقاقه وأصل معناه

يقال برّيت القلم أبريه برّياً وبرّياً وبرّياً غير مهموز ، وهو قلم مبرّئ ، وأنا بارٍ للقلم بغير
همز أيضا . قال الشاعر :

يا باري القوس برّياً ليس يحكّه * لا تُفسد القوس أعط القوس باريها

ويقال أيضا : برّوت القلم والعود برّوا بالواو ، والياء أفصح . ويقال لما سقط
منه حالة البرّى برّية (بضم الموحدة في قوله) على وزن نزالّة وحنّالة ، والفعالة اسم
لكل فضلة تفضل من الشيء ، وتقول في الأمر : ابرقلمك .

النظر الثاني

في الحث على معرفة البرّية

قال الحسن بن وهب : يحتاج الكاتب الى خلال ، منها : جودة برّى القلم ،
وإطالة جافّته ، وتحريف فطّته ، وحسن التآني لاه تطاء الأنامل ، وإرسال المدّة بعد

إشباع الحروف، والتحرز عند فراغها من الكشوف، وترك الشكل على الخطأ والإعجام على التصحيف .

ومن كلام المقر العلاءي ابن فضل الله، طيب الله مهجعه : من لم يحسن الاستمداد، وبرى القلم، والقط وإمساك الطومار، وقسمة حركة اليد حال الكتابة، فليس هو من الكتابة في شيء .

ويحكى أن الضحاک كان إذا أراد أن يبرى قلماً تواری بحيث لا يراه أحد، ويقول : الخط كله القلم . وكان الأنصاري إذا أراد أن يبرى فعل ذلك، فاذا أراد أن يقوم من الديوان قطع رعوس الأقلام حتى لا يراها أحد .

وقال إسحاق بن حماد : لاحدق لغير ميمز لصنوف البراية . ورأى ابراهيم بن المحبس رجلاً يأخذ على جاربية قلم الثلث ، فقال : أعلمتها البراية؟ قال : لا، قال : كيف تحسن أن تكتب بما لا تحسن برأيته؟ تعلم البراية أكبر من تعلم الخط .

قال المقر العلاءي ابن فضل الله : ورأيت بخط أبي علي بن مقلة رحمه الله ، نعم نعم ملاك الخط حسن البراية، ومن أحسنها سهل عليه الخط، ولا يقتصر على علم فن منها دون فن، فانه يتعين على من تعاطى هذه الصناعة أن يحفظ كل فن منها على مذهبه من زيادة في التحريف، ومن النقصان منه، ومن اختلاف طبقاته . ومن وعى قلبه كثرة أجناس قلم الأقلام كان مقتدراً على الخط، ولا يتعلم ذلك إلا عاقل، والقلم للكاتب كالسيف للشجاع .

وقال الضحاک بن عجلان : القلم من أجناس الأقلام كاللحن من أجناس الألحان في الصناعة، والبراية الواحدة من أجناس البراية كذلك .

ومن كلام المقر العلاءي ابن فضل الله : جود البراية نصف الخط

ومنهم من ذهب الى أن العبرة بحسن الصنعة دون برى القلم ، حتى حكى الغزالي رحمه الله في نصيحة الملوك أن الصحاح بن عباد كان وزيراً لبعض الملوك ، وكان معه ستة وزراء غيره فكانوا يحسدونه ، ولم يزالوا حتى ذكروا للملك أنه لا يُحسِنُ برَايةَ القلم ، وعمدوا الى أقلامه فكسروا رؤوسها ، ثم إن الملك أمره بكتب كتاب في المجلس ، فوجد أقلامه كلها مكسرة الرؤوس فأخذ قلما منها ، وكتب به الى أن انتهى الى آخر الكتاب بنحط فائق رائق ، فقال له الملك : إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن برى القلم ، فقال : إن أبي علمني كاتباً ولم يعلمني تجاراً .

النظر الثالث

في معرفة محلّ البراية من القلم

قال إبراهيم بن محمد الشيباني : يجب أن يكون البرى من جهة نبات القصبه يعنى من أعلاها إذا كانت قائمة على أصلها ، فإن محل القلم من الكاتب محل الرمح من الفارس . والى هذا المعنى أشار أبو تمام الطائي بقوله في أبياته المتقدمة :
إذا استغزر الذهن القوى وأقبلت * أعاليه في القيرطاس وهى أسافل
وقال أبو القاسم : إذا أخذ القلم لبرية فلا يخلو من استقامة فى البنية أو اعوجاج فى الخلفة ، فإن كان مستويا فالبرية من رأسه ، وهو حيث استدق ، وإن كان معوجاً ودعت الضرورة إليه ، فالبرية من أسفله لأن أسفله أقل التواء من أعلاه .

النظر الرابع

فى كيفية إمساك السكين حال البرى

قال ابن البربرى : إذا بدأت بالبراية فأمسك السكين باليد اليمنى ، والأنبوبة باليسرى ، وضع إبهامك اليمنى على قفا السكين ، ثم اعتمد على الأنبوبة إعتقاداً رقيقاً .

النظر الخامس

في صنعة البراية

قال العناني : سألني الأصبغى يوما بدار الرشيد : أي نوع من البري أصوب وأكتب؟ فقلت : البرية المستوية القطعة التي عن يمين سنها برية تأمن معها الحجة عند المدة والمطة، الهواء في شقها فتيق، والريح في جوفها تحريق، والمداد في حرطومها رقيق .

واعلم أنه ربما حسن الخط باعتبار براية الفلم، وإن لم يكن على قواعد الخط وهندسته، فقد قيل : إن الأحوال المحتررة كان عجيب البراية للقلم، فكان خطه رائقا بهجا من غير إحكام ولا إتقان . قال الأنصاري المحتر : كنت أكتب في ديوان الأحوال، فقربت منه وأخذت من خطه، وسرقت من دواته قلما من أقلامه، فجاء خطي به، فلاحت منه نظرة إلى دواتي، فرأى القلم فعرفه، فأخذه وأبعدني . وكان إذا أراد أن يقوم من مجلسه أو ينصرف قطع رءوس أقلامه كلها .

واعلم أن البري يشتمل على معان .

المعنى الأول - في صفته، ومقداره في الطول، والتقير .

قال الوزير أبو علي بن مقلة رحمه الله: ويجب أن يكون في القلم الصليب أكثر تقعيرا، وفي الرخو أقل، وفي المعتدل بينهما . وصفته أن تبتدئ بتزولك بالسكين على الاستواء، ثم تميل القطع إلى ما يلي رأس القلم، ويكون طول الفتحة مقدار عُقْدَةِ الإبهام، أو كمنافير الحمام، وإلى ذلك أشار الشيخ علاء الدين السمرري رحمه الله في أرجوزته بقوله :

وُطُوْلُهَا كَعُقْدَةِ الإِبْهَامِ لَا * أَعْلَى وَلَا أَدْنَى يَكُونُ أَرْدَلَا

قال الأستاذ أبو الحسن بن البواب رحمه الله : كل قلم تقصّر جلفته ، فإن الخط يحيى به أوقص ، والوقص قصر العنق ، ولذلك سمي متفاعلا في عروض الكامل إذا حذف منه التاء أوقص ، وكأنه يريد بالقصر ما دون عقدة الإبهام .

وقد قال إبراهيم بن العباس الصولى الكاتب : أطل نخرطوم قلمك . فقيل له : أله نخرطوم؟ قال : نعم ، وأنشد :

كأن أنوف الطير في عرصاتها * خراطيم أقلام تحط وتعجم

وقال عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان لرغبان ، وكان يكتب بقلم قصير البرية : أتريد أن يجود خطك؟ قال : نعم ، قال : فأطل جلفه قلمك وأسمها ، وحرف القطة وأينها ، قال رغبان : ففعلت ذلك بخاد خطي .

وقال الشيخ عماد الدين بن العفيف رحمه الله : إذا طالت البرية ، فإنه يحيى الخط بها أخف وأضعف وأجلى ، وإذا قصرت جاء الخط بها أصفى وأثقل وأقوى .

المعنى الثانى - النحت .

قال الوزير أبو على بن مقلة : وهو نوعان ، نحت حواشيه ، ونحت بطنه . أما نحت حواشيه ، فيجب أن يكون متساويا من جهتي السن معا ، ولا يحمل على إحدى الجهتين فيضعف سنه ، بل يجب أن يكون الشق متوسطا لحلقة القلم دق أو غلط . قال : ويجب أن يكون جانبا مسيفين ، والتسيف أن يكون أعلاه ذاهبا نحو رأس القلم أكثر من أسفله ، فيحسن جرى المداد من القلم . قال : وأما نحت بطنه فيختلف بحسب اختلاف الأقلام فى صلابة الشحم ورخاوته ، فأما الصلب الشحمة فينبغى أن يُنحت وجهه فقط ، ثم يجعل مسطحا وعرضه كقدر عرض الخط الذى يُؤرّ الكاتب أن يكتبه ، وأما الرخو الشحمة فيجب أن تستأصل شحمته حتى

تنتهی الی الموضع الضلُّب من جرم القلم ، لأنک إن کتبت بسُحْمه ، نسطی القلم ولم یَصْفُ جریانه .

ومن کلام ابن البربری : لاتفصع البرایة ، ولا تخالف بین حذی القلم ، فان ذلك حیآکة ، وإذا کان كذلك ینکون القلم أحول .

ثم الخلفَةُ علی أنحاء ، منها : أن یرهف جانبی البریة ، ویسمن وسطها شیئ بسیرا ، وهذا ینصلح للبسوط والمعنق والمحقق .

ومنها ما تستأصل شحمته کلها ، وهذا ینصلح للمرسل والممزوج والمفتح

ومنها ما یرهف من جانبه الأیسر ویبقی فیہ نقیة فی الأیمن ، وهذا ینصلح للطوامیر وما شابهها .

ومنها ما یرهف من جانبی وسطه ، ویكون مكان القطعة منه أعرض مما تحتها ، وهذا ینصلح فی جمیع قلم الثلث وفروعه .

المعنی الثالث - الشق . وفیه مهیمان .

المهیع الأول

فی فائدته

قال الوزیر أبو علی بن مقلة رحمه الله : لو كان القلم غیر مشفوق ما استمرت به الأنامل ، ولا اتصل الخط للكاتب ، واكثر الاستمداد ، وعدم المشق ، ولما لمداد الی أحد جنبی القلم علی قدر قتل الكاتب له .

المهيع الثانى

فى صفة الشق ، وفيه مُدْرَكَان

المُدْرِكُ الأوّل

فى قدره فى الطول

قال ابن مقبلة : ويختلف ذلك بحسب اختلاف القلم فى صلابته ورخاوته .
فأما المعتدل فيجب أن يكون شقّه الى مقدار نصف الفتحة أو ثلثيها . والمعنى فيه
أنه اذا زاد على ذلك انفتحت سنا القلم حال الكتابة وفسد الخط حينئذ . واذا كان
كذلك أمن من ذلك .

وأما الضاب ، فينبغى أن يكون شقّه الى آخر الفتحة ، وربما زاد على ذلك
بمقدار إفراطه فى الصلابة . وقد نظم ذلك الشيخ علاء الدين السمرى رحمه الله
فى أرجوزته فقال :

وأعلم بأن الشق أيضا يَخْتَلِفُ بحسب الأقسام فانهم ما أصف
فإن يكن معتدلا شقّ الى * مقدار ثلث الحنفة أنقل وأقبلا
والرخو للنصف أو الثلثين زد * والصلب بالفتحة الحق تستعد
وربما زادوا على ذلك إذا * أفرط فى الصلابة أعرف ذا وذا

المُدْرِكُ الثانى

فى محله من الحنفة فى العرض

وقد تقدم من كلام ابن مقبلة رحمه الله فى المعنى الثالث أنه يجب أن يكون الشق
متوسطا لحنفة القلم ، وعليه جرى الأستاذ أبو الحسن بن البواب رحمه الله فقال
وليكن غلظ السنين جميعا سواء . قال : ويجوز أن يكون الأيمن أغلظ من الأيسر

دون العكس على كل حال؛ وهذا إنما يأتي إذا كانت الكتابة آخذة من جهة اليمين إلى جهة اليسار، أما إذا كانت آخذة من جهة اليسار إلى جهة اليمين كالقبطية فإنه يكون بالعكس من ذلك لأنه يقوى الاعتماد على اليسار دون اليمين .

المعنى الرابع - القَطُّ؛ وفيه مهيمان :

المهيع الأول

اشتقاقه ومعناه

يقال قَطَطْتُ القلمَ أَقَطُّهُ قَطًّا فأنا قاطٌّ وهو مَقْطُوطٌ وَقَطِيطٌ : إذا قطعت سنه وأصل القَطُّ : القطع ؛ والقَطُّ والقَطُّ متقاربان ، إلا أن القَطُّ أكثر ما يستعمل فيما يقع السيف في عَرْضِه ، والقَطُّ ما يقع في طُولِه . وكان يقال : إذا علا الرجل الشيء بسيفه قَدَه ، وإذا عرضَه قَطَّه . وذلك أن مخرج الطاء والذال متقاربان ، فأبدل أحدهما من الآخر كما يقال مط حاجبيه ، ومد حاجبيه .

المهيع الثاني

في صفته

وأعلم أن أجناس القَطُّ تختلف بحسب مقاصد الكُتَّاب ، وهو المقصود الأعظم من البراية ، وعليه مدار الكتابة . قال الضَّحَّاك بن عجلان : من وعى قلبه كثرة أجناس قَطِّ الأقلام كان مقتدرا على الخط . وقال المقر العلائى ابن فضل الله تغمده الله برحمته : كان بعض الكُتَّاب إذا أخذ الأنبوبة ليبريها تفرس فيها قبل ذلك ، فإذا أراد أن يَقُطُّ توقف ثم تحرَّى فتوقف ثم يَقُطُّ على تثبت .

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف : والقَطُّ على نوعين :

النوع الأول - المحرف، وطريق بديه أن يحرف السكين في حال القط، وهو ضربان: قائم ومصوب؛ أما القائم فهو ما جعل فيه ارتفاع الشحمة كارتفاع القشرة؛ وأما المصوب، فهو ما كان القشر فيه أعلى من الشحم.

النوع الثاني - المستوى؛ وهو ما تساوى سناه؛ وأجودهما المحرف، وقد صرح بذلك الوزير أبو علي بن مقلة، فقال: وأحدها ما كان ذا سن مرتفع من الجهة اليمنى ارتفاعا قليلا إذا كان القلم مصوبا، وهذا معنى التحريف؛ وذلك إذا كانت الكتابة آخذة من جهة اليمين إلى جهة اليسار كما تقدم عند ذكر سني القلم، بخلاف ما إذا كان آخذا من جهة اليسار إلى جهة اليمين. قال الشيخ عماد الدين بن العفيف رحمه الله: وأجودها المحرفة المعتدلة التحريف، وأفسدها المستوية، لأن المستوى أقل تصرفا من المحرف. قال: وقد كان بعض من لا يعتد به يقط القلم على ضد ما يعتمده الأستاذون، فيصير الشحم من القلم هو المشرف على ظاهره، فكان خطه لا يحمى إلا رديئا، وإذا كانت القطعة على الضد من ذلك كان الكاتب متصرفا في الخط، متمكنا من القرباس. قال الوزير ابن مقلة: وأصح السكين قليلا إذا عزمت على القط ولا تنصبها نصبا، يريد بذلك أن تكون القطعة أقرب إلى التحريف، وأن تكون مصوبة.

قال الشيخ شمس الدين بن أبي ربيعة: سألت الشيخ عماد الدين بن العفيف رحمه الله عن الكتابة بالأقلام، والتحريف والتدوير، فقال: الرقاع والتوقيع أميل إلى التدويرين بين، قطعة مربعة، والنسخ والمحقق والمشعر أميل إلى التحريف، والمحقق أكثر تحريفا منهما. وقد فسّر ابن الوحيد قول ابن البواب: لكن جملة ما أقول بأنه ما بين تحريف إلى تدوير، أن المعنى أن لكل قلم قط صفة، فقطة الريحاني أشدها تحريفا، ثم يقل التحريف في كل نوع من أنواع قط الأقلام حتى تكون الرقاع أقلها تحريفا.

النظر السادس

في معرفة صفات القلم فيما يتعلق بالبراية، وما لكل من سني القلم من الحروف قال الشيخ عماد الدين بن العفيف: من لم يدِر وجه القلم، وصدره، وعرضه، فليس من الكتابة في شيء. وقد فسّر ذلك الوزير أبو علي بن مُقَالَة فقال: اعلم أن للقلم وجهًا وصدرًا وعرضًا، فأما وجهه حيث تضع السكين وأنت تريد قطه، وهو ما يلي لحمة القلم، وأما صدره فهو ما يلي قشرته، وأما عرضه، فهو نزولك فيه على تحريفه. قال: وحرف القلم هو السن العليا وهي اليمنى.

الجملة السادسة

في مساحة رأس القلم ومقدارها من حيث موضع القطعة، وتفترعها عن قلم الطومار، وسببها من مساحتها على اختلاف مقاديرها في الدقة والغليظ والتوسط، وما ينبغي أن يكون في دواة الكاتب من الأقلام:

أما مساحة رأس القلم، فاعلم أن رؤوس الأقلام تختلف باختلاف الأقلام التي جرى الاصطلاح عليها بين الكتاب، وأعظمها وأجلها وأكثرها مساحة في العرض هو قلم الطومار، وهو قلم كانت الخلفاء تعلم به في المكاتب وغيرها. وصفته أن يؤخذ من لب الحر يد الأخضر، ويؤخذ منه من أعلى الفتحة ما يسع رؤوس الأنامل ليتمكن الكاتب من إمساكه، فإنه إذا كان على غير هذه الصورة، ثقل على الأنامل ولا تحتمله، ويتخذ أيضا من القصب الفارسي، ولا بد من ثلاثة شقوق لتسهيل الكتابة به ويجري المداد فيه. ولهم قلم دونه ويسمى مختصر الطومار، وبه يكتب النواب والوزراء ومن ضاهاهم الاعتماد على المراسيم ونحوها. وقدروا مساحة عرضه من حيث البراية بأربع وعشرين شعرة من شعر البرذون معترضات، وهو

أصل لما دونه من الأقلام ، فقلم الثلثين من هذه النسبة مقدر بست عشرة شعرة ،
 وقلم النصف مقدر باثنتي عشرة شعرة . وقلم الثلث مقدر بثمان شعرات ، ومختصر
 الطومار ما بين الكامل منه والثلاثين . وكل من هذه الأقلام فيه ثقل وهو ما كان
 الى الشَّع أميل ، وخفيف ، وهو ما كان الى الدقة أقرب . اذا تقَرَّر ذلك فطول
 الأليف في كل قلم معتبر بأن تضرب نسبة عرضه في مثله ، يجعل طولاً نظير ذلك ،
 ففى قلم الطومار يضرب مقدار عرضه وهو أربع وعشرون شعرة في مثلها نحسب
 وستا وسبعين شعرة وهو طولها ، وفي قلم الثلث تضرب نسبة عرضه من الطومار
 وهو ثمان شعرات في مثلها بأربع وستين ، فيكون طولها أربعاً وستين شعرة
 وكذلك الجميع فأعلمه .

وأما عدد أقلام الدواة فمقد قال الوزير أبو علي بن مقلة : ينبغي أن تكون
 أقلامه على عدد ما يؤثره من الخطوط ، وكأنه يريد أن يكون في دواته قلم مبرى
 للقلم الذى هو بصدد أن يحتاج الى كتابته ليجده منهيًا ، فلا يتأخر لأجل برايته .

الآلة الثانية — المقلمة : وهى المكان الذى يوضع فيه الأقلام ، سواء كان من
 نفس الدواة أو أجنبيا عنها ، وقد لاتعد من الآلات لكونها من جملة أجزاء الدواة غالبا .

الآلة الثالثة — المديّة ، والنظر فيها من وجهين :

الوجه الأول

فى معناها واشتقاقها

قال الجاحظ : يقال بضم الميم وفتحها وكسرهما وتجمع على مديّ : وهى السكين .
 وقد ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله
 صلى الله عليه وسلم يقول : " كانت امرأتان معهما ابناهما بجاء الذهب فذهب

بابن إحداهما، فقالت لصاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك.
فتحاكبا إلى داود فتضى به للكبرى، نخرجنا إلى سليمان بن داود فأخبرناه، فقال:
اتنوني بالسكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل رحمك الله هو ابنها، فتضى به
للصغرى، قال أبو هريرة: إن سمعت بالسكين إلا يومئذ، ما كنا نقول إلا المدية.

ثم الأصل في السكين التذكير، قال أبو ذؤيب:

يُرَى ناصِحًا لِي مَا بَدَأَ إِذَا خَلَا * فَذَلِكَ سِكِّينٌ عَلَى الْحَلْقِ حَازِقٌ

قال الكسائي: ومن أنت أراد المدية وأنشد:

فَعَيْتُ فِي السَّامِ غَدَاةً قَرًّا * بِسِكِّينٍ مَوْثِقَةٍ النَّصَابِ

ويقال سكينه بالطاء، وهو قليل، روى حديث المبعث "أبى لما شق الملك بطنه
على الله عليه وسلم قال: اتنن بالسكينة" وتجمع على سكاكين. سميت مدية أخذا
من مدي الأجل وهو آخره، لأنها تأتي بالأجل في القتل على آخره. وسميت سكيناً
لأنها تسكن حركة الحيوان بالموت. ونصاب السكين أصلها، ونصاب كل شيء أصله
قال الشاعر:

وَإِنْ نَصَابِي إِذْ سَأَلْتِ وَأَمَرْتِي * مِنْ النَّاسِ حَتَّى يَمْتَسِدُوا الْمَرْمِيَّ

أى وإن أصلى. ويقال أنصبت السكين إذا جعلت لها نصاباً، كما يقال أقبضتها
جعلت لها مقبضاً، وأقربتها إذا جعلت لها قراباً، وأغلقتها إذا جعلت لها غلافاً،
والحديدة الزاهية في النصاب سبلان، ويقال أهدت السكين فانا أهدته إحداداً
وهدت السكين نفسه صار حاداً، وأحده فهو مجهد، وسكين حاد، فإذا أمرت من
أحده قلت: أحده، ومن حاده قلت: حده.

(١) في اللسان والسحاح يرى ناصحاً فيما بدا. (٢) أى أمرى السام بالسكين أنظر اللسان.

(٣) أى أهدت السكين نفسه صار حاداً.

(٤) أى وحددها أيضاً كما يستعمل من نهاية عبارة.

الوجه الثاني

في صفتها

قال بعض الكُتَّابِ : هي مِسْنُ الأَقْلَامِ ، تستحِدُّ بها إذا كَلَّتْ ، وتطابق بها إذا وقفت وتلُّها إذا تسعتت . فتجب المبالغة في سقيها وإحداها ليمكن من البرى ، فيصفو جوهر القلم ، ولا تاشطى قَطُّه . وينبغي ألا يستعملها في غير البراية لثلاث تكل وتفسد . قال الصولى : وأحدُّ سكينك ولا تستعملها لغير ذلك . قال الوزير أبو علي بن مقلة رحمه الله : واستحِدُّ السكين حدا ، ولتكن ماضية جدا ، فإنها إذا كانت كالة جاء الخط رديئا مضطربا . وقال الشيخ عماد الدين بن العفيف : فساد البراية من بلاد السكين . قال محمد بن عمر المدائني : ينبغي أن تكون لطيفة القلم ، معتدلة الحد . فقد كره المبالغة في سقيها ، لتمكن البارى من بريها . ولا عيب في حملها في الكم والخف ، فقد روى المدائني عن الأعمش عن إبراهيم أنه قال : اتخذ الرجل السكين في خفيه من المروعة . قالوا : وأحسنها ما عرض صدره ، وأرهف حده ، ولم يفضل عن القبضة نصائبه ، واستوى من غير اعوجاج . قال الشيخ عماد الدين بن العفيف : ورأيت والدى وجماعة من الكُتَّابِ يستحسنون العنابية وهي التي صدرها أعرض من أسفلها . ووصف بعضهم سكيناً ، فقال : وسكين عتيقة الحديد . وثيقة الشعيرة ، حكمة النصاب . جامعة الأسباب . آخذة من البين ، وأحسن من اجتناب حبيبين ، وأفضل من الحساء . في برى الأقسام . والله الغائل في وصفها :

أنا إن شئت عدة لعدو * حين يُحشى على النفوس الحمام

أما في السلم خادم لدواة * وبجهدى تقوم الأقسام

الآلة الرابعة - المنقط (بكسر الميم) كما ضبطه الجوهري في الصحاح إلا أنه قال فيه : مَقَطَّةٌ بالتأنيث .

قال الصولي : ينبغي أن يكون المنقط صُلْبًا فتمضي القطة مستوية لأمشيطية . قال الوزير أبو علي بن مقالة رحمه الله : إذا قططت فلا تُقَطُّ إلا على مِقَطٍّ أو لَسِّ صُلْبٍ غير مُنَمَّمٍ ولا خَشِينٍ لئلا يَنْشَطِي القلم : وقال الشيخ عماد الدين بن العفيف : ويتعين أن يكون من عود صُلْبٍ كالآبُنُوسِ والعاج ، ويكون مسطَّحَ الوجه الذي يُقَطُّ عليه ، ولا يكون مستديرًا لأنه إذا كان مستديرًا تشطى القلم ، وربما تهبت القطة فتأني الإدراة والتشعيرات غير جيدة . قلت : وينبغي ألا يكون مع ذلك مانعًا كالحديد والنحاس ونحوه فإن ذلك يفسد السكين . ولا تجيء القطة سالحة .

الآلة الخامسة - المحبرة ، وهي المقصود من الدواة ، وتشتمل على ثلاثة أصناف :

الصنف الأول - الجؤنة ، وهي الظرف الذي فيه اللبقة والحبر .

قال بعض فضلاء الكتاب : وينبغي أن تكون شكلًا مدور الرأس يجتمع على زاويتين قائمتين ، يوقدهما خط ، ولا يكون مربعًا على حال لأنه إذا كان مربعًا يتكاثف المداد ، في زواياه يفسد المداد ، فإذا كان مستديرًا كان أبقى للمداد ، وأسعد في الاستمداد .

"صنف الثاني - اللبقة ، وتسميها العرب الكُرُفَّ تسمية لها باسم القطن الذي تتخذ منه في بعض الأحوال كما سيأتي ، والنظر فيها من وجهين -

الوجه الأول

في اشتقاقها

يقال أَلْتُ الدواة وَلِقْتُها ، أَخذاً من قولهم : فلان لا تُلِيقُ كُفَّهُ درهماً أى لا تُحْبِسُهُ ولا تُمَسِّكُهُ ، وأنشد الكسائي :

كَفَّاكَ كُفٌّ ما تُلِيقُ دِرْهَمًا * جُوداً وَكُفٌّ تُعْطِ بِالسيفِ الدِّمًا

بصفه بالجود ، أى كَفَّاكَ ما تُمَسِّكُ درهماً ، ويقال : ما لاقَتِ المرأةُ عند زوجها أى ما عَلَقَتْ . قال المبرد : دخل الأَصْمَعِيُّ على الرشيد بعد غيبة غامها . فقال له : كيف حالك يا أصمعي ؟ فقال : ما أَلَقْتَنِي نَحْوَكِ أَرْضُ يا أمير المؤمنين ، فأمسك الرشيدُ عنه ، فلما تفرق أهل المجلس قال له : ما معنى أَلَقْتَنِي ؟ قال : ما حَبَسْتَنِي ، فقال : لا تَكَلِّمْنِي في مجلس العامة بما لا أعلم . قال الجاحظ : ولا تستحق اسم الأبيقة حتى تُتَلَقَ في الدواة بالنَّقْسِ وهو المِداد .

الوجه الثاني

فيما تتخذ منه وتتعاهد به

قال بعض الكُتَّاب : تكون من الحرير والصوف والقطن ، ويقال فيه الكُرسُفُ ، والبُرْسُ ، والطُوطُ ، والعُطْبُ ، والأولى أن تكون من الحرير الحِشْنِ : لأن انتفاستها في الحبرة وعدم تلبُّدها أعونُ على الكتابة . قال بعض الكُتَّاب : ويتعين على الكاتب أن يتفقد اللبنة ويطيِّبها بأجود ما يكون ، فإنها تُرَوِّحُ على طول الزمن ، والله التَّامِلُ :

مَنْظَرٌ شَهِدَتْ عَلَيْهِ دَوَاتُهُ * أن الفتي لا كان غيرَ ظَرِيفِ

إن التفقدَ للدواة فضيلة * موصوفةً للكاتب الموصوفِ

وكان بعض الكُتَّاب يطيب دواته بأطيب ما عنده من طيب نفسه ، فسئل
عن ذلك فقال : لأني أكتبُ به اسمَ الله تعالى واسمَ رسوله صلى الله عليه وسلم واسم
أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، وورثا سبق القلم بغير إرادتنا فنلحسه بالسنتنا ونحوه
بأكاما .

قال النسيخ علاء الدين السمرى : ويتعين على الكاتب تحديد الليفة في كل
شهر ، وأنه حين فراغه من الكتابة يُطبقِ المحبرة لأجل ما يقع فيها من التراب ونحوه ،
فيفسد الخط . ونظم ذلك في أرجوزته فقال :

وَجَدِّدِ اللَّيْفَةَ كُلَّ شَهْرٍ ، فَشَيْخُنَا كَانَ يَهْدَا بُعْرِي
لَأَجْلِ مَا يَقَعُ فِيهَا مِنْ قَدَى ، فَيَنْتَشِي مِنْ ذَلِكَ فِي الْخَطِّ أذى

وينبغي له مع ذلك أن يصونها عن الأشياء القادرة كالبصاق ونحوه ، فقد حكى
محمد بن عمر المدائني أن بعض العلماء رأى صبياً يبصق في دواته فزجره ، وقال لعلمه :
امنع السببان عن مثل هذا ، فإنما يكتبون به كلام الله . قال محمد بن عمر المدائني :
كأنه تخرج أن يكتب القرآن بمسداد غير نظيف . قال المدائني : وكان ابن عمر
ابن عباس أنه أجاز أن يبصق الرجل في دواته ، فسألت أحمد بن عمرو البرار عن
ذلك فأنكره ، وقال : هذا حديث كذب ، وضعه عاصم بن سليمان الكوزن ، وكان
كذاباً ذكركه لأبي داود الطيالسي فقال : هو كذاب يجب أن تعرفوا كذبه ، فسئوا
له مسألة حتى يحدثكم بحديث ، فقال : بحثت أنا وعمر بن موسى الحارثي في جماعة ،
فقال له عمر : ما تقول في الرجل يبرق في الدواة ويستمد منها ؟ وكان قد ذهب
بصره ، فقال : حدثنا عبد الله بن نافع عن ابن عمر أنه كان يبرق في الدواة ويستمده
منها ، ثم قال : وحدثنا شمام بن حسان عن عكرمة عن ابن عباس مثل ذلك ،

قال : فهمز بعض أصحابنا وقال : كان ابن عباس لا يبصر ، قال : ففهم ، فقال :
نعم . كان ابن عباس لا يرى بذلك بأسا .

الصنف الثالث — المداد والخبر وما ضاهاهما . والنظر فيه من أربعة أوجه :

الوجه الأول

في تسميتهما واشتقاقهما

أما المداد فسمى بذلك لأنه يمدّ القلم أى يمينه . وكل شيء مددت به شيئا

فهو مداد ، قال الأخطل :

رَأَتْ بَارِقَاتٍ بِالْأَكْفِ كَأَنَّهَا مَصَابِيحٌ سُرِجٌ أَوْ قِشَابٌ بِمَدَادٍ

سمى الزيت مدادا لأن السراج يمدُّ به . فكل شيء أمددت به اللقمة مما يكتب

به فهو مداد ، وقال ابن قتيبة في قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كُنَّا الرَّجْمُ مَدَادًا لَكَلَّمَتِ رَبِّي نَارًا ﴾

هو من المداد لأن الإمداد . ويقال : أمدت القلم في الخير مثل ﴿ وَأَمَدَدْنَا لَهُمُ بِمَا كَانُوا يَٰسْتَعْجِلُونَ ﴾

ولحمٍ ومده في الشر ، مثل ﴿ وَنَعُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴾ . ويقال فيه أمدت نفس

ونفس ، بكسر النون وفتحها مع إسكان القاف ومع السين المهملة فيهما ، والكسر

أنصح . ويجمع على أنقاس .

وأما الخبر ، فأصله اللون ، يقال فلان ناصع الخبر يراد به اللون الخالص الصافي

من كل شيء ، قال ابن أحمد يذكر امرأة :

تَبِيَهُ بِفَاحِمٍ جَمِيدٍ وَأَبْيَضَ نَاصِعِ الْخَبْرِ

يريد سواد شعدها ، وبياض لونها ، وفي الخبر يخرج من النار رجل قد ذهب

خبره وسبده ، بكسر الحاء المهملة والسين فيهما . قال ابن الأعرابي : خبره : حسنه ،

(١) في اللسان رأوا برا والجماعة .

وسببه هيئته ، وقال المبرد : قال التوزي : سألت الفراء عن المداد لم سمي حبرا؟ فقال :
يقال للمعلم حبرٌ وحبرٌ يعني بفتح الحاء وكسرها ، فأرادوا مداد حبر أي مداد عالم ،
فحذفوا مداد وجعلوا مكانه حبرا . قال : فذكرت ذلك للاصمعي فقال : ليس
هذا بشيء إنما هو لتأثيره . يقال : على أسنانه حبر إذا كثرت صفرتها حتى صارت
تضرب الى السواد ، والحبر : الأثريبي في الجلد ، وأنشد :

لقد أشمتت بي آل فيدٍ وغادرت ... يجليدي حبرا بنت مصان آداباً

أراد بالحبر الأثر ، يعني أثر الكتابة في القرطاس ، قال المبرد : وأنا أحسب أنه سمي
بذلك لأن الكتاب يحبر به أي يحسن ، أخذاً من قولهم : حبرت الشيء تحبيراً إذا حسنته .

الوجه الثاني

في شرف المداد والحبر ، واختيار السواد لذلك

في الخبر "يؤتى بمداد طالب العلم ودم الشهيد يوم القيامة ، فيوضع أحدهما
في كفة الميزان والآخر في الكفة الأخرى فلا يرجح أحدهما على الآخر" قال بعض
الحكماء : صورة المداد في الأبصار سوداء ، وفي البصائر بيضاء . وقد قيل : كواكب
الحكم في ظلم المداد . ونظر جعفر بن محمد الى قتي على ثيابه أثر المداد ، وهو يستر
منه ، فقال له : يا هذا ، إن المداد من المروء . وأنشد أبو زيد :

إذا ما المسك طيب ريح قوم « كفتني ذاك رائحة المداد

وما شيء بأحسن من ثياب « على حافاتها حمم السواد

وقال بعض الأدباء : عطروا دفاتر الآداب بسواد الحبر . وكان في حجر إبراهيم
ابن العباس قرطاس يمشق فيه كلاماً فأسقط ، فمسحه بكمه ، فقيل له : لو مسحته غيره؟
فقال : المسال فرع والقلم أصل ، والأصل أحق بالصون من الفرع . وأنشد في ذلك :

إِنَّمَا الزُّعْفَرَانُ عَطْرُ الْعَدَارَى * وَمَدَادُ الدُّوَى عَطْرُ الرَّجَالِ

وأنشد غيره .

مَنْ كَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ مَسَّ عَارِضَهُ * مِسْكٌ بَطِيبٌ مِنْهُ الرِّيحُ وَالنِّسَامُ

فَإِنْ مِسْكِي مِدَادٌ فَوْقَ أُنْمَلِي * إِذَا الْأَصَابِعُ يَوْمًا مَسَّتِ الْقَلَمَا

على أن بعضهم قد أنكر ذلك ، وقال : المداد في ثوب الكاتب سخافة ، ودناءة منه

وقلة نظافة . قال أبو العالية : تعلمت القرآن والكتابة ، وما شعرتني أهلى ، وما روى

في ثوبي مداداً قط . وأنشدوا :

دَحِيلٌ فِي الْكِتَابَةِ يَدَّعِيهَا * كَدَعَوَى آلِ حَرْبٍ فِي زِيَادِ

يُسَبِّهُ ثُوبَهُ لِلْحَوِّ فِيهِ * إِذَا أَبْصَرْتَهُ ثُوبَ الْحِدَادِ

فَدَعَّ عَنْكَ الْكِتَابَةَ لَسْتَ مِنْهَا * وَلَوْ أَنْطَخْتَ وَجْهَكَ بِالْمِدَادِ

وقال فارس بن حاتم : يريق الخبر تهتدي العقول لخبائبا الحكم ، لأنه أبقى على

الدهر ، وأنى للذكر ، وأزيد للأجر .

وأعلم أن المداد ركن من أركان الكتابة ، وعليه مدار الربع منها وأنشدوا في ذلك :

رُبْعُ الْكِتَابَةِ فِي سَوَادِ مِدَادِهَا * وَالرُّبْعُ حُسْنُ صِنَاعَةِ الْكُتَّابِ

وَالرُّبْعُ مِنْ قَلَمٍ تُسَوَّى بِرِيهِ * وَعَلَى الْكَوَائِدِ رَابِعُ الْأَسْبَابِ

قال بعض العلماء رحمهم الله : وإنما أختير فيه السواد دون غيره لمضادته لون

الصحيفة . قال : وليس شيء من الألوان يضاد صاحبه كمضادة السواد للبياض .

قال الشاعر :

فَالْوَجْهُ مِثْلُ الصَّبْحِ مَبْيُضٌ * وَالْفَرَسُ مِثْلُ اللَّيْلِ مُسْوَدٌ

ضِدَّانِ لِمَا اسْتَجْمَعَا حُسْنًا * وَالضُّدُّ يَظْهَرُ حُسْنَهُ الضُّدُّ

ويقال في المداد : أسود قاتم ، وهو أول درجة السواد ، وحالك وحائب ،
وحلكوك ، وحلبوب ، وداج ، ودجوجي ، وديجور ، وأدهم ، ومدهام .

قال المدائني : حدثني بذلك محمد بن نصر عن أحمد بن الضحاك عن أبي عبيدة .

كتب جعفر بن حذار بن محمد إلى دعلج بن محمد يستهديه مدادا :

يا أخی للسوداد لا للداد * وصديقي من بين هذا العباد
والذي فيه ألف مجد طريف * قد أمدت بألف مجد تبار
أنا أشكو إليك حال دواني * أصبحت تقتضي قميص حداد

ولله منصور بن إسماعيل حيث يقول :

وسوداء مقلتها مثلها * وأجفائها من بلين صقيل
إذا اذرفت عبرة خلتها * كغالية فوق حد أسيل

الوجه الثالث

في صنعتها ، وفيه نظران :

النظر الأول — في مادتهما .

واعلم أن المواد لذلك منها ما يستعمل بأصله ولا يحتاج فيه إلى كبير علاج وتدبير

كالعص ، والزاج ، والصمغ ، وما أشبهها . ومنها ما يحتاج إلى علاج وتدبير ، وهو

الدخان . قال أبو التماسم خلوف بن شعبة الكاتب : ويتوحي في الدخان أن يكون

من شيء له دهنية ، ولا يكون من دخان شيء يابس في الأصل لأن دخان كل شيء

مثله وراجع إليه .

قال أحمد بن يوسف الكاتب : كان يأتينا رجل في أيام نحمارويه بمداد لم أر أنعم

منه ، ولا أشد سوادا منه . فسألته من أي شيء استخرجته ؟ فكتم ذلك عني ، ثم

تلطفت به بعد ذلك، فقال لى : من دهن بزر الفُجُل والكَّان، أضع دُهْن ذلك
 فى مَسَارِح وأوقدها، ثم أجعل عليها طاسا حتى اذا نَفِد الدهن، رفعتُ الطاس،
 وجمعت ما فيها بماء الآس والصمغ العربى . وإنما جمعه بماء الآس ليكون
 سواده مائلا الى الخُضرة، والصمغ يجمعه ويمتنعه من التطاير .

قال صاحب الحلية : وإن شئت أخذت من دخان مَقَالى الحَمِص وشبهه . وتلقى
 عليه ماء ، وتأخذ ما يعلو فوقه وتجمعه بماء الآس ، والعسل والكافور والصمغ
 العربى والملح ، وتمده وتقطعه شرايرة، والدخان الأقل أجود والله أعلم .

النظر الثانى - فى صنعتهماب وفيه مسلكان :

المسلك الأول

فى صنعة المداد، وبه كانت كتابة الأولين من اهل الصنعة وغيرهم

قال الوزير أبو على بن مُقَلَّة رحمه الله : وأجود المداد ما اتَّخِذ من سُخَام النَّبْط،
 وذلك أن يؤخذ منه ثلاثة أرطال، فيجاد نخله وتصفيته، ثم يلقى فى طنجير، ويصب
 عليه من لطاء ثلاثة أمثاله، ومن العسل رطل واحد، ومن الملح خمسة عشر
 درهما، ومن الصمغ المسحوق خمسة عشر درهما، ومن العفص عشرة دراهم،
 ولا يزال يساط على نار لينة حتى يشخن جزؤه ويصير فى هيئة الطين، ثم يترك فى إناء
 ويرفع الى وقت الحاجة . وما ذكره فيه إشارة الى أنه لا ينحصر فى سُخَام النَّبْط، بل
 يكون من دُخان غيره أيضا كما تقدم . نعم ذكر صاحب الحلية أنه يحتاج مع ذلك
 الى الكافور لتطيب رائحته، والصبر ليمنع من وقوع الذباب عليه . وقيل : ان
 الكافور يقوم مقام الملح فى غير الطيب .

المسلك الثاني

في صنعة الحبر، وهو صنفان

الصنف الأول — ما يناسب الكاغد أي الورق : وهو حبر الدخان ، ونحن نذكر منه صفات إن شاء الله تعالى .

”صنعة“ يؤخذ من العفص الشامي قدر رطل يدق جريشا وينقع في ستة أرطال ماء مع قليل من الآس : (وهو المرسين) أسبوعا، ثم يغلى على النار حتى يصير على النصف أو الثلث، ثم يصفى من مئزر ويترك ثلاثة أيام، ثم يصفى ثانيا، ثم يضاف لكل رطل من هذا الماء أوبه من الصمغ العربي، ومن الزاج القبرسي كذلك، ثم يضاف إليه من الدخان المتقدم ذكره ما يكفيه من الحلاكة . ولا بد له مع ذلك من الصبر والعسل ليمتنع بالصبر وقوع الذباب فيه، ويحفظ بالعسل على طول الزمن، ويجعل من الدخان لكل رطل من الحبر بعد أن تسحق الدخان بكوة كفك بالسكر النبات والزعفران الشعر والزنجار الى أن تجيد سحقه، ولا تصحنه في صلابة ولا هاون يفسد عليك .

الصنف الثاني — ما يناسب الرق، ويسمى الحبر الرأس، ولا دخان فيه، ولذلك يحى بصا صا براقا، وبه إضرار للبصر في النظر إليه من جهة بريقه، ويفسد الكاغد على طول، ونحن نذكر منه .

”صنعة حبر“ وهي : يؤخذ من العفص الشامي رطل واحد فيجرحش، ويلقى عليه من الماء العذب ثلاثة أرطال، ويجعل في طنجير، ويوضع على النار ويوقد تحته بنار آينة حتى ينضج، وعلامة نضجه أن تكتب به فتكون الكتابة حمراء بصاصة،

(١) بيض بالأصل . وفي الضوء : تلك أرفية بعد الخ

تم يلقى عليه من الصمغ العربي ثلاث أواق ، ومن الزجاج أوقية ثم يصفى ويودع في إناء جديد ، ويستعمل عند الحاجة

”صفة جبر سَفَرِي“ يعمل على البارد من غير نار ، يؤخذ العفص فيجرش جرشا جيدا ويسحق لكل أوقية عَفِصِ درهم واحد من الزجاج ، ودرهم من الصمغ العربي ، ويلقى عليه ويرفع الى وقت الحاجة . فاذا احتاج اليه صُبَّ عليه من الماء قدر الكفاية واستعمله .

الوجه الرابع

في آيق الافتتاحات

وهي ما يكتب به فواتح الكلام : من الأبواب ، والفصول والابتداءات ونحوها ، ولا مدخل لشي من ذلك في فن الإنشاء والديونة ، إلا الذهب فإنه يكتب به في الطغراوات في كتب القانات ، وفي الأسماء الجليلة منها ، كما سيأتي في موضعه من المكاتبات من فن الإنشاء إن شاء الله تعالى ، وبقى ذلك إنما يحتاج اليه كُتَّاب النسخ إلا أنه لا بأس بالعلم به فإنما كمال الكاتب

ونحن نذكر منه ما الغالب استعماله وهو أصناف :

الصنف الأول - الذهب ، وطريق الكتابة به أن يُجَلَّ ورق الذهب ، ووصفة حاله أن يؤخذ ورق الذهب الذي يستعمل في الطلاء ونحوه ، فيجعل مع شراب الليمون الصافي النقي ، ويقتل فيه في إناء صيني أو نحوه حتى يضمحل جرمه فيه ، ثم يصب عليه الماء الصافي النقي ويفسل من جوانب الإناء حتى يمتزج الماء والشراب ، ويترك ساعة حتى يرسب الذهب ، ثم يصفى الماء عنه ويؤخذ ما رسب في الإناء ، فيجعل في منتلة زجاج ضيقة الأسفل ، ويجعل معه قليل من اللبقة ، والنزر اليسير

من الزعفران بحيث لا يُخْرِجُه عن لون الذهب ، وقليلٌ من ماء الصمغ المحلول ، ويكتب به . فاذا جفَّ صتل بمصقلة من جَزَعٍ حتى يأخذ حذته ، ثم يَزَمَكُ بالخبر من جوانب الحرف .

الصنف الثاني - الألازوردُ ، وأنواعه كثيرة ، وأجودها المعدنيُّ ، وباقى ذلك مصنوع لا يناسب الكتابة ، وإنما يستعمل في الدهانات ونحوها ، وطريق الكتابة به أن يذاب بالماء ، ويلقى عليه قليل من ماء الصمغ العربي ، ويعمل في دواء كدواء الذهب المتقدم ذكرها ، وكما رَسَبَ حُرُكٌ بالقلم . ولا يكثر به الصمغ كي لا يَسْوَدَ ويفسد .

الصنف الثالث - الزنجفر^{شبهه} ، وأجوده المغربي ، وطريق الكتابة به أن يسحق بالماء حتى ينعم ، وإن سحق بماء الرمان الحامض فهو أحسن ، ثم يضاف عليه ماء الصمغ ، ثم يُلَاقَى بليقة كما يُلَاقَى الخبر ، ويجعل في دواء ويكتب به .

الصنف الرابع - المَفْرَةُ العِراقِيَّةُ ، وهي مما يكتب به في نفائس الكتب ، وربما كتب بها عن الملوك في بعض الأحيان . وطريقه في الكتابة كما في الزنجفر^{شبهه} ، والله أعلم .

الآلة السادسة - المَلَوَّاقُ (بكسر الميم) وهو ما تلاقى به الدواة أي تحرك به الدقة . قال بعض الكتاب : وأحسن ما يكون من الأبنوس لثلا يغيره لونُ المداد . قال : ويكون مستديرا مخروطا ، عريض الرأس ثخينه .

الآلة السابعة - المِرْمَاةُ ، واسمها القديم المِترَبَةُ ، جعلاً لها آلة للتراب ، إذ كان هو الذي يُتَرَبُ به الكتب .

وتشتمل على شيئين :

الأول — الظرف الذى يُجعل فيه الرملُ ، وهو المسمى بذلك ، ويكون من جنس الدّواة إن كانت الدّواة نُحاسًا ، أو من النحاس ونحوه إن كانت خشبًا على حسب ما يختاره ربّ الدّواة . ومحلها من الدّواة ما يلي الكاتب مما بين المحبرة وباطن الدّواة مما يقابل المنشأة الآتى ذكرها ، ويكون فى فمها شُبّاك يمنع من وصول الرمل الخشن الى باطنها . وربما أُتخذت مِرْملة أخرى أكبر من ذلك تكون فى باطن الدّواة لاحتمال أن تضيق تلك عن الكفاية لصغرِها ، وأرباب الرياسة من الوزراء والأمراء ونحوهم يتخذون مِرْملة كبيرة تتأرب حبة الرّاجح^(١) ، لها عنق فى أعلاها ، تكون فى الغالب من جنس الدّواة من نُحاس ونحوه ، وربما أُتخذت من خشب لُقضاة الحکم ونحوهم .

ومما ألفز فيها القاضى شهاب الدين ابن بنت الأعرى :

ظَرِيْفَةُ الشَّكْلِ وَالتَّمثالِ قَدْ صَدِمَتْ • تَحْكِي الرُّوسَ وَلكِنْ لَيْسَ تَحْتَسِمُ
كَأَنبًا مِنْ ذَوِي الألبابِ خائِثَةٌ • تَحْكِي الدَّمَاءَ عَلَى ما سَطَرَ القَلَمُ

وتسمى المتربة أيضا ، وفى ذلك يقول الوجيه المناوى :

يا مادِحًا أمرًا ولم يأتِهِ • ولم ينل منه ولا جربة
لا تغيط الكاتب فى حاله • فإنه المسكين ذر المتربة

الثانى — الرمل ، وقد اختار الكتابُ لذلك الرملَ الأحمر دون غيره ، لأنه يكثر فى الخط الأسود من البهجة ما لا يكسود غيره من أصناف الرمل عموماً ، ما كان دقيقاً ، وهو على أنواع :

النوع الأول — ما يؤتى به من الجبل الأحمر الملائيق لئيل المقطّم من الجهة الشرقية ، وهو أكثر الأنواع وأعظمها وجوداً بالديار المصرية .

(١) أى الجوز الهندى

النوع الثاني - يؤتى به من الواحات، وهو رمل متحجر شديد الحمرة، يتخذ منه الكتاب حجارة لطافاً تحت بالسكين ونحوها على الكتابة، وأكثر ما يستعملها كتاب الصعيد والنيوم وما والاشما .

النوع الثالث - يؤتى به من جزيرة بحر القلزم من نواحي الطور، وهو رمل دقيق أصغر اللون، قريب من الزعفران، وله بهجة على الخط إلا أنه عزيز الوجود .
النوع الرابع - رمل بين الحمرة والصفرة، به سُدُور بَصَاةٌ يَخَالُهَا النَّاطِرُ سُدُورَ الذهب، وهو عزيز الوجود جداً، وبه يرمل الملوك ومن شابههم .

الآلة الثامنة - المنشأة، وتشتمل على شيئين أيضاً .

الأول - الظرف، وحاله كحال المرملة في الهيئة والمحل من الدواة من جهة الفطاء إلا أنه لا شَبَاكَ في قِمْهِ ليتوصل الى اللصاق، وربما اتخذ بعض ظرفاء الكتاب مَنَشَاةً أُخْرَى غير التي في صدر الدواة من رَصَاصٍ على هيئة حُقِّ لطيف، ويجعلها في باطن الدواة كالمُرْمَلَةِ المتوسطة . فإن اللصاق قد يتغير بمكثه في النحاس، بخلاف الرصاص .

الثاني - اللصاق، وهو على نوعين : أحدهما الذَّنَا المتخذ من البر، وطريقه أن يطبخ على النار كما يطبخ للقماش، إلا أنه يكون أشد منه، ثم يجعل في المنشأة، وهو الذي يستعمله كتاب الإنشاء ولا يعولون على غيره لسرعة اللصاق به، وموافقة لونه للورق في نضاعة البياض، والثاني المتخذ من الكثيراء، وهو أن تبلى الكثيراء بالماء حتى تصير في قوام اللصاق، ثم تجعل في المنشأة . وكثيراً ما يستعمله كتاب الديونة، ودر سريع التغير الى الخضرة ولا يسرع اللصاق به . وينبغي أن يستعمل في اللصاق في جملة المأورد والكافور لتطيب رائحته .

الآلة التاسعة - المِنْفَذُ، وهي آلة تشبه المِخْرَزَ، تتخذ لحرم الورق، وينبغي أن يكون محل الحاجة منها متساويا في الدقة والغلظ، أعلاه وأسفله سواء، لئلا تختلف أثقاب الورق في الضيق والسعة، خلا أن يكون ذبابه دقيقا ليكون أسرع وأبلغ في المقصود، وحكمه في النصاب في الطول والغايط حكم المديّة، وقد سبق .
وأكثر من يحتاج الى هذه الآلة من الكُتّاب كُتّاب الدواوين، وربما احتاج اليها كاتب الإنشاء في بعض أحواله .

الآلة العاشرة - المِلْزَمَةُ، قال الجوهري: المِلْزَمُ بالكسر خشبتان تشدّ أوساطهما بحديدة تكون مع الصياقلة والأبارين، ولم يزد على ذلك . وهي آلة تتخذ من النحاس ونحوه، ذات دفتين يلتقيان على رأس الدرّج حال الكتابة ليمنع الدرّج من الرجوع على الكاتب، ويحبس بحبس على الدفتين .

الآلة الحادية عشرة - المِفْرَسَةُ، وهي آلة تتخذ من نحّاق كنان: بطانه وظهارة أو من صوف ونحوه، تُفْرَسُ تحت الأقلام وما في معناها مما يكون في بطن الدواة .

الآلة الثانية عشرة - المِمْسَحَةُ، وتسمى الدفتر أيضا، وهي آلة تتخذ من نحّاق متراكبة ذات وجهين ملونين من صوف أو حرير أو غير ذلك من نفيس القماش، يُمْسَحُ القلم بباطنها عند الفراغ من الكتابة لئلا يجف عليه الحبر فيفسد، والغالب في هذه الآلة أن تكون مدوّرة مخزومة من وسطها . وربما كانت مستطيلة، ويكون مقدارها على قدر سعة الدواة . وفيها يقول القاضي رحمه الله :

مِمْسَحَةٌ نَهَارُهَا * يُجِنُّ لَيْلَ الظُّلَمِ

كَأَنَّهَا مَذْخُلِقَت * مِنْ دَيْلِ كَمِّ القَلَمِ

وقال نور الدين علي بن سعيد المغربي فيها :

وَمِمْسِحَةٍ لَأَحْتُ كَأُفْقِي تَبَدَّدَتْ * بِهِ قِطْعُ الظَّامَاءِ وَالصَّبْحُ طَالِعُ
وَلَمَّا أَطَالَ اللَّيْلُ فِيهَا وَرُودَهُ * حَكَّتُهُ وَوَدَّتْ لِلصَّبَاحِ المَطَالِعِ

وقال المولى ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر :

وَمِمْسِحَةٍ تَنَاهَى الحُسْنَ فِيهَا * فَأَضْحَتْ فِي المَلَاَحَةِ لَا تُبَارَى
وَلَا تُنْكِرُ عَلَى القَلَمِ المُوَانِي * إِذَا فِي وَصْلِهَا خَلَعَ العِدَارَا

الآلة الثالثة عشرة — المسقاة، وهي آلة لطيفة تتخذ لصب الماء في المحبرة وتسمى الماسيردية أيضا: لأن الغالب أن يجعل في المحبرة عوض الماء ماورد لتطيب رائحتها، وأيضا فإن المياه المستخرجة كماء الورد والخلاف والريحان ونحو ذلك لا تحل الحبر ولا تفسده بخلاف الماء، وتكون هذه الآلة في الغالب من الخنزير الذي يخرج من البحر الملح، وربما كانت من نحاس ونحوه، والمعنى فيها ألا تخرج الحبر من مكانها، ولا ينصب من إناء واسع النجم كالكوز ونحوه، فربما زاد الصب على قدر الحاجة.

الآلة الرابعة عشرة — المسطرة، وهي آلة من خشب مستقيمة الخنبيين يسطر عليهما ويحتاج إلى تسطيره من الكتابة ومتعلقاتها، وأكثر من يحتاج إليها المذهب. والآلة الخامسة عشرة — المصقلة، وهي التي يُعْتَمَلُ بِهَا الذهب بعد الكتابة، وهي من آلات الدواة لا محالة.

الآلة السادسة عشرة — المهرق، (بضم الميم وفتح الراء) وهو القُرطاس الذي يكتب فيه، ويجمع على مهَارِق. قلت: وعد صاحبنا الشيخ زين الدين شعبان الآثاري منها المداد، وهو ظاهر، والمخيط، وفي عنده بعد.

الإله السابعة عشرة - المِسْنُ ، هو آلة تتخذ لإحداد السكين ، وهو نوعان : أ كَهَبُ اللّون ، ويسمى الرومى ، وأخضر ، وهو على نوعين : حجازى وقوصى ، والرومى أجودها ، والحجازى أجوده الأخضر .

الطرف الثالث - فيما يكتب فيه ، وهو أحد أركان الكتابة الأربعة كما سبقت الإشارة إليه في بعض الأبيات المتقدمة ، وفيه ثلاث جمل :

الجملة الأولى

فما نطق به القرآن الكريم من ذلك

وقد نطق القرآن بثلاثة أجناس من ذلك :

الأول اللوح . قال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ قرأ العامة بفتح اللام على أن المراد اللوح واحد الألواح ، سمي بذلك لأن المعاني تلوح بالكتابة فيه ، ثم اختلفوا ، فقرأ نافع برفع محفوظ على أنه نعت للقرآن بتقدير بل هو قرآن مجيد محفوظ في لوح ، وصفه بالحفظ لحفظه عن التغير والتبديل والتحويل . قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ، وقرأ الباقون بالجر على نعت اللوح . قال أبو عبيد : وهو الوجه ، لأن الآثار الواردة في اللوح المحفوظ تصدق ذلك ، وهو أم القرآن ، منه نُسخ القرآن الكريم والكتب المنزلة ، ومنه تنسخ الملائكة أعمال الخلق . قال ابن عباس : وهو لوح من درة بيضاء ، طوله ما بين السماء والأرض ، وعرضه ما بين المشرق والمغرب ، وحافته الدر والياقوت ، ودفناه ياقوتة حمراء ، وأصله في حجر ملك . وقال أنس : اللوح المحفوظ في جبهة إسرافيل عليه السلام ، وقال مقاتل : اللوح المحفوظ عن يمين العرش .

قال ابن عباس: وفي صدر اللوح مكتوب: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، دينه الإسلام. ومحمد عبده ورسوله. فمن آمن بالله وصدق بوعدده وآتبع رُسُلَهُ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ". وسُمِّيَ مَحْفُوظًا لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَفِظَهُ عَنِ الشَّيَاطِينِ، وَقِيلَ: حَفِظَهُ بِمَا ضَمَّنَهُ.

وقيل: اللوح صدر المؤمن.

وقرأ يحيى بن يعمر في لُوحٍ بضم اللام، وهو الهواء، يقال لما بين السماء والأرض اللُوح، والمعنى أنه شيء يلوح للملائكة فيقرءونه. وهو ذو نور وعلو وشرف، وقد ورد في القرآن بلفظ الجمع، قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ يريد ألواح التوراة. قال الكلبي: كانت من زبرجد خضراء. وقال سعيد بن جبير: من ياقوتة. وقال مجاهد: من زمرّد أخضر. وقال أبو العالية والربيع بن أنس: من برّد. وقال الحسن: خشب، وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الألواح التي أنزلت على موسى من سدير الجنة، وكان طول كل لوح منها اثني عشر ذراعاً". وقال وهب بن منبه: من صخرة صماء ألانها الله له فقطعها بيده، ثم قطعها بأصابعه.

والخلاف في عددها، فقيل: سبعة. رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس؛ وقيل: لوحان، رواه أبو صالح عن ابن عباس أيضاً، وجمعت على عادة العرب في إيقاع الجمع على التثنية كما في قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾، يريد داود وسليمان عليهما السلام واختاره الثراء. وقيل: عشرة. قاله ابن منبه، وقيل: تسعة. قاله مقاتل. وقال أنس: نزلت التوراة وهي سبعون وقر بعير.

الناب - الرق (بفتح الراء) قال تعالى: ﴿رَبُّ الطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنشُورٍ﴾ قال المبرد: هو ما يرقق من الجلود ليكتب فيه. قال المعاني بن أبي السيار: ومن

ثم استبعد حمله على اللوح المحفوظ، والمنشور المبسوط، واختلف في الكتاب المسطور فيه، فقيل: اللوح المحفوظ، وقيل: القرآن، وقيل: ما كتبه الله تعالى لموسى وهو يسمع صرير الأقلام.

الثالث - القرطاس والصحيفة، وهما بمعنى واحد وهو الكاغد.

أما القرطاس، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ قال ابن أبي السيار: القِرطاس كاغد يتخذ من بردى مصر، وكل كاغد قرطاس، قال: والجمهور على كسرهما، وضمها أبو زيد وعكرمة وطاحنة ويحيى بن يعمر، والذي حكاه الجوهرى عن أبي زيد يخالف ذلك، فإنه قال فيه: قِرطَس (بفتح القاف من غير ألف بعد الراء) والمراد بالكتاب في الآية الكريمة المكتوب لا نفس الصحيفة. قاله المعاني.

وأما الصحيفة، فإنها لم ترد إلا بلفظ الجمع. قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَنْبَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ وَفَّى﴾ وقال جل وعز: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ وتجمع أيضا على صحائف، وسمى المصحف مصحفًا لجمعه الصحف. قال الجوهرى: وسمى التصحيف تصحيفًا للخطأ في الصحيفة.

الجملة الثانية

فما كانت الأمم السالفة تكتب فيه في الزمن القديم

وقد كانت الأمم في ذلك متفاوتة، فكان أهل الصين يكتبون في ورق يصنعونه

من الحشيش والكلاب، وعنهم أخذ الناس صنعة الورق، وأهل الهند يكتبون

(١) يظهر أنه وقع هنا تخطيط من الناخ، وحاصل ما يوحد من كتب التفسير أنه اختلف في الرق فتبل.

الجلد، وقيل: اللوح المحفوظ، واختلف أيضا في الكتاب المسطور فيه فقيل: القرآن، وقيل: ما كتبه الخ فنبه.

في حرق الحرير الأبيض، والقرم يكتون في الجلود المدبوعة من جلود الحواميس
والقر والغنم والنوحوش، وكذلك كانوا يكتون في اللخاف (بالحاء المعجمة): وهي حجارة
بيض رقائق. وفي النحاس والحديد ونحوهما، وفي عُسب النخل (بالسين المهملة) وهي
الحرير الذي لا نخوص عليه. واحدها عَسِب، وفي عظم أكتاف الإبل والغنم.
وعلى هذا الأسلوب كانت العرب لعربهم منهم. واستمر ذلك إلى أن بعث النبي
صلى الله عليه وسلم ونزل القرآن والعرب على ذلك، فكانوا يكتون القرآن حين
ينزل ويقرؤه عليهم النبي صلى الله عليه وسلم في اللخاف والعُسب، فعن زيد بن
ثابت رضي الله عنه أنه قال عند جمعه القرآن: "بفعلت أتبع القرآن من العُسب
واللخاف". وفي حديث الزهري: "قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن
في العُسب" وربما كتب النبي صلى الله عليه وسلم بعض مكاتباته في الأدم كما سيأتي
في موضعه إن شاء الله تعالى.

وأجمع رأي الصحابة رضي الله عنهم على كتابة القرآن في الرق لطول بقائه،
أولاً لأنه الموجود عندهم حينئذ. وبقى الناس على ذلك إلى أن ولي الرشيد الخليفة
وقصد كثير الورق ونشأ عجمه بين الناس أمر ألا يكتب الناس إلا في الكاغذ،
لأن الجلود ونحوها تقبل المحو وإعادة فتقبل التزوير، بخلاف الورق فإنه متى حُي
منه فسد، وإن كُشط ظهر كُشطه. وانتشرت الكتابة في الورق إلى سائر الأقطار،
وتعاطاها من قُرب وبعد، واستمر الناس على ذلك إلى الآن.

الجملة الثالثة

في بيان أسماء الورق الواردة في اللغة ، ومعرفة أجناسه

الورق (بفتح الراء) اسم جنس يقع على القليل والكثير ، واحده ورقة ، وجمعه أوراق ، وجمع الورقة ورقات . وبه سمي الرجل الذي يكتب ورّاقا . وقد نطق القرآن الكريم بتسميته قِرطاساً وصحيفة كما مر بيانه . ويسمى أيضا الكاعد (بغين ودال مهملة) ويقال للصحيفة أيضا طرس ، ويجمع على طروس ، ومهْرَق (بضم الميم وإسكان الهاء وفتح الراء المهملة بعدها قاف) ، ويجمع على مهراق . وهو فارسي معرب ، قاله الجوهري . وأحسن الورق ما كان ناصع البياض غريفا صقيلا ، متناسب الأطراف ، صبورا على مرور الزمان . وأعلى أجناس الورق فيما رأيناه البغدادي وهو ورق ثخين مع ليونة ورقية حاشية وتناسب أجزاء ، وقطعه وافر جدا ، ولا يكتب فيه في الغالب إلا المصاحف الشريفة . وربما استعمله كتاب الإنشاء في مكاتبات القانات ونحوها كما سيأتي بيانه في المكاتبات السلطانية . ودونه في الرتبة الشامي ، وهو على نوعين : نوع يعرف بالحموي ، وهو دون القطع البغدادي ، ودونه في القدر وهو المعروف بالشامي ، وقطعه دون القطع الحموي ، ودونهما في الرتبة الورق المصري : وهو أيضا على قطعتين : القطع المنصوري ، وقطع العادة والمنصوري أكبر قطعا ، وقلما يصقل وجهاه جميعا . أما العادة التي في ما يصقل وجهاه ويسمى في عرف الورّاقين : المصلوح ، وثين عندهم على رتبتين : عال ووسط ، وفيه صنف يعرف بالشمري صغير النطع ، خشن غليظ خفيف الغروف ، والآخر نوع به في الكتابة يُتخذ للحموي والعطر ونحو ذلك . وإنما نبهت على ذلك وإن كان

واختلج الأمرين : أحدهما ، ألا نُحَلِّي كتابنا من بيان الورق الذي هو أحد أركان الكتابة ،
الثاني ، أنه قد ينتقل الكتاب إلى إقليم لا يعرف فيه تفاصيل أمر الورق المصرى
كما لا يعرف المصريون ورق غير مصر معرِفَتَهُمْ بورق مصر ، فيقع الاطلاع على
ذلك لمن أراده . ودون ذلك ورق أهل الغرب والفرنجية فهو رديء جداً ، سريع
البلى ، قليل المكث ، ولذلك يكتبون المعاصف ، الباقى فى الرِّق على العادة الأولى طلباً
لطول البقاء .

وسياتى الكلام على مقادير قطع الورق عند أهل التوقيع وأهل الديونة عند ذكر
ورق كل فن ، وما يناسبه من القطع إن شاء الله تعالى .

تم الجزء الثانى ، ويتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثالث ، وأوله

(الفصل الثانى من الباب الثانى من المقالة الأولى ،

فى الكلام على نفس الخط)

